الكتاب: تثبيت الفؤاد بذكر مجالس القطب عبدالله الحداد
جمع: الشيخ أحمد بن عبدالكريم الشجَّار الحساوي.

تحرير: السيد الإمام أحمد بن الحسن بن عبدالله الحداد
الطبعة الأولى لصالح مقام الإمام الحداد - تريم الحاوي
طبع بسنغافورة - ربيع الأول 1420هـ.
***

الجزء الثاني

ودخل عليه رضي الله عنه السيد زين العابدين بن مصطفى العيدروس ، وذلك يوم الثلاثاء سابع المحرم سنة 1131هـ فمما خاطبه به ، بعد أن ذكر العلماءَ وتصانيفهم ، فقال : نقلوا مسائل مقررة ، وإنما زادوا مسائل قريبة ، تَرْغيباً للناس في العلم ، فَسَهّلوا لما رأوا الناس مالوا عن هذه الشاكلة ، وراحوا إلى معاني بعيدة ، كمن رأى مقبلاً ففتح له الدار ، ثم قال له السيد زين العابدين : على رأيكم عسى غدوة بالأربعاء نسبّر( ) في المطالعة امتثالاً لأمركم ، فقال : إن شاء الله ، لأن مرادنا أن تكونوا على عادة سلفكم وأجدادكم ، من اعتياد القراءة والتَّصدي لها ، ولا تنقطع من بَيْتكم هذه العادة بالكلية ، وشغل الوقت بما هو الأحسن .

أقول : وقد كان سيدنا أمرني أن أطالع مع السيد زين المذكور ، في البخاري والإحياء ضحى يوم السبت ويوم الأربعاء في بيته فطالعنا مدة ، فلما حصل على سيدنا مرضه الذي في هذه السنة المذكورة تركنا المطالعة ، ثم لما خفَّ عنه استأذنه السيد زين في العود إليها ، والابتداء من يوم الأربعاء المذكور ، واستمرت بنا المطالعة إلى قرب وفاته رضي الله عنه .

ثم قال نفع الله به : وهذه الكلمات نعتاد نقولها في مجالسنا ، لا بد لنا أن نقولها وَذَكَرها ، مراده أن نقولها مع السيد زين عند الابتداء في كل مطالعة ، فلما خرج السيد زين قلت لسيدنا : عساكم تملونها عليّ أكتبها ، فقال نفع الله به : نحن نكتبها ونرسلها لك في وقت آخر ، ونحن متريضين ، فربما يحصل فيها غلط الآن ، حيث طال بنا المجلس ، فربما ليس هناك اجتماع خاطر ، ثم قال : يا حساوي الكلام كثير ،

والعمدة إلاَّ على صلاح القلب ، فلما كان عشية هذا اليوم ، كتبها وأرسلها إليّ بخط ابنه السيد زين ، وهي هذه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، نويت التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والمذاكرة والتذكير ، والإفادة والاستفادة ، والحث على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، والدعاء إلى الهدى ، والدلالة على الخير ، ابتغاء وجه الله ومرضاته وقربه وثوابه سبحانه وتعالى ، انتهى ما أملاه السيد الشريف عبدالله بن علوي الحداد باعلوي .

وذكر إنه يقوله عند أول ما يجلس لتعليمه العلم ، وقراءته عليه ، والله تعالى يستجيب ويتقبل من الجميع بفضله وكرمه ، وكان ذلك بتاريخ وقت العصر ، يوم الثلاثاء لسبع خلت من المحرم أول سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف ، انتهى بلفظه .

ذكر بداية قراءة الحبيب عبدالله

وذكر رضي الله عنه في هذا المجلس ، أعني مجلس السيد زين العابدين شيئاً من بدو أمره فقال : بعد أن ختمت القرآن ، قال لي والدي اقرأ في الفقه ، وعندنا نسخة صحيحة مليحة من الإرشاد تحفَّظ فيها ، وكان معي طَرَفٌ من عبارة ، ولكنها على قَدْرِها ، وكان سنِّي إذ ذاك دون خمس عشرة سنة ، وكنت أجالس السيد سهل الكبش ، وكان كثيراً ما أسمعه يذمّ الفقه وأهله ، وينكر على أناس من الفقهاء ويذمّهم حتى الشّيخ ابن حجر ، فقلت لوالدي : ما أريد القراءة في الفقه ، فإن رجلاً من السَّادة يذم الفقه وأهله ، فقال : الإنسان ما يستغني عن الفقه ، ولا عذر له منه ، فقلت : أريد القراءة في "البداية" فقال : مليح وعندنا أيضاً منها نسخة مليحة ، وعزمت على حفظها ، فحفَّظني الوالد حينئذ من أولها إلى قوله وها أنا مشير عليك ،

وكان الفقيه باجبير يقرّيء في النّويدرة( )، يقرأ عليه كثير من السادة وغيرهم ، فرُحت إلى عنده ، وحضرت مجلسه ، تَقدمةً للاستئذان في القراءة ، ومرادي أن أستأذنه في القراءة في مرة أخرى ، فأتيته في اليوم الثاني ، وقلت أريد أن أتحفظ في "البداية" وأقرأ عليك فيها ، فقال : إن حفظ البداية عسر ، وعندنا ناس يقرأون فيها ، فاستمع عليهم حين يقرأون ، وتَحفّظ في "الإرشاد" فوافقَتْ إشارته إشارة الوالد ، فقلت : الإرشاد حِفْظه عَسِر ، فكيف أتحفظه؟ فقال : نَحْنُ نخلِّي من يحفظك ، ويسمِّع عليك فيه ، فأجبت لذلك لموافقة إشارته إشارة الوالد ، فلقنني تلك الساعة من أول الإرشاد قوله : الحمد لله الذي لا تحصى مواهبه ، ولا تنفد عجائبه ، ولا تحصر له منن ، ولا تختص بزمن دون زمن ، فخرجت من عنده وقد حفظت ذلك ، فما زلت أستمع على الذين يقرأون في البداية ، وأتحفظ عنده في "الإرشاد" إلى أن وصلت إلى محرمات الإحرام ، ثم إن السيد أبا بكر بافقيه عزم إلى الهند ، وزيّن للفقيه باجبير المسير معه ، وأنه قائم له بكل ما يحتاج إليه ، فسافر معه وبقي معه

في الهند مدة قريبة ، ثم وقع بينهما منافرة ومناكرة ، فانتقل الفقيه من عنده إلى دقرور فوجد فيها السّيد عبدالله بن شيخ( )، وكان السيد ممن كان يقرأ عليه ، فبقي عنده مدة ، وقام بكفايته وجَبْره ، ثم إن الفقيه رَجَع إلى حضرموت ، فقرأ علينا الإحياء بعد أن رجع ، وهذا من عجيب الاتفاق ، أن كنا نقرأ عليه في الفقه فرجع يقرأ علينا .

وقال رضي الله عنه : حصل لنا من الفقيه باجبير( ) الإسناد في الفقه إلى ابن حجر على اثنين أبيه وأبي بكر بافقيه ، فأخذ عن أبيه عن بافقيه ، وهو أخذ الفقه عن ابن حجر ، قال : وكان ابن حجر يذكر مسائل من "الإحياء" فإذا ذكرها جاء بعبارة الإحياء كما هي حفظاً ، وكان يحفظ من "الإحياء".

وقال رضي الله عنه في حديث( ) : ((كُتِب على كل نفس نصيبها من الزنا ، مدرك ذلك لا محالة ، فالعين زناها النظر ... إلخ)) : يعني أن هذه الأعضاء المذكورات أبواب الفاحشة ، منها يتصل إلى القلب العزم عليها بِسَبب ما حصل من كل عضو بما يقتضيه ، ولكن تمام ذلك بفعل الفرج ، فبه تتم الفاحشة كلها ، ويأثم بها من كل الأعضاء المذكورة ، وهو معنى قوله : (يصدق ذلك الفرج أو يكذبه) أي يتم ذلك بفعله ، أو تبقى ناقصة بما عداه فقط.

وقال رضي الله عنه : المقام مقامان : مقام إسلام ، ومقام إيمان ، فإذا حققت مقام الإسلام ، صار هو طريقك إلى الإيمان ، ولا طريق إليه إلا منه ، ومن أراد الإيمان من غير طريق الإسلام ، بقي لا إسلام ولا إيمان .

ولما مَرّ في القراءة حديث جبريل( ) لما سأل عن الإسلام والإيمان والإحسان قال رضي الله عنه : الإسلام مجرد عمل فقط ، والإيمان مجرد علم وتصديق ، والإحسان مشترك بينهما ، والأول في الجوارح ، والثاني في القلب ، والثالث فيهما ،

والأول ظاهر الثاني ، والثاني باطنه ، والثالث خالصهما ، وهو الغاية من الإسلام والإيمان ، إذا اجتمعا صارا إحساناً ، وقوله : صَدَقْتَ يشعر بأن بينهما معرفة سابقة ، وفي قوله( ) : تشهد ، أي تعتقد عن اعتقاد في القلب ، ويقين في الباطن ، لا إيمان المنافقين ، وإيمانهم باطل ، وإيمان العوام ناقص ، وفي الحديث حث على طلب العلم ، وعلى تكرير المعلم على المتعلمين ، ليرسخ حفظهم ، وعلى تخصيص أكمل الحاضرين بالخطاب .

وذكر رضي الله عنه في حديث : ((إن للقبر رجة ، يسمعها كل شيء إلا الثقلين)) ، ثم قال : حكى لنا رجل وكان ثقة : إنه أتى بعض البلدان ، فرأى قوماً معهم جنازة ، فأتوا بها المصلّى ، وصلوا عليها ، قال : وصليت أنا معهم ، ثم حملوها إلى التربة ،

ومضيت معهم ، فلما وضعوها في القبر ، هربوا في الحال مسرعين ، فعجبت من سرعة مسيرهم وركضهم كأنهم خافوا من شيء ، فسألت رجلاً منهم عن سبب ذلك ، فقال : إنا في بلدنا هذه ساعةَ نضع الميت في القبر نسمع للقبر رجة شديدة ، فنهرب خوفاً منها حتى لا نسمعها .

وقال رضي الله عنه في حديث( ) :((يأتي زمانٌ القابضُ فيه على دينه كالقابض على الجمر)) :أي يعسر التمسك بالدين حينئذ، وأكثر ما يشتد على المتمسك بالدين والعلماء العاملين والصالحين.

وذكر رضي الله عنه : قوماً أساءوا الأدب مع النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، كالذي قال : إن هذه قسمة ما أريدَ بها وجه الله ، ثم قال : فمن أين عرفوا الله ، إلاَّ من نبيه عليه الصلاة والسلام ،

ومثل هذه الأشياء ، تَقْدح في دين قائلها ، ومَثَلُها مَثَلُ القائم على جريدة في النخل أو على حبل ، وهو يقطع فيه ، فيوشك أن ينقطع به فيهوي .

وقال رضي الله عنه في حديث( ) : ((شر الرعاء الحطمة))، أي الذي يحطم الناس بالجور ، ثم بعد تحطمه النار فالحطمة للحطمة .

وقال رضي الله عنه في قول بعضهم : (الإنقباض موجب للعداوة) إلخ ، أي الإنقباض في الأخلاق : بأن ينقبض مع الخلطة ، لا الإعتزال عن الناس .

وقال رضي الله عنه في قولهم : (عجباً ممن يحب نفسه على اليقين ، ويَكْره غيرَه على الظن) أي يقيناً من المعصية من نفسه ، وظناً منها من غيره.

وقال رضي الله عنه : العلم في هذا الزمان إنما هو للبركة ، ولكن بشرط أن لا يروا لأنفسهم ، وكانوا [أي الأولون] في غاية التواضع ، وأين اليوم العلم النافع في الدين.

وقال له رضي الله عنه بعض السادة : هل وقت الإشراق هو وقت الضحى ، أم له وقت وحده؟ ، فقال نفع الله به : من طلوع الشمس يقال له إشراق ، ولكن لا تحل الصَّلاة إلا بعد ارتفاعها قدر رمح ، ويبقى هذا وَقْتها إلى رمحين ، ثم يَخْرج وقت صلاة الإشراق ، وبين وقتها ووقت صلاة الضحى ، وقت يسمى رادّ ، واستشهد ببيت لامية العجم (والشمس راد الضحى) إلخ ، وهو قدر ساعة زمانية .

وقال رضي الله عنه : إنا لا نحبّ أن نحيّر الطالب ، بل نعطيه على قدره ، وترى أقواماً يطيلون على المبتدين ، ويحيرونهم حتى يملوا ، ونحن قد طَالعنا كثيراً وقرأنا كثيراً ، ونسينا كثيراً ، ولكنا لم تَجْر المذاكرة في مسألة ما إلا ذكرنا لها شاهداً من القرآن والسُّنة ، وإذا عرضت مسألة تَكَلَّمنا فيها ، ولا نراعي حال الحاضرين ،

(2/6)

وإنما نراعي الوقت والدماغ ، ونحب مع ذلك أن الحاضرين يُثْبتون بعض ما تكلمنا به ، أو قال بعض المذاكرة ، لأن لنا في ذلك شجناً ، وإلى الآن نحب الكتب والمطالعة فيها ، مع إنّا على ذلك من حين كان سِنُّنا نحو خمس عشرة سنة ، حتى إنه يعجبني بعض الكتب التي لم أقف عليها أو وقفت عليها ونَسيْتها.

وقال رضي الله عنه في الحديث( ) : ((يقول الله لأهل بدر : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم)) : أي إنهم ما بقي فيهم داعية المعاصي ، إنما عملهم كله صالح .

وقال رضي الله عنه في حديث( ) : ((إذا اشتبهت عليك طريقان ، فاسلك أيمنهما)) قال : هذا إذا كان كل منهما يسلك بك مقصداً واحداً ، فاشتبه عليك الأقرب منهما ، فأما إذا تحققت أن أيسرهما هو الطريق الأبعد أو الأقرب فاسلكه .

وقال رضي الله عنه : كلُّ ما صَرَف قلبك عن الله من علم أو غيره ، ووسوستَ به في نفسك ، فاتركه ، وإن كان من علوم الآخرة ، واختلاف العلوم كاختلاف الطرق ، فخذ منها ما تَحْتاج إليه ، مثل ما إذا كنت مسافراً ورأيت طرقاً كثيرة فلا تَسْلك الطرق كلها بل واحدة التي منها طريقك .

وقال رضي الله عنه : العالِم دون المكاشَف والنبي ، وهو يعرف طبقات الناس كلهم من العرش إلى تخوم الأرض ، ويُنَزّل كل واحد منزلته ، وما سمي العالم الكبير ربَّاني إلا لكونه يربي الناس بصغار( ) العلم .

وقال رضي الله عنه : في معنى حديث( ) : ((إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه)) ، أي ينفعه بنفي العُجُب ، بسبب شيء من الصغائر ، تصدر منه مرة واحدة ،

كرؤية غير مَحْرَم ، وأما الإصرار على المعاصي ، بأن يعملها ويَنْوي ذلك مهما تمكن ، فإنه يضر سيما الكبائر ، فقد قيل بتخليد من مات مصرّاً عليها ، وقوله مع الإصرار أستغفر الله وأتوب إليه بلسانه ، لا يَنْفعه لكنه خير من عدمه ، وإنما التوبة مع التَّنصل من الذنوب .

وقال نفع الله به في حديث( ): ((الدين النصيحة)) أي إنها داخلة في جميع أجزاء الدين.

وقال في حديث( ) : ((من غشنا فليس منا)) أي أظهر خلاف ما أبطن ، بِقصد الخدعة في سلعته .

وقال رضي الله عنه في الحديث الذي فيه ذِكْر أبواب الجنة الثمانية : هذه الأبواب الكبار التي تكون على حائطها ، حائط سورها يدخل منها إليها ، وإلا فلكل بيت باب ، والنَّار سبع طبقات ، إذا دخل من باب طبقة إلى أخرى ، ينزل حتى الهاوية ، والجنة إذا دخل من باب وأراد الآخر ارتفع ، وكل منزلة أعلا من منزلة ، ولأيّ شيء كانت أبواب النار سَبْعة ، قيل لأنَّ القلب يعد في أبواب الجنة دون النار ، والإنسان إنما

يرجو من فضل ربه ، وإلا فما له عمل صالح يرجوا الجزاء عليه ، أو كما قال .

وسئل رضي الله عنه عن قول : (سبحان الله وبحمده) التي يُهْدى منها ألف للأموات ، هل فيها لفظ العظيم؟، فقال نفع الله به : ليس فيها ، وإذا ورد في الحديث تسبيح ، كهذا أو استغفار كاستغفر الله في شيء من المواضع ، ولا فيها لفظ العظيم ، ثم إنه زيَّد فلا يعُكّر عليه ، لأن العظمة وَصْفُه تعالى .

(2/8)

وقال رضي الله عنه : وفي الدعاء الوارد في الحديث( ): ((اللهم إني أعوذ بك من التردي والهدم والحرق)) ، إن هذه الأشياء ، ولو كان فيها شهادة ، إلا إنها لا تأتي إلاَّ بغتة ، ويكون حِينئذ بِغَيْر استعداد ، وما جاء بغتة ، يُشْكل ويعسر ، وربما يقبض وهو غير راض وذلك مشكل .

وسئل رضي الله عنه عن الذي استعجل الموت ، فقتل نفسه ، المذكور في قصة خيبر ، هل هو مخلد أم لا؟، فقال : إنه كان مؤمناً ، فاستعجل الموت لضرورة ، ولعله مات على الإسلام ، والله أعلم بحاله ، وكونه يَدْخل النار ، فما كل من دخلها بمخَلَّد ، وقد كان السلف يَتْركون أحاديث الخوف على ظاهرها ولا يؤولونها ، وقد استعجل الموت وفعل مثل ذلك ناس كثير ، وتعرضوا لسبب موتهم ، ونعرف منهم جملة ناس ، منهم امرأة من الأشراف ، طلبت مُوْسَى فَأَعْطِيَتْه فذبحت به نفسها، وآخر كان يخدم الدولة ، ويؤذي الناس فاتفق أن غضبوا عليه الدولة ، وأشغلوه فقتل نفسه ، فقال السيد عمر بن أحمد وكان من المكاشفين : إنه أرسل إليه الفقيه المقدم من ذَبَحَه .

وقال رضي الله عنه في حديث : ((إذا لقيتم المصرِّين على المعاصي ، فَالْقَوهُم بوجوه مكفهرة)) ، والحديث في الجامع الصغير ، قال : أي المجاهرين بها و المتظاهرين بها بلا مبالاة ، ولا

يجاهر ويتظاهر بها إلا من لا خوف معه من الله ولا حياء ، فليبغضهم ويعاديهم ما لم يخش فتنة .

وقال رضي الله عنه لرجل من القرَّاء يغلط كثيراً ويَلْحَن : من راح عليه وَقْت التحصيل ولا حَصّل ، يعسر عليه التَّحصيل بَعْد ذلك ، ويروح وقته بلا شيء ، كمن ترك الفخطة [أي التأبير] في أوانها فأرادها بعد ذلك ، فلا تنفع بعد ،

(2/9)

ونحن ما تَكَلّمنا بهذا إلا بسبب رجل من الجهال ، قال فلان قرأ على مَنْ ، فنقل ذلك لنا عنه رجل ، وقال عنه قال رأيت في النوم أمراً أَتْعبني ، وهو أنه رأى أن أسداً أراد يأكل المتكلم الذي قال قرأ على مَنْ ، قال نفع الله به : وما نحن بصدد المنافسة ، وقد تكلم الإمام الغزالي على السلاطين والأمراء ، وحفظه الله منهم ، ولا كَلّم بذلك هؤلاء بعد ما تصوَّف ، فإنه ينبغي أن لا يُكَلَّموا ، وقلنا له : هو بواسع الحل .

وقال رضي الله عنه في حديث( ) : ((كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)) : أي من صدق وكذب ، ومن نافع وضار ، فينبغي إذا أراد كلاماً أن يَنْتَقِيه ، فلا يحدّثْ إلاَّ بما فيه نفع مؤمن ، أو دفع ضر عنه .

وقال رضي الله عنه : إذا أردت توقيف إنسان يدعي علماً ، فاسأله عن علمه المشهور به الذي يدعيه ، فإن غلط أو جازف ، فاعرف مقداره ، والحاصل : إنك لا تسأل الإنسان إلاَّ عن العلم الذي تفرّغ له ، وإلا فلا شك أن الفقيه يَغْلط في النحو وبالعكس ، ويَنْبغي أن يُحْكِمَ العلم الذي تفرغ له ، ويتطرف في بقية العلوم ، فالإمام الشافعي مثلاً عالم بالحديث ، ولكن ما نَزّلوه فيه ، كابن شهاب( ) ، ولا ابن شهاب في الفقه كالشَّافعي ، ولا هما في السِّير كابن إسحاق.

وقال رضي الله عنه : إذا رأيت الجاهل يحتج لجهله فاتركه ، ولا تجادله ، إلاَّ بفعل إن قدرت عليه ، كما

أنكر أقوام على الإمام الغزالي لما تصوَّف أرادوه يرجع إلى تَقْرير العلم الظَّاهر ، مع أن أكثر انتفاعهم فيها منه ، فتركهم وسكت عنهم.

وقال رضي الله عنه : كان النَّاس يطلبون الفضائل ليتحلوا بها ، واليوم تأمرهم بذلك فيرون أنك أشغلتهم ، فضلاً عن أن يتنبهوا لها.

(2/10)

وقال رضي الله عنه : الفقيه من عَلِم أسرار الدين ، والذي عِلْمُهُ إلا أيَّة أفضل ، كذا أوكذا أفضل من كذا ما هذا إلا موسوس .

انظر إلى هذا الدعاء الجامع

وقال رضي الله عنه لبعض السادة : أكثر من الدعاء بهذه الكلمات ، اللهم ارزقني طيباً ، واستعملني صالحاً ، وتوفني مُسْلماً ، وألحقني بالصالحين .

وقال رضي الله عنه : رأينا كثيراً من العقائد ، ولم نر لأهل هذا الزمان أنفع من عقيدة الإمام الغزالي للمُبْتديء منهم والمنتهي ، ولكن منتهيهم مبتديء.

وقال رضي الله عنه : أمور الآخرة لا يَسَع الإنسان فيها إلا التَّصديق والإجمال وعدم التأويل .

وقال رضي الله عنه في حديث : ((من تصدق فقد فك لحي سبعين شيطاناً))( ) ، يعني خالف صفات الشياطين ، فَشيْطان يأمره بالبخل ، وآخر يخوفه الحاجة ، وآخر يأمره يؤُخّره ، ونحو ذلك إلى سَبْعين شيطاناً من هذا القبيل ، فإذا تصدق فقد خالف جميع هذه الدواعي.

وقال رضي الله عنه : في معنى ما ورد أنه ينبغي أن يدار بنحو الماء على اليمين ، قال: هذا إذا كان يدار بإناء واحد فقط ، وأما إذا تعددت الآنية فالإنسان مخيّر فيما في يده ، لأن ما فيه( ) له يعطيه من أراد ، ممن كان عن يمينه أو شماله أو غيرها.

(2/11)

أقول : وذلك كما هو المعتاد في حضرموت في أدنان الماء ، كل واحد يعطى دنًّا فيه ماء له ، يستبد به ، وذلك هو سبب كلام سيدنا هذا ، فإنه لما شرب ناوله بعض السادة ، فقال ما قال ، لئلا يتوهم أحد ممن سمع الحديث ، فيقول في نفسه ينبغي الإدارة على اليمين ، وربما خَطَر ذلك في خاطر أحد من الحاضرين ، فقال هذا الكلام المذكور مكاشفة منه له .

فائدة جليلة

وقرأ رضي الله عنه على رِجْل شخص فيها قرحة ، عجز عنها الأطباء والمداوون ـ هذه الكلمات ، وقال لي : أحفظها ، فإنا نرويها عن سلفنا : (يا ذا النبت المنبوت ، مت في بدن من يموت ، بقدرة الحي الذي لا يموت) .

وقال رضي الله عنه في خبر : ((إذا هاجت الفتن ، فعليكم باليمن)) ، قال : وهذا هو الذي نشير به في الحياة وبعد الممات ، لمن يسمع كلامنا أن يرجع عند هيجانها إلى حيث خرج الدين ، والحرمين( ) تُسَمَّى يمن .

آ يات تقرأ للعين

ومر في قراءة تفسير البغوي ، قوله تعالى : { وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ }( ) إلى آخر السورة ، أنها دواء للعين ، فقال نفع الله به : وفي الحديث : ((ثمان آيات دواء للعين)) ، الفاتحة سبع ، وآية الكرسي الثامنة . فينبغي أن تضاف هذه الآية إليها.

(2/12)

وذكر رضي الله عنه العين ، فقال : ينبغي أن يشوّش الأمور ، لئلا يراها من يخاف منه العين ، وأنا ما أوسوس إلاّ من العين ، لحديث( ) : ((لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين)) ، ومن آخر أربعاء ، لقوله تعالى : { يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ }( )، وإن كان بعض المفسرين قال : على عَادٍ بالخصوص ، فإنهم قد عُذّبوا فما وجه استمراره ، وقد فُسّر {إِلاّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا}( ) ، أنه خاف على بنيه العين ، فيَنْبغي سؤال اللطف والستر .

ما يقال عند شرب القهوة

ورأيت مكتوباً عنه رضي الله عنه : أنه يرتب قراءة الفاتحة وآية الكرسي مع شُرْب قهوة الصّبح ، والفاتحة ، ولإيلاف قريش ، وإنا أعطيناك الكوثر ، وقل هو الله أحد مع شُرْب قهوة الظّهر ، ومع شرب قهوة السَّحر خاصة يا قوي 116 مرة كما هو مأثور ، وفي غير ذلك الفاتحة فقط ، ومع آية الكرسى في الغالب .

ذكر إبتداء تدريسه نفع الله به

وقال رضي الله عنه : ما كان لنا رغبة في التَّدريس ، إلا رجل من آل بافضل قال : أريد أن أتبارك عليكم ما تيسر في "رياض الصالحين" فجاء السيد حسن الجفري( )، وقال : أريد أن أقرأ ما تيسر في العوارف ، وطلب الفقيه باجبير القراءة في حزب البر ،

فتراسلت القراءة ، فلما رأينا النَّاس متراسلين على القراءة ، رتبنا أوقاتها وقرأ علينا في مكة وفي المدينة خَلْق في "الإحياء" وفي غيره ، ولم يتم من قراءة كتب "الإحياء" إلا كتاب رياضة النفس( ).

وقال رضي الله عنه : مقصودنا في كتاب "النصائح" أن يكون سلساً واضحاً يَفْهمه كل من نظر فيه ممن له فهم ويَكْتفي به ، فإن لم يكتف ، وإلاَّ يكون

مشوقاً إلى أبسط منه ، وسماه بعضهم حاء الإحياء ، لكن في هذا الزمان ما قيل حاء ، ولا تاء ، بل ضُرب بعضهم ببعض ، ووقع الضرب في أهل الدين ، لكن الجهال ما لهم جواب ، ولا يرد عليهم ، والسّكوت عنهم أحسن ، كما فعله الإمام الغزالي آخر عمره ، فسكت عن الرّد على المبتدعة ، وقد رَدّ على علماء وسلاطين ، وقُتِل جماعة من تلامذته في الفتنة ، منهم رجل يقال له محمد بن يحيى ، شَرَح الوسيط ، والدّين في جزيرة العرب أقوى منه في غيرها ، فمن أدركته فتنة فيها ، فليفر بدينه من مَوْضعه إلى موضع آخر منها ، ولا يتعداها إلى غيرها ، لأنّ الفتنة في غيرها مشكلة جداً ، وإذا لم يفر يكَلّف أو يَتكلف ، وكلاهما شر .

وقال رضي الله عنه : هذا زمان العالم فيه أبكم عن الحق ، والجاهل فيه أصم عنه ، فلا العالم يتكلم به لمداهنة وغيرها ، ولا الجاهل يستمعه ، لاستغراق الكل في طَلب الدنيا ، وعَدم المبالاة بالدين ، فمن أين يحصل الأمر بالمعروف وامتثاله ، ومن أين يحصل النهي عن المنكر واجتنابه .

وقال رضي الله عنه : عادات السلف أحسن من عاداتنا بل من سَنّنا( ).

وقال رضي الله عنه : للشيخ عبدالله بن أبي بكر علينا مَشْيخة ، باطناً من غير إسناد ، وظاهراً بإسناد واتصال إليه .

وقال رضي الله عنه : العلم سيف على الجهل ، يقطعه عن من اتصف به ، وأهل هذا الزمان لم يأخذوا السيوف ، ليؤمِّنوا بها الطرق ، وما أخذوها إلا ليقطعوا بها الطرق .

وقال رضي الله عنه : قيل : ما عمارة الدين؟، قيل : الورع ، قيل : وما خراب الدين ؟ ، قيل : الطمع ، وهذا متداول .

وقال رضي الله عنه : كل حياء يمنع من خير فهو جبن ، وليس هو من الحياء المحمود ، وإنما المحمود ما مَنع من مباشرة مذموم ، شرعي أو طَبْعي.

وقال رضي الله عنه : الركعتان اللّتان قبل المغرب ، لا نأمر بهما ، ولا نَنْهى عنهما( ).

وقال رضي الله عنه : ما أقمنا من أول الأمر إلا على الطريق العامة ، وأما الخاصة فقد انطوت .

وقال رضي الله عنه : لو أملينا عليكم في الأذان لعجبتم ، وسمعتم مالم تسمعوا.

وقال رضي الله عنه : ينبغي أن تكون السورة التي تقرأ بعد الفاتحة في صلاة التسبيح ، من السور التي عدد آيها عشرون كسبح [الأعلى] .

وقال رضي الله عنه : كل كتاب فيه باب هو عين الكتاب ، ترجع كل الأبواب إليه ، وما يقع فيها من الإطلاقات فهو يقيدها .

ومر في حديث : ذكرُ الجنة والنار ، فقال : لا محالةَ إن الجنة أوسع ، لأن لأهلها فيها منازل واسعة ، وممالك مُطَّردة ، ولا محالةَ أن أهل النار أكثر ، لأن ما لأحدهم إلا مِفْحص رجله ، وإن غلظت أجسادهم .

وقال في حديث( ): ((رب أشعث أغبر ذي طمرين ... الخ)) ، هو فقير قانع بِفَقْره ، ولا يريد خلاف ذلك ، ذو تقوى مؤدِّياً لحق الله( ) فيما أمر أو نهى ، ذو ورع لا يأكل إلاَّ حَلالاً ، وأما فقير ذو طمرين لا يُبَالي من أين أكل ، من حلال أو حرام ، فما فضيلته ، فالحاصل أنه لا فضل إلا مع التقوى والدين ، لا بشرف الآباء ونحو ذلك.

وقال رضي الله عنه : المعاصي إذا عَمَّت عم ضررها ، وإذا خصت خصّ ضررها ، التالية أن من علم

بها ولم ينكر يأثم ، وإلاَّ فإنما إثمه على نفسه ، أى إذا لم يطلع عليها أحد.

وقال رضي الله عنه : لا بُدَّ في الإمام المقتدى به من السِّيرة والسريرة والصورة فالسيرة هي الطريقة ، والسَّريرة هي حسن الخلق ، أن لا يكون فظاً ولا غليظاً ولا وحشاً( ).

وقال رضي الله عنه : الجهال صغار العقول ، لا تجالسهم فإنهم كالنَّار ، ولا تجيء في طريقهم ، ويجيء منهم مثل ما يجيء للنبي صلّى الله عليه و آله وسلَّم من أبي جهل وأمثاله ، إلاّ إن أولئك كفار ، والجاهل ما يرجع من شيء.

وقال رضي الله عنه : أهل العلم متواخين( ) ، وأهل الجهل متواخين ، إلا أن الأخوة متقاربة ومتباعدة .

وذكر رضي الله عنه : قراءة القرآن وما يحصل فيها من الغلط ، فقال : احرصوا على أن تؤدوا (وهنا بقي بياض ، ولعل : أن تؤدوا القرآن كما أنزل) واحذروا نقصانه ، أو زيادته ، أو إبداله بآخر ، ونحو ذلك ، وأنا أكثر ما يشتبه علَيَّ الواو بالفاء في بعض الكلمات ، ولو كنت ممن يقرأ في المصْحف لما قرأت إلا فيه ، ولو كنت في الصَّلاة ، لأنه إذا كان قد اختلف في رواية الحديث أو قال قراءة الحديث بالمعنى ، حتى يأتي به بلفظه ، فكيف بالقرآن.

وقرأ رضي الله عنه يوماً في حلقة القراءة في رمضان وذلك يوم الثلاثاء 14 منه سنة 1125 سورة سأل سائل فقال لي : لو سُئلتَ عن غَريب هذه السورة ، أكنتَ تجيب بديهة من غير مراجعة ، فقلت : لا ، ولا غيرها . ثم قال نفع الله به : لولا تغير الزمان لَوَضعنا كتباً في مثل هذه الأمور ، ولكن كيف وقد تَغيّر قبل اليوم بزمان ، وما عليهم إلاّ أن يقيموا حروفه .

وقال رضي الله عنه : دخل سلمان الفارسي رضي الله عنه بلد المدائن ، فحف به النَّاس من كل جانب ، يريدونه يحدثهم ، فجعل يقرأ سورة يوسف فلم يزل الناس يَتَصدّعون ، حتى لم يَبْق أحد منهم ، فقال : زخرفاً من القول أردتم .

وقال رضي الله عنه في قول سفيان الثوري : طلبنا العلم لغير الله ، فأبى العلم أن يكون إلا لله : قد ذكر الإمام الغزالي رحمه الله ، أنه إن كان العلم من أمور الآخرة ، التي فيها التخويف فهو كذلك ، يمكن أن يجرّه ذلك إلى الإخلاص والرجوع إلى الله ، وإن كان في الفروع النادرة من الفقه فإنه لا يمكن فيها إصلاح النية ، بل لو كان له نية في طلب العلم فإذا جاء عند هذه المذكورة فسدت نيته ، وتفاريع الفقه ما لها طرف ، حتى أهل الزمان لو أرادوا ذلك يمكنهم ، ولا حاجة فيها إلاّ إن كان لإشحاذ الذّهن كما ذكروا في الخنثى( )،

فإنه أخذ نصف العلم في الوضوء ، والغسل ، والصلاة ، والمواريث ، وغير ذلك ولم يوجد ، ومن تأمل تصانيف المتأخرين ، رآها تقصر عن تصانيف السابقين ، لأنها أوضح ، ونياتهم أحسن من نياتهم ، إلاّ إن كان نَوَوا أن يكونوا منظومين في سلك من أحيا الشريعة ونصرها ، ولو سئل ابن حجر وغيره ماذا نووا في ذلك ، لا يقولون إلا كذلك إن شاء الله .

وقال رضي الله عنه في حديث( ) : ((ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته))، فقال : يختلف الغدر ، فغدر في حقِّ الله ، وغدر في حق رسول الله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، وغدر في حق الخلق على حسب أحوالهم ، وغدر في حق نفسه .

وقال رضي الله عنه : في ما ذكروا في الخشوع في الصلاة أن لا يعرف من على يمينه أو يساره ، فقال أي إذا لم يكن قد عرفه قبل الدخول في الصلاة ، وإلا فَقِدْهُ يعرفه ، فإن لم يعرفه إلا فيها ، فإن ذلك خاطر خطر له في الصلاة .

وقال نفع الله به لرجل يوصيه : إلزم كل مكان تصفو لك فيه طاعتك ، ويطمئن فيه قلبك ، إن كان وطنك أو غيره ، وقال لآخر يوصيه أيضاً : الله الله في الدعاء في المجامع وفي مجالس السَّادة، وحال اجتماعهم، فإن الدعاء كالسهام ، إن أخطأ هذا ، أصاب هذا.

وقال رضي الله عنه : بالأدعية وحضور المجالس المحضورة ، ومجالسة أهل الخير ، فبمثل ذلك يكون التعرض .

وقال رضي الله عنه : اطلعنا على جملة من العلوم من غير قَصْد منا لذلك ، وينبغي أن يطلع على أوائل العلوم ، ليحصّل من كل علم حظاً ، وأما التبحر فلا ينبغي إلاّ في العلم بالله وصفاته وملائكته واليوم الآخر .

وقال رضي الله عنه : في قولهم : (إن النفس إن لم تشغلها أشغلتك) أي إن كنت من أهل الدين فأشغلها بالعبادات والأوراد وتقليل العادات ، من الأكل وغيره حتى الماء البارد [أي أيام الصيف] لا تكثر لها منه ، وإن كنت من أهل الدنيا فاشغلها بالعوائد الحسنة ، والأمور المحمودة ، فإن لم تُشغل بذلك تَفرَّغَت للتفكر في أمور غائبة مذمومة ، وَدَعَتْه إليها ، ومن طَبْع النفس أنها إذا حُبست عن أمر الضيقُ وإن كانت في سعة ، وإذا أُطلقت الراحةُ وإن كانت في ضيق( ) ، كما لو كان صائماً فيحس الثقل من الصّوم من أول النهار ، وإن لم يكن جائعاً ، وإذا كان مفطراً استراح ولو تأخر عنه الغداء عن حِلّه المعتاد .

وقال رضي الله عنه : في حديث : ((من احتكر على المسلمين طعاماً ابتلاه الله بالإفلاس والجذام)) ذكره في الجامع الصغير ، فقال : إما الجذام الظاهر أو محق البركة لأن الجذام المحقُ ، فَيمْحق ويُفْلس من الدنيا مع إفلاسه أيضاً من الدين لأن الغالب ما يفعل ذلك أحد إلا افتقر قبل أن يخرج من الدنيا .

(2/19)

وقال نفع الله به في حديث( ): ((والله لا يؤمن ، من لا يأمن جاره بوائقه)) ، قال : البوائق التطلع إلى عوراته ، والإستشراف في بيته من غير إذنه ، ونظره إلى أهله ، واحتقاره ، ونقله لكلامه ، وخون أمانته .

وقال في حديث( ): ((قل هو الله أحد ثلث القرآن ، والزلزلة نصف القرآن ، والكافرون ربع القرآن)) ، ونَحْو ذلك ، قال إن هذه أسرار لا يُطلع عليها إلا بنور النبوة.

وقال : في حديث( ): ((الجار قبل الدار)) أي إذا أردت نزول دار فانظر فيها واختر مجاورة أهل الصلاح والستر والصيانة ، ولا تجاور معروفاً بالفساد ، والتَّطلع على العورات ، فربما تطَّلَع على عورتك ، و تشرَّف عليك وعلى أهلك ، فاختبر حال الجار أولاً قبل نزولك في جواره.

وقال رضي الله عنه في حديث( ): ((اطلبوا الحوائج بعزة النفس)) أي اطلبوها بعز ، ولا تطلبوها بالتضعضع ، لأن التضعضع ليس من أخلاق المؤمنين .

وقال في حديث :((أعدى عدوك زوجتك التي تضاجعها( ) وما ملكت يمينك)) أي لأنه يقع منهم بلايا ، وأقلّ الحال أنهم يوقعونك في طلب الدنيا ، إن لم يكن معك شيء.

(2/20)

وقال رضي الله عنه في حديث( ) : ((من أخذ أموال الناس يريد إتلافها ، أتلفه الله)) إلخ ، هو من يستدين و نيته إن تيسر له أدَّى وإلا ترك .

وقال في قولهم : (الجوع المفرط مفسد للفكر) أي إنه إذا كثر عليه الجوع يرى أشياء يظنها أنواراً

ومكاشفات ونحوها ، وليس كذلك ، إنما هو من فراغ الدماغ ، إنما الجوع المحبوب يكون إختياراً بالتدريج .

وقال رضي الله عنه : الجوع الإضطراري مضر ، وإنما المَطْلوب الجوع الإختياري كما يَفْعله الصالحون ، وهو المعروف من حالة النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم وأصحابه ، فمَن بَعدَهم .

وقال رضي الله عنه : الجوع المستعاذ منه في الحديث( ) : ((أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع)) ، هو الجوع الإضطراري الذي يُشْغل الخاطر كثيراً حتى تتغير عليه حوائجه ، وأحوال دينه ودنياه ، وغير ذلك من المضار الدينية والدنيوية ، وأما الجوع الإختياري فهو محمود ، فقد كان صلّى الله عليه و آله وسلّم يجوع الثّلاثة الأيام أو أكثر .

وقال رضي الله عنه : ذكر الشعراوي أن من دعا إلى الله في هذا الزمان ، أن مَثَله كمثل المعلم ، إذا فتح المدرسة لتعليم الصبيان القرآن عند غروب
الشمس ، فلا يجيئه منهم أحد ، ولا أحد يرسل إليه ابنه في ذلك الوقت لضيقه ، وهو [أي الشعراوي] مع ذلك في القرن العاشر ، فكيف في زماننا الآن؟.

وقال رضي الله عنه : نحن تطرفنا في كل علم ، حتى إذا وقعت المذاكرة لا يَبْقى الإنسان جاهلاً بشيء منها ، وما العلم الصَّحيح بعد معرفة كلام الله ورسوله ، إلا عِلْم التَّصوف ، وأخذنا كثيراً من علم الأدب ، وأكثرَ الناسُ من تصانيف الفقه ، والحديثُ أحسن .

وقال رضي الله عنه : إذا الإنسان أمعن في شيء فلا عاد يزاحم أهله ، فإنهم ربما زاحموه فلم يحسنوه ، لأن المزاحمة من طبيعة الآدمي ، ولا يخلو الثمر من شوك ، ما هو إلا بين قليل أو كثير ، وإذا أردت علم ما لم يمكنك أن تحيط به ، فخذ أصوله ، فمن أين يفرغ الإنسان لمطالعة العلوم كلها ، ومن

اشتهر بشيء من العلوم ، وإن كان يحسن غيره ، نسب إليه وسئل عنه .

وقال رضي الله عنه : لرجل كان يقرأ في "منهاج العابدين" عندما وصل إلى ذكر الأكل وكثرته ، كيف قرأت هذا الكتاب في الخانقة( )، وهم إلاَّ يدوّرون للأكل والشَّهوات ، أيلعبون بكتب الأئمة ، ومثل هذه الأماكن لا يليق بها إلا طلب الفقه والنَّحو ، ونحو ذلك . وأما قراءة كتب التصوف فلا تليق بمن هذه حالته ، لأن عملهم مخالف لذلك ، والعلم بخلاف السيرة يمحق العبد ، وقد أرسل بعضهم إلى آخر ، وكان من الرجال كيف تقرأ في "الإحياء" وأنت كذا وكذا ، وكان مستقيم الحال إلا إنه ببعض السيرة يخل .

وقال رضي الله عنه : كنا أردنا أن نجعل القراءة قارئاً واحداً ، ولا أولى من قراءة آية الكرسي ، وقد كان كذلك جماعة من الأكابر ، فيتكلم على الذي يقرأ ويقرره ، ويَمْتد به الكلام حتى يخرج إلى ما يناسب كل أحد من الحاضرين ، فيأخذ كل من الكلام ما يوافقه ، ألا تسمع كلام الشيخ عبدالقادر ، كيف يقول يا فلان ، يا غلام ، فيكلم كل واحد ويخاطبه بمقتضى حاله وما يناسبه ، ولكن لا يَسْتقيم هذا إلا لمن استوى عنده الذَّامّ والمادح ،

(2/22)

والمعطي والمانع ، والمحب والشَّاني ، فإذا استوى عنده النَّاس بمثابة واحدة ، تأهَّل لذلك ، ونحن نرى النَّاس كلهم سوى ، لأنهم كلهم خلق الله ، والكلام كذلك فيه مشقّة اليوم ، وأسهل منه الإيصاء بالدِّين والتقوى ، وفيه كفاية من ذلك ، وأسهل منه ، وقد اكتفينا بذلك ، وذكرنا ما يحتاج الناس إليه.

وجاء في القراءة في حديقة( ) بَحْرق تعداد فوائد الذكر وتَفْصيل ذلك ، فقال نفع الله به : يظُنُّ الناس أن المراد بالذكر أن يقول بلسانه (لا إله إلا الله) وهذا غلط ، والرجل( ) كان يذكر فيه حدّة ، والحديد يكون في كلامه في كل شيء مبالغة من جنس ما يتكلم فيه ، لكنه يكون ثقيلاً في الطَّبع ، وكلامه مليح

، لكن فيه المبالغة ، وهذا كلام قد نخله الإمام الغزالي.

وذكر رضي الله عنه القراء فقال : هؤلاء الصّغار كل يريد إلا قراءته لنفسه ، وإلاَّ فما ينبغي أن يُقرأ علينا إلا آيات من القرآن ، فما أحسن ولا أبرك من كلام الله ، وقال : ورَغْبتهم في القراءة لأجل الدنيا ، وإن كانوا من المتصدّين للقراءة ، لأنهم يحبُّون أمور الدنيا ، ولا يقال له ممن يريد العلم اللدني ، حتى لا يفرح بأمور الدّنيا ، وإن كان الزهد من وراء ذلك وإنه لا يصلح للزهد كل أحد.

وذكر رضي الله عنه المعاملات الفاسدة ، فقال : لهم في السَّلَم بشروطه وفي القراض وبيع الصَّبْرِ بأقل( )، مندوحة عن الرباء ، ولكن الشيطان إذا أغرى الإنسان بشيء ، ما يغريه إلا بالذي يُهْلكه ، وهذه الحِيَل ما كنا نعرفها ، ولكن ما عاد الناس مُعوِّلين بشيء ،

(2/23)

وكذلك تَزْييد بعض الورثة على البعض في الميراث ، وكانت لنا جدة من آل الحَبْشي ، ولها أخ وكانت في خدمة أمها ، فقالت أمها يوماً لأخيها ، أريد أن أقسم مالي بينك وبين أختك ، هِبَة مني الآن ، فسكت فلما فرغت من كلامها قال لها : يا أُماه قولي لربك إنكَ ما تعرف القسمة ، يعني أنه كَره أن تَجْعل البنت كالولد في ذلك ، وكان الرجل زاهداً في الدنيا جداً لكنه ما أراد أن تفتح هذا الباب.

وقال رضي الله عنه : ظاهر اليد والإسلام سببان كافيان في حل المال خصوصاً في هذا الزمان ، إذا لم يكن لهما مدافع ، ومَرّة قال عندما قرأ القاريء في "رسالة المعاونة" في فصل وعليك بالوَرَع عن المحرمات والشبهات ، حتى وصل إلى قوله :
(الناس بالنسبة إليك ثلاثة أشخاص ، الأول شخص معروف عندك بالخير والصلاح ، فكُلْ من طعامه ، وعاملْه إذا شئت ، ولا تسأل) فقال عند ذلك لأن في

هذا ثلاث علامات ، تدل على تَحْقيق حِلّه ، وهي الإسلام ، واليد ، وظاهر الحال .

وقال رضي الله عنه : الشك ماله سبب أو قرينة ، وهو الشبهة ، ويَنْبغي أن لا يُقدِم عليه حتى يَتّضِح ، فإن لم يكن عن سَبَب ولا قَرِينة فهو وَسْواس ، وخواطر لا عمل عليها.

وقال رضي الله عنه : في قولهم (الصيام قطب الرياضة) قطب الشيء الذي يدور عليه ، كعود الرحا قطبها الذي تدور عليه ، وقطبها( ) أي عليه مدار الرياضة المعروفة في طريق القوم.

وقال رضي الله عنه : الدنيا 360 جبلاً وحضرموت جبلان منها ، وهي بلاد مؤسسة وكان الذين أسسوها أهل قوة ، فهل بلغكم تريم ابن من هو؟

(2/24)

فقال السيد زين العابدين : يقال بينه وبين الإسلام ثلاث آلاف سنة ، ثم انجرَّ الكلام إلى مكة وجبالها ، وإن في المسجد الحرام قُبُور بعض الأنبياء ، فقال السيد زين العابدين : أراناها بعض النَّاس في الحِجْر ، وعليها علامة ، فقال سيدنا: هذا فضول منه ، فلو جاء أحد يبحث ما وجد شيئاً ، ولكن من أخذ بالذيل لا تسأله عن الرأس ، وإن ذلك مذكور في شيء من الكتب ، ومنها ما هو مذكور في كتاب ابن ظهيرة( )، ثم قال : لكن كتاب( ) الأزرقي خير منه ، وكتب المتأخرين ماعاد توافقنا ، ولا خاطري يَقْبلها لأنهم متكلّفون كالذي خرّج على حديث جابر ألف ورقة ، تكلف فيها فما يتم المطالع الكتاب إلى آخره إلا ونسي أوله ، وإذا أردت تنقل أمراً فانقل أمراً بين أمرين ، واحذر من التّعنت والاستقصاء ، ثم أطال الكلام في ذلك إلى أن قال : هذا عزيز ونادر جداً.

وقال رضي الله عنه : في قولهم : (العمل بالعلم) أي يعمل بما يقدر عليه منه ، ويتعلم منه ما يقدر عليه ، ويعلّم منه ما يمكنه وعلى هذا . وأما معرفة كل العلم ، والعمل بكل العلم ، فمن يَقْدر عليه؟ ،

ولكنه مع ذلك يعتقد أنه ما بلغ تمام العلم ، لا في العمل ، ولا في المعرفة ، ولا في التعليم .

وسألته رضي الله عنه : عن معنى قول الإمام الغزالي في الشهوة والغضب ، أنه يسلّط أحدهما على الآخر ، فقال : التَّسليط العرفي ، أو قال : الحسي ونحوه ، وهو إذا كان طَبْعها يقتضي فعل شيء ، فهو الشهوة ، والغضب عليها يَقْتضي تركه ، فهو الغَضب ، فإذا غلبتك في الأكل حتى أكلت كثيراً ، ثم بعدُ ذكرت ما فَوّتت عليك من الفضيلة وثواب القناعة ،

(2/25)

تأسفت على ذلك ، حتى غَضبت عليها ، وهمَمْت على أن تخالفها فيما تدعوك إليه ، فهذا مَثَل التسليط المذكور ، أو نِمْت حتى فاتتك الفَريضة أو قِيَام الليل حتى تأسَّفت ، أو عَزَمْت على أن لا تنام إلا أربع ساعات فغلبتك عَيْناك حتى نمت ست ساعات ، فَتعبت من ذلك ، فهذا هو الغَضَب عليها ، وتسليطه على الشهوة أو كما قال.

وقلت له رضي الله عنه : إذا كان الإنسان يعمل شيئاً من الطاعات ، ولم يعلم بشيء مما يفسدها، هل يَتَطَرَّق إليها مُبْطل؟، فقال : لا ، إلاّ إن كان يعلم فيها شيئاً من المبطلات ، ولا عبرة بالوسوسة ولا تضر ، فقلت : فإن وقعت الوسوسة في الصَّلاة ، حتى غَيَّرت قلبه ، وأشغلت خاطره ، هل يضر ؟ قال : لا ، إلاَّ الكمال فلا تكون صلاته كاملة ، ودواها الإعراض عنها.

وقال رضي الله عنه : الدلائل العَقْلية والبراهين تشكِّك ، لأنها إنما وضعت للمحاجة مع الكُفّار ، والمؤمن لا يَحْتاج إليها ، لأنَّ من عرف زيْداً مثلاً ، فقيل له انظر إن هذا زيد ، إما يشككه فيه ، أو يَمْقته الآخر ، والبراهين التي عليها المعول براهين القرآن ، كيف وكُفَّار قريش لم يَكْذبوا النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، في قوله لهم ، إن لكم إلهاً خالقاً ، وإنما كَذّبوه في الوحدانية وأنهم لم يروه .

وقال رضي الله عنه : في قول صاحب العوارف ، إن النفس الحيوانية تولدت من الروح الرباني العُلوي ، كما تولدت حواء من آدم ، للتوالد وحصول الذرية ، فيتولد من النفس الجسمية ، والروح ، ثم قال سيدنا نفع الله به : كلام الشيخ هذا لا يوافق عليه ، وما وافقه عليه أحد من الأكابر ، لأنها لو خلقت منه لكانت طيبة مثله ، وليس كذلك ، وهذا من مشكلات الكتاب ، فقد ذكره زروق في الكتب المشكلة ، ككتب ابن عربي وغيره .

(2/26)

وقال رضي الله عنه في حديث : ((إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش ، فتعلموهن ، وعلموهن نساءكم وأبناءكم فإنهن صلاة وقرآن ودعاء)) ، قال : أي ينبغي تعليمهن ذلك وإن لم يمكن تُكتب وتعلق عليهم ، وإن جمع لهم بين ذلك فحسن ، وإن أمكن نزعه عند دخول الخلا فليفعل .

وقال رضي الله عنه في حديث : ((إن الله خلق خلقه في ظلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل)) ، قال : فعلى هذا إن الذي أخطأه النور أكثر ممن أصابه ، لأن أهل الضلال أكثر من المهتدين .

ما قال فى رؤية النبى صلَّى الله عليه و آله وسلَّم

وقال رضي الله عنه : رؤية النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم في صورة رجل صالح ، هي بشرى من الله ، أو على صورة من ليس من أهل الصلاح ، ففي ذلك إنذار للرائي ، يدل على أنه شرير ، وأما من قال شرط رؤية النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم أن تكون على صورته المنقولة ، حتى يرى رباعيته التي كسرت ، فذلك غُلُو ، وقد ذُكِر : إن الشعراوي سأل الله أن يريه مقامه ، أو قال مَنْزلته عنده ، فرأى أنه على مَطْرحة محشية شَوْكاً ، فاستدل بذلك على أنه بقيت فيه بقايا ، ماتَطَهَّرَ منها إذ ذاك ، وكان النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم يَسْأل الناس من رَأى

منكم رؤيا يَقُصّها عليه ، كان ذلك منه أول الأمر ، ثم وقعت له رؤيا فلم يسألهم بعدها .

وقال رضي الله عنه : في قول القائل (وما من يد إلا يد الله فوقها)( ) إلخ ، هذا مشاهد من أفعال الله ، من تأمّل أفعال الله في الوجود، وما نَصَّه( ) الله في آيات القرآن، استغنى عن أشياء كثيرة، وإذا حصل له المعرفة الكُبْرى ، معرفة الوحدانية بأي وجه كان فهو المراد ،

(2/27)

فَكَيف وقد ملأ( ) العوالم كلها ، ولكن الجسم المخدور( ) لا يحس بدخول الإبرة ، وأنشد رضي الله عنه يوماً( ):

لي حيلة فيمن يَنُمُّ ... ... وليس في الكذاب حيلة

من كان يخلق ما يقول ... ... فحيلتي فيه قليلة

وأنشد أيضاً:

الكلب أحسن عشرة ... ... وهو النهاية في الخساسة

ممن يطالب في الرياسة ... ... قبل أوقات الرياسة

وقال نفع الله به : هذا البيت لأبي العتاهية ، ولم يسبق إلى مثله قال أي ما سبقه أحد إلى المعنى ، لا أنه ما سبق بالبيت وهو :

ما كل قول له جواب ... ... جواب ما يَقبُح السكوت

ويجد المجوب في السكوت عن جَواب من لاَ يعرف لذة ، لأنه لو تكلم شغل نفسه مع من لا يعرف بلا فائدة ، وله أيضاً :

تعالى الله يا سلم ابن عمرو ... أَذَلّ الحرصُ أعناقَ الرجال

ثم قال نفع الله به : للشعرِ موقع عند العرب ، ويسمونه ديوان العرب وتكَلَّم كثيراً ، ثم قال: هذا هو معنى : الحديث أشجان ، ومثله يُنْهى عنه في الصلاة وإن لا بد فتُزْجى به الأوقات.

وقال رضي الله عنه لي يوماً : هات سفينتك ، فأتيته بها ، فقال : اكتب ، وأملَى عليّ أبياتاً في معان متفرقة من حِفْظِه نفع الله به ، منها هذان البيتان للخليل بن أحمد :

(2/28)

ألم ينهاك شيبك عن صباكا ... ... وتترك ما أضلك من هواكا

وتنكر أن يطيعك قلب سلمَى ... ... وتزعم أن قلبك قد عصاكا

قال : و بيتان آخران :

قد بقينا مذبذبين حيارى ... ... نطلب الوصل ما إليه سبيل

فدواعي الهوى تخف علينا ... ... وخلاف الهوى علينا ثقيل

قال وبيتان آخران :

ومن العجائب والعجايب جمة ... قرب الحبيب وما إليه سبيل

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

ثم قال : وبيتان آخران :

تواضع تكن كالنجم في أفق السما ... ... يُرى صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخَّان يرفع نفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع

ثم قال : بيت آخر :

إن الرجال صناديق مقفلة ... وما مفاتيحها إلا التجاريب

ثم قال : بيتان آخران :

إذا كنت قُوتَ النفس ثم هجرتها ... فما تصنع النفس التي أنت قُوتُها

تعيش كعيش الضب في الماء أو كما ... ... يعيش ببيداء المفاوز حُوتها

وسمعته رضي الله عنه يقول : هذان البيتان للإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، مجرب تكريرها بسرعة الفرج ، وهما :

توقع صنع ربك سوف يأتي ... ... بما تهواه من فَرَج قريب

ولا تيأس إذا ما ناب خَطْبٌ ... ... فكم في الغيب من عجب عجيب

(2/29)

وكنت كثيراً ما أسمع سيدنا نفع الله به يتمثل بِشَطْر هذا البيت ، فأين الله والقَدَرُ، مراراً متكررة ، في أوقات متعدِّدة ، في أزمنة متطاولة ، ولم يذكر ما قبله ، ولا ما بعده ، وكنت أرغب في تمامه ، ولا سألته عنه ، فرأيته في بلد الحَسَا في جملة أبيات ، وهي :

يا من ألح عليه الهم والفكر ... ... وغَيَّرت حالَه الأيام والغِيَرُ

أما سمعت بما قد قيل في مَثَلٍ ... ... عند الإياس (فأين الله والقدر)

خَلّ الخطوب إذا أحداثها طرقت ... وأصبر فقد فاز أقوام بما صبروا

فكل ضيق ستأتي بعده سَعَةٌ ... وكل فوت سيأتي بعده الظّفر

وجاء في كتاب المحبة من "الإحياء"( )، ما ذكره يحيى بن معاذ عن أبي يزيد أنه رآه واقفاً على قدميه ، حتى قال : أدخلني في الفلك السفلي ، إلى آخر القصة ، ونحو ذلك ، فقال : هذه واقعة حال ، أو كُبْر حال ، أو من تَسَاهل النَّقلة ، كما ترى من تساهلهم في المجالس اليوم ، وهذه أشياء قَلْبية ، والمراد أنها جائزة في قدرة الله ولا عليك ، والجائز غير المحال ، والمحال غير المستبعد ، لأن المستَبعد قد يكون واقعاً ، والمحال ما لم يقع .

وقال رضي الله عنه في حديث خوّات بن جبير رضي الله عنه لما مرض فعاده صلّى الله عليه و آله وسلّم فقال له : كيف تجدك؟، قال : بخير يارسول الله ، فقال عليه السلام له : أوف لله بما عَاهدته عليه ، فقال : ما عاهدت الله بشيء ، فقال سيدنا : أي : إن كل مؤمن يمرض ، يتأسَّف على ترك الطاعة والإقبال على الله حال صحته ، ويَحْصل له عزم على الجِدِّ في ذلك إن عافاه الله وعاد إلى العافية ، فقال عليه السلام له ذلك مذكّراً له بهذا العزم ، أن يفي به لما رآه متعافياً.

وقال رضي الله عنه : في حديث إذا دخل رمضان صفدت الشياطين ، أي ما عدا الشّيطان الكبير ، وهو إبليس فلم يرد فيه نَصّ ، ولو كان كذلك لما تعرض لهم يوم بدر ، حيث أخبر الله عنه بقوله : { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ }( ) الآية .

ووقعة بدر كانت في رَمَضان( ) وحَظّ أعوانه من الإغواء أكثر منه ، فإنه ماله من العمل إلاّ الوَسْوسة ، فيوسوس له في الأمور المذمومة ، والمصفدون هم

المردة منهم ، وقيل لبعضهم أينام الشيطان؟، قال : لو نام لاسترحنا ساعة .

وقال رضي الله عنه : النفاق على قِسْمين : نفاق الكافرين ، وهم من يظهر الإيمان ويخفي الكفر ، ونفاق المؤمنين ، وهو أن يؤمن ولا يعمل بما يقتضيه الإيمان ، ومن علامته أن يضيق ويضجر من قراءة القرآن ، والجلوس في المسجد ونحو ذلك ، ويستأنس بالهَذْوة( )، والمجالس والأسواق ونحوها ، ولم يُعرف هذا إلاَّ من قريب ، وقيل للحسن البصري : إن النفاق والحمد لله ليس في وقتنا ، بل في وَقْت الصحابة ، وقد انقضى ، فقال : لو أن للمنافقين أذيالاً ، لما وجدت مكاناً تجلس فيه ، يعني لكَثْرتهم ، ويدل على نفاقك أن تغضب إذا قيل لك يا منافق ، لأن الإنسان ما يخلو من نفاق.

وقال رضي الله عنه : يتنزل للعبد من الخير والشر على حَسَب عمله ، جزاء وفاقاً ، ولا بد أن يرى جزاء ما عمله في الدنيا والآخرة .

(2/31)

أقول : ويؤيد ما ذكر ، أنه حُمِل شخص إلى بعض الأمراء ، وقد اتهم بسرقة فقطع يده ، فقيل للشخص هذا جزاؤك ، فقال : إني ما سرقت في هذه ولكن سرقت قبل مرة ، فاتهم غيري فقطعت يَدُهُ وأنا أنظر ، فعاملني الله بأن قطعت يدي بسرقة غيري .

وقال يوماً رضي الله عنه وقد ذكر كِتابَهُ "الفصول العلمية" ثم قال : إنا نتكلّم بالكلام ولا يُعمل به ، كالذي يتردد بمتاعه إلى السوق كل ساعة ولا يبتاع لكساده وقلّة الرغبة فيه ، كَمَوْلى الزمالة ، وهو أنه دخل رجل من بيت جبير في سَابق الزمان إلى تريم حاملاً زمالة مملوءة بَلَحاً ، وأراد بيعه فلم يَنْفُق له ، ولا أحد ساومه فيه ، فضَجر منه ، وطَرَحه عند باب بعض المخازن على دكّة ، ورآه صاحب الدكان ، فلما انصرف أخذه صاحب الدكان وباعه ، وميز ثمنه ، وبقي يتسَبَّب فيه ببيع وشراء ، حتى رَبا وزاد ، ثم

بعد مدة سنين ، جاء ذلك الرَّجل صَاحب الزّمالة عند صاحب المخزن ، وَجَعل يتحدَّث معه ، وقال : كنت أتيت سنة من السنين إلى هذا الموضع بزمالة فيها بلح ، ورميت بها هنا ، فقال له : أنت صاحبها؟، قال : نعم ، قال : أدخل المخزن ، خذ هذا المال فإنه حَقّك ، وحكى له بما فعل بها ، فأخذه وانصرف ، وكانت لأهل تريم مناقب حَسَنة ، هذه من جملتها .

ومنها : أنَّه مَرَّ رجل عليه دين لآخر على صاحب الدين( ) ، ولم يسلّم عليه فتعجَّب منه ، وقال : لم تركت السلام؟ قال : حياء منك لأجل دَينك ، ما أردت أن تَعْرف أني هنا ، وكان بصيراً( ) فقال له : أنت بريء من الدين ، فتعال بنا إلى الدَّار ، فدخل به داره وأكرمه .

ومنها : أنه مَرَّ رجل على أرض فيها حرث ، ومن جملة الحرث غلفق( )، فَسَرَق منه ملأ مظلَّة كانت على رأسه ، ثم وَضعها على رأسه ، وسار وصاحب العَمَل( ) يرى جميع ما فعله وهو ساكت لم يُرِدْ أن يَفْضَحه ، فلما سار عارضه رجل وحركه ، فسقطت( ) وأنتثر( ) فَظنه سَرَقه ، فصاح صاحب العمل عليه ، وقال : أصلحك الله أردناه ذرْياً فبدَّدته فَزَال عن ذلك الرجل ما ظنه به أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : بعد ما أكثر المذاكرة يَوماً ثم قال : وكَثْرة المذاكرة لا نحبّها ، ولو ذاكرنا أحداً من هؤلاء غرق معنا لكثرة ما قرأناه وطالعناه ولقيناه من المشايخ .

وقال رضي الله عنه : العلوم الدينية والأعمال الدينية ، يَنْبغي أن لا تُفْعَل إلاَّ مع الإجتماع ، ليتم أمره ويَكْمُل ، وأما الأمور الدنيوية فما عليه إلا أن يخلص فيه ، ولا يَنْبغي السؤال اليوم إلاَّ عن أمور الدين ، ، ولا الاستيصاء إلاَّ بها ، وأما أمور الدنيا فهم مجتهدون فيها من غَيْر كلام ، فلا يُحْتاج إلى الإيصاء به والسّؤال عنه ، فالحازم لا يوصي ، وهذا موعود به في آخر الزمان ، بأن الناس يُقبلون بكليتهم على

الدنيا وينسون أمر الدين ، قال والناس ما يتواردون على أمر واحد ، فإذا تَوَاردوا عليه ، كان كالعدم .

حكاية أصحاب السرير والمروحة

كما حكي عن جماعة قصدوا ملكاً يريدون المنزلة عنده ، وفيهم عَرَب ، وفيهم عَجَم ، فأمر بالعجم بمنزل وحدهم ، وبالعرب وحدهم في منزل آخر ، وأراد يرى ما يَصْنعون

(2/33)

ليَخْتَبر أحوالهم سياسة منه ، وجعل عند كل فريق منهم في منزله سريراً واحداً ، فأما العجم فقدموا واحداً منهم وأجلسوه على السرير ، وبقوا تحته يخدمونه ، منهم من يفصّ( ) له ، ومنهم من يَذُبّ عنه بالمروحة الذّباب ، ويُرَوِّحْ عليه ، حتى صار كل واحد منهم في خدمة ، وأما العرب فكلما أرادوا أن يقدِّموا واحداً ، قال الآخر أنا الذي أتقدم وتكونون من تحتي ، وقال الآخر مثل ذلك ، حتى اختلفوا بينهم فأمر الملك بطردهم وإبعادهم وأجاز العجم وأكرمهم ، والعلوم تكلم فيها السابقون ، فجاء من بعدهم فوجدهم قد سبقوه بكل شيء من دقايق العلم ، وأراد أن يَذْكر غير ما ذكروه ، كالذي جاء إلى أرض واسعة ، فارغة من البناء ، فبنا فيها داراً فجاء آخر فرآها مبنية فكنَّس ، فجاء آخر فرآها مكنوسة ، ففرش وعلى هذا.

وذكر رضي الله عنه المطالعة فقال : أولى ما ينبغي أن يطالَع كتب الإمام الغزالي ، على قَدْر حالك ، فإن كنت من المُبْتدئين ، فالبداية ، وإلا فالأربعين الأصل ، وإلاّ فالمنهاج( )، فإن كان لك فَهْم ومَعْرفة بالعلم ، فطالع في الإحياء ، فإن كُنْت لا تعمل بالبداية ، فقل في نفسك : لا شك إذا لم أقدر على العَمَل القليل ، فلا أقدر على الكثير ، كمن ليست له دواب قوية يَسني عليها ، فلا يَزْرع كثيراً بَل قليلاً على قدر طَاقته ، ولا يَتَشَوَّف إلى الكثير وهو عاجز عن القليل ، والإحتياط للعلوم أولى من الإحتياط للزرع .

وقال رضي الله عنه : في ردّ المظالم والأموال المغصوبة : يسأل عنها أهلَ التقوى من العلماء الذين يخشون الله ، وهم الذين يعرّفونك بالسر ، ويسترون عليك ، ويبينون لك وجه البراءة للذمة ، وكيفية التَّقوى ، فهؤلاء هم العلماء المحققون ،

(2/34)

وأما علماء الدنيا فإنما يُسَمّون مُتَرَسِّمين لا علماء ، ولو جئت لأحدهم بالمال وأعطيته نصفه أخَذَه منك ، فليس أولئك بعلماء ، إنما هم متشبِّهون بالعلماء ، فأقل الأمر إذا لم يكن من أهل التقوى ، فليكن كالشَّمعة تضيء للناس ، فتنفع غيرها وإن إحترقت في نفسها( )، وما عاد التوبة إلا ضحكات يغتسل من الحرام كما يغتسل من الحلال ، ويقول : قد تبت ، فأين التوبة؟، وأين التائبون صدقاً؟ ، وأين العلماء المتقون الذين يعرِّفون الناس أمور دينهم؟.

ومر حديث( ) : ((إذا الْتَقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار)) فقال رضي الله عنه : هذا يَدْخلها بالنية والعمل ، يَعْني القاتل ، وهذا يدخلها بالنية فقط ، بخلاف ما إذا استسلم أحدهما وقَتَله الآخر ، فالمقتول يسلم ، ويبوء القاتل بالإثم ، كما قص الله في ابن آدم .

وقال في حديث( ): ((إذا التقى المسلمان فتصافحا ، وتكاشرا( )، قسمت بينهما مائة رحمة ، تسْعة وتسعون لأكثرهما بِشْراً ، وواحدة للآخر)) ، أو كما قال في الحديث ، قال نفع الله به : فالفضل المذكور للأكثر بشراً إذا كان لله وللدّار الآخرة ، لا لأمور الدنيا، فإن الدنيا جميعها ساقطة.

وقال رضي الله عنه : كلما شَكَكت فمل إلى ما فيه الإحتياط والنجاة في الآخرة ، كالسيل إذا تطرفت( )، ينبغي أن تميل إلى جانب البَرّ ، وإلا سَقطت في الماء وغَرِقت.

(2/35)

وقال رضي الله عنه : شَكّ المأموم في الصلاة مع شكّ الإمام من سوء الوضوء ، وفي بعض الأحاديث( ): ((ما بال أقوام يسيئون الوضوء فيشكون إذا شك الإمام)) .

قف على ما قال في الكتب المعتمدة

وقال رضي الله عنه : أركان الدِّين عندنا وقواعده أربعة : "البخاري" في الحديث ، و"البَغَوي" في التَّفسيْر ، وفي الفقه "المنهاج"( )، ومن الكتب الجامعة "إحياء علوم الدِّين" ، هذه القواعد التي عليها البناء ، وطَالعنا كتباً كثيرة ، ولم نر أجمع منها ، والوَقْت قَصير ، والقَوَاعد هي التي عليها البناء ، وهي العُمُد، وما مذهبنا إلا الكتاب والسنة ، حتى إنه سألَنا بعض النَّاس في الحرمين سنة حججنا عن مذهبنا ، فقلت : شافعي ، وفي المجلس رجل مكاشف من أهل الخطوة ، فقال لي : ولم تقول أنت شافعي ، وأنت مذهبك الحديث ، فقلت : كيف؟ إن أسلافنا كلهم على مذهب الإمام الشافعي.

وقال رضي الله عنه( ): العلم دليل الفعل ، فإن لم يكن فهو خَسَارة على الطالب والمَطْلوب ، والأحسن للمحترف أن يَعلم ما لا بُدّ له من علوم الإسلام ، وعلوم الإيمان ، إذا لم يسهل عليه أن يعمل بما في "البداية"( ) ويَشْتغل بحِرْفته ، ويترك طلب العلم [أي الزائد على الكفاية] ، ويَسْلَم من خَطَره ، ويدعه على غَيْره ، سواء كان بَرّاً أو فاجراً ، فإن قدر أن يعمل بها( ) فيطلبه ، فإن العلم يزيده خَيْراً ، وإلاّ فمن عجز عن القليل ، فلا شَكّ أنه عن الكثير أعجز ، وفيها( ) ميزان عجيب ، أو قال عظيم ، ذكره مصنِّفها فليجرب به نفسه .

وقال رضي الله عنه ما معناه : يَنْبغي للمؤذن والمُقِيم ، أن يُظْهرا نون التَّنوين ، من قول أشهد أن محمداً رسول الله ، لأن في إدغامها إشكالاً يوهم.

وقال رضي الله عنه في قول بعضهم (إذا كثر علم الرجل ، قل كلامه) أي لأن الخوف يَمْنعه من الكلام في الفور .

وقال رضي الله عنه : من أراد أن يصير عالماً فَلْيَجْتمع على علم ، ويتَمكَّن فيه حَتَّى ينسب إليه ، ويتَطَرَّف في بقيّة العلوم ، حتى لا يُنكر شيئاً منها إذا سمعها ، قال سيدنا عليّ : من جهل شيئاً أنكره ، وقال : من أكثر من شيء عُرِف به ، ويكون كذلك ، إن كان فقيهاً ، أو صوفيّاً ، أو نَحْويّاً، أو غير ذلك ، والسؤال في غَيْر موضعه - أو قال محله - بلاء على السائل والمسئول.

وقال رضي الله عنه في حديث( ): ((إن البيت المعمور بحيال البيت يدخله كل يوم سَبْعون ألف مَلَك ، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة)) ، في بعض الأحاديث إن فيه أو عنده عين ماء يدخله جِبْريل عليه السلام كل لَيْلة وَقْتَ السحر ينتفض فيطير من جناحه سَبْعون ألف نقطة ، فيخلق الله من كل نقطة ملكاً ، فهم الذين يدخلون البيت المعمور ، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

وقال رضي الله عنه : ما معناه بعد ما ذكر في إيداع السلام وتبليغه : من بَلَّغ إلينا السلام ولم يجتمع بنا، فما فاته منا أكثر مما حَصَّله ،كما قال الشيخ أبوبكر بن سالم : ومن فاتنا يكفيه أنا نفوته .

وقال رضي الله عنه : أمران لا ينبغي أن يذكرا للعامة ، ولا يسمعونها : دقائق العقائد ، ودقائق الأحكام ، أو قال دقائق الصلاة ، فإنك لو تَتَبعتهم فيها، لما رأيت صلاتهم صَاحّة( ) على المَذْهب من إخراج الضَّاد وغير ذلك ، بل إذا حملهم مذهب فاتركهم على ما هم عليه ، وإلاَّ شددت عليهم ، ولا أمكنك أن تحصّل منهم المطلوب ، وكذا في العقائد لا تذكر لهم شيئاً من الخفايا فيها ، بل ترى أحدهم يقول : الله مَعْنا الله ناظرٌ إلينا ، ونحو ذلك ، فاكتف منهم بذلك ، فإن أردتهم أن يكونوا معطِّلة محضاً

فاذكر لهم شيئاً من أمر الجهة والجسمية ، ولذا يقال : العامي لا مذهب له ، لأنه يُحْمل على الأسهل ، ويقال : الصوفي أيضاً لا مذهب له ، لأنه يتتبع الأحوط من كل مَذْهب فيأخذ به ، وطَعَن بعضهم في قولِ : لا مذهب للعامي ، وهو غالط لا عِبْرة بقوله ، أو قال رُدَّ عليه .

ومر في الدرس ذكر بعضهم ذَمّ الكلام ، فقال نفع الله به : من موبقاته ذكر البراهين ، لو كان كذا ، لكان كذا ، فيوقع في القَلْب التهم ، وَلَوْ تَفْتَحُ عمل الشَّيطان ، إنما العلم مجرد العقيدة فقط ، دون ذلك .

انظر ما قال في الشاهد العدل وتساهل أهل الزمان في الشهادة

وذكر رضي الله عنه الشاهد العدل الذي تُقْبل شهادته ، فقال : لابد في العدل من المَعْرفة لما شهد به كما هو ، فلو حَضَرَ مجلس بَيْع مثلاً ، ولكن ما عرف البايع أو المشتري أو المبيع ونحو ذلك لا تَصح شهادته ، وإن صَدَق في حضور العقد وفيما رآه كشهادة الهلال ، حتى يكون مع العَدَالة عارفاً بالمطالع والمنازل ، وأكثر شهود الزمان ما هم بعارفين بما شَهدوا به ،

ولا فيهم عدالة ، الواحد منهم تمرعليه ثلاث صلوات فأكثر ، في مجلس واحد إما حايك أو ضِعيف( ) أو غير ذلك ، وإذا لم يقع الاحتياط في صيام أُمَّة ، ففيم ذا يكون؟! ، في بيع دار أو مَيْسمة( ) أو في حساب قرش ، و إذا ما عَرَفوا ، فيَنْقلون كلام عارفين وعلماء ، ولو كتبوه كتابة ، ما ترى ، كان هنا أناس أهل علم ومعرفة ، فإذا لم يتأدبوا مع الله ورسوله والأكابر ، فمع من يتأدبون .

تأمل هذه القاعدة الكلية الجامعة

ثم قال احفظوا هذا : إن كل من تهاون بأصول الدين ، وبالتَّوحيد من الإيمان بالله ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وفِعْل الواجبات ، من صلاته وزكاته ، ويَرْتكب المحرمات فلا يؤمَن.

وذكر سيدنا رضي الله عنه : يوماً رؤية الهلال ، واختلافهم في رؤيته ، فقال : لما اختلفوا في أول الشهر ، اختلف عليهم آخرُه ، والأشياء لها أوائل ومقدمات ، تَحْتاج أن تضبط ، فإذا لم تضبط الأوائل ، لم تَنْضبِط لك الأواخر ، وهكذا في أمور الدين والدنيا ، وهؤلاء( ) لا يعرفون ، وإذا عرفوا لا يسمعون .

وسأل رضي الله عنه : عن استهلال الشهر هل هو في ناحية دوعن كما هنا بيوم واحد، فقيل : لا ، فيه تَقْديم عندهم ، يعني شَوّال في تريم ، بالسَّبت ، وهناك بالجُمْعة ، فلام الناس في تسَاهلهم في الرؤية ، حَيْث اختلفوا والمَطْلع واحد ، فقال : ما عاد نَحن عند شيء ، إنما يتَعيَّن عليهم أن يُرَاعوا الأحكام المتعلقة بالأوقات

من العِدَد وتأجيل الديون ، والنُّذور ، وغير ذلك ، فإن بتقصيرهم في ذلك بايحصل التَّقصير في هذه الأحكام ، ثم قال أحوال وأمور لو تَصَوَّرها الإنسان قبل وقوعها ، هل يمكن وقوعها ، لم يجوِّز ذلك بل يَسْتَبْعده ، ويَسْتَحيله ، ولكل شيء حُكْمُهُ ، فإذا تصوّر الأمور الإلهية فلها حكم آخر .

أقول : وذلك إنه سنة 1116هـ بعد دعوى رؤيتهم الشهر، في خروج رمضان وثبوته عند القاضي ، وإفطار الناس ، وسيدنا الحبيب ومن تَبِعه ما أفطروا أول يوم ، وما تحقّق رؤيته إلا لَيْلة رابعة من رؤيتهم ، فكل من حدثته بذلك ، قال هذا كذب ومحال ، وهذا مصدقاً( ) لقول سيدنا أحوال وأمور إلخ .

ودخلوا عليه رضي الله عنه جماعة يعودونه ، وكان معه حُمَّى وذلك في مرضه سنة 1130هـ فلما فرغوا

من المصافحة ، جَعَل يتكلَّم في رؤيتهم الشهر ، ويخطئهم فيها ، فقال : تمضي ثلاثة أشهر ما خَرَجوا يشوفونه ، فإذا كان شهر فيه لهم أكل خَرَجوا له ، والنَّاس ما هم فيما يتعلق بذلك ، فلا فرق في أكلة تأخرت أو تقدمت ، وإنما الحَرَج فيما تتعلق به الأحكام من الأشهر كمدخل رمضان ، وخُرُوجه وشهر يوم الحج ، وكذلك العقود والأنكحة والعِدَد وغير ذلك ، وهم عَمَّال يدورون الإشكالات ، الإشكالات ما هي في الدين ، كيف يشهدون به ولا يُرى ثاني ليلة ، وقد لا يرى ثالث ليلة ، كيف يكون ذلك ، ورؤيته تحتاج( ) معها إلى معرفة حساب وهندسة ، ليعرف محل النظر إليه ، ويعرف إمكان رؤيته ، ولكن هذا الزمان ما سكت ولا خَلاّ أحداً يتكلم ، إن سكتَّ ما صَبَرْتَ ، وإن تكلمت ما لحقت أحداً يقبل ، كالذي يَضْرب بالفاس على حجر ،

(2/40)

وما معك من الزمان اليوم إلا كما يحكى عن رجل كان ينظر إلى أمرد حسن وهو في الطواف ، فما درا إلا بضَرْبة جاءته في وجهه ، فقال آه ، فقيل اسكت ، وإلا جاءتك أخرى ، فما لهم إلا مثل هذا ، ولو كان( ) ذلك إلا من سلطان قاهر . وتَسْهَنه أن تثبُت رؤيته بالإثنين من غير اشتباه ، وأن تكون الأمور صالحة ، والفتن ساكنة ، والشر منطفي ، ثم أمر منشداً فأنشد بقصيدة الخِلِّي التي امتدحه بها : (قف بالمطي على الحِمَى يا حادي) . فلما فرغ ، أمرني بتَفْرقة أسوكة ، وقال: أعطهم على واحد واحد ، فجاءت على عَدَدِهم كذلك ، ثم قرأ الفاتحة وخرجوا .

قوله : تَسْهَنه إلخ أي ترجوه ، يَعْني هلال ذي الحجة سنة 1130هـ ، فثبت كذلك بالإثنين ، من غير اشتباه ، كما رجاه نَفَع الله به ، فحَقَّق الله رجاءه ، وكذلك ما ذكر بعده من صلاح الأمور ، وسكون الفتن ، ثم دعاهم رضي الله عنه ، للدخول عشيَّة يوم التروية ، وهو ثَامن ذي الحجة يوم الاثنين ، فدخلوا عليه ، فلما اطمأن بهم المجلس ، جعل يَتكلّم فكان كلامه كله كان( ) تَنفّس ، كالفاقد لمجالسه

المعتادة ، والمتَعطِّش لجريان المذاكرة بعد انقطاعها .

انظر ما قال في الصبر

وقال رضي الله عنه : إذا ابتليت بما يُمْكِنُكَ الصَّبر عليه ، فلا تخرج من الصَّبر( ) إلى الجزع( ) ونَحْوه بل إن خرجت منه ، فاخرج إلى الشّكر( ) ،

(2/41)

وإذا دامت الشّدائد أُلِفَتْ وكانوا( ) لما ابتلاهم الله اتسعت قلوبهم ، بأن أنزل الله في قلوبهم السَّكينة فصَبَروا ولم يتزحْزَحُوا .

وقال رضي الله عنه : إن المحن التي تصيب المؤمن في الدنيا ، جَعَلها الله له بمَنْزلة الحدود على ما عَمله ، قال ذلك نفع الله به لما كثر المتجوِّرون في الحاوي عِنْده خوفاً من الدَّولة ، فقال لهم : هذه عقوبات على أفعالكم السيئة ، ثم قال إن المحن إلخ .

أقول : يشهد له حديث( ) : ((من أصاب منكم حداً ، فأقيم عليه الحد في الدنيا فهو كفارة له)) ، الحديث ، وكان رجل يَكْتب للدَّولة ، فتاب من خِدْمتهم ، وبقي يعاوده وجع في الأصابع الثلاثة التي كان يَقْبض بها القلم ، فإذا اشتد به وأسهره ، جاء إلى سيدنا يقول : اتفل عليه ، فيتفل عليه ويقول له : هذا محل القلم السوء .

وقال رضي الله عنه : ما يجمِّل أحداً ويستره في هذا الزمان إلاَّ الصَّبر ، وفي الحديث ، وفي الصَّبر على ما تكره خير كثير . وكم من الضرر في فَلَتات اللسان ، والرّجل العاقل هو الذي يسع ، وهو الذي يَصْبر ، وأما النساء فلا يَحْتَملن ذلك ، وبين عقولهن وألسنتهن برزخ .

ومَرَّة قال : ما يستر الإنسان إلاَّ العافية ، والعافية هي السِّتر للإنسان ، وعليها المعوَّل في طلب الدين والدنيا .

وقال رضي الله عنه : اللسان له طغيان كطغيان الميزان ، من غير أن يشعر الإنسان ، كرجل يظن أنه يملك لِسَانه أن يتعَدى إلى المكروه ، فتكلّم بما يحسن فلم يَشْعر إلاّ وقد تكلم بكلمة تضر ولا تنفع ، وكذلك من يظن أن في نفسه سماحة بحيث لا يبالي بما نقص مما يوزن له من الحق ، فإذا حضر الوزن تمنى في نفسه أن يزيد الذي له على الآخر ،

(2/42)

وربما فرح بِغُبار يثقل مقابله ، وليس هذا من طبع المؤمن ، بل إنما يجب( ) أنْ ينقص حَقُّه قليلاً ، فإن ذلك احتياط له ، وسلامة له من التَّطْفيف المحذور منه ، وصَدقة له يَحْتسبها في موازين حسناته.

وقال لي السيد سالم( ) بن عمر بن الشيخ أبي بكر بن سالم ، قال : قلت لسيدنا الحبيب رضي الله عنه : أخبروني بإسنادكم في الخرقة ، فقال : إذا قُدَك تَسير على الماء أخبرناك بذلك ، فقلت : ومتى يكون ذلك؟ فقال : إذا انتفت عَنْك الحُجُب ، قلت : فكيف ذلك ؟ فقال لو مَرّ عليك رجل ولم يصافحك ، أتَحْنَق؟ قلت : لا ، قال : فإن شتمك أحد وأنت تسمع ، هل يقع في خاطرك؟ فقلت : لا ، قال : فلو ضاع عليك شيء من الدنيا له قدر ، أكنت تَشْتَغل بسببه؟ قلت : لا ، فقال رضي الله عنه : إن صدقت فقد قَرُبْتَ .

وقال رضي الله عنه : ينبغي للإنسان أن يُوَطِّن نفسه على مَا هو من طَبْع الدنيا من الكَدَرِ ، وإن حصَّل راحةً في شيء فهو عَارض ، فقد قيل للجنيد : نَرَاك لم تتعب من أمر يكون عليك من مصائب الدنيا ، فقال : اعتقدت أن جميع أمور الدُّنيا مصائب ، وَوَطَّنت نَفْسِي على ذلك ، فأنا كل شيء يرد على نفسي مُوَطِّنه على منواله ، ثم قال سيدنا : عمدة الأمور على شَيْئين : القِيَام بوظائف العبودية ، وأن لا يَنْسُب إلى نفسه شيئاً من كل شيء ، ويكون

كالجسم الملقى ، والقُدْرَةُ تَتَصرف فيه ، كما ذكر عن سهل التُّستري رحمه الله ، قال : إذا قال العبد أنا أطعت ، وأنا عملت ، وأنا فعلت ، فيردّ الله سبحانه عَليه بقوله تعالى : أنا خلقت ، وأنا غَفَرت ، وأنا سترت.

(2/43)

وقال رضي الله عنه : ما تأسَّف العرب ما تأسَّفوا على شيئين : فراق الأحباب ، وفوت الشباب ، وأنشد هذين البيتين( ) :

شيئان لو بكت الدماءَ عليهما ... ... عيناي حتى تؤذنا بذهاب

لم يَبْلغ المعشار من حقيهما ... ... فقد الشباب وفُرقَةُ الأحباب

وقال رضي الله عنه لرجل به ألم : ما يتمّ الأمر إلاَّ بالصَّبر والشُّكر ، فإن أمور الدنيا ما لها تمام أبداً ، طال الأمر أو قصر ، لأن الدنيا مبنية على النقصان .

وقال رضي الله عنه : شَرْط الصَّبر على الشيء ، أو الصَّبر عنه ، أن يكون الصَّبر أرجح من مقابله ، والا يوشك أن يرجح مقابله عليه ، فَيَقع في( ) الحَرَج ، فَيفْعله على الوَجْه المأذون فيه ، كمن يَضَعُ رِطْلاً في كفَّة ميزان ، ودونه في الآخرى ، فيرجح لا محالة - قال ذلك - لما مر في قراءة "قوت القلوب" : إن الأولى للمريد تَرْك التزويج ، إن أمكنه الصبر .

وقال رضي الله عنه : اثنان لهما أكبر المنة على آل باعلوي ، الشيخ أحمد بن عيسى ، خَرَج بهم من البدع والفتن ، والفقيه المقدم سَلّمهم من حمل السلاح ، والعمومية بكسره السلاح لما تفقر( ).

وذكر له رضي الله عنه رجل قد أخذ عن بعض مشايخه ، فقال : قد اجْتَمَعْنا به أول مَرّة ، وثاني مَرَّة ، وفي الثالثة ما رُحْنا عنده ، لأنه حصل لنا رؤيا من جهته ، وكذلك بعض السَّادة رأى رؤيا ، ولا حكى لنا

بها إلاَّ ونحن هناك ، ثم انجر الكلام كثيراً ، ثم قال : ولا أعلم هل يَتعلّق بذلك أم لا ، إنّا إذا أشَغَلَنا أحد أو قال آذانا أحد لا ندعو عليه ولا نَكْرهه ،

(2/44)

ولكن نحبّ أن نتكلم عليه بكليمة حتى نَتَنَفَّس بها من جهته لئلا يَبْقى في خاطرنا عليه شيء ، فيأخذه الله بذلك ، لأنا جَرَّبنا ورأينا من عادة الله ، أنه ما آذانا أحد إلاَّ أخذه الله .

وذكر مرة رضي الله عنه : أنه سافر إلى دُوْعَن ، وأنه زار الشيخ علي باراس( )، وكان من تلامذة شيخه الشيخ عمر العطاس ، قال : فأراد مِنَّا أن نأخذ منه الطريق ، فامتنعنا وقلنا قد أخذنا عَمَّن أخذت أنت عنه الشيخ عمر ، والسادة إنما مَدَدهم من بَعْضهم بعض ، وغيرُهم إنما يستمد منهم ، وألَحّ في ذلك ، فلما رأى امتناعنا من الأخذ عليه فعل لنا عَصِيْدة ، وأرادنا نَتَغَدَّى عنده ، فأَبيْنا من ذلك ، فأنكسرت البُرْمة ، وسَقَطَت العصيدة في الرماد ، فقرأنا الفاتحة وَخَرجْنا، هكذا بهذا المعنى واللَّفظ ذَكَره نفع الله به يوماً في مجلسه بالسُّبير ، وسَمعت من يذكر ذلك ممن حَضَر مَجْلسه عند باراس ، أنه لما أراد القيام من المَجْلس ، قال باراس : ياسيد عبدالله عَجِزْنا عنك من كل وجه ، وإن بَعْض الساده من آل الجفري من أهل الخريبة ، كان تلك الليلة التي بات فيها سَيّدنا بالخربية بوادي ليسر ، فَحَكى ذلك السَّيد : أنه رأى تلك الليلة رؤيا ، رأى أن سيدنا عبدالله أقبل على باراس ، فاتحاً فاه ، وحَنكه الأسفل بالأرض ، وأعلاه في السماء ، وباراس بين يديه كالعصفور أقبل عَلَيْه ليلتقمه ، وإذا السَّيد عمر العطاس معترضه يقول له : لا يا سَيّد عبدالله ، لا يا سَيّد عبدالله ، إتركه لأجلنا ، فتركه ، ولم يعلم الرائي بالواقعة ، إلا لما حكى بالرؤيا ، أخبر بما وقع له معه ، وإنما فعل باراس العَصيدة لَمَّا امتنع سيدنا من الأخذ عنه ، لأن أكل الزاد عند أهل هذا الفن ، أَخْذٌ للطَّريقة ممن أكل زاده ، كما قدمناه من كلام سيدنا (لو يعلم الناس ما في طعامنا وشرابنا) إلخ .

وقول الشعراوي : إنهم يَجْعلون المدد في الزَّاد ، لمن لم يمكنه الأخذ ، سِيَّما في هذا الزمان ، ويقوم لهم مَقَام التَّلقين ، ويصير من تلامذتهم ، ويحصل له منهم المدد .

وقال رضي الله عنه : الطَّالب إذا أراد الجلوس مَعنا ، لا نتعذر منه على أي حال ، ولو أنا ما نَقْدر استندنا له ، وجَلَسْنا معه ، وإنما نتكلف لأهل الرسوم .

وقال رضي الله عنه : أهل الدين مَطْمح نظرهم ، وسائر همومهم كلها في أمر الدّين ، وغافلون عن أمور الدنيا ، ومن لم يَكُن غافلاً عنها تغافل ، وأما أهل الغفلة فَمطْمح نظرهم وهِمّتهم ، وأفكارهم في أمور الدنيا ، وإن فَعلوا شيئاً ودَبَّروه وظنوه من الدِّين ، فما هو إلاَّ من أمور الدنيا ، فيرجع جميع ما يتعاطونه من أمور الدنيا .

وقال رضي الله عنه : من اعتقد في نَفْسه الأهلية ، نَقَص حظه ، وإن أهلوه يكفيه علم الله بأهليته ، فإن اعتقدها كان بخلاف ذلك .

وقال رضي الله عنه : من عامل الله على قَدْرِه تعالى ، جَازاه على قَدْره ، وإن عاملٌ عَمِلَ لله على قَدْرِ نفسه ، كان جزاؤه على قدْر نفسه .

وقال رضي الله عنه : أهل الباطن على الدَّحقة في وَسَط الشَّريعة . وأهل الظاهر على طرف الشريعة .

وتكلم رضي الله عنه في أحوال الزمان فقال : فقدت الأمانة ، وفُقِدَ الحياء ، وفُقِد الدين وفِعْلُ الخير ، يريدون أن يُغْنوا أنفسهم بقلة خَيْرهم فما زادهم ذلك إلا فَقْرا .

وذَكَر له رضي الله عنه رجل حاله ، فقال : هي نفسك إن أصلحتها وقَومَّتها فذاك ، وإلاّ قَوَّموها بالنَّار .

وذكر رضي الله عنه يوماً مرور الأيام والسِّنين على الغَفْلة ، وذكر هذا النظم :

تَمُرُّ بنا الأيم تَتْرَى وإنما ... نُسَاق إلى الآجال والعينُ تنظر

فلا عائد ذاك الشَّبابُ الذي مضى ... ولا ذاهب هذا المَشِيبُ المُكَدِّرُ

(2/46)

فقلت له : ياسيدي ، ما سَبَبُ غفلة الإنسان ، وعَدَمِ اهتمامه بإصلاح أوقات عُمْره ، وَشُغلها بالطاعة ، مع أنه مُتَحقق بذهابها سُدَى من غير فائدة ، فقال ما معناه: سببه عدم شغله لها غاية الاشتغال بكمال الطاعة ، وعدم شغله لها بما يقدر عليه أولاً ، وضعف اليقين ، وقِلَّة رغبته في خَيْر الآخرة ، ومحبَّتهُ لأمور الدنيا أكثر من أمور الآخرة .

انظر ما قال في لعب الصبي

وسمع رضي الله عنه صَوْت صَبي يتنَحْنَح ، سِنُّه نحو اثنتي عشرة سنة ، فقال : من هذا الصغير ، فأخبر به وبأبيه ، وكان حاضراً ، فقال له لِمَ تَرَكْته جالساً هنا ، ولَمْ تتركه يروح يلعب مع الصِّبيان ، فقال : نريده يستغنم الحضور في مجلسكم ، فقال : أنت استغنم عنه ، واتركه يلعب الآن ، ما دام وَقْت اللعب ، حتى يَنْفِض جميع ما في الجراب من اللعب ويَرُوْح وقته ، وإلاَّ رجع يَطْلب اللَّعب في غير وقته ، وحيث لا يَنْبَغي له ذلك ، فقد حُكِي : إن رجلاً من الحَنَفيّة جلس للتدريس ، وهو ابن عشر سنين ، فكان إذا جاع جَلَس يَبْكي . وشَكَا بعضهم ابناً له كان كثير اللعب إلى بعض الصَّالحين وأتى به معه إليه ، فأخذ الصَّالح بيد الصبي ، وقال له انطلق العب ، فقال أبوه : لم؟، فقال : دعه ينفض ما مَعَه من اللعب الآن ، ما زال أوانه ، وإلاَّ رجع يَطْلبه في غير أوانه ، والصَّغير ما دام في سِن الشباب ، سِيَّما ما قبل البلوغ فإنه يَنْزع كثيراً إلى اللعب والحَرَكة ، ويكون كالقِدْر الذي يَفُور ، لا بد لك فيه من أحد حالتين ، إما تَنْزع منه

الغطا ، وإما تنزله من فوق النار ، والإنسان تَمُرّ عليه أطوار مختلفة ، من طفوليّة وشَبَاب وصِبَا وكهولة وشيوخة( ) وهَرم ، فَينْبغي أن يكون في كل طَوْر على حالة تناسب ذلك الطَّور ، وإلاَّ كان ناقصاً ، والتمييز و الصَّبوة يسامح فيها أيضاً أكثر مما يسامح في غَيْرها .

(2/47)

وشكا إليه نفع الله به رجل من ولد له غير بَار ، وليس هو في رأيه ، فقال له ما عاد معك إلاَّ الصَّبر والمسامحة ، والصَّبوة في الصِّغر لا تُسْتَنكر ، وفي الحديث : عجب ربك لِشَاب لا صَبْوة له . والصِّبا شعبة من الجنون . وإذا غَلَبتك الأمور فاغلبها بالصَّبر ، ولا تَدَعْها تغلبك .

وقال رضي الله عنه : طِبَاع النّساء والصِّبيان متقاربة ، ومَيْل الكل واحد ، حتى إذا خرج الصبي إلى الكبر رأيته مشمئزاً .

وقال رضي الله عنه : لا تمنع السَّفيه ممَّا يريد ، فإن ذلك عناء بلا شئ ، ويَنْقلب عداوة فيما بعد ، وأَمْرُ الصّغار والحريم لا يَحْتمل البَحْث ، إذا قال صَلَّيت لا تحكّ عليه ، فإذا حَكَّيت الحِجَارة لا يَخْرج منها إلاّ التُّراب ، ثم قال خذ هذه الكلمة واحفظها ، أهل الزمان ما لهم نظام ، لا في دين ، ولا في دنيا ، تراك تراهم في صلاتهم لا يُحْسنونها ، ولا يُحْسنون زكاتهم ، ولا حَجّهم ، فهذه أمور دِيْنهم فما بالك بأمور دُنْياهم ، وفي بعض الأخبار يأتي زمان يحج أمراؤهم للنزهة ، وأغنياؤهم للتجارة ، وفُقَراؤهم للسُّؤال .

وقال رضي الله عنه : الصّغار اليَوْم ما عاد نَزُرُّ( ) عليهم ، إن جاءت منهم زِيْنة بَرَّكنا عليهم ، ودَعَيْنا لهم ، وإن جاءت منهم عوجا سَرَطْناها ، قال الله تعالى: { وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ }( ) الآية ، ولو قابلت العوجاء بعوجا مثلها ، جاءتك عوجا .

وقال رضي الله عنه : لنشاط الأبوين وضُعْفهما تأثير في نشاط الولد وضُعْفه، والأم أكثر لأنّها موضع الحرث ، وهي التي تُعْنى به دون الأب .

(2/48)

وتبعه رضي الله عنه رجل بابنه ، يوم الأحد إلى السُّبير ، وذلك ثامن ذي القعدة سنة 1125هـ فقال : قل له يَرْجِع ، من رأيته يحبّ ابنه كثيراً فلا تكون بركة في ذلك الولد ، لأنه يَبْقى يداريه ويَترقَّاه فيتغيّر ، فلا تعلق قلبك إلاَّ بربك ، والمَطْلوب الوَسَط ، وأما فرط الحَنانة فإنما هو محمود للنساءِ ، وذلك طَبْعهن ، ولهذا إذا طلب الرجل ابنه ليضربه ، إلتجأ إلى أمه ، وإذا أَلِفَ من أبيه تلك المحبة المفرطة ، بَقِيَ بلا أدب منه ، فلا يؤدبه ، لأنه إنما يعامله( ) بما يحب( ) ، فلا يُحْسن تَربيته ، ألاَ ترى السَّلاطين كيف يَدفعون أولادهم إلى من يُربّيهم من بَدْوٍ أو غيرهم ، لِتَحْسُنَ تربيتهم، ثم إذا ألف منه ذلك أنكر خِلافه منه أو من غَيْره ، فيتَوَلّد فيه حُبّ الجاه والمَنْزلة ، فماذا ترى حَصَل لهؤلاء ، اسمعوا كلامنا ، كل هؤلاء ما فيهم خير ، أو قال ما فيهم بركة ، ومَثَلُهم كَمَثَل من يريد يختِّم بِسْرَة ثم طال به الكلام في ذَمّ محبّة الجاه والظُّهور ومَدْح الخمول وما وقع في ابتداء أمره من الظُّهور ، مع توقِّيه منه ، وما قالوا له مشايخه في ذلك وأنه شكا ذلك أي ما وقع له من الظهور للسيد عمر العطاس ، وذكره له ذلك الذي يقبِّل الناسُ حوافر دابته إذالم يتَمكّنوا من تقبيل شيء منه ، وإنه قيل له في ذلك ، فقال : إنهم ما عظَّموني ، إنما عَظَّموا اللَّه ، فلا أَمْنَعهم من تعظيم الله ، إلى آخر ما سبق ذكره من ذلك القَبِيْل ، ثم قال : لا يظهر أحد من أهل الظُّهور من الأولياء إلا بواسطة جميع الأولياء من ظاهر وخامل ، وذكر الشعراوي أن من ظهر منهم وفيه كفاية ، إذا رام أحد مُنَازعته في ظُهور مِثْله ، يدعون عليه حتى يهلك ، وقد ذكرت كل ذلك بتَفْصيله فيما تقدَمّ ، ولما استخلف( ) منه ذلك الرّجل ، أبو الولد المذكور ، يُريد بلده شبام ، قال له : الحذر أن تَغْبط أهل الدّنُيا ، وَتَوَدَّ أن تكون مثلهم ، فتُحاسب في

الآخرة حساب الأغنياء ، وأنت ما معك شيء .

وقال رضي الله عنه : الولد في هذا الزمان ، لا يؤمن على الأهل، فكيف بالأجانب ، لأن الدّين ضعف جِداً ، ومن لا دين فيه كيف يَصِحُّ منه الوَرَع ، والوَرَعُ إنما هو خوف من الله ، ومن يفرق بين التَّمرة والجوهرة ، فلا تأمنه على الوَرَع ، والإنسان قد يُبْتلى بنفسه أو بغيره ، فإذا زرعتَ شهواتٍ فإنها تريد منك سُقْياً .

وذَكَر رضي الله عنه : الموت والمرض ، فقال : قد يُشْرَك الوالد في موت ولده ، إذا لم يَطْلب له في الأمور الطبية دواءً .

وسأل رضي الله عنه : عن صبي صغير ، هل صَام ، قيل نعم ، فقال ما معناه: فأي معنى لصيام الصغير الذي لم يجب عليه ، ويَشُقّ عليه ، ولا يَنْتَفِعُ به ، فخَلّوه يُفْطر، يَقْضي لأهله حاجة ، فإذا شَقّ على الكَبِير ، فَعَلى الصَّغير أشق ، فكما أنه يضرب على الصَّوم ، ويؤمر به في بعض الأحيان ، إذا استطاع ، فكذلك يُضْرب على الفِطر ويؤمر به ، إذا لم يَسْتطع ، ومِثْل الصغير يوم تلزّقه في الدين ، مثل الشَّعرة في العجين ، والدين إنما هو فِقْه ، أو قال فَهْم وعلم بحيث يعرف الذي هو يباشره وإلاَّ غَيّر على نفسه وعلى غَيْره ، فكل من لا مَعْرفة له بأمور الدين ، إذا أمرته بها غيَّرها وأتعب نفسه بلا فائدة ، فينبغي أن يُعَرَّف أولاً كيفية العمل ، ويُبَيّن له إذا لم يعرفه من قَبْل ، وإنما اكتفى النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم بأمره لهم على العُموم من غير شرح لهم ، لأنهم كانو ا فقها أنفس ، يبيعك الواحد منهم ويشتريك بكلامه وأنت لا تشعر وكان الرجل يعرف القرآن وهو ابن أربع سنين ، والآن الواحد شَيْبة ما يقرأ سورة إلا أخل بحروفها ، فضلاً عن أن يَعْرف مَعْناها ، ثم أنشد هذا البيت :

ومكلف الأيام ضد طباعها ... ... متطلب في الماء جذوة نار

ولَمْ يُذْكر أن أحداً سَأل النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، عن معنى لا إله إلا الله لِكَوْنهم عالمين بما تضَمَّنته، عُرْفٌ مَعْروف بينهم ، فإيمانهم أقْوى من قلوبهم ، فلو أن محتسباً قام على أهل تريم ، لاحتاج أن يُبَين لهم ما يجهلونه ، ويطالبهم بما يعرفونه ، ويُنْكر عليهم في أمور كثيرة يتعاطونها ، ذكر منها نفع الله به جملة ، منها أنهم يدَحْرِجون الصغار( ) ، في مسجد آل باعلوي ، يُدَاحِنُون( ) الكبار في المَسْجد والجَوَابي ، ويَتْركون ما هو ألزم من ذلك ، فأين الزكاة وغيرها ، وما كنا نعرف صغيراً يقدم في الصَّف الأول في مسجد باعلوي ، وقد كنت إنما أدخله( ) مع الوالد ولا أصلي إلا في الصف الثالث ، وهذه الأمور التي حدثت ما كُنَّا نعرف منها شيئاً ، ولو توليناهم ، أو تولى والٍ يسمع لنا ، لأظهرنا لهم أموراً غريبة من الحق ما كانوا يَعرفونها ، وغير ذلك ومثل ذلك وأشباه ذلك ، وكم وكم أوكما قال .

وذاكرته رضي الله عنه في الكلام المتقدم ، في شأن الصغير إذا مَيَّز ، بأن يحسن يأكل ، ويستنجي ويتوضأ وحده ، فيؤمر بالصلاة لسبع ، والصَّوم إن أطاقة ، قلت فالعمدة في ذلك بالتمييز ، أو بالسن ، أي بلوغ السبع، قال بهما جميعاً، قلت فلو مَيّز قبل السّبع ، أيؤمر قال لا ، لأنه لا يوثق بَتَمْييزه قبل السَّبع ، ومن كَلَّف الصغير أن يُصَلي ويصوم ، كما يصلي ويصوم الكبير فقد بالغ وتنَطَّع ، وللأمور أوائل وأواخر ووسط ، فكل من عمل في أوائلها كما يفعل في أواخرها ، فهو المتنَطِّع. فخذ هذه حكمة وقاعدة ، أيمكن الإنسان طلوع السطح قبل الدَّرجه أو كما قال نفع الله به .

وقلت له نفع الله به : تكلمتم بالأمس في تَعْليم الصغار ، ولكنه تَفَلَّتْ علينا فقال : النَّاس اليوم لا سَماع في آذانهم ، ولا قابليَّة في عقولهم ، فلو كان فيهم قابلية ، لأخذوا الكلام في ذلك الشئ وفي غيره ، فأين نحن اليوم ممن أخذنا عنهم .

وذكر رضي الله عنه : الجُدَري الذي حَصَل في حضرموت ، أول سنة 1126 وقد مات فيه كثير من الصِّغار ، فقال لم نعرف منه كثرة الموت هكذا إلاّ من نحو اثنين أو ثلاثة ، وقد مر علينا مَرَّات ، وإنما قد يَحصل بسببه تغير بعض الأعضاء كالعين ، ولعَلّ هذا الموت ، الحاصل منه بِسَبب أمور كشُبْهة في أنكحتهم إن لم يكن زِنَا أو عَدم تنزُّه في الوِقَاع ، أو عدم ذِكْرِ الله عنده ، وأين الناس اليوم قد غَفِلوا جداً، أقل الحال أنه لم يقصد بالنكاح السّنة أو العفاف ، أو كف بصره وإنما مراده مُجَرّد الشهوة ، واشتغلوا بأولادهم عن اللّه، وقد ذُكِر أنه حصل مَرّة في مصر مَوت ذريع ، وفيها الشيخ أبو عبدالله القرشي وكان من الأكابر فدعا اللهَ في رفع ذلك ، وتَشَفّع لهم ، فسمع صوت قائل يقول لا تأسف على هؤلاء فكل من رأيته مات فهو ولد زِنَا، فخرج من مِصْر قاصداً إلى الخليل فلما قرب منه تلقاه الخليل عليه السلام ، فقال له : يا نبي الله ما أريد قِرائي منك إلا أن تَشْفع لأهل مِصر فَشفَع فيهم فَشَفَّعَه الله ورفع عنهم ذلك .

وذَكَر له رضي الله عنه رجل أن ابنه مات ، فقال : الناس كلهم طحين رحا الموت، إلاّ أن منهم من قَد طُحِن ، ومنهم من عاده ، فقال الرجل : لكن فيه أنس ، فقال سيدنا : أنت قد آنست أهلك ، فيَكْفيك ذلك أنساً ، وسمعنا فيما سمعنا أن الإنسان قَلّ ما يخطر له الموت في مرض موته ، لُطْفاً من الله ، وإلاَّ كان انخلع قلبه.

وذكر رضي الله عنه : الجدري( ) فقال : طَبْعه الحرارة ، إلا أن أهل جِهَتنا ظنوه بارداً، لما رأوْا من شِدّته في الشتاء أكثر منه في الصَّيف ، وهكذا عادة الجروح تكون شَديدة في وقت البرد ، وإن كان طَبْعها الحرارة ، وأكثر موت الصغار بعد تقدير الله والأجل بسبب حَبْسهم في الأماكن الحارة ، وقد أوصيناهم من بعد نجم الطرف ، أن يجعلوا المقطِّب( ) في البراح ، ولكن يَمْنعونه من المهب( ) .

ذكر تاريخ ولادته وإبتداء أمره نفع اللّه به

وقال رضي الله عنه : حفظنا تاريخ ولادتنا من الوالدة ، قالت ولدتَ ليلة الإثنين ، خامس صفر سنة 1044 ، وقال : جاءت امرأة من الجِيران ، كانت حاضرة الولادة ، وأنها لَفَّتني في بعض ثِيَاب الوالد ، قالت : فبقيتَ تلك الليلة إلى الصّبح ، ما طعت تستقل من الصياحِ ، فقلت لبعض النساء : شوفوا الولد ما به ، مَا له لا يَسْكت ، فَفَتَّشَتْ الثوب ، وإذا بِعقرب عظيمة مُلتفة بالثّوب ، مما يلي البدن بينه وبين الثوب ، والبدن متخبّز مُحمر من لسعها( ) وقلت لسيدنا عندما تكلم بذلك ، وذكر قصة العَقْرب : في هذا إشارة إلى ما تقاسون من محن الدنيا، كالغَطّات الثلاث( )، قال : نعم .

قال رضي الله عنه : ووقع في تلك السَّنة يعني سَنة ولادته أشياء كثيرة ، فيها خرج السلطان عبدالله ، وفعل ما فعل ، ومات فيها الشيخ الحسين بن أبي بكر بن سالم ، ووفاة السَّيد يوسف ابن عابد الفاسي تلميذ الشيخ أبي بكر بن سالم وفيها قتل السيد بَاجَبْهان على خُبْرة تَمر ، وقاتِلُه من المناهيل ، وذلك أن اثنين منهم جاءا ليقطعا خُبْره من نَخْلة له ، فلما رآهما قام إليهما فكلمهما ، وَوَاحد فوق النخلة يقطع ، والآخر يتناول ، فأراد السيد أن يأخذ الخبرة من المتناول ، فرمى الذي فوق النخلة السيد بجنبيّته فأصابت منه مَقْتَلاً فكان بها أجله ، ثم التفت سيدنا إلى السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي وكان حاضراً فقال له : أنتم ما تَعْتَادون تورخون المولود قال : بلى ، قال لا تَخلّوا ذلك ، فإن عليه عمدة كبيرة في المواريث والأحكام ومَعْرفة البلوغ وغَيْر ذلك ، ألا ترى ما يذكر في التَّواريخ ، من تواريخ الولادة وغيرها وهذا في العُموم فكَيْف في الخصوص ، وقد كانوا عندنا يؤرخون بالسيول( ) والنُّجوم ولكن إنما العبرة بالسنين ، وذَكَر نَفَع الله به ، فى غير هذا المجلس ، أن ولادته كانت بالسُّبير ، أيام المحلّة .

(2/53)

وكان رضي الله عنه يوماً جالساً في السُّبَير المذكور ، وذلك يوم الأحد واحدى وعشرين من ربيع الأول سنة 1128 ، فذكر أيام صغره ، وكان إذا ذكر أحوال الصبا يُطْنب في الكلام ، ويتعَجّب من تلك الحال ، فإذا أطال فيه الكلام ثم سكت يقول : الكلام شجون ، وينشد هذا البيت :

وحَدَّثْتني يا سعد عنهم فزِدْتني شجوناً فزدني من حديثك يا سعد( )

قال : كنت قائماً عند جَرْب مسجد مقالد ، أنا والصّنو حامد تحت عِلب هناك ، فحذَفْت العلب بحجارة ، فوقعت في رأسه فأدمته ، وقد عندنا في الجهة مَثَل يقولون دواء الحجارة أن تدق له حجارة ، فأتفق أن جاء يناديني بعد المغرب ، وكنا في درس فأبطَيْت عليه ، فَحَذف بحجارة ، فأصابتني ، فشَرَد فلحقوه ، فسبحان الله ، ما حال الصبا وماوالاه من الشَّباب ، وكنت في أيَّام الصبا لا أتعامل معاملة من لا يشوف ، لا في مشي ، ولا في لعب ، حتى إذا سِرْت ما أسير إلا مع أحد ويوم نلعب( ) كنت أجلس عند صاحب المَد ، حتى لا أُغْلَب أو كما قال .

وذكر رضي الله عنه : أنه كُفّ بصره ، وهو ابن أربع سنين بسبب القَطيب .

(2/54)

وسألته يوماً نفع الله به أن يُملي عليَّ شَيْئاً من ظاهر أحواله ، من صغره إلى الآن ، لنَحْفظها عنه ، فلم يُسْعفني بذلك ، وقال قد نَسِينا أكثرها ولا عاد بقي إلا كتابات لم نثق بها ، ولا عاد معنا دماغ لذكر ذلك ولو ذَكَرناها لاحتاجت إلى مجلدات ، ولا عَاد مِنَّا شىء ، وقد قلنا لبعض الناس اشرح بعض القصائد ، فقال : لا أشرح إلا بشرط ، أن أجعل مجلدين أحدهما في ترجمتكم وذكر أحوالكم ، والآخر في شرح

القصيدة ، فما أعجبنا ذلك منه ، وأناس مدحونا بقصائد كثيرة ، وذَكرونا بها فأردنا أن ننهاهم عن ذلك ، لكن خفنا من عدم الإخلاص في نَهْيهم ، فخَلَّينا كلا يتولى ما تَوَلّى ، ويتدَرّك ما تدرك به ، ونقتدي بالنَّبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، لما قيل فيه النظم ، مما مدح به وأنشد بين يديه ، ومدحه عمه العباس وغيره، ونحن هذه الأشياء ما تجئ على بالنا ولا نحبها لنا ولا لمن نحبه.

(2/55)

وتكلم رضي الله عنه يوماً في معنى ذلك فقال : في نفسي من أيام البداية ، أن لا أضع لبنة على لَبِنَة ، ولا أتزوج إلا على عَرَبية ، لتقع راضية ، وما منا شئ لشَره الأشراف ، ولكن ما قَدَّر الله إلاّ ما وقع ، وفي بنائنا من العجائب ما لا يُصدِّق به إلا من رآه ، حتى إن دارنا( ) هذه ، لم نعلم بها إلاّ مبوّبة ، جعلها الله على يد حيمد بن دامس ، وأمور الدنيا يحاسب عليها من نواها ، وإن لم يكن عنده شئ منها ، ونَحْن خائفون من أن يحاسبنا الله عليها ، لكنا منطرحين له ، وجاعلين أنفسنا في القاع ، ولا نَدَّعي أنا قائمون له بشكر ، مخلصين( ) له في عبادة ، وأول من تأهلنا على امرأة عربية عند الهجيرة خُفْية ، وما علم الوالد إلا بعد في آخر السنة ، وكان ذلك في أولها وهي سنة 1061 وكان مرادهم البركة ، وعُلْقَتِ( ) ولد ماهم مثل هؤلاء القناتير( ) ، لأن بين ذلك الوقت وهذا الوقت مدة بعيدة نحو 66 سنة تَبَدّلت فيها الناس ، وتغيرت أحوالهم ، وقد ظَهرت طبقات ، بعد طَبَقَات ، وفي كل طبقة شئ غير ما في التي قبلها ، وكانوا بِرْكين( ) ، إذا خطب الشَّريف عندهم فرحوا لأجل التبرك ، ولعلقة ولد ، وأَتْمَمْنا بناء غرفة الحاوي سنة 1074 ، وَبقينا نَتَعهَّدها يوم الأحد وفعلنالها أشجاباً( ) ، والمحلة في السبير ، وبنيناها بطين الإكليل وهو سَيْل كبير حصل في نَجْم الإكليل وهي سنة 1049 وفعلنا لها أبواباً سنة سافرنا الحج ، وهي سنة 1079هـ ، وفي مجلس قال : كان نزولنا إلى الحاوي ، أي للاستيطان سنة 1099 سنة ولد ولدنا الحسن ، وكان ولادته في الحاوي غرة رجب ،

وأول ما جلسنا في زاوية الهجيرة سنة 1061 ، وبقينا ملازمين فيها إلى سنة 1072 ، فتأهَّلنا أول هذه السنة أي سنة 1061 أول تأهل لنا ، ثم بقينا نَتَردَدّ إليها نَبْقى النهار فيها ، ونغيب عنها في الليل ، ثم بنينا غرفة الحاوي سنة 1074 نحلّ فيها أيام الخريف ، ونأخذ زائداً على أيام المحلة إلى

(2/56)

سنة ولد حسن إبننا في الحاوي ، وأقَمنا فيه ، وأول زيارة زرناها إلى عينات ، زرنا الشيخ أبا بكر بن سالم ، و زيارة النبي هود والشيخ سعيد ، وسِنّي إذا ذاك نحو 15 سنة ، وهي سنة 1059 ، وبعد ذلك بسنتين ، وهى سنة 1061 دخلنا الهجيرة في رمضان ، وكنا حالِّين في السّبير أيام الخريف ، فطلبت المبيت فيه أي في الهجيرة ، مدة رمضان لأجل صلاة التراويح ، والوترية فيه ، وأخذنا نيابة من الفقيه باهارون ونحن إذ ذاك نقرأ عليه ، وأخذناها بطيب قلوب أصحابنا وإلا فجدُّنا الذي بناه وجعل نظره ونيابته إلى ذُرّيته، وهو كان لا يحب أن يباشر الأوقاف .

وقال رضي الله عنه : ما نَزَلنا الحاوي وتوطَّنا إلا لما رأينا معنا من ثقلة وكثرة الدواب ، وأيضاً يجئ عندنا من له نيَّة ، ومن لا له نيَّة ، ولكن رجعوا يجيئون إلينا هنا بهذه الصورة ، قيل ما يجيئكم إلا من له نية ، قال : نَعم ، نِية وهي نَيِّة ، أيحسن أن تأكل اللحم النيئ .

أقول : وكان رضى الله عنه في مدة إقامته بزاوية مَسجد الهجيرة المذكور يطوف كل ليلة على مساجد تريم كلها يصليّ في كل مسجد منها ما تَيَسّر له ، وقد أدركت خادمه حميد بامزيدان ، وسألته عن ذلك ، فقال : يطوف المساجد كلها ، يصلِّي فيها حتى إن المساجد المغلوقة المهجورة التي لا يصلّى فيها ، كنت أقدم له ظهري يَرتقي عليه ويتسور ويصلي ، والمَسَاجد المهجورة كمسجد بامروان الذي قريب المجف كان أخر ما يأتيه منها ، وكان هو مَوْضع تدريس الشيخ عبدالرحمن ابن الشيخ علي ، وقد

سبق ذكر ابتداء قراءته ، وطلبه للعلم على باجبير، وذكر ابتداء تدريسه هو نفع الله به في ذلك .

وقال رجل لسيدنا نفع الله به : العيد مبارك فقال رضي الله عنه : العواد عادة ، لا سُنَّة ، ولكنه عادة حسنة ، يدخل في جملة التهنئة ، كما في قصة طلحة وكعب ابن مالك ، ولكن لما قَلَّت المواصلة بالزيارات ، كان ذلك سبباً لحصولها سيما بين النساء يولعن به كثيراً .

(2/57)

وقال رضي الله عنه : المعاودة في العيد بدعة قَوَّتها السنة الأصلية وهي زيارة الأخوان محبة في الله ، وقد عدمت( ) كما عدم غيرها من السنن ، كالهدي وإشعاره ، وعدمت أيضاً عيادة المريض ، وجعلوها في الزيارة ، وإنما الزيارة زيارة الصحيح للصحيح في الله ، ومثل ذلك التَّهنئة بالمولود ، ومَرّة قال إنما التهنئة بالولد لا بالبنت ، وكانوا يقولون : ليهنك الفارس ، فقال بعض الحاضرين من السادة : المدد يحصل من أي من ذلك( )؟، فقال : إنما يحصل المدد للمنخفض ، والمماثل يحصل له قليل من ذلك ، والمُرتفع لا يحصل له شئ أبداً ، قياساً على أماكن الماء ، فالذي يحصل له المدد الذي يرى نفسه دون المزور ، والذي يَرَى أنه مثله يحصل له قليل من ذلك ، ويُحْرَم من ظن أنه أفضل منه ، وزيارة الحي في ذلك أبلغ من الميت لأن الميت اندرجت بَشَريته في خصوصيته ، فلا معك منه إلا ما تسمع عنه من مناقب وكرامات ، فهو مُجَرّد خصوصية ، والحي إن كمُل ، فهو خصوصية مع بشريّة ، وإلا فبشريّة فقط ، ويَمْنع من المدد أيضاً إشتغال الخاطر بحيث لا يكون معه اجتماع ، وراح بالنَّاس اشتغالهم بهموم معاشهم .

(2/58)

ثم قال الشريف المذكور : من علم بما فيه ، مما يمنعه من ذلك ، ما يلزمه في حقه؟، فقال : من

بلغته الدَّعوة إنما يجب عليك تَدْعوه وتُذكره ، لا أن تعلّمه ، فقد كان النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم بمكّة قبل الهجرة ، إنما يدعوهم إلى الإسلام فقط أكثر مما بعدها ، ومن رأيته يصلي ولا يَطمئن في صلاته ، وهو عالم بوجوب الطمأنينة ، لا يلزمك أن تُعَلمه ، إنما أكثر ما يلزم التَّذكيرُ ، والإنسان يدّعي بإجتهاده وسَعْيه ، ولو وُكِّلَ الأمر اليه في تدبير نفسه لما أحسن ذلك ، ولا قدر عليه فضلاً عن غيره ، و وجدت الموجودات على مقتضى عقل أعقل الخلق ، لو رجح بعقول جميع الناس ، لما اقتضى أن توجد أحسن مما وجدت ، ثم أطال الكلام في الصلاة فكان من جملة ما قال فيها : إنها عمود الدين وإنها تجر إلى أمور الدين ، لأنها تَنْهى عن الفحشاء والمنكر ، وآخر ما تكلم به النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم يوصي بالصَّلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم ، لأنهم كانوا أهل حرب . وأما التهنئة بالبنت ، فلا نعرفه والدَّليل فيه مأخوذ من تهنئة كعب بن مالك بالتوبة ، وقوله عليه الصلاة والسلام لأبي بن كعب( ) : ليهنك العلم أبا المنذر .

وقال رضي الله عنه : لا وَجْه للتهنئة بالبنت ، وإنما هي بالولد ، وَعَلى هذا يُسْتشهد من لفظ التهنئة من قوله : رزقت بره أوَ للبنتِ بِرٌّ وبلغ أشده ، كلٌ ضمائره مذكرة ، ولكن من أراد يحاجج( ) ، قال : وما هو إلا كذا ، وما رأينا في الكتاب إلا هكذا .

(2/59)

وأوصى رضي الله عنه رجلاً ورغَّبه في مطالعة كتب الإمام الغزالي ، فقال : أكبّ على مطالعة كُتب الأمام الغزالي ، فإنها في كل الكتب كالخصار في الطعام ، بل أعلى من ذلك ، فإن الطعام إذا لم تَشْتهه في وقت تَرَكْته إلى وقت أخر ، وهذه لا يَسْتغنى عنها بحال ، لأنه جَمَع فيها الشَّريعة ، والطريقة ، والحقيقة ، ومواريث السَّلف ، وإذا جاء عند ذكر الحقائق حد لها حدوداً ، وشرط لها شروطاً ، ليتحقق من أرادها ، أنه من دخل إليها من غير بابها أنه ضال مدِّع ، وقد رأى بعضهم بعدما صُنّف "الإحياء"

الشيطانَ يحثو على رأسه التراب ، فقال له ما بالك . قال : صُنِّف في الإسلام كتاب ، أخشى أن الناس يتبعونه . وعلوم الحقائق هذه رأيتها أنها كالنَّار المحرقة ، أو كالمياه المغرقة ، إذا دخلها الإنسان إمَّا غرق ، وإلاَّ احترق ، ويحس الإنسان إذا نظر إلى الإحياء أنه كتاب مطول ، وإنما هو مختصر( ) وذلك لبلغ مجلدات كثيرة ، وقد قال الإمام النووي : كاد الإحياء أن يكون قرآناً ، وهل ذلك لكثرة ما فيه من آيات القرآن ، للاستدلال بها ، أم لكونه معجزاً فشابَه القرآن من هذا الوَجْه، وهذا أقرب ، ومعنى كونه معجزاً أنه على منوال لم يُسْبق إلى مثله، ويعسر على من أراد أن يُصَنف مثله الإتيان بمصنف على نمطه.

وقال رضي الله عنه : الإحياء بالنِّسبة لما اشتمل عليه مختصرٌ جداً ، ولو فُصّل ما ذكر فيه لبلغ ستين مجلداً ، قال : سمعت عن بعض أهلنا المتقدمين ، أنهم سمعوا آباءهم كثيراً ما يذكرون الإمام الغزالي ، قالوا له : ما هو الغزالي ، سَيّد هو ، يعني شريف ، قال ليس بسيد و لكنه سيد السادات .

وقال رضي الله عنه : إثنان يغار منهما أهل الباطن ، ويحسدونهما أهل الظاهر ، لأنهم إذا طعنوهما بمَسلة( ) طَعَنَاهم برمح : الشيخ عبدالقادر ، والإمام الغزالي .

(2/60)

وقال رضي الله عنه : عن الشيخ عبدالله العيدروس : الإحياء مغناطيس القلوب ، يَجْذبها إلى حضرة علام الغيوب .

أقول : وما سمعت سيدنا قط ، يقول في مسألة ذكرها الإمام الغزالي ، أنه لم يُسَلِّمْ له فيها ، بل كلّما تكَلّم في مسألة ، وفيها كلام لغيره ، يقول إن كلامه هو الراجح ، إلا قوله( ) في الموازنة بين القيامتين ، الصُّغرى وهي الموت ، والكبرى وهي البعث وما بَعْده ، وأنه يقال في الصُّغرى : ولقد جئتمونا فرادى ، فقال : ليس هذا بمسَلّم له ، فإن الله سبحانه

وتعالى ذكر في غير موضع من القرآن ، إنما يقال ذلك في القيامة الكبرى .

وذكر يوماً رضي الله عنه الإمام الغزالي ، ثم قال : هو والسُّهروردي ، والمحَاسبي ، يتواردون على منهل واحد ، وإن اختلفت الموارد ، ولكن من في قلبه دغل يتَعلّق( ) أوهن البيوت لبيت العنكبوت .

ولما خَتَم السيد زين العابدين بن مصطفى كتاب "الأربعين الأصل" للإمام الغزالي ، تكَلّم كثيراً في ذلك المجلس ، فمن ذلك قال : سبحان الله ، كلام الإمام الغزالي يكفي عن غيره ، وغَيْرُه لا يكفي عنه ، وصَدَق من قال : لو يجوز خروج نبي ، كان الإمام الغزالي ، وثَبَتت مُعْجزاته في بعض مؤلفاته ، وقد رأى الإمامُ الرازي وبعضُ أصحابه النبيَّ صلّى الله عليه و آله وسلّم ، فقال عليه السلام( ) : أتحب أنْ كنتَ قد أدركتني ، فقال : كيف لا أحب ذلك ، وأنا متأسف على رجل من أمتك ما أدركتهُ ، أن لا أكون أدركتهُ ، فقال : مَن هو؟، قال : الإمام الغزالي ، فقال عليه السلام : ذاك هو الإمام الزاهد الفاعل( ) ، حتى عدد مائة خصلة ، وكذلك ما رآه الشيخ أحمد الزبيدي ليلة مات الغزالي ، وهو أنه رأى أنه خرج من قبره ، وعرج به من سماء إلى سماء حتى غاب عنه ، فسأل عنه من هو؟، فقيل : الإمام الغزالي .

أقول : قوله أحمد الزبيدي ، يَعْني الشيخ أحمد الصياد ، وتقدمت قصته هذه ، ومكاشفته ، وكذلك ما رآه الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، نفع الله به آمين ، قال : نمت في المسجد الأقصى ، فرأيت خلقاً كثيراً ، جاءوا أفواجاً أفواجاً ، فقلت لرجل في جنبي : ما هذا الجمع؟، قال : جميع الرُّسل والأنبياء قد حضروا ليَشْفعوا في الحسين الحلاّج ، فدخلوا عند محمد صلّى الله عليه و آله وسلّم في إساءة أدب وقعت منه فشفَّعهم وقبل شفاعتهم وعفا عنه ، ثم نَظَر فإذا نبينا صلّى الله عليه و آله وسلّم جالس على

التخت بانفراده ، وجَميع الأنبياء والرُّسل جالسون على الأرض ، مثل إبراهيم وموسى وعيسى ونوح ، فوقفت أنظر ، وأسْمع كلامهم ، فَخاطب موسى محمداً صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، فقال : إنك قلت : علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل ، فأرني من أمتك واحداً ، فقال له : هذا ، وأشار إلى الإمام الغزالي ، فَسَأله موسى سؤالاً واحداً ، فأجابه بعشرة أجوبة ، فاعترض عليه موسى بأن الجواب يكون مطابقاً للسؤال ، فقال له الغزالي رحمه الله : هذا الإعتراض وارد عليك أيضاً حين سئلت : وما تلك بيمينك ياموسى ، فكان جوابك أن قلت : هي عصاي أتوكأ عليها ، وأهش بها على غَنَمي ، ولي فيها مآرب آخرى ، فعددتَ لها صفاتٍ كثيرة فابتهر سيدنا موسى من قوله وتعجب غاية العجب ، قال : صدقت يامحمد علماء أمتك كأنبيائنا ، قال الرَّاوي : فبينما أنا متفكر في جلالة قدر نبينا ، وكونه جالساً على التَّخت بانفراده ، والبقية على الأرض ، إذ رفسني شَخْص برِجْله رَفسة مزعجة ، فانتبهت فإذا بالقيِّم يشعل قناديل المَسْجد الأقصى ، فقال : أتتعجب أن الكل خلقوا من نوره ، فخررت مغشيّاً عليّ ، فلما أقاموا الصلاة أفقت ، وطلبت القيم فلم أجده إلى يومي هذا .

وذكر الشَّرجي في ترجمته للإمام الغزالي ، عن أخيه أحمد ، قال : لما وضع في قَبْره ، رأى يداً تناولته من اللّحد ، وبقي فارغاً لَيْس فيه أحد ، وهذه القِصَّة تؤيد ما رآه الشيخ أحمد الصياد المذكور آنفاً ، والله أعلم .

وذكر رضي الله عنه جماعة كانوا يتَردَّدون إليه من آل الشيخ أبي بكر بن سالم ، ثم انقطعوا ، فقال : ما كان بَيْنَنَا وبينهم شئ من أمور الدنيا ، ولا نالنا منها منهم شئ وهم عالمون ، ولو أرسلوا لنا شيء رَدّيناه ولا قبلناه ، وإنما مرادنا منهم أن يتربّوا ويتخَلّقوا بأخلاق سلفهم ، ما هم داريين إنا نربي الرجل من أولادنا على الخُلق الواحد سنين .

وسئل رضي الله عنه عن الشيخ علي بن أحمد( ) ، فقال : وأما الشيخ علي فجوهرته محفوظة ولم يَزَل لنا على المحبّة ، وخاطرنا من جانبه طَيِّب ، أو كما قال .

أقول : ترَّدد الشيخ علي على سيدنا ، ويكتب إلى سيدنا إذا منعه العذر من المجيء في بعض الأوقات ، وما تَردّد على سيدنا إلا بجاذب من الحَقّ ودواعي دَعَتْه ، ورأى النَّبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم مراراً يشير عليه بذلك وبالإقبال على الله ، فأمره الحبيب أن يقرأ عليه في كتاب "فَتْح باب المواهب" لجدّه الشيخ أبي بكر بن سالم ، ثم في كتاب "الأربعين الأصل" للإمام الغزالي ، وتهذّب السيد على يد سيدنا وفُتِح عليه ، وكان الشيخ علي إذا جلس بحضرة سيدنا عبدالله يغيب عن حسه ويذهل عن شُعوره ويغير على رِجْل سيدنا يقبِّلها ويمد له يده ليصافحه ولا يغير إلاَّ على الرِجل ، وكان حصل له منه نظر تام وشدة عناية واعتناء من سيدنا ، فيهناه ما أوتيه وبقي على الاستمداد دائماً( ) .

(2/63)

وقال رضي الله عنه لرجل( ) من السادة تخلف عن صلاة العصر مع الجماعة خَلْفَه( ) ، وذلك يوم السَّبت في 4 شعبان سنة1130 : ما الذي خلفك عن الصلاة والقراءة؟، قال : جاءني فلان وفلان من السادة اجتمعت بهما في المسجد ثم ساروا معي إلى الدار فَقَطعوا بي ، فقال رضي الله عنه حَق مباسطة : كيه ذا حَشَّمُوك ، وهذه الأمور لا حرج عليكم إذا طَلَبْتموها على الوجه المباح الذي لا يتعدى إلى محظور ، وقد وَصينا أصحابنا بأن يتَوسّطوا فيها ولا يبالغوا فيها ولا يترَفّعوا ولا يتَكَبّروا على غيرهم بل يُسْتحسن لهم فيها الأوسط لأن في طبع أهل هذه الجهة إذا رأوا الإنسان يتواضع لهم دَحَقُوا عليه ، وظنوا أنهم أفضل منه وأنه ما يبلغ حِذاهم ، وإذا رفع نفسه عرفوا له حقه ، وهذا ما يَنْبغي ، ولو أنهم رَفَعوا مَن تَوَاضع لهم وَظنوا أنه قد تنزل لهم دون ما

يستحق لكانوا قد أصابوا، فلهذا نحب الوسط ولا نحب الغُلو ولا التسَفُّل.

وفي مجلس آخر ذكر الرياسات وأهلها. فقال رضي الله عنه : الرياسة الحقيقية لا اعتراض فيها وإنما المَذْموم الرِّياسة الصُّورية الوَهْمية ولكن إذا حصلت الحقيقيّة في رجل جاء أولاده يطلبون الرِّياسة الوهمية المذمومة كالشيخ فلان وهذا أمر عزيز لا يكاد يتم منه للأشراف حتى إنه يشق على السادة انتساب الشّيخ أبي بكر بن سالم إلى معروف باجمال مع أن له مشايخ كثيرة غيره من السَّادة فلم يَظْهر الانتساب إلى أحد منهم والمشيخة إلا بالنسبة لا بالاجتماع اتفاقاً ، ودَخلت أم الشيخ أحمد بن الحسين العيدروس( ) بقَهْوة وقالت له : رح بها إلى الشيخ أبي بكر بن سالم وقل له يَدْعو لك وسلم عليه ، فقال له : تسلم عليك الوالدة وقالت : أدع لي وأرسلت هذه القهوة حَقّ البَرَكَةِ فقال : إنك ما تحتاج إلى الدعاء ولكني أُسلُّ منك حق آل العيدروس كما تُسَل الشعرة من العَجين أو كما قال وذلك يوم الثلاثاء و20 من جماد أول سنة 1128 .

(2/64)

وفي مجلس آخر ذكر أُناساً مشغولين بحب الجاه ويتَكَلّمون فيمن يُذكر بشيء من ذلك ولو من أقاربهم ، فقال : إذا لم تتمكن أن تكون رأساً فدع أخاك يكون لك رأساً وبهذا السَّبب إن الله عكسهم ووقع لهم مثل ما وقع للديك والحدأة فإنه اذا رآها تأخر عنها خوفاً منها ثم لما كبر بقي كذلك فقيل له : لم تتخلف عنها وأنت أكبر منها ، فقال : قدني أخاف منها مذ كنت صغيراً ، وعَمّال يطلبون حتى يَصير أي أحدهم مما حَصَّل بلا شئ في مداراة من لا يستحق المداراة من عَجم وغيرهم كيف تَتَكبّر على أشراف وفضلاء وتتواضع لأراذل وتكلم في هذا الشأن كثيراً .

ثم قال نفع الله به( ) : ما عاد بقي إلاّ هؤلاء الجماعة بُلو بنا وبُلينا بهم وإن كانوا ذو رَحم وما عاد إلا أسير

معهم بما يظهر لي ولو ما سرت معهم بما يظهر لي ما وصلْنا إلى هذا الحد ، وناس من الأشراف ما يؤبه لهم يبالغون في التواضع لهم ، لامهاجرين ولا أنصار . ثم قال : وتسطر لهم أنه لا يَسْتقيم لهم جاه إلا بالدحق على أصحابهم وبهذا السبب انظر كيف يتعاملون بعضهم مع بعض وهم فخذ واحد .

وقال رضي الله عنه : نحن على القدم النَّبوي وسِيْرة سلفنا السابقين ما استطعنا، ومظهرنا إنما هو مَظْهر علم لا مَظْهر رؤية شيء آخر ، لأن الرياسة على أهل الدين إنما هي زَرَا بِهِم .

وقال رضي الله عنه : كلما جاوز حَدّ الوسط والأعتدال فهو شَرّ وبلاء وخُصُوصاً في العادات فإن ذلك في العبادات قد يُغْتَفَر إذا زيَّد على قدر الممكن إما شغف بالعبادات أو الاحتياط . وستأتي هذه المقالة بأبسط منها هنا قريباً .

(2/65)

وذكر رضي الله عنه جماعة من المعروفين في الجهة ، فقيل له رضي الله عنه : إن آل فلان( ) يدّعون في أنفسهم . فقال رضي الله عنه : لا عاد تَغْتر في هذا الزّمان بِدَعاوي النَّاس فقد خرجت فيه الأشياء عن أوضاعها فانظر إلى أحد من آل فلان وهم من أحسن النَّاس لو أمنته وسألته كيف يقول لك( ) وأما ابن إسحاق اليتيم ، فكان إلا فقيراً لبَاعبَّاد .

وَذَكر رضي الله عنه جماعة من السادة المعروفين بحبّ الرياسة ، أنهم تَغْلب عليهم السَّلامة حتى تَخْفاهم الأمور الكثيرة ، فقال : وهذا لعدم مخالطتهم للنَّاس ، حتى فَوّتوا طلَب العلم ، وَفَاتَتْهم مجالسة صَالحي زمانهم ، فأعمارهم راحت ضائعة ، وليست هذه عادة أسلافهم ، فإن الناس ما قَدّموهم إلا لكونهم متقدّمين في الفَضْل فيَنْبغي أن يتَربَّوا بغيرهم ، حتى يترَبَّى بهم غيرهم ، فإذا لم يتربَّ فكيف يُرَبي .

وقال رضي الله عنه : الحزم تَرْك الكلام ، لأن من كثر كلامه كَثُرت خطاياه ، فإذا تركه سَلم من الإثم والفضول .

وقال رضي الله عنه : نحن جاه حَضْرموت ما هو على بالنا ، ومانَرَى جاهَهَا إلا الخمول ، وما يَدْخل علينا لا نَفْرح به ، إلا إن نواسي به محتاجاً . وما خَفَّنا عن الإقامة في الحرمين إلاَّ خوف الشُّهرة والجاه ، وهذا فينا من حيث الطبيعة لا أنا نتكلفه ، ولأن الإنسان ما يستقيم أمره ويَصْفو إلا إذا كان فيما بينه وبين الله ، وإذا ظهر دَخَلت العلل ، إنْ ما دخلته من جانبه ، دخلته من جانب الناس .

(2/66)

وشكا إليه رضي الله عنه رجل من فقرائه( ) ضِيْق المعاش ، وكان ممن يقرأ القرآن ، فقال له : إجعل المصْحف نُصْبَ عينيك ، ولا تزاحم أهل الدنيا ، وخَلِّهم هم الذين يجيئون إلى عندك ، لأن صاحب الدِّين لا يحتاج إلى صاحب الدنيا ، هل يحتاج من عنده( ) جوهرة إلى من معه وَدْعَه ، ومن رأيته يتنعم في الدنيا ويتقلَّب فيها فهو كالمتمرغ في عَدانِه ، أي مزبلة هل يُمْكنك أن تَغْبطه وتتمنى أن تتمرغ فيها مثله ، لا ، بل تَفْرح بالسلامة من ذلك ، واصبر مع عيالك وخلهم هم يترقونك بالعشاء والغداء إذا رأوك مهتماً بأمر دينك ، وغافلاً عن هَمِّ المعيشة ، ولكنك خُذْ منه ربع الكفاية ورد لهم الباقي ، وقل أنتم تَتعبون في تَحصيله ، وأنا جالس ، فهذه هى الطريق لك ولِجُبْنِك ما تعرف الطريق مع طول مجالستك لنا ، لا بَلْ تَعْرفها ، ولكنك نَفْسك غالبةٌ عَلَيْك ، فلا تَقْدر تَعْمل ، قال ذلك ضحى يوم الجمعة ثالث جماد أول سنة 1123 .

وقال رضي الله عنه : شاغل أهل حضرموت وراحتهم في أيام الخريف ، فتظهر في هذه المدّة أشغالهم الباطنة على ظواهرهم ، ولكنها أشغال مُسْتلذة عندهم .

(2/67)

وأشار رضي الله عنه : على فقير من بعض فقراء الجِهَة أقام هنا ، بالمسير إلى بلاده ، وقال له : بلادك الآن خير لك ، والخَريف قَرُبَ ، فلم يمتثل ، واختار الإقامة بتريم ، فَتَركه ثم بعد أيام أخبره رجل من أهل بلده أنه حصل بَيْع في نخيلات له ولإخوانه لغيبته عنهم ، فجاء يطلب الشور في المسير ، فقال له ما عاد شئ شور في المسير الآن وقد سَبَقت لك الإشارة فلم تمتثل ، والآن افعل ما أردت ، فقال : بل أريد الإشارة والدعاء . فقال نفع الله به : ما يصير الإنسان صالحاً ، إلا صاحب علم يَعْمل بعلمه أو صاحب حال يَعْمل على حاله ، وأما لَقْلَقْ ما يَنْفع ، وهذه لَقْلَقة اللِّسان المذمومة ، والإشارة ما هي إلاّ استماع وامتثال من غير اعتراض ، بل يسَلِّم ويمتثل ، ولا يقيس بعقله ، ثم لا عليه ، فلو قلت لك رُح اجلس في يَبْحَر( ) ، أما تقول هاه من أين آكل ، وأنتم اجعلونا في الإشارة إلا كصاحب علم يشير بما يقْتَضيه عِلْمه ، ولو ما عرفتم وَجْه الصلاح فيه ، وهو لابد أن العالم ما يشير إلا على مقتضى العلم ، ولا عاد تجعلونا أهل صلاح ، نشير بمقتضى الصَّلاح ، ومن اعترض على العلم اعترض على الصَّلاح أيضاً .

وقال في غير هذا الموقف : والإشارة ما تبرز في كل حين ، ولا لكل أحد ، وإنما هي عارض أي فالممتثل ينبغي له اغتنامها إذا حصلت والاعتماد عليها ساعة يسْمعها .

وقال رضي الله عنه لرجل جاء زائراً : أتريد أن تسافر إلى بلادك؟ قال : الذي تَبْغون ، فقال نفع الله به : كيف الذي تَبْغون ، هذه كلمة فيها سوء أدب ، إنما نستخبركم عما أردتم أنتم ، وتعرضونه علينا ما هو إلاَّ إذا قال واحد هكذا نخليه يَمْكث شهرين ، حتى نشوف خَبَره ، ونحن قد ذكرنا لكم ما جرى لنا مع السَّيد عمر العطّاس وأمثاله ، لتَعْرفوا وتَعْتبروا ، لمّا زرناه وخَرَجْنا من عنده ، وهي تَمْطر ، فقال لنا :

عساكم تجلسون ، فقلنا له : إن أشرت لنا بالجلوس جلسنا ، وإن كنت إلاَّ من جهة المطر فلا عَلَينا من ذلك ، فَخَرجْنا وأبردنا ، وإنما ذلك مع الانطراح الكلِّي حتى نحن نود أن يكون معنا منه بعض شيءٍ ، وقد جاء بعض المريدين إلى بعض المشايخ طالباً ، فقال له : رُحْ أولاً إلى عند الشيخ عبدالقادر يعلّمك أظن قال الأدب أو الانطراح ، فراح إلى عِنْده فَتَركه نحو مائة يوم أولاً . والكذب كذبان ، كَذِب يختلقه الإنسان ، بأن يقول خلاف الواقع ، وهو كذب الفُسَّاق ، وكذب في الحال بحيث يدعي أمراً لو امتحن فيه لكان على خِلاَف ذلك ، ولا يصير الإنسان من الصدِّيقين حتى يصدق في الأمرين جميعاً ، ثم هو على درجات .

(2/69)

أقول : وكان سيدنا رضي الله عنه من سِيرته كما يدل عليه أقواله ، أنه إذا أشار على أحد بأمر ورآه راغباً في خلافه ، قال له : افعل كذا الذي يريده ، أي إذا لم يكن فيه إثم ، ويقول له : إنما قلنا لك كذا إيناساً لك ، ونحو ذلك ، وقد رأيت من جَماعة سيدنا نفع الله به ، على هذا الوصف أي من الانطراح الكلي ، الشيخ عمر العمودي ، حتى إنه يوم الخميس والقهوة تدار حال الخَتْم ، وكان قاعداً في الصَّف ، وسيدنا قدَّامه في المحراب ، فأعطي فنجاناً وكان صائماً على عادته فقَبض الفنجان وأراد يَشْرب ويَبْقى على ما نَوَاه لكنّه ما استعجل بالشرب ، ففي الحال نادى سيدنا الخادم خذ الفِنْجان من يده ، فتناوله منه وأعطاه إياه، فعجبت لذلك منه رحمه الله ، وزاده من كل خير.

وقال رضي الله عنه لرجل مسافر( ) من جانب سَفَره ، فقال : على ما تريدون ، فقال نَفَع الله به ، مُرَادنا إطْلاق الكلام للتَّنْفيس ، ولا نقيده فَيَحْصل التَّضْييق ، وإذا جعل اللّه لك النَّفس ، فلا تُضَيّق على نَفْسك ، ليعاملك اللّه بالنَّفَس في دينك ، ومعاشك ، وكل أمورك ، ولو أردنا تقييد الكلام في مثل هذه الأشياء قيدناها( ) ، وجعلنا إذا قال : أريد السفر

اليوم ، قُلنا : غدوة ، وإذا قال : غدوة ، قلنا : اليَوْم ، ولكنّا اخترنا التَّسهيل على النَّاس ، فيكون على ما سَهل على الإنسان ، إن كان ذلك عن قرب أو على بعد .

(2/70)

وقال سيدنا يوماً رضي الله عنه في معرض المزاح ، وهل لو جاء رجل إلى بعض الناس ، وقال له أبسط سجّادتك على الماء ، أو قال أظن على الهواء ، ولم يألف ذلك ، ولم يَعْرف القائل له ، هل يُطِيعه أم لا ، ثم قال : ما أظن أنَّ أحداً يجيب إلى ذلك ، إلا فلان ، لأن الإنسان لا يَدْري هل ذلك من الصَّالحين أو شيطان ثم إلتفت إليَّ وقال : لو قال لك أحد تعال أوصلك إلى بلادك في ساعة تطيعه؟، قلت : أشاوركم ، وأشرط عليه الإعادة على قرب ، قال : لا ، إنه لو جاءك وحدك ، قلت : لا أجيبه ، قال : قد قيل : إن كرامات الأولياء وغاراتهم قد طُوِيت ، حتى أنه رُوي أن بعضهم جاء بحزْمة سيوف إلى آخر ، وقال : هذه أحوال الصالحين طُويت ، ثم قال سيدنا : ما الإنسان يريد الصلاح ولا الصالحين لأجل هذه الأمور ، إنما يريد ذلك لطاعة الله تعالى والدَّار الآخرة ، أقول : وأول هذا الكلام مقدّمة لآخره ، ولهذا ذكرته.

(2/71)

وأراد رضي الله عنه يوم الجمعة ثاني ذي القعدة يركب إلى البلاد اعترضه ابن ابنه أحمد بن الحسين وسنّه حينئذ نحو خَمْس سنين ، أراد يركب معه إلى البلاد ، وإذا بمكتِّب جاء بأوراق من الشِّحر ، فصَافحه وناوله الأوراق وناوله قرشاً مُرْسلاً به من الشحر ، فقال لأحمد : أترجع وتأخذ هذا القرش ، قال : نعم ، فأعطاه إياه ، ورجع فسار سيدنا قليلاً ، ثم قال يخاطب الخادم : كأنك حزنت عليه ، تريده للجَعْلاَ( ) أما قلنا لك قل : يا فتاح يا رزاق فأبيت ، فقلت أنا : إن لم يقبل الإشارة فأنا أقبلها ، وأقول ذلك ، ثم بَعد

قليل ونحن سائرين ، قال : ولو كنا نُخَبِّي وندخر لغيرنا من الأهل والمحتاجين ، فطريقنا عُمَرِيّة ، إنما هو تقدير الأمور وتَرْتيبها ، وَوَضْعُ كل شئ في محلِّه ، وإن كنّا لا نَحْفل بها فإن عمر كان يُرَتّب ويقدّر لأبي بكر ، إذ أبوبكر من أراد منه شيئاً له وجه في أخذه أعطاه إياه ، وعمر ينظر من أولى منه ، وكان له قوة في تَقْدير ذلك إذ لا يريد شيئاً منه لنفسه ، ولو كنا متجرِّدين من الأهل والعيال ، لكنا لا نَدّخر شيئاً ، ولا نَبِيْت على معلوم ، فقلت له : من فَضْل اللّه أنهم رأوا النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، ومن بعدهم رأوهم ، وهكذا إلى زماننا، وفي نفسي إننا أيضاً رأيناكم ، فقال : نعم والأولياء موجودون الآن ، وما عدموا ، ولكن يَخْفَون ويقلّون ، وظهورهم وخَفَاهم بحسب صلاح الزمان وفساده ، لكن انقسم النَّاس فيهم إلى محب غالي يكاد يعبدهم من دون الله كما كان ذلك في حق سيدنا علي ، ومنهم عدوّ شاني حتى لَعنوه على المنابر ، ولكن المبغضون لم يزل أمرهم يَضْعف ويتلاشى ، وأمر الآخرين يَقْوى . حتى في وقتنا هذا منهم المطبوع لنا على المحبة والتَّعظيم ومنهم العدو القالي وإن أظهر المحبة ، حتى إن أحدهم لم يطالع لنا كتاباً ، وإذا سمع لنا نظماً ضاق منه ، مع مجاروتهم لنا في النَّسب والبلد ، فلا هُم رَبَّوا دينا ولا رياسة ، ولولا انقباضنا

(2/72)

عنهم وعدم مخالطتنا لهم ، كان آذونا وأشغلونا ، فذكرت له حينئذ رؤيا وقعت لي البارحة ، وهي إني قلت له : رأيتكم البارحة وأنا معكم جينا من مكان ، وإذا بكم تقولون : سر إلى المكان الفلاني ، وكأني ثقل عليَّ ذلك لعسر فراقكم عليَّ ، فلم تعذروني في الترك ، فلما رأيت منكم العزم ، قلت : فإذاً أكون معكم في الدنيا والآخرة ، فقلتم : نعم ، فَفَرحت لما قبلتم مني ذلك ، فقال : ذلك لتعلقك بالسّلسلة ، ولما بلغ أحمد المذكور سَبْع سنين ألبسه حينئذٍ( ) عمامة ، فجاء فرحاً بها إلى أبيه الحسين ، فأخذها منه ، فرجع إلى حبيبه باكياً ، فلام أباه في أخذها ، فكتب أبوه الحسين إلى أبيه سيدنا الحبيب أبياتاً

يعتذر فيها إليه ، ويقول : الكبير أولى بالعمامة من الصَّغير ، فكتب إليه سيدنا والده هذه الأبيات جواباً له على نمط أبياته ، بسم الله والحمد لله :

وليس على أحمد لكم ملامة ... ... وتعذره الولادة والرحامة

وحَسْبك قول من يسأله كسرى ... ... من الحكماء( ) أرباب الزعامة

وحب المصطفى المختار صلى ... ... عليه الله ما درت غمامة

لابنيه حسين وأخيه ... ... بني الزهراء فاطمة الكرامة

وكُلٌّ تابعٌ للكل منهم ... ... لأنهم مصابيح الإمامة

وبعد وفاة سيدنا الحبيب بأيام ، قال لي أحمد المذكور : رأيت البارحة كأني دَخَلت على حبيبي عبدَالله في قبره وكأنه أعطاني عمامة ، ودعا لي .

انظر ما قال في الولاة الظلمة وشؤم الظلم

(2/73)

وقيل له رضي الله عنه : فلان يَعْرفكم ، وهو من بعض الملوك ، فقال هو يعرفنا ونحن لا نَعْرفه ، ومن يَدَهَنا( ) من الولاة الظلمة وعنده الدنيا ما رجع ، وأما أنَّا نتعرف بهم فلا ، ونحن على القَدَم المحمدي وسيرة سلفنا السَّابقين ما استطعنا ، ومظهرنا إنما هو مَظْهر علم ، لا مَظهر رؤية شئ آخر ، لأن الرّياسة على أهل الدين ، إنما هي زرابِهم ، وعاد نحن في جميع أحوالنا مترخِّصين في جميع أحوالنا( ) ، في حالتنا هذه على مُقْتضى العلم أيضاً لا على مقتضى الباطن ، ولو نظرنا وعملنا على ما نَعْرفه من العلم ما سَاغ لنا شيء ، ونحن لا نَسْتريح بما يَحْصل لنا من أمور الدنيا لأنا فيها أزهد ممن تأتينا من عِنْدهم ، لأنهم يتعَذبّون في تحصيلها ، ويَجْتهدون

في طلبها، وطريقتنا طريقة الفُقَراء ، وهي غير طريقة المشايخ ، ونحن ما نريد أحداً يتقيَّد لنا ، وإن تقيد فمن غَيْر علم منا .

(2/74)

وقال رضي الله عنه : لشخص يذكر الأدب : خذ مني ، هذه المراتب تعطي الإنسان( )، سواء كانت مراتب الدين أو مراتب الدنيا ، ألا ترى في مراتب أهل الدنيا ساعة يُعزل عنها يكون على أخسِّ حال ، لأن المراتب على أصل الخِلْقة ، والخلقة من فعل الله ، بخلاف مراتب العمل ، فكلّ مرتبة تعطي صاحبها ما يناسبها سواء كانت المرتبة محمودة أو مذمومة ، ثم قال : ونحن ما أنكرنا على فلان( )، أنه يشرب الخمر أو يَزْني( ) ، وإنما قلنا : إنه ما يعرف أمور المرتبة ، لأنها تحتاج إلى رصانة ، وتحتاج إلى رزانة وتحتاج إلى سر ، وتحتاج إلى معرفة ، والبَخْت من وراء ذلك ، فمن كان له بخت أنقلبت سيئاته حسنات ومن لا بَخْت له بالعكس ، انقلبت حسناته سيئات ، وفَتْكُه إنما كان في لسانه ، لا في فعله ، ولو كان فتكه في فعله : لتم له أمره ، ولكنه في قوله ، ومن كان فَتْكه في لسانه ، فإنه يهتك ولا يفتك ، ولكن وقع ما قَدّره الله ، والمملكة الدينية والمملكة الدنيوية لا بدّ لها من تحفظ ومِنْ تأمل ومَن له علم رأى جميع هذه الأمور قد سُبق إليها .

(2/75)

وذكر يوماً رضي الله عنه ولاة الأرض وتَغَيّر أحوالهم فقال : جاءنا فلان( ) فقلنا له : أنتم اليوم والرّعية أموات ، ما الحي إلا آل فلان و يافع ولكنهم أول من يُخَرّب ، لأن من عَمَرَ نفسه بخراب غيره خَرُب ، وهذا سَلَفٌ مجرّب إما أسرع وإما أبطأ ، فقد كان بعض السَّادة معه ساقية ماء( ) ، وفي البلاد نقيب ، متسلط في وقته ، فأراد أن يَقْتَطع من ساقية الشَّريف شَيْئاً ، فَجَمع لذلك جماعة من العمارين وأمرهم بذلك ، فقالوا لا نفعل حتى تَبْتديء أنت

فأزال بيده حَجَرات ، ثم فعلوا كَفِعْله حتى أخذ منه الذي أراد ، فلما أُخبر الشريف قال : خَرّب الله دياره في الدنيا والآخرة ، فمَكَث أياماً لم يصبه شيء فتعجّب السيد وقال : هذا تعدى علينا عدواناً ثم لم يصبه شيء، هذا عجب فمَرّ يوماً مقبلاً من التربة ، فسمع قائلاً( ) يقول : هي تقع غير ما بَيْن عاجل وآجل ، فكان ذلك النقيب في تلك الليلة أو اليوم يَنْزح على بير الحصن ، يريد يَسْقي فرسه وحوله جماعة إذ أفلت الدّلو من يده ، حتى سقط فقالوا له في ذلك فقال : قطعت يدي يدُ القدرة ، فخرج في يده جرح ، وهي التي قطع بها الساقية ، ثم خرج إلى ذراعه ثم إلى حلقه ثم هَلَك وهكذا سنة اللّه في خَلْقه يَنْتقم الله بالظّالمين ، ثم ينتقم منهم ، وإذا تعدى الإنسان ضَرَّ نفسه وضَرَّ غيره ، وإذا بقي على حِشْمته ولم يتعَدَّ حدّه نفع نفسه ونفع غيره ، ما هو إلاّ إذا رأيت إنساناً مائلاً عن الحق انصحه بما أمكنك إما بالإشارة أو بالتَّعريض فإن قبل فذاك ، وإلاّ مِلْ عنه وخَلّه لربِّك ، فإن ذلك حَظّه منه ، فكل من رأيته على غير الطريق خله لربك .

(2/76)

ودخل عليه السيد زين العابدين ، فذكر له مجيء بدر وجماعته إليه فقال نفع الله به : جاء إلينا هؤلاء يلوّحون مثل من يلوّح بعود إلى عِلْب( ) ليسقط منه له شيء. وتسييب أوائل الأمور ثم طلبُ الذيل بعد ذلك أمر عسر ، ما عاد إلاَّ من يَسْتشيرك في مثل ذلك ، تبعد منه وخله على ما هو عليه ، أو قل له إسع فيما أردت فإن حَصَّل شيئاً فأنت معه شريك ، وإلاَّ سَلِمت من التَّوسط مثل حجة الصيد وهذه الأمور في هذا الزمان ما عادها إلا بالبخت( )، فلا تعتمد اليوم فيها إلا على البخت والنَّصيب ، وإلا فالأسباب ضَعُفت وقَلّت. ومما جربناه في هذه الأيام ببركة السَّادة أنه إذا جاءنا أحد يستشيرنا في شيء لا نريد أن نشير به عليه ، نقول له : على ما أنت عليه ولكن الله الله في الدين والصلاة والطّاعة وقراءة القرآن ، ولا نزيدهم على ذلك ، ولكن بعد ذلك ما يَحْصلون إلا على خير .

وصافحه رضي الله عنه : مَكَّاس بلدة شبام وقد يُجْعل مكاسا في تريم ، فقال له : لا تكن عَذاباً على أهل بلدك ، ثم تكون أيضا عذاباً على أهل تريم ، إذا أُمِرت بذلك فاعتذر ، فإنك إن كنت في خَير فيكفيك ما أنت فيه وإن كنت في شَرّ فلا تجمع شراً إلى شرٍّ ، وأوصاه كثيراً بالمساكين ، وكافة المسلمين .

(2/77)

وقال رضي الله عنه : ما غَيَّر الناس إلا النَّاس ، حتى الدولة ما سَبَب غيارهم إلاَّ هم ، وإلا فأحسن أن تسامح الغني لأجل الفقير، ولا تطيخ الفقير بمرقة الغني، والظلم يمحق، وتلا : {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ }( ) الآية ، وهؤلاء كذبوا ، وإذا فعل من آمن مثل فعل من لم يؤمن حصل فيما حصل فيه ، والتكذيب يكون في القلب وفي الأقوال والأفعال ، وهؤلاء كذبوا بأقوالهم وأفعالهم ، والله أعلم بما في قلوبهم ، وإذا ذبح الرعاة الغنم للذئب ما بالك؟، وقد كان الرعاة يحفظون الغنم عن الذئب ، وهؤلاء ذبحوا الغنم للذئب ، ولكن الله يُمهل ولا يُهْمل ، وقد قال الله تعالى في بعض ما أنزل ، أنا الظالم إن لم أنتقم من الظالم ، وجاء أيضًا أنه تعالى قال : لو كان الظلم حَجَراً ملقى في الجنة لخربت الجنَّة بسبَبه . مع أن الجنة لا تَخْرب ، وجاء أيضًا : إذا صلح الولاة والعلماء تَمَنّى أناس من الأموات أن يكونوا في الأحياء ، و إذا فَسَد الولاة والعلماء تَمَنّى أناس من الأحياء أن يكونوا في الأموات ، والآن هنا أحد في الأحياء( ) يَتَمَنّى أن يكون في الأموات .

وذكر رضي الله عنه : أقواماً مخالطين للدَّولة ، فقال تكَدَّرت أحوالهم ، لأن الصفا يتكدر بمخالطة أهل الكدر ، والنَّاس معهم منذ عشر سنين ، وهم يذوبون كما يذوب الملح في الماء ، والشَّجر في النار ، وقاعدة أهل هذا البيت( ) الخراب ، وإلا فقاعدة : من له حيلةٌ ضبطَ في مكان ، حتى إذا رؤي منه ذلك ، انضبط المكان الآخر ، ولكن هذا آخر ملكهم ، لأنه مُلْك شيبة ، وَوَقَع خرابه بأيدي أهله ، وهو كالضَّرب

في الشَّجرة( ) ، وما عاد مع الجزع ثواب بل عقاب آخر .

(2/78)

ودَخَل عليه رضي الله عنه رجل من بيت دولة الجهة ، فقال لسيدنا السيدُ زينُ العابدين : لكن رأيتم فلاناً ، يَغْنيه ، عسى أن يكون له حُرَّاقة ناضجة بحيث تُوري من أول قَدْحة ، فقال : سيدنا : إنا قد طَرَحْنا القُرَّاعة( ) في هذا الزمان فلم نقدح لأحد فيه قط( ).

وقال رضي الله عنه : لله في خلقه مثوبات وعقوبات ، فمن أحبه منهم أقامه في المثوبة ، ومن أبغضه جَعَله في العقوبة ، وإذا رأيت أن اللّه جعل أحداً ينتقم به ممن خالفه فاعلم أنه يبغضه .

وذكر رضي الله عنه والي اليمن ، فقال : هو ظالم لأن الظلم له صورة ، وإنما هو عقوبة طَرَحه الله على رِقاب الناس ، والوالي الظالم عقوبة ، يعاقب الله سبحانه به أولاً ثم يعاقبه .

وذكر رضي الله عنه عمر بن جعفر ، فقال : حركاتُه كثيرة ، وظَفَرُه قليل وإذا أراد الله بالعبد شيئاً [أي من الخير] جعل حركاته قليلة ، وظَفَرَه جَمًّا ، فانظر أمر الله في خلقه ، أحد منهم في الراحة وأحدٌ منهم في التعب ، وأهل حضرموت يَعْملون كالمريض الذي بَعُدَ منه الطبيب ولا معه دَوَاء . وليس للناس حاجة بقتل يافع ، ما هو إلاَّ يَرْفعون أيديهم من الأموال التي ما تنبغي لهم ، وَصِفَةُ العسكري ما هي إلاَّ هكذا ، ولو كان أربعة جماعة أردت تقدم منهم واحداً تَعالقوا( ) ، والأمر ما هو إلا بالنظام ، وقد قَصَد ستّة نفر بعض الملوك ثلاثة منهم عجم وثلاثة عرب ، فأمر لكل بسرير ومِرْوحة ، فأما العجم فأمّروا واحدا منهم ، وجعلوا له السرير ، وأعطوا المروحة آخرَ منهم ، يُرَوّح عليه ، والآخر جَعَلوه على الباب بواباً ، وأما العرب فاختلفوا بَيْنهم ، كل منهم يريد أن يؤمَّر ، فلما علم الملك بذلك أمر العجم الثلاثة بالإقامة عنده

، وأعجبه حالهم ، وطَرَد الثلاثة العرب ، وقال هؤلاء مفسدون لا خير فيهم ، أو كما قال .

(2/79)

وقال رضي الله عنه في الحض على التأهل للولاية وغيرها : تأهلوا للشيء، والصغير يربَّى كالعَشعش( ) ، يُسقَى ويُربَّى حتى يَكبُر ، فلو أراد جاهل يتوَلّى القضاء لم يمكنه ذلك( ) والسياسة لها حكم ، والشريعة لها حكم ، ولكن السياسة تُحكِم( ) الشريعة( ) إذا كانت السياسة من أهلها ، كما إن العادة تخدم الشريعة ، وقد رأيت( ) الإمام المتوكل( ) ، وكأني مررت عليه ، وهو في طريق كلها شوك ، وعليَّ حذاء ، وهو حافي فقلت له : خذ الحذاء فالبسها لأنك صاحب أمر ، فقال : لا ، ما يُحتاج إليها ، وإنما هي لأجْل ، ثم تَكَلّم سيدنا بكلام اشتبه عليَّ ، ثم أنشد هذا البيت :

ولربما قتل الفتى أقرانُه ... ... بالرأي قبل تقاتل الأقران

ثم قال والأمر ما هو إلا بالرأي والسر والسياسة .

وذكر رضي الله عنه تَذبذب السلطان وامتحانه فقال : من تولى على قوم ، يفعل الله به في الدنيا كَفِعله في رعيته ، كما أتعب الناس بالظلم ، أتعبه الله ، صام الناس رمضان في بيوتهم ، وهو لابِدٌ في غار تحت حِجَارة في شَبْوة وهكذا فأخذهم بأعمالهم .

(2/80)

وذكر رضي الله عنه رَجلاً وكان من سلاطين البلد المتقدمين ، أظنه بدر بن عبدالله الكثيري قال ذلك في طريق السبير يوم الأحد ، سابع ربيع أول سنة 1125 ، فقال نفع الله به : إنه لا بأس به ، وإن كان مخلّطاً فإن فيه خيراً يَسْتره ، وأما الآن إنما فيهم شوك بلا ثَمَر ، مجرد شر بِلاَ خير ، وأما لو كان شوك

معه ثمر فحسن ، فالنخلة فيها شوك وثمر ، والعِلب فيه شَوْك وثَمر ، وغير ذلك فلما كان جالساً في السُّبير ، قال : النخل هذا العام مليح الثمر ، ولولا أن المَهْدي تتقدَّمه فتن لقلنا هذه السَّنة من سِنِين المهدي ، فقيل له إن بعض النخل ، أي نخل السُّبير أصابه السيل ، فقال : قد كان فيما مَضَى يصله سَيْل دَمّون ، فأردنا أن نأخذ منه له ماء ، فخَشينا أن يَكُون ذلك حَقّاً مستمراً فَتَركْناه ، ويَنْبغي للعاقل في هذا الزمان فَضْلاً عن الزَّاهد أن يفرح بالسكون ولا يُحَرّك ساكناً ، ويترك الناس على ما هم ، وأرزاقهم على ربهم ، وهو كافيهم إياها :{أَلَيْسَ اللَّه بِكَافٍ عَبْدَه}( ) ، وإن تحرك فليتحرك في أمور الدين ، فإنها مُعَطّلة ، ولو قام عليك عشرون سيفاً أو عَصاً في شيء فأحسن لك أن تتركه ، ولو هو مالُك .

(2/81)

وقال له رضي الله عنه بعض السادة وكان قريب عهد بالسّفر ومن عادته الانبساط معه قال : قَدِمْتُ من السفر إلى الآن في كل شهر ثلاثة قروش دُفْعة للدولة يأخذونها منَّا ، ولا عاد شيء يقع برهان ، وقد كنا في السفر يحصل ذلك كثيراً ، فقال رضي الله عنه له : الفوائد تتبع العقائد فهناك تحصل للشريف مَشَمَّة( ) ويُعْتَقد، وأمَّا هنا فالمكان ملآن من الأشراف ، إذا تعدَّى واحداً لحق اثنين ، فضَعفت العقيدة لذلك ، ثم قال الرجل : خاطركم بالفرج عساكم تأذنون في قراءة يس في مسجد باعلوي بنية الفرج للمسلمين ، فإنكم لما أذنتم بها في طلب الغيث ، لم يفرغوا من مدة قراءتها ، حتى ضاق الناس من كثرة الغيث وملوه حتى قرئت بنية قطعه ، فقال رضي الله عنه : بِشَرْط أن تقسِّمون على الفقراء والمساكين ، إن أردتم يس فقسموا ، وكلٌّ يعرف يقرأ يس ، كما حكي أن رجلاً وقف يقرأ يس على دار بعض الناس ، يَطْلب حاجة من صاحب الدار ، فَنَزل صاحب الدار فدارسه إياها ، وقال كلنا نحسن قراءة يس ، لا تظن أنه لا يحسن يقرأها إلا أنت ، ولكن الأشياء إنما هي بالإشارات ، وفي الناس مصرّرِين( ) ، إذا جاهم الفقير يطلب الزكاة دفعوه

وَمَنعوه ، فلما لم يعطوا الفقراء حَقَّهم من حقِّ الله ، سَلَّط الله عليهم من يَقْلعها من مناخرهم قَهْراً ، فما أصابهم هذا ونحوه إلاَّ بمنعهم من الحق ، ولَوْ لم يمنع منهم إلا واحد ، فإنما كان عاقرَ الناقة واحد ، ورُبّ فقير محتاج إلى مِلْحفة ما يقدر عليها ما يعطونه من الزكاة ما يشتري له به ملحفة ، فأين الزكاة ، وأين حق الله ، ما يُخرجونه ، وأمر بقراءة "الإحياء" في مسجد آل أبي علوي ، وقال : إن فهموه ، وإلاّ فلا يَخْلو من روحانية أحد من الصَّالحين ، أو روح يَحْضر إذ ذاك ، لأن الأولياء منهم مَنْ تُطْلَقُ روحه في الدنيا والبرزخ والآخرة ، وكثير من السادة آل باعلوي كذلك ، كما ذُكر إن رجلاً اجتمع بالشيخ السيد عمر باشيبان( ) في

(2/82)

المشقاص بعد وفاته ، فقال له : مَن أنت؟، قال : أنا من الطَّلَقَة ، ومنهم من تُطْلق روحه في الدنيا فَقَطْ ، ومنهم في البرزخ ، ومنهم في الآخرة ، ومنهم من يَمْكث ببدنه في قبره بلا إطلاق لروحه ، أو كما قال .

وذكر رضي الله عنه كلاماً يُرْوى حَديثاً : إن الله يأخذ من الظَّالم لمن ظلمه ثواب سَبْعين صلاة مقبولة ، ثم قال نعم إن حَكّموه في حسناته يأخذ هذا وزيادة( ) ، لكن مقام العدل لا يقتضي هذا ، بل يعطى قدر حقه قَلّ أو كثر ، لأن مقام الآخرة كله عدل ظاهراً وباطناً ، لأن أمره إلى الله لا سواه ، وأما العدل في الدنيا فهو ظاهر ، لأنه مَنْسوب إلى الخلق ظاهراً ومنسوب إلى الله تعالى في الباطن أيضاً ، وكما إن الله تعالى طلب من الخلق العدل في الدنيا كذلك يعاملهم به في الآخرة .

وتكلم رضي الله عنه في أهل الزمان وفي دُول الجهة وفي كَثْرة ظلمهم فقال : أكبوا على جِيْفة الدنيا، وهي حرام إلاَّ قدر الضرورة ، قال تعالى : {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ}( ) الآية ، ومن تأمل أحوالهم عرف أن ما فيهم رَحْمة ، لا الدولة على

الرّعية ، ولا الرعية بَعْضهم على بعض ، فإذا لم يَتَراحموا ما رُحموا ، وأكثَرَ في مثل هذا ثم قال : إنا نحب أن نتنفس مع من نحب،فإن لم نتنفس وبقي ذلك مكموناً في صدرونا نخْشى عليهم أن يصابوا.

(2/83)

وقال رضي الله عنه في قول بِشْر : صُحْبة الأشرار تُوْرث سوء الظن بالأخيار ، أي لأن الأشرار غالب أوقاتهم يَذْكرون النَّاس بما لا يَنْبغي فيقولون : فلان كذا وفلان كذا ، حتى يَصِفوهم بأشياء من سمعها أنكر عليهم ، حتى حكى لنا رجل : أنه بقي يوماً يمشي خلف رجلين من أهل تريم يَذْكران صالحيها ، وأحدهما يقول للآخر : ما تقول في فلان؟، فقال : إنه يأتونه الدَّولة أو يَرُوح عند الدولة ، قال : وفلان؟ ، قال : إنه كذا وكذا ، قال : وفلان؟، قال : فيه كذا وكذا ، حتى لم يبق منهم أحد إلا ذكره بشيء( ) ، فقال له : كيف قلت إنه الآن لم يبق فيها صالح ، ثم قال سيدنا : والقدح في أهل الخير ، يقتضي القدح في الدين .

وقال رضي الله عنه في حديث( ) : ((من حمى مؤمناً من منافق ينتهك حرمته)) ، أي يغتابه ، وهذا يدل على أنه لا يغتاب الناس إلا منافق ، إلا أنه قد يكون منافقاً تام النفاق ، أو دون ذلك .

وقال رضي الله عنه : الشَّقاوة لها في قلوب أهلها حلاوة أشد من حلاوة السَّعادة ، أو قال الطاعة لأهلها ، حتى إن أمير الجيش الذين استباحوا المدينة وهَتَكوها ، وقتلوا غالب من كان فيها من المهاجرين والأنصار وذرياتهم ، وتُسمى وقعة الحَرّة ، وذلك أنه اتفق موته بين مكة والمدينة ، فقال عند النزع : إن كان عَذّبه الله بعدما فعل( ) في أهل المدينة ما فعل ، إنه لشقي ، انظر كيفَ عَدّ فعله ذلك قُرْبة يتقرب بها، وكان الجيش من قِبَل يزيد بن معاوية .

وشكا إلى سيدنا رضي الله عنه رجل شدة الظلم من الدولة ، فقال له : اصبر على ظلمهم حتى يضجروا

من الظلم فيتركونه ، أو يضجر الظلم منهم فيأخذهم الله .

وقيل له رضي الله عنه : عسى ببركتكم أن الله يكفي الناس شَرّ يافع ، فقال : الذباب لا يقع إلا على علة ، فعسى الله يكفي الناس شر أنفسهم ، إذ لولاها لكانوا في عافية .

(2/84)

وذمَّ رضي الله عنه هؤلاء( ) الظلمة ، فقال : لو قيل لأحدهم هاك كذا دراهم ، و صلِّ إلى شرق لفعل ، فالخطاب مع هؤلاء ما يجوز ، وما عاد إلاَّ إمنع على دينك ، وأشفق على نَفْسك ، وما قدرت عليه من فعل خير فلا تكره .

وقال رضي الله عنه : الظَّلمة ينبغى أن يُقرعوا بأشياء ، إذا اعتبرها الإنسان في الدين صحت ، ولا يَنْبغي أن يسلط الظَّالم على شئ أصلاً ، أما ترى في قصة إبراهيم مع النّمروذ ، حيث قال له إنها أختي ، وكذلك كلماته الثلاث .

وذكر رضي الله عنه المَظَالم ، فقال : مظالم أهل الزمان إنما هي في ألسنتهم وأعراضهم ، وإلا فإنهم أشحاء بأموالهم ، وكلٌّ ظَالم ومَظْلوم وما بقي إلا التَّواهب ، كما في الحديث : تَوَاهبوا المظالم فيما بَيْنكم وادخلوا الجنة برحمتي .

وَدَخل عليه رضي الله عنه رَجل من أهل الدَّولة ، فقال سيدنا له : أنتم ثلاثة قد قَصَدْتم هذا الأمر ، أنت وعمر بن جعفر وآل الشيخ أبي بكر ، ولا انجحتوا ، فقال الرجل : أنتم الأصل ، وإنما نحن مُدَيْرَة( ) على سترة( ) ، فقال نفع الله به : لا تحتج بالأمور الإلهية ، فإنها عامة لكل الناس ، وفيها حجة لك ، وحجة عليك ، وها هو الطَّعام تحت الرحا ، ولا شيء عود ولا سهم ، ولو إنه( ) إمتثل وَرَقَة واحدة من أوراقنا التي كَتبَنْاها إليه كَفَتْه ، وقد تأسَّفنا على كتابتها إليه لما أهملها ، وقد قُلْنا له اجمع أوراقنا ، فإن لم يكن لَكَ بها حاجة ، فلنا نحن بها حاجة ، ونحن

ما أخذنا الرِّياسة( ) إلا من الكتب على قانون الشَّرع ، لا مثل ولاية فلان( ) وإن كان لنا منها نَصِيب من جهة سيدنا عليّ ، إلاّ أن سَلَفنا تركوها وزَهِدوا فيها .

وقال رضي الله عنه في انتصار المظلوم من ظالمه ، بعد كلام طويل : ماعاد اليوم إلاّ كل ينتصر لنفسه ، ويَرَى أنه هو المظلوم ، ولكن يَنْبغي أن يداريهم بِحُسن الخلق ، وهذا لمن خَالط الناس ، وعرف طَبقاتهم وأحوالهم .

(2/85)

وذكر رضي الله عنه جهة الجِرَبْ( ) إنها ضعفت وَتَغَيَّرت ، فقال نفع الله به : راح بها دعاء أهلها ، إذا حصل عليه بسببه شيء من المتاعب من نحو دولة أو غيرها قال : الله يَفْعل به ويَفْعل ، فغيَّر ذلك عليهم ، وهذا كما قال الله تعالى : { وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ}( ) الآية ، ثم قال : معك خصلتان يمحقان : تعلّق الدولة ، وتعلق هِمم الناس ، ثم ذكر إفراط ولاة الجهة في الظلم ، فقال : لو جاء والي على الجهة يريد أن يدمّرها بِسيَاسة من غير قتل ولا إزعاج ، ما فعل بهم مثل هذا الفِعل ، وقد أمرنا بعض سلاطين الجهة بشيء من المعروف ، وهو السلطان محمد بن بدر الكثيري ، فلم يَمتثل ، فأرسلنا إليه رَجُلاً ممن يتَّصل به ويداخله ، فكلَّمه بكلامنا ، فقال : إن فلاناً يريد مني أن أسير بسيرة عمر بن عبد العزيز ، وأنا ما أطيق ذلك ، ولا قُدْرة لي عليه ، فحكى لنا بقوله هذا ، فقلنا للرجل : حُكمك ، بَلّغْتنا كلامه ، فهل تُبَلِّغه كلامنا؟، فقال : نعم أبلغه كلامكم ، وما عليَّ منه ، فقلنا له : قل له يقول لك : تخزى ، ما نطلب منك أن تسير بسيرة عمر بن عبدالعزيز ، لا أنت ولا نحن في أنفسنا ولا في أهلنا ، ولا من هو أحسن منا( ) ، وإنما نريد منك أن تَقُوم وتؤدي من حقوق الله وحقوق عباده ، ما لا يغيّر عليك أمرك الذي تقصده( ) .

وقال رضي الله عنه : جعلنا لمحمد بن بدر قاعدة ، أن يعمل بكل أمر من أمور الدين والدنيا التي يُحتاج

إليها ، بما لا يخل عليهم في الأمر الذي هم بصدده ، فقال أما هذا فسهل .

ذكر دوعن وآل العمودي

(2/86)

وذكر رضي الله عنه فتنة دوعن ، فقال : إن هذا المثير للفتنة ، إنما هو ولد منهم ، وليس بطالب رياسة ، إنما هو ومن ساعده من البدو تجَمَّعوا طَمَعاً في الأكل ، وطالبُ الأكل أمره سهل ، بخلاف طالب الرِّياسة ، وهو الذي يقوم على صاحبه منكراً عليه أموراً يفعلها ، كأن يقول له : إنك غيّرت الطرق ، وظَلَمْت الناس وفعلت كَذا وكَذا ، مما ينكَر عليه فيها ، والأمور تقابل بأمثالها ، وما أقام الله الولاة إلا لإقامة الدِّين ، وإقامة المعاش بعد إقامة الدين ، وهذا وادي مُبَارك ما يقوم فيه إلاّ من فيه صلاح وإقامة لأمر الدين ، لأنه إلا مَنْصب وزاوية ، لا محل مملكة وولاية ، حتى إن الشيخ عثمان ما أخذه بحرب ولا عسكر ، إنما كان شيخ زاوية دَخله مع تلامذته وفقرائه ، ومن تولّى منهم طالباً للدنيا فالغالب إنما يموت بِسَفك دمه ، كصاحب النَّقعة لما قتله التُّرك ، وكذلك ولد عبد الرحمن لما سَلَك غير طريقتهم ، قام عليه آل مطهر فقتلوه ، ومن حين قَتَل محمد بن مطهر ابنَ عمه( )، ما تبارك في نفسه ، ولا تبارك به أحد ، وآل العمودي مالهم بخت في البغي ، قال سيدنا علي : مَن سَلَّ سيف البغي على أخيه قُتِل به ، ومن حفر لأخيه المسلم حفرة وقع فيها ، وآل العمودي بيت صلاح ، والشيخ سعيد أخٌ( ) لسيدنا الفقيه المقدم ، وكل أهل زاوية وقع بينهم إلا آل باعلوي ، وآل العمودي ، أما سمعتم فيما يقال إن الفقيه المقدم طَرَح عند الشيخ سعيد شيئاً من الأحوال ، وابن هادي كم حاجَّه أصحابه ، فانقلبت العاقبة عليهم ، والبغي ما له عاقبة ، وفي الحديث( ) : ((لو بغى جبل على جبل لَدُكَّ الباغي))، وخصوصاً فيما يثير فِتْنة في الناس ، وشاغلاً عليهم ، ولا يقوم في هذا الأمر إلاَّ من فيه علم وديانة ، ليقيم للناس أمر دينهم ودنياهم ، وهؤلاء ما نفعوا الناس ، لا في

دينهم ولا دنياهم ، وأي شئ وقع للذين تولوا بلا علم ، تراهم يتِلتِلون الناس ، ومن لا يحسن يصلي ،

(2/87)

يصلح( ) أن يلي أمر المسلمين؟، وما هو إلا أهل الزمان غلب عليهم الشيطان والهوى ، فبقي ناس يحسنون أشياء لأجل أغراضهم ، كما قال بامخرمة :

يا عمر إن توليت أحرموك الولاية ... وإن رأوك اهتديت با يحرموك الهداية

وأنشد هذا البيت :

ومن يربط الكلب العقور ببابه ... فَعَقْرُ جميع الناس من رابط الكلب

ووقعت مرة فتنة في دوعن ، بين آل العمودي فجاء خبرها ليلة السبت 17 شعبان سنة 1132 ، وجاءه السَّيد زين العابدين ، يوم الثلاثاء 20 شعبان ، فسأله : كيف حالكم؟ ، فقال ما معناه : نحن بحمد الله في عافية ، ولكن ما مع الكِبَر صحة ، وأنا أبقي على نفسي لمكان العجز ، لئلا إذا حصلت الكلفة يقع القليل كثيراً ، وقد كنا يوم الأحد بانخرج إلى السبير ، لكن كَمَخْنا خَبَر آل العمودي ، لأن هذا الرجل( ) سقوطه سقوط الوادي كله ، ولكن هؤلاء منهم الذين قاموا بالفتنة ما يقع لهم خَيْر ، وقد ولي هذا الوالي منهم ، نحو أربع سنين ، ما شفاه( ) منهم أحد ، قيل : ما فيه مما يُذَم إلاَّ البخل ، فقال : البخل في آل العمودي معروف ، وقد طَلَب جدّهم الشيخ سعيد من الفقيه المقدم الدّعاءَ لهم بالبخل( ) ، وكلهم بُخَّال بأموالهم .

وليلة جاء خبرهم رأيت كأني جالس بين رجلين ، وأني أصلي ، وأحد الرجلين الشيخ عمر المحضار ، والآخر الشيخ علي بن أبي بكر ، وقلت يوم الشيخ عمر في الجانب ، والشيخ علي في الجانب الآخر ، وهو صاحب علم شريعة ، يكون الأمر مفرجاً ، ولو كان إلا الشيخ عبدالله في الجانب الآخر ، مقابل

الشيخ عمر ، لكنا نخاف من ذلك لكونهما أصحاب أحوال وأهل حقائق .

وقال رضي الله عنه : من لا يخاف الله ، خَوّفه الله من الناس ، ومن خاف الله خوَّف الناس منه .

(2/88)

وقال رضي الله عنه : الناس مع فلان يشير إلى بعض الولاة( ) ، كالقائم في طحس أي وحل ، كلما تحرك زلت رجله ، فإن أموره مضطربة والناس معه كل ساعة في حكاية ، والذين يبغونهم الناس ما جاؤوا ، والذين ما يبغونهم جاؤوا ، حتى يعلموا أن القوة لله جميعا ، وقد تَغَيّرت أساليب الدولة كلها على وجهه ، وكلما غرق في حِجة( ) قال نجوني منها ، وعاده ما ثبتت له قدم ، ولا استقام لنا معه أمر ، وما هو إلاّ كما قيل( ) : أخذت زوجاً ليقوم بي وبعيالي ، فعجز عني ما قام بي بحال أو نحو هذا اللّفظ ، وما مثَله إلاّ مثل فلان ، رجل سماه قال : كان أعمى وشَيْبة ولا يَسْمع ، والإنسان فَلْيقع إما ثمر وشوك ، وهذا هو التمام ، وإما ثمر يأكل منه الناس ، وإلا شَوك فيمنع على نفسه ، وكان هذا الكلام حاضره السيد زين العابدين ، فشكا( ) إليه من أحوالهم ، وما هُم عازمين عليه من إيذاء الناس وظُلْمهم ، وذلك في شعبان من سنة 1130 لما جاء بتلك( ) العساكر ، فقال سيدنا : لا عاد الإنسان يَشْغل نفسه في هذه الأمور فكم من قربة منفوخة تحسب فيها ماء ، ما عاد إلاّ يتولى الله خلقه( ) ، ولا عاد تتعبون أنفسكم بلا قدرة لكم عليه ، وإذا عَجَزَتْ قدرةُ العبد عن أمر كان فيه الخيرةُ إلى الله .

وطلبه السيد زين العابدين المذكور ، أن يصل إلى مكانه( ) فَمَضَى نفع الله به إليه ، يوم الأحد تاسع عشر شعبان ، فمما قال في مجلسه ذلك ، أن قال : إنَّا متعجبون من عاقل يشك في أمر يافع ويُخشى حتى على إيمانه ، فإنهم مستحلون أمراً حَرَّمه الله في القرآن( )، واستحلال ما حَرَّم الله يوجب الكفر ،

فلا يَمْتري فيهم أحد ، ولا يرى أن على من قام عليهم حرجاً .

وقال رضي الله عنه : إعانة المؤمن لأخيه أمر مَطْلوب ، فإن كان إعانة لوالي أمر كان أمراً عاماً ، والعمدة كلها على الرحمة والأمان ، ما يستقل الأمر إلا بهما . قال السويني :

(2/89)

ما حَضْرموت إلا ان صفا كَدَرْها ... ... وطاب مَصْعدها ومُنْحَدَرها

أي مجيئها ومراحها ، ولا يصلح حال صاحب الأمر ويستقيم أمره ، إلا إن طلب المصلحة لغيره ، فإذا طلبها صلح ، وإن طلبها لنفسه فسد ، والظلم كله خراب ، ولكن الظلم المرَتَّب ، خير من العدل المُسيب ، قال بعضهم فأما اليوم فهو ظلم مسيب ، وأصل الأموال والجرايات ما تجبيها إلا الرعايا ، فإذا كان الوالي ذئباً فمن أين يُجْبونها ، وقال بعض أهل السياسة للمأمون ، لما ضعف بعض ممالكه : إني لأعلم ما يقوّمها ، قال : ما هو ، قال : تَرْفع عنهم خَرَاج سنة ، والحاصل أن المحسن ينفع نفسه وينفع غيره ، والمسيء يضر نفسه ويضر غيره .

وقال رضي الله عنه : من علامة فساد الزمان ، إن الرجل فيه إذا ظُلِمَ صاح واستغاث وتنَصَّف وقال : ما أظلم الناس ، ما يأمرون بالمعروف ولا يَنْهون عن المنكر ، وأبطلوا الحقوق ، وتركوا الدين ، ونحو ذلك واذا وقع الظلم على غيره ، تراه بارد الخاطر ، ولا يقول كقوله إذا ظُلِمَ في نفسه .

وقال رضي الله عنه : ومن العجائب أن الواحد من ظَلَمة أهل هذا الزمان ، أنه لَو وقع في وَرْطة تَذَكّر ماذا فعل في عمره من الخير ، فإن ذَكَر شيئاً من ذلك اعتقد في نفسه أنه ما حَصَل عليه ما حصل إلاَّ بسببه ، فانظر ما أعجب هذا الأمر، مع أنهم قَلَّ ما يكون منهم شيء من الخير فيما رأينا ، فما أحد يطلب من الله الفرج بمعصيته ، إنما يكون ذلك

بطاعته ، فإن الحسنة إذا احتوشتها سيئتان أفسدتاها ، فكيف بِحَسنة بين سيئات كثيرة .

(2/90)

وتَظلَّم إليه نفع الله به رَجل فقال : الظلم في الإنسان كالنار إذا اشْتَبَّت ، فادع إلى الحق ، فإن قُبل منك وإلاَّ فخل بين الظالم وبين الله سبحانه ، وهو يَكْفيه ، وكان معنا عشدلية( ) مليحة جداً ، جعلناها لرجل خُرْفة ولا حَقّ له في أصلها ، فمات ، فتملَّكها عِيَاله فأعلمناهم بذلك ، فلم يقبلوا وجعلوها في جملة مالِهم ، فتَركناها ، ونحن من طَبْعنا من ظَلَمنا تَرَكْنا حقَّنَا له ، ولا ننظلم( ) لأهل الزمان ، وإن كانوا هم الظّالمين ، ونُظْهر لهم أنهم مُسْتحقين ، ونحن نقدر مع ذلك أن نُظهر الحق ، ونأخذ حَقَّنا منهم ، بالحق لا بالباطل ، وكان النبي صلَّى الله عليه و آله وسلّم قد آذته قريش في عِرضه ومالِه فعفا عنهم وَتَرك لهم مالَه ثم أظهره الله عليهم فَمَلَّكه رقابهم وأموالهم فمنَّ عليهم برقابهم وأموالهم ، ونَحْن طريقتنا إلاَّ مثل طريقة الشيخ عمر العطاس من أعطانا شيئاً سكتنا عنه ولم نسأله ، وإن طالب به عياله خَلَّيناه لهم ، فكم ناس أوصوا وجعلوا لنا أشياء ما أخذناها ، وأشياء فَرَّقناها على ورثتهم ، وما الإنسان يكره أن يَدَعَ إلا لمن أراد أن يُرْبي به ويتخذه وسيلة للربا والحرام ، فهذا لاَ نَدع له شيئاً لأنه لا تجوز المساعدة على الحرام .

(2/91)

وذكر رضي الله عنه ولاة الجهة وشدِّة ظلمهم ، فقال : لا تَدْع عليهم ، فما عاد معك معهم إلاَّ مثل ذاك الذي شكا أولاده إلى بعض الناس ، فقال له : هل دعوت عليهم؟، فقال : نعم ، فقال : أنت الذي أفسدتهم ، ولا تخصّص أحداً منهم ، بل قُل : الوالي أو الولاة ، والدّعاء لهم ، وتجنَّبهم ولا تَصَلهم ، لأنهم معزولون بحكم الشَّرع ، لأن الفاسق معزول شرعاً ، وأعظم الفسق ظُلْم المسلمين ، فإنهم( ) أهلكوا

الحرث والنسل ، حتى صَيّروا الناس كدود القبر ، يأكل بعضه بعضاً ، حتى تَبْقى ثنتان كبيرتان ، فتأكل إحداهما الأخرى ، ثم تموت . ولكن قاعدة : كلما( ) فعلوه( ) في الناس من صغير أو كبير ، لابد لهم ما يذوقونه أو قال : يقعون فيه كايناً ما كان ، لأن الله سبحانه وتعالى قال فيما جاء عنه : (أنا الظالم إن لم أنتقم من الظالم) ، وإن أُخّروا إلى أمدٍ يُريده .

وقال رضي الله عنه : أحكم على الظَّالم بِفِعْله ، لأن الله وعد بأخذ الظالم . (*)

وقال رضي الله عنه : خلافة الخلفاء بعد رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم ، أما أبوبكر فبالإجماع عليه، وأما عمر فبالوصيّة من أبي بكر ، وأما عثمان فبالإجماع عليه ، بعد الشّورى ، وأما سَيدنا علي رضي الله عنه فبمبايعة أهل بدر والمهاجرين والأنصار ، وأما معاوية فبتسليم الحسن بن علي له ومبايعته ، وغيرهم إنما هو بالسَّيف والظلم والتَّعدي أي سوى عمر بن عبدالعزيز فإنه بالإجتماع عليه ، والمبايعة له ، ورجوعها إليه بعد من كان قبله من أهل بيته .

وقال رضي الله عنه : اسأل ربك السَّتر ، وإلاَّ عاد يصبح الأمر غَير هذا، والبَيْضة فيها وَقْوَقَه ، لكن الشهادة فيها الخير ، والأمور تجري على قليل قليل ، ويُسكت عنها .

(2/92)

وقيل له رضي الله عنه : إن السُّلطان مساهن ما وعدتوه ، من أنه يكثر عليه الخير ، حتى لا يجد وعاء يَطْرح عليه ، فقال : هذا إن اتقى الله وعدل . فإن جار وظلم لا يَحْصل له ذلك ، يطرح الرِّجْلين ويريد أن يستقيم له الأمر، إن الظلم ييبِّس الإنسان حتى يصير كالعود اليابس ، حتى لو نُقّع في الجنة ما عاد انتقع .

وقال رضي الله عنه : لا بُدَّ بعد كل سَبْع سنين تَحْصل حركة بين الولاة والعَسْكر من حَرْب ، وتَبْديل سُلْطان بآخر ، ونحو ذلك .

وتكلم رضي الله عنه في الفاطميين ، وبَني العباس ، وبَني أمية ، فكان من جملة ما قال : إن محمد بن عيسى ، أخا الشيخ أحمد بن عيسى ، قَاتَل بَني العباس ، وكان إذ ذاك شَوْكتهم قائمة ، وإذا قهروا أحداً من بني فاطمة لا يَسْتأصلونهم كبني أمية بَل يجعلونهم عِندهم في بيوتهم مع أهلهم ، ولما علم عبدالله بن عمر بِقَتْل الحسين بَكَى ، حتى خرج الكحل من عيونه مع الدموع ، ثم قال : أما والله لو حدثكم أبو هريرة ، بأنكم ستقتلون ابن نبيكم ، وتُخرِّبون بيت ربكم لكذَّبتموه ، وقلتم ما صَدَق أبو هريرة ، وها أنتم فَعَلتم ذلك ، فقلت لسيدنا : ألم يكن معاوية ، وهو صحابي عهد إلى ابنه بالخلافة فَفَعل هذه المُنْكرات ، فقال رضي الله عنه : إنه قيل : إن معاوية لما عهد له بها قال : إني تفرست فيه خيراً ، فإن صدقَتْ فراستي فيه فذاك وإلا فتِلْك من محبّة الطبع ، محبة الوالد لولده ، وأنا أسأل الله أن لا يطيل بقاه ، فلما بَان على خلاف ما ظَنّه فيه ، لم تطل مدته ومات مقتولاً قَتْلَةً قبيحة ذَبَحه لما أرسل إلى الحرمين ، لقتل ابن الزبير ، وهدم الكعبة - وأكثر في ذلك - حتى قال : ينبغي للإنسان أن ينطويَ باطنه في أصحاب النَّبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم على المحبة وحسن الظن بهم ، ولا يسيء ظنه فيهم ، حَتَّى يصير من الذين جآءو من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان( ) . وأما يزيد ، وابن زياد ، والحَجَّاج ، ونَحْوهم فلا لهم حُرْمة الإسلام ولا هم بشيء حتى يذكروا ، وهذه الأشياء كلما اجتنبها الإنسان ، كان أحسن ، لا سيما إذا لم يكن فيه مسكة دين ، وخرج رجل ممن يحب أهل البيت في العَسْكر الذين خرجوا لقتل الحسين ، وبقي فيهم مختفياً ، فلما كان وسط الليل أنشد :

يارب رب الناس والعباد ... ... العن زياداً وبني زياد

وذكر هذا النظم أيضاً :

جاءوا إليك يا ابن بنت محمد ... ... متزمِّلاً بدمائه تزميلاً

(2/94)

ويكبرون إذ قتلوكَ وإنما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا

وقال رضي الله عنه : لو أن الخلافة صارت بعد عثمان أو بعد معاوية إلى بَني هاشم ، ولم تَصر إلى بني أمية ، لكان لم يَبْق لغيرهم مجد ولا فَضْل ، ولكن لله تعالى في ذلك مُرَاد ، وهو سُبْحانه يحبّ أن يَتَشَارك عباده في الفَضْل والمجد ، ولولا ذلك لكان مختصاً بهم ومقصُوراً عليهم وليس لِغَيْرهم منه شيء ، لأن فيهم النبوة والرِّسالة وفيهم الحَسَب ، وعَدَّد أشياء ، ثم قال : ولكن الله أراد ذلك ليتفرق في جميع قبائل العرب ، ولهذا لا تخلوا قبيلة من مناقب وفضائل ، كثرت أو قلَّت ، ولَوْ خصلة واحدة ، ليستر ذلك ما فيهم من المذموم.

وتكلم رضي الله عنه في الولاة ممن سبق فقال : إن أولئك ، وإن كانوا ظَلَمة فالمَظْلومون في زَمَنهم قليل ، فيقلّ لذلك الدعاء عليهم ، وفيه( ) حتف على الظالم ، وأعماله أيضاً حَتْف عليه .

وذكر أن بعض ملوك الروم ، أو قال : الملوك ، أو ملوك الإسلام ، أرسل بريداً( ) إلى ملك الصين ، أو قال : ملك الهند ، فقال : قل له : فلان يقرئك السلام ، ويَسْألك لِمَ تطول أعمار ملوككم ، وتَقْصر أعمار ملوكنا ، فأراه شَجَرة ثابتة عُرُوقها في الأرض ، فقال له : إذا سقطت هذه الشجرة عن أصلها أجبْتُك ، فبقي مدة مستبعداً لسقوطها ، ويتَمَنَّاه وخاطره متعلِّق بها ، فبعد مدة سقطت ، فتعجب من سقوطها ، فقال ذلك الملك له : إن ملوككم يَظْلمون فتَتَعلَّق بهم همم المظلومين حتى يَهْلكوا ، وهُنا الظلم قليل ، والشَّاهد سقوط الشجرة ، لتعلق همة هذا بها ، هذا ما حفظناه مما تكلم به ضحى يوم الخميس حال القراءة في 29 صفر سنة 1124 .

وتكلم رضي الله عنه يوماً كثيراً في حوادث الزمان وظلم الناس ، فقال : وَرَد عن الله : لو أن الظلم في حجر في قعر الجنة لأخرَبْتُها لأجله . مع أنها لا تخرب ، ثم ذَكَر الصحابة وما جرى بينهم، وقال : الذين بايعوا سيدنا عليًّا من أهل الحديبية , نَحْو مائة رجل ، ومن أهل بدر وأحد والمهاجرون والأنصار ولم يَتَخلف عن بيعته من الأنصار ، سِوَى رجلين أحدهما كان صغيراً ، وأكثَرَ في ذلك ثم قال : إنما مرادنا من ذِكْر ذلك لِيَكُون في بالكم ، فربما تسمعون فيما يأتي بأشياء من هذا القبيل ، فلا تُنْكرونها وتَبْقون حسنين( ) الظّن بأصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلَّم، فالله الله بحسن الظن بالصحابة ، نُوصيكم بذلك كثيراً ، استوصوا بحسن الظن فيهم ، وما كان لنا مطالعة في ذلك إلا لما وَصَلوا الزيدية إلى الجهة( )، احتجنا إلى المطالعة فيها ، فطالعنا بِقَدْر ما نحتاج إليه .

وَذكَر رضي الله عنه الولاة والرؤوس ، فقال : إنما الرأس من تنفذ كلمته ، ويُسْمع قوله ، وأما من لا يبالى به ، ولا يُسْمع كلامه ، ولا يَنْفُذ حكمه وأمره ، فليس برأس .

وصافحه رضي الله عنه بَعْضُ عبيد الدولة ، فقال له : أنت الذي في تريم ، فقال : نعم ، فقال سيدنا له : تريم مباركة ، إذا وَصَلتها النَّار انطفت ، ومن مَدَّ يَده إلى ما لا يحل قَطَع الله يده ، وإن الله يمهل الظالم ثم يُحضفه( ) .

وقال رضي الله عنه : أكثر ما يُشْغلنا في المجالس ، كَثْرة المصافحة ، والكلام أكثر ، ونحن لحقنا الناس خاربين قد خَرّبهم أناس قبلنا ، فَجَعلنا نحن نصلّح بشدة ، لأن أكثر الناس قد طال بهم العهد ، ولو أنهم على ما كانوا عليه كان أسهل ، وإذا جاءك إنسان وبقيت ساكِتاً ولم تتكلم ، خرج غَضْبان ، كأنك أخذت عليه شيئاً فكيف لو رَدَدْته ، ثم يلقاه أناس يضعفون

عقيدته ، وحسن ظنه ، ويقولون له : لو قد جبرك أو وَكّد( ) عليك ، وهل كذا وكذا . وما كان الناس هكذا .

(2/96)

أقول : قد قال لي يوماً السيد الجليل الفاضل أحمد بن عمر الهندوان ، رحمه الله : لو قد جئت إلى عِنْدي ، فقلت لك : إرجع يا فلان ، ما أنا خَليّ لك ، هل تحنق ويقع في بالك ، فإن غضبت فقد كرهت ما هو أزكى لك ، وقد قال الله تعالى : { وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُواْ فَارْجِعُواْ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ }( ) فلِمَ تكره ما هو أزكى لك ، قلت : يا سيدنا إن كان مرادكم تفعلون معي هذه القصة ، فأخبروني حتى أبقى على حذر ، وإلا فإني لا آمن قيام النفس عند ذلك .

وخرج رضي الله عنه إلى السُّبير يوم الأحد في 25 شعبان من سنة 1132 فكان مما تكلم به أن سأل عن أحوال فلان وفلان ، من صغار أهل بيته ، فقال : أحسن أحوال أهل هذا الزمان ، أن لا تكون له حاشية ، بل يكون سليم القلب ما يَدْري إلا بما هو حاضره في الحال الحاضر ، فإن الحاشية في هذا الزمان ، ما تدعو الإ نسان إلا إلى الرّغبة في الدنيا والمنافسة فيها ، لضُعْف وَقْتهم وجِهَتِهم ، فالله يحسّن أوقاتهم ، ويَرْحم جِهَتهم ، وإلا فما هم إلا ضعاف مساكين .

وذكر رضي الله عنه السيد محمد بن علوي ، والسيد علي بن عبدالله ، فقال : ما تظهر بركات الصالح على من صَحِبه إلا بعد موته ، قال : وكان الناس أهل حسن ظن ، (وما الناسُ بالناس الذين عهدتهم) .

انظر ما قال فيما يتعلق بالرحمة

(2/97)

وذكر رضي الله عنه الرَّحمة ، فقال : ما بَدَا رَتَّبْنا ثلاث أربعينيّات {يَس} لأجل الرحمة إلاَّ هذه السنة ،

يعني سنة 1128 ولقد خَشِينا أن يكون ذلك من الإلحاح على الله ، وقد بقي بَعْض موانع ذَكَر من جملتها الرِّبا والظُّلم وقلة إخراج الزكاة وغير ذلك . ثم رأينا أنه ورد عن الرسول صلّى الله عليه و آله وسلّم( ) : إن الإلحاح على الله في الدعاء مطلوب ، سواء كان الإلحاح في أمر محمود تريده ، أو أمر مكروه تخافه ، فإن كان في أمر مطلوب فهو من باب الشكر ، أو مكروه فهو من باب الصبر ، وكل منهما مطلوب ، مع أن الضعف جِبِلّةُ خِلقة الإنسان ، وقاعدة : إذا وقعت الأمور المحمودة ، فقل : هذا من الله( ) ، وإذا وقعت الأمور المكروهة ، فقل : هو من الناس( ) ، ولا تحتج وتذكر القضاء فيهما ، وإن كان لا بد منه في الأمرين كما ورد ، ومثال ذلك : كفُفّة لها عروتان ، إحداهما إلى الله ، وهي بيد المَلَك ، والأخرى بيد الآدمي ، فإذا سَيّب الإنسان الذي يَليه فالتقصير منه ، وينسب إليه ، والله سبحانه هو المُقَدّر لجميع ذلك ، ولكن يذكر بالأمر المحمود ، ولا يذكر بالأمر المَكْروه .

وشكا إليه رضي الله عنه رجل من قِلّ الرحمة ، فقال : إبْن أمورك كلها على حُسْن الظن بالله ، مع التّعلق بطاعته ، وقد جاء في بَعْض الأخبار : إن الله ليعجب من قنوط ابن آدم مع قرب الفَرَج منه . ولو قد أردف لهم السَّيل مرتين أو ثلاثاً لضاقوا وتَبرّموا ، وقد انتشرت الرحمة في أماكن ، وهذا ما هو قليل ، والمرجو من فضل الله وكرمه أن يُتم ويعمّ ، والقليل من الله كثير ، فاشكروا واعرفوا موضع القليل لئلا تُبخسوا في الكثير ، فإذا شَكَرتم على القليل أعطاكم الكثير ، وإن لم تَشْكروا منعكم الكثير ، ولم يَنْفعكم الذي معكم ، وما هو إلا لحظة من كرم الله ويعم الكافة في ساعة واحدة .

(2/98)

ومر رضي الله عنه ذات يوم وهو بُكْرة يوم الإثنين رابع رجب سنة 1126 بجهة وادي ثبي ، وإذا نخيلُه كما هي أيام الشتاء ، لا خَريف فيها لِعَدم الغيث ، فقال : سبحان الله ، إذا أثمر أثمر بمرة ، وإذا تَعَطَّل

من الخريف انقطع منه بمرة ، وبهذه الأشياء يستخرج اللهُ تعالى من عباده الصّبرَ والشكرَ ، ويوم الأربعاء سقى الله تعالى تلك الجهة وغيرها ببركته ، فقال نفع الله به : إن الله تعالى قائم بِتَدْبير خَلْقه ، وإنما طلب منهم الدُّعاء إظهاراً لعجزهم وفاقتهم إليه ، ثم إن الغيث كثر جداً وكثُرت السُّيول من كل وادي ، حتى مَلَّت( ) الناس وخافوا الضَّرر، وسقط بعض الدُّور ، فشكا إليه بعض النَّاس من ذلك ، وسألوه الدعاء في خِفَّته ، فقال رضي الله عنه : هَلْ حَلّ حوالينا ولا علينا ، فقيل : نعم ، فسكت حتى كان صلاة الظُّهر، فقرأ بعدها يس بنية اللطف وقَطْعِه منهم ، فخَفّ بِفَضْل الله ، فقال : إن خير الدنيا مبشر بِشَرّها ، وشَرَّها مُبشّر بخيرها ، كما في قصة الراعية التي مر عليها عيسى عليه السلام .

وذكر رضي الله عنه الرَّحمة أيضاً ، فقال : في بعض الآثار عن الله : إنه سبحانه يقول : عجبت من إياس الآدمي وقُرْب الرحمة منه . لأن الإنسان ظاهرُ فعلِه أن يَقْنط وييأس لعدم حصول الرحمة له ، وظاهر أمور الحقّ سبحانه حصول الرحمة منه عن قرب ، لأن الرَّب تعالى على قَدْره والعَبْدَ على قَدْره ، وسَقَط عليَّ هنا بعض الكلام ، ثم قال : وهذه أرض كَدٍّ، ولا تستقيم أرض الكد إلا بمساعدة أمور السماء ويسمى وادي العَجَل( ) ، لكونها أرض مَسْنا وليس فيها أنهار ، وقد ضَعُفت الآن جدًّا لقلة مساعدة السَّما وعَدَم القَطْر . ثم أطال الكلام في ذكر أناس قد مضوا ثم قال : إن شاء الله الخلف في بركة السلف ، وإلاَّ فالوقت اليوم والدنيا إلا مضادة للحال الأول ، ما هي مخالفة بل مضادّة ، إذا تأملت أحوالهم وقستها بأحوال السابقين .

وقيل له نفع الله به : خاطركم ، ادعو للناس بالرحمة فإن الدواب أدركها التعب ، فقال : لَعَلّ الرحمة تَحْصل لأجل الدَّواب ، فإن في بعض الأخبار : إنما يُسْقى الناس بِسَبَبِها لعدم تَكْليفها ، ولو رُحموا لم يَرْجعوا إلى الطاعة ، فقد كانوا( ) ، إذا قحطوا

يَشغلهم أمر المعاش عن الذّكر والطاعة ، وما مَطْلوبهم إلا السَّلامة من ذلك ليتفرّغوا لهما ، وأما اليوم فلا ، ولكن ادعوا ربكم فإنه كريم رحيم إن أعطى أعطى برحمة ، وإن منع منع بحكمة .

وقال رضي الله عنه : كلما ثار السّحاب رجا الناس الرَّحمة ، وكلما ثار إضمحل ، فكأن الناس يهمّون بِفِعْل الخير ثم لم يفعلوا .

(2/100)

وذكر رضي الله عنه فَسَاد الزمان والفتن ، فقال : من آن مات النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم، تَبدّد الحُبُّ المجتمع ، ولكن في وَقْت الصَّحَابة كانوا مجتمعين ، والأمر مَسْتور ، ثم بَعْد ذلك ظهر ، وهذا الأمر قُده مِنْ قديم ، وكان الناس فيهم أهل اليَقَظة ، يرحم الله بهم أهل الغفلة ، وهنا لو نظرت إلى البَوادي ونحوهم لرأيتهم أكثر تضرعاً إلى الله منهم ، ولهذا رحمهم ، وترك هؤلاء ، وكانوا [أي الأولون] إذا حصلت لهم نِعْمة ازدادوا تضرعاً وخشوعاً ، وهؤلاء إذا حصلت لهم بَطروا ، فترى الواحد منهم يقطّع اللحم يأكله والطَّلاَّب( ) يَسْأله فلا يعطيه شيئاً ، ثم تَكلم في هذا كثيرًا ومما قال : والرحمة ظاهرة ، ما بقي إلا مَظْهر الرَّحمة ، ولا عاد يقصّر أحد من التَّوبة والاستغفار ، والتّصدق بما تيسر ، وذكر كلاماً تقدم ذكره ، من أن ينقِّص بعض المأكول فيتصدق به ، ثم قال : فلا عاد تدعو المدْبرين إلى الصَّدقة ، بل إلى المقاربة ، فإن أهل الزمان مُدْبرون ، فإن من عِنْده شيء ودَعَوته إلى الصدقة إستثقل كالسُّلطان الظالم إذا قلت له في الجور اشتغل( ) ، ونحن لاعاد أحد يوصينا بالدعاء بالهداية والصَّلاح للمسلمين ، والظُلْمة ما هو إلا إن القلوب مُظْلمة ، ولو سَمِعْنا أحدًا ، يَدْعو علينا ما تركناه من الدّعاء له بالهداية والصَّلاح ، ولا عاد كلام ، ودَخَلت الناس دَوَاخل فكلّ منهم اتهم صاحبه ، ولا عاد شيء قلوب مُجْتمعة .

وذكر رضي الله عنه ما حَصَل من الرحمة في الأرض ، ثم قال : سبحان الله الذي عَلّق الأشياء بالمشيئة ، فقال : { يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَآءُ}( ) فكيف لو عَلّقها بالمحبة ، فلو كان كذلك لما أعطاها إلا من يُحب ، وكل بلاء يتبعه رحمة وعافية ، وهذا بلاء ساقوه إلا بأنفسهم إلى المسلمين بلا نية وبلا صلاح .

(2/101)

وقال رضي الله عنه : حَرْث السماء يضاهي التِّجارة في بركته ، فهو أقرب إلى الحِل ، وفي قوله تعالى : {أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ}( ) التجارة ، {وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ}(4) الحرث .

وذُكِر له رضي الله عنه بعض الأشراف وفيه خربطة ، فقال : هذه الأمور ما تسلك لك إلا بشيئك( ) أو بدِينك ، إما معك مال يحملك ، وإما إن تكون صاحب دِين يُحسَن بك الظن ، وهذا الرجل ما مَرَّ تلك الطريق التي مر بها إلا باسمنا ، ولا كلمه الناس إلا كذلك ، والآن إن مر بها لا يُعرف ، ولا يكلمه أحد ، وهذه حالة الجنون ، وآل باعلوي معروفون في الجهات بالصلاح والسِيَر المحمودة ، ومجنونهم صالح ، وما كانوا يعرفون مثل هذه التفْتفات ، التي أهلها يدلهم الشيطان على مواضع الغلط :{وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ}( ) الآية، والحق له صَوْلة ، والباطل له دولة .

وذُكِر له نفع الله به بعضُ السَّادة بحسن عقيدة فضَحك ، وسكت ساعة ثم أنشد هذين البيتين : لكل إلى شأو العلى حركات ... ... ولكن عزيز في الرجال ثبات

غيره : كل من في الوجود طالب صيد ... ... غير أن الشباك مختلفات

وَذَكر رضي الله عنه محبَّة الناس للبنين ، وتَرْجيحهم على البَنَات ، فقال : هذا من طَبْع أهل الجاهلية ، والطبايع دائمة على حالها الأول ، فكل أمة طبايع

آخرها كطبائع أولها ، وإنما يهونها قوة الإيمان والرياضة ، وأكثرَ من ذلك حتى قال : إن بامخرمة قال وسَقَط عليَّ هُنَا كلام ، لعلَّه ما ذُكِر من أن طبايع الآخرين كطبع الأولين ؛ قال يعني بامخرمة :

خاف شيء ذا لشيء يا اهل الجِنَات الدَّويلة كل من لا يزيل المنكرْ الله يزيله

قال نفع الله به : وفي كلامه حِكَم ، ولو هو على هَيْئة كلام العامة ، فإنه عالم صوفي صاحب رياضة ، ما هو بصوفي جاهل .

(2/102)

وزار رضي الله عنه التربة لَيْلة الثلاثاء في 21ربيع الأول سنة 1127 ، فلما انصرف ذكر الصَّالحين في الأزمنة المتقدمة وظهورهم فيها ، وفي هذا الزمان وخفاهم فيه فقال : كان الزمان صالحاً ، وبِضَاعتهم مطلوبة ، فظهروا لذلك ، وأما اليوم فالزمان فاسد ، وبِضَاعتهم مَرْغوب عنها ، فلذلك لم يظهروا ألا ترى لو أن رجلاً معه بضاعة لايطلبها منه أحد ، فإنه لا يُظهرها ، و لا يذكرها لأحد، ومن معه مسك يروح يجلبه للزبالة( )؟، ولو أن رجلاً انفرد بطلب شيء لم يطلبه أحد غيره لم يجده ، ولو كان له طالب غَيْره وللناس فيه رغبة لوجده أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : من يُحب الطاعة فالله يحبه ، ومن يبغضها ويستثقل منها فالله يبغضه ، ومن يحب المعاصي فالشَّيطان يحبّه ، والشَّيطان لا يعبأ بهؤلاء ، ولا يهمّ بهم ، لأنهم في حوزته وتحت يده ، وإنما يهمّه أمر المتمسكين الملازمين للطاعة ، وله حبال طويلة ، وحبال قصيرة ، فمن كان في حباله الطويلة ، فإنه بعيد جداً كالذي يميل في مسيره عن الطريق ميلاً كثيراً حتى لا يراها ، فما معه ممن يدعوه إليها إلا السماع ، من غير ما يعلم أين هو ، وأما من هو في حباله القصيرة ، فإنه قريب عندك بيدك تأخذه من قريب ، وله مَعاليق يَصيد بها العُبَّاد ، حتى إن يحيى بن زكريا رآها ، فقال له : هل لي فيها شيء ، فقال نعم : شبعت ليلة من الطعام فَثبَّطناك

عن قيام تلك الليلة ، فقال : لا جرم ، لا شَبعتُ بعدها أبداً أو كما قال .

ما قال في الإلباس رضي الله عنه

(2/103)

وذكر رضي الله عنه الإلباس والتلقين فقال : إن هذه الأمور لا تتكرر ، ولا هي عادة السادات تَكْريرها ، لأنها إذا كثرت هانت ، ولهذا لا يَنْبغي أن يأكل مع الشّيخ ، لئلا يرى بشريته ، بل يَنْبغي أن يَعْرف( ) خصوصيته ، ولا تُعْرف إلاَّ بالإيمان ، وهذه الأشياء قد دَرَست ، وإنما نحن جَدَّدناها ، ولا يَنْبغي أن تُعْرف إلا منّا ، وقد قالوا : قلَّ من ينتفع بالإنسان أهله ومخالطوه لعدم احترامهم له بسبب المخالطة به .

أقول : هذا في من لم يكن لهم منه نصيب ، وإلا فهم أحق بالانتفاع به من غيرهم كما تقدم نحو معنى ذلك .

فقال له نفع الله به رجلٌ : كيف لنا بالقرب منكم ، عسى يحصل الاجتماع بكم عن قريب ، فقال : إذا أردت الانتفاع فتقرب بقلبك ، بأن تعتقد وتجتهد في الاقتداء ، وترى أناساً تحت الرِجْل ما انتفعوا ، وقد رأى أبو يزيد رجلاً يمشي خلفه ويضع رجله على دحقته ، يريد أن يسير على سيره ، وطلب هذا أو غيره منه أن يلبسه من ملبوسه ، فقال : لو لبست جلدي ما نفعك حتى تسير بسيرتي ، وفي مجلس آخر قال : لو سلخت لك جلدي ، ولبستَه ما نفعك حتى تسير بسيرتي التي سرتُ عليها إلى الله أي تقتدي بي في أفعالي وأقوالي وأخلاقي ، وهذا يدل على إنما الانتفاع بالاقتداء بالشيخ في ما ذكر ، والاجتهاد في ذلك ، وكل يحصل له على قدر همته وتوفيقه و ما قسم له .

قال رضي الله عنه : والإلباس إنما يتكرر إذا حضر واحد لم يتقدم له الإلباس إلا حينئذ ، فيحصل معه المشاركة للباقين ، وإن تقدم لهم ذلك ، أو رجل ختم كتاباً فيُلبس أيضاً ويُلقن ، وإن كان قد تقدم له ذلك ،

ويكون معه للباقين كذلك ، وكان قد ختم السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي صحيح البخاري ، فألبسه و ألبس كل من حضر تبعاً له ، وقال : هذه الخرقة [أي القبع المعروف] خرقة أبي مدين . وخرقةُ الشيخ عبدالقادر ألطف منها بقليل ، والإلباس رابطة بين اللابس والمُلبِس .

(2/104)

وقال رضي الله عنه : السِّر في السر ، فإذا أتى المريد بالاستعداد ، فما على الأستاذ إلا أن يُوري المِصْباح ، وإذا تَنَوَّرت النَّفس صار الليل نهاراً ، وإذا أظلمت صار النهار ليلاً .

ومَرَّ في القراءة في كتاب ذم الدنيا من "الإحياء" أيما أفضل . تحصيل المال وإنفاقه في الخير ، أو تَرْك ذلك والاشتغال بالذكر ، وذكر المصنف أن كل قول من هذين رجحه جماعة من السلف . فقال سيدنا عند ذلك : فإن حصل المال من غير سَبب ولا تَعَب كإرث ، فما الأفضل ، فنقول : الأفضل أن يأخذه إن وثق بنفسه ، ظاهرًا( ) ويتصدق به سرًّا، ولا يتمتع به ، بَل يَأخذ منه ما يَضْطر إليه ويقدّمه للآخرة ، لأنه إذا كانوا أرادوا أن يُعْطوه في الجنة بيوتاً من ذهب وفضة وجواهر وترابها مسك ، وهو في الدنيا لعله ما رأى المسك ولا الذّهب ولا الفِضّة ولا الجواهر بعينه ، فماذا يريد بمتاع قليل ، فَلْيقدمه إلى ما هو خير له .

أقول : وقد رأيت مرة في النوم ، كأنّي في جَمْع ، وسيدنا الحبيب عبدالله نفع الله به حاضر وفي جنبي رجل من طلاب الدنيا وكأني معه نتجادل فيقول هو : إذا كان عندي مال ، أفعل به خَيْرًا من بناء رِباطات ومَدَارس ومساجد وغير ذلك ، خير من أن أبقى لا أقدر على شئ ، ولا أفعل من ذلك شيئاً ، فقلت له : سلامتك من الدنيا ، ولو ما فعلت شيئاً أفضل ، فلم يُوَافق ، ثم قلت : لم لا أسأل الحبيب ونعمل على قوله ، فسألته عن أي الحالتين أفضل ، فقال : تريد أن تفعل تلك الأشياء لترائي بها وليقال ، فقلت :

إنما أفعلها خالصة لوجه الله ، فقال : ما فعل الله بك وأجراه عليك من تلك الحالتين هو الأفضل .

(2/105)

ومَرَّ حديث( ) : ((إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)). فقال نفع الله به : إذا كان واجداً فلا ينبغي أن يُقتّر على نفسه إلا إن كان بنية زهد ، وكان من أهله ، وفي الحديث( ): ((إن الله يحب أهل البيت الخصب)) ، أي في المعيشة إذا كان هناك شيء بغير إسراف ، وفي حديث( ) : ((هل بقي من برِّ الوالدين شيء ، فقال عليه الصلاة والسلام : نعم أن تصل الرَّحم الذي لا توصل إلا بهما ، وأن تَصل أهل ود أبيك)) ، ثم قال : هذا إن عهد إليه في شيء من ذلك ، وفي حديث( ) : ((إن الله يلوم على العجز ، ولكن عَليك بالكَيْس)) أي الحذق في الأُمور ، بأن يأخذ فيها كما ينبغي ، ولا يجلس و يَتَسهَّن من الناس ، وفي حديث النهي( ) عن الحلف بالآباء أي من ليس فيه صلاح ، فإن كان فيه صلاح فإنما هو حلف بالله ، إذْ لا يَنْبغي أن يَحْلف به تعالى كل حين ، فَيبْتذل الإسم الكريم ، وفي الغالب إنك لا ترى من يحلف بأحد من آبائه ، إلا إن كان فيه صلاح ، إلا إن كان أحد من النساء ، ولو حَلف حالف بما كان يحلف به النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، مثل والذي بعثني بالحق ، فيقول والذي بعث محمداً بالحق فيحسن إذ يحصل به التعظيم له عليه الصلاة والسلام ، والتبرك بذكره ، والسلامة من اليمين ، ومن حظر الحلف بالآباء .

أقول : قوله فإنما هو حلف بالله إلخ ، في هذا تَوْسعة من توسّعات لغة العرب ، كما في حديث( ) : ((لا تسبوا الدهر ، فإنما الدهر الله)) ، أي فعل الله إذ الدهر هو الليل والنهار ، وهو خلق الله والصلاح أيضاً خلق من خلق الله يجعله في من أحب ، فالحالف بأحد بسببه( ) حالف بوصف من أوصاف الله .

(2/106)

وقال رضي الله عنه : في حديث : ((لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين ، فإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة ، وإن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة)) ، قال : أما خوفه في الدنيا ، فبأن يجتنب ما نُهي عنه من حرام ومكروه وفضول ونحو ذلك ، وأمنه بالغفلة عن الله وتضييع ما ذكر، ويتناول كل ما يشتهيه، ويقول كل ما أراد و لا يبالي ، و لا يمنع نفسه مما يُذم.

وتكلم يوماً رضي الله عنه بكلام كَثِير لم نَحْفظه كله ، فمن جملة كلامه أن ذَكر العلم والمال ، فقال : العلم الظاهر هو دربك( ) الذي تسير عليه لا بد لك منه ، فإذا صَلَّيت مثلاً على ما سَمِعت ، ودُمت على ذلك رَسَخ ، وبعد رسوخ العَمَل تَظْهر ثَمَرته ، وأما المال فإن المال الحرام يَرُوح في الحَرَام ، والشُّبهة يروح في الشُّبهة ، وذَلك أكثر ما تروح فيه أموال أهل الزمان ، وهو دَليل على أصله ، فَتَرى أحدهم يُخرج في هَوَى نفسه ، أموالاً غَلَطاً( ) من غير طَرَف ، ومن غير حَدّ ، وإذا جئنا إلى فِعْل الخير لَحِقْنا ساقيته يابسة ، وفي الحقيقة هو الدائم وذاك هو الفائت .

وذكر رضي الله عنه الشّح المطاع ، والهوى المتبع ، والاستغناء بالرأي ، وقد مَرّ الثلاثة في الحديث ، فقال : قد يكون في الإنسان الشح ، ولكن لا يضره إلا إن أطاعه ، بأن أطاعه في ترك واجب كالزَّكاة ، أو فِعْل حرام كأخذ مال حرام ، فلا شَكَّ أن ذلك يضره ، والشُّح هو الذي جَرّه إلى ذلك ، وكذلك الهَوَى كُلُّ فيه هوى ، لأنه من طبع النفس ، فإن اتبعه حتى وقع في حرام ، مما تدعو ه إليه نفسه أو تَرك ما يَلْزمه ، فلا شَكَّ أن ذلك مما يهلك الإنسان . والاستغناء بالرأي ، لكونه يَمْنعه من أن يَستشير من هو أعرف منه فَيقع هو في المحذور .

وقال رضي الله عنه : الزمان مَعْكوس ، فجاء أهله على طبيعته ، وقد قال الشيخ عبدالرحمن بن علي في زمانه : يا ابن الفقيه هذا زمان معكوس . فإن

كان ذ لك الزمان معكوساً ومنكوساً فاليوم قد زاد الانعكاس والانتكاس .

وقال رضي الله عنه : في القرآن غنية وكفاية عن كل شئ ، وإنما عليه إذا أشكلت عليه كلمة ، أن يسأل عنها فقط ، لأن فيه موجود التواتر والصحة والإعجاز ، وفي غيْره ربما يقال : هل صح أم لا .

وقال رضي الله عنه : قَلّ ما نُقل عن النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم قراءة القرآن إلا في الصلاة .

وقال رضي الله عنه : ثلاثه أشياء أنا متأسِّف عليها ، وما حصلت لنا إلا إن كان بالنية ، التشفيع في صلاة التراويح ، وصلاة الصبح بوضوء العشاء ، وتخلِّي العشر الأخيرة يعني اعتكاف العشر الأخيرة من رمضان كما هو السُّنة ، أي لم يساعده الفراغ على هذه الثلاثة في وَقْته الحاضر ، وقد فَعَلها في ابتداء أمره ، فقلت : قد فعلتوها فيما مضى فيَكْفيكم ذلك من فعلها الآن ، قال نعم : لكن ذلك الحين أيام البداية ، والبصيرة ضعيفة ، لأن العُمْدة على البصائر ، ولكن الصّبر في ذلك الوقت قَوِي ، والآن كَلَّت القوى وضعفت ، والبصيرة أَقْوى ، لأن المريد حال بدايته الصّبر فيه قوي والبَصِيْرة أضعف ، وفي النهاية البَصيرة أقوى والصَّبر أضعف ، ونحن إلاَّ من شواغل الناس وعلائقهم أكثر ما كان ، فإن هؤلاء المتردِّدين إلينا أحسّ في باطني لكل واحد خاطراً ، فأقول هذا جاء لكذا ، وهذا جاء لكذا ، وأريد مراعاة كل واحد على ما في نَفْسه فَرُبَّما جاء واحد يستشير وآخر يطلب شيئاً وعلى هذا ، وهذه الأمور مع الضّعف شاغل كبير ، وهي مع النَّشاط وتراجع القوة أسهل ، وما حَال الإنسان إذا كان ضعيفاً واحتاج مع ذلك إلى أن يدبر الأمور ، ويضع كل شئ موضعه؟ وقد كان بعض خلفاء بني العباس أفْضت إليه الخلافة وهو ابن ثمانين سنة ، فبقي يتأسف في نفسه ويَتَحسّر ، ويقول : أي خلافة في هذا السن ، ويود لو حصلت له في صِبَاه ، قلت : فلو انتبه الإنسان في بلوغ سنه ،

وحال كبره أكان يتأسف أن لو كان ذلك في الصِّغر ، قال : نعم قد يتأسف . وقد ذكر ابن عربي أن بعض أعمامه دَخَل في الطّريق وهو ابن ثمانين سنة ، ولكن الإنسان إذا استيقظ في تِلْك الحال ، وأقبل على الله يعطيه الله سبحانه عِوَض ما فات عليه من الأعمال ، لأنه خزائنه سُبحانه مملوءة من الأعمال ، وما قَدْر عمل ابن آدم الضَّعيف ، فلو عمل ما عمل ، فإن مَلَكاً واحداً من الملائكة عمله يوازي أعمال جميع بني آدم ،

(2/109)

فإذا كان الملائكة مع كَثْرتهم للواحد منهم كذا كذا رأس وَوَجه ولسان ، يَعْبد ويَسْجد ويسبح بكل واحد ، فما عمل ابن آدم بالنسبة إليهم ، ولكنه تعالى شَرَّف بني آدم بعبادته ، وللآدمي مزيّة وخاصيّة ، إذا أقبل على الله عَوّضه الله عما فات ، كما وقع لآدم حين أقبل على الله في كِبَره وتاب وأناب إلى الله ، تاب الله عليه ، وعَوّضه عما فاته ، وكانت هذه المزية منه في ولده .

أقول : وكلامه نفع الله به ، يدل على أنه تَمَنَّى تلك الثلاث( ) تحصل له حال كمال البصيرة وتمامها ، ولو أنها قد سَبَقت له في تلك الحالة التي ذَكر( ) ، لكن ما منعه من ذلك في وقته الحاضر إلا شواغل الناس وضعف القوى حينئذ، ولكن قد حَصَل له ثوابها بالنية كما قال .

(2/110)

ولما خرج رضي الله عنه لصلاة العَصر تاسع رمضان سنة 1128 سكت ساعة ، ثم ذكر حديث ذهب المفرّدون بالأجر وحديث( ) : ((فاز المخفّون)) ، ثم قال : ليس مراده عليه الصّلاة والسلام في هذا ولا في غَيْره أمر الدنيا ، وحاشاه من ذلك ، ولكن إذا أخذ اللَّبيب من كلام نبيه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم معنىً لأمر دنياه ، فلا حرج عليه ، وما في شئ من

أمور النبوات من أولها إلى آخرها إن أمر المعاش أصل في شئ أبداً ، وإنما هو عارض ، وإنما بعث الله الأنبياء ليدعوا مَن جعل أمر المعاش أصلاً - إلى الله( ) ، قلت : ومعظم الناس مع ذلك جعلوا أمر المعاش اليوم هو الأصل الذي عليه المعوّل ، وغيره تبع له ، قال : ولهذا بعث الله الأنبياء ليَدْعوهم من الدنيا إلى الآخرة ، قيل : فهو مع ذلك يضطر إليه( ) جداً ، قال : نعم ، لهذا ميز الله سبحانه بين المخلوقات ، وفضَّل بعضها على بعض ، وإلا لاشتبهت الملائكة وبنو آدم . والدواب لا فضل لشئ منها على آخر ، فلو لم يضطر الحيوان إلى المعيشة لاشتبهت المخلوقات ، وقد أحوج الله الناس بعضهم إلى بعض في جميع حرفهم ، ليعمروا الدنيا وينتظم أمر المعاش إلى حين ، قلت : وقد يحب الإنسان أن يكون متجرداً للآخرة وزاهداً في الدنيا ، ولكنه يعجز عن ذلك ، فقال رضي الله عنه : قد ذكر الإمام الغزالي : أنه لو أكل الناس الحلال أربعين يوماً خربت الدنيا ، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً ، والرجل من أهل العلم( ) ، يتمنى أن يكون شجرة أو حطبة( ) ونحو ذلك كما قد سمعت في ترجمة إبراهيم بن أدهم والفضيل ، ولا يَرَون أنفسهم شيئاً ، قلت : وهم مع ذلك في أحسن الأحوال ، قال : نعم ، عند غَيْرهم لاعند أنفسهم .

(2/111)

وسَأله رضي الله عنه رجل إلباساً فقال له : قد معك إلباس ، ولكن بَقي عليك الانتظام والسلوك ، فالله الله في السلوك والانتظام ، واطلب العلم لا تجلس سبهللاً ، فإنه قبيح بالرجل سيما إن كان خطيباً أو معروفاً ، وكان الرجل خطيباً ، أن يجلس المجلس أو قال يجلس بين النَّاس ، ليس معه شئ من العلم ، لو سئل عن شئ ما عرفه ، ويَنْبغي أن يتطرف من كل شئ . وشكا إليه ذلك الرجل كثرة الخواطر والوساوس ، فقال نفع الله به : ذلك بسبب الخلطة والطُّعْمة ، إذا لم تُطَب ، فإن طاب ذلك لك وإلا( ) ، فإن كان ولا بد فخذ منه القليل ، أي كما يأخذ

المضطر ، ومراده القليل من الأمرين معاً ، الخلطة والطعمة .

وقال رضي الله عنه : ورد أنه لا ينتشر مجلس رسول الله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم إلا متفرقين عن ذواق ، ورأينا المناسب هنا الانتشار عن ماء ، فهو سَبَب ما يعتاد شربه من الماء عند القيام من المجلس .

(2/112)

وذكر رضي الله عنه الملائكة عليهم السلام ، فقال : إنهم تجردوا عن هذا العالم السفلي ، فلا يَحْتاجون لأكل ولا شرب ولا نكاح وغير ذلك للعالم العلوي ، وبَقُوا في مقام الخصوصية ، والترقي في الأفضلية ، بمعنى إن بعضهم أفضل من بعض ، فليس جبريل في ذلك كأدنى واحد منهم ، والكل قائم بما كَلَّفه الله ، ومن فَضّل خواص الآدميين عليهم ، فإنما ذلك من وَجه ، وباعتبار من حيث إنهم قاموا بما أمرهم الله به ، مما لم يكلف به الملائكة ، مع إنهم في قواطع كثيرة عن القيام به ، وأولئك مجردون لما كلِّفوا به ، ثم إن الآدميين في قيامهم بما أمروا به ، مع العجز بسبب البشرية ، إنما مَدَدهم من الملائكة ، كما وَقَع في بدر وحنين ، والأمور الإلهية لا تكيّف ، بل تُوكل الأمور إلى المقدور( ) ، كما حكى النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم عن حال المعراج ، وتردّده إلى موسى عليه السلام مَرّات متعدّده في ساعة واحدة وهو في السّماء السادسة ، ويقول له في كل مَرّة : ارجع إلى ربك واسأله التَّخفيف ، مع أنه غار من كَثْرة من يدخل الجنة من أمة محمد ، فغَيرته لذلك( ) ، لا لكونه فَضُل عليه ، وهذا عجب وإلا لكان قال : ارجع إلى أمتك بالخمسين الصلاة .

وقال رضي الله عنه : قال النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم( ) بسبب يهودي : لا تفضلوني على يونس بن متى . ولا ينبغي تأويله ؛ بأن ذلك كان قبل أن يعلم أفضليته ، بل السكوت عن التأويل أحسن .
وقال رضي الله عنه : ومن هذه الأشياء - يعني ما

تقدم - وما وقع لسيدنا موسى مع النبي صلَّى الله عليه و آله وسلّم ، يتطرق للأولياء الإنكار فيما يقولون ، لأن مقام الولاية لا يبلغ مقام النبوة .

(2/113)

وسئل رضي الله عنه عما جاء : إن الملائكة لهم أجنحة ، يلتحفون ببعضها ويَفْترشون بِبَعضها ، وإن الواحد منهم كالجبل ، ونحو هذا مما يوهم أنهم صور حسية ، مع إنما هم أرواح ، فقال : هم كذلك على الصور التي يتمثلون فيها ، كما رأى النبي صلَّى الله عليه و آله وسلّم جبريل عليه السلام ، وقد سد الأفق ، وقال : إنه على صورة دِحْيَة ، وكذا في القرآن : {أُوْلِي أَجْنِحَةٍ}( ) ، وأما حالتهم الأصلية فهي الروحية ، والآدميون إنما يتمثلون كذلك بعد السلوك ، فحينئذ يمكن منهم ذلك ، وأما الملائكة فهذه حالتهم الأصلية .

وقال رضي الله عنه : الروح ما يتغَذَّى بالأكل ، وصاحب الأمر إنما غذّا روحه في الأمر والنهي ، في قوله ، افعلوا كذا ، واتركوا كذا ، وحطوا كذا ، وأخروا كذا .

وقال رضي الله عنه : ليجهد الإنسان في سلامة نفسه أولاً ، ثم في سلامة غيره ، ومن هو غارق في بحر كيف ينجي غيره ، ويغرق نَفْسه ، ما عاد إلا اعمل في نفسك ، واشكر الله على ما أعطاك ، ولا تقل في الناس إلا خيراً ، إنما ذاك( ) إذا صادف الإنسان ، وفيه داعية إلى الخير من نفسه ، وأما عند التكلف فلا يمكن شئ ، ولكن مادام يرجو الانتفاع لنفسه لا يقصر ، وتعرف ما يجوز السّكوت عليه - أو قال عنه - وما لا يجوز ، ومثل ذلك لمن رأيته في تقصير ، فإذا طلبت منه الصَّواب ، فلم يفعل ، جعلت تغتابه ، فتقع في الحرج ، كمن رأيته في وحل( ) ، أردت تخرجه منه فغرقت عنده في الوحل .

وقال رضي الله عنه في وقت القراءة : ما عاد إلا يأخذ الإنسان ما تيسر على قدره مع المسامحة ،

عسى تحصل المسامحة من فَوْق بالنسبة إلى نفسه ، وإلى زمانه ، وإلى إعراض الخاص والعام .

وقال رضي الله عنه بعد ما فرغ القارئ الذي يقرأ في "منهاج العابدين" : إن هذه الأشياء لا تَظْهر إلا بالتِّكرار والتأمل ثم الاستعمال ، فطالعه مرة و مرتين وأكثر ، وتأمل ثم اعمل ، وإلا كنت كالذي يعرف الدواء وهو مريض ولا يستعمله .

(2/114)

وقال رضي الله عنه : غداً يوم القيامة التحاكم بيننا وبينهم( ) إذا رأيت صلاتهم وزكاتهم ومعاملاتهم الباطلة ، وقد يكون ذلك رأساً( ) فبماذا يُحسَن الظن فيهم ، غاية حسن الظن بالمسلم العاصي أن تعتقد أنه لا يبقى على ذلك ، ولا يصر على المعصية ، وانظر ذلك في نفسك ولا تحدد في هذا الزمان ، فإنك إن فعلت رأيت ما يسوؤك ، وفي الزمان السابق ، إذا حَدَّدت رأيت ما يسرك ، وما راح بالإنسان إلا الأماني ، يُمَنِّي نفسه بالتَّوبة ، أو بمن يشفع له ، وهذه أماني باطلة ، وأما محبة البقاء فطول أمل ، يشغل عن العمل الصالح ، وشفاعة الأولياء ذكروا إنما هي لمن شابههم ، فبسبب المشابهة لهم تحصل الشفاعة منهم كالمغناطيس ، والأمور قد بعدت ، فيأخذ في درجة أصحاب اليمين ، وإذا أردت تعرف تباعد الأمور ، فانظر بين حال أهل وقتك ، وحال من قبلهم ، فيكون حال كل متقدم أزهد في الدنيا ، وهلم جرا ، لأنه لولا النزول لما قامت الساعة ، لأنها يوم تقوم ما يبقى إلا شرار النَّاس ، يَتَهارجون بها تهارج الحُمُر ، ولا تقوم إلاَّ بغتة( ) لكن تَتَقدَّمها علامات . وفي الحديث إذا ظهرت علاماتها ، تبقى الساعة في قربها كالحامل المُقْرب .

وقال رضي الله عنه : من رأيته على مَعْصية ، فقد أبدى صَفْحته ، فلا مَعْنى لحسن الظن به ، إلاَّ أن يظن به التَّوبة وعدم الإصرار ، وأما إذا كان ظاهر

فعله طاعة ، أو يحتملها فلا وَجْه لسوء الظن ، وفي الحديث من أبدى صفحته فلا غِيبة له .

(2/115)

وذكر رضي الله عنه أهل الوقت ، فقال : إن الإنسان لا يقيس إلاَّ على نفسه ، فإذا رأى صالحاً في وَقْته ظنه مثله ، لوجود بشريته ، وإن كان فيه خصوصية ، ومن مات إنما يُسمع بخصوصياتهم دون بشرَّياتهم ، فيُعْتقد فيهم لا محالة ، وبُدُّك( ) من يطوي البشريّة ، وينظر إلى مجرد الخصوصية ، وهؤلاء( ) ما يريدون الصالحين لأجل التعلم منهم والاقتداء بهم ، وإنما يريدون منهم أن يُبرهِنُوا لهم فيما يُزيد دنياهم ، ويريدون الفقهاء لأجل أن يعلموهم الحِيَل والرُّخص في أمور الدنيا ، ويريدون لو مات الفقراء كلهم ، حتى لا يبقى فقير يسألهم ، أو يقف عند أبوابهم ، ليتَفرّغوا منهم ويستقلوا بدنياهم ، ومثل هذا ، فجميع مطالبهم الدنيا فقط ، لا عناية لهم بأمر الدين البتة أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : اليوم الناس في العمل ، من هو مجتهد( ) بالنسبة إلى من قبلهم ، كالأعرج في أسفل الدرجة ، والآخر صحيح في أعلاها ، وهو يراه ويتأسَّف أن لم يكن عنده فيمسكه ، وأما غير المجتهد فالعياذ بالله ، يَتَكلّم بكلام فظيع ، ومن طالع في كتاب ما عاد قنع بالجنة( ) ، وهو ما يُسْوى شيء ، وبعض أصحابنا قال : إني أستريح بالأماني ، ولكني ما يبقى في يدي منها شيء ، فقلنا له ما بلغك شئ مما قيل في الأماني :

أمانيُّ إن تصدق تكن غاية المنى ... ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

قال : بلى .

وقال رضي الله عنه : أمور الدنيا من قُدّر له منها نصيب ، وصبر على أوائلها إرتقى إلى أعلاها ، لكنّه سريع ونَشَغ( ) به ، هذا في أمور الدنيا ، وأما أمور

الدين فإذا ارتقى فيها إلى منزلة عالية ، فإنه لا يزال في علو وارتقاء .

وقال رضي الله عنه : الإنسان ضعيف ، إذا وقع في أمر من خَيْر أو شر ظن أن هذا هو هو ، فإذا كان بعدُ تَبيّن له أن ما هناك شيء.

(2/116)

وقال رضي الله عنه في إعانة الله عبده في الأمر ، ما يعين الله الإنسان في أمر يَفْعله أو يتركه حتى يَهِمَّ به ويشرع فيه ، فإذا شرع أعانه ، سواء كان ذلك في الفعل أو التّرك .

وذم رضي الله عنه أحوال أقوام ، فقال : فُرْط الشهوة والبخل يَشْتد في الإنسان ، حتى يقيم الحجة لِنَفسه على رَبِّه ، وحقائق الدين قد خرجت من الباطن ، وإنما بقيت صور ، لا إن الصّور الظاهرة تدل على الباطنة ، إلاّ أهل الدواير من الأولياء ، ولو قلت لواحد تَصَدَّق وافعل الخير ، أتاك بمائة علة ثم يَشْتهي أن يكون من أولياء الله وهو من أولياء الشياطين ، وأرادوا الكرامات يتزيدون بها في دنياهم ، وإذا هم إلاَّ هكذا ، فترى الدجّال فيه كفاية( ) ، وتتبعه الكنوز فليحرص الإنسان في تصحيح أصول الدين ، وفعل الظَّواهر التي لا عذر في تركها ، ويَعْتقد في نفسه التقصير ، وَيَعْتَبر في يومه وليلته ، ويرى أيَّ الأكثر ، من صار إلى الله ، أو إلى الدنيا ، فيعرف لما يرى ، مع أن المصير إلى الله هو الذي عليه المعوّل ، فليناقش نفسه إذ هو أعلم بها من غيره ، والناس في ستر الله ، لا اطلاع لأحد على أحد، والعلماء يفرحون بعدم اطلاعهم على النَّاس، ويَحمل الدينَ من كل خَلَفٍ عدولُه.

وقال رضي الله عنه : الزمان زمان أثقال وأشغال ، فيَنْبغي أن يخفف فيه عن نَفْسه ، ولا يثقّل عليها فيُهْلكها ، ولا يتكلف ما يشق عليه ، كالبعير المحمَّل إذا ثقل عليه يخفف عنه ، والمركب المشحون إذا احتاج إلى التَّخفيف يَرْمون ثقله في البحر خوفاً عليه من التلف ، ولا يجوز أن يلقي نفسه في التهلكة

ويغرقها لأنه لا يَمْلكها بالتَّصرف فيها ، ومن رمى نفسه في البحر مختاراً ، وإن كان يمكن أن يُسبّب اللهُ سبباً ينجيه ، لكنه ملوماً متعدياً بذلك فلا يجوز له ، لأن نفسه ليست له إنما هي لله فلا يجوز له إتلافها .

(2/117)

وقال رضي الله عنه : العمل القليل مع الإحسان خير من الكثير بلا إحسان ، قال الله تعالى : { وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَىَ اللّهُ عَمَلَكُمْ }( ) ، أي حَال العمل ، فيَنْظر كيف عملكم له للمطالبة بالإحسان ، { ثُمَّ تُرَدُّونَ }( ) إلى آخر الآية للمجازاة عليه بما وَعَدكم به إن أحسنتم فيه ، ولا تكتب الملائكة إلا ما كان مَصْحوباً بالإحسان ، والقراءة مع العجلة لا تكتب ، وكذا الصَّلاة والدعاء( ) لا يكتب ، ولو خَاطَبْت مخلوقاً واستعجلت في الكلام ، أعرض عنك فكيف بالخالق ، والملائكة في هذا الزمان من حيث النظر ، لا من حيث العلم يحيرون في طاعات أهل الزمان ، إذ لا فيها إحسان فيكتبونها حسنة ، ولا هم لم يفعلوا شيئاً منها فلا يكتبون شيئاً ، إلا إن كان فيها داعية رياء فيكتبونها سَيّئة ، وقيل : إن فاعل الطاعة مع عَدم الإحسان أحب إلى الشيطان من التَّارك لها أصلاً ، لأن التارك أمره ظاهر ، وسلم من التعب فيها ، والفاعل بلا إحسان أتعب نفسه ، وأعجب لظنه أنه فعل طاعة ، وصدور أهل الزمان تضيق من الحق ، لأنهم لم يألفوا إلا الغفلة ، لأن مجالستهم مع بعضهم بعضاً( ) ، ولو تذكر متذكر منهم ومال قلبه إلى الخير رأى أنه زاد على أقرانه ، فأعجَبَ( ) ورجع من حيث أتى ، فعلى قلوبهم شياطين ، تَمْنَع دخول الخير إليها ، والموعظة لا تصل إلى القلب إلا بيد مَلَك ، فإذا أراد أن يدخلها إليه صادف الشيطان قاعداً عليها . فأحْسِن ، فالقليل مع الإحسان خير من الكثير بلا إحسان ، فدرّة واحدة خير من عشرين حِمل وَدْعٍ ، أو كما قال . انتهى ما حفظناه في هذا المجلس المبارك ، بعد عشاء ليلة الأربعاء في 15 محرم عاشورا عام 1123 .

انظر ما قال في حسن الخلق

(2/118)

وقال رضي الله عنه : شَمْخُ الإنسان بأنفه ، إن كان من كِبْر أو سوء خلق ، فإنه شؤم يُبْغِضه إلى الخالق والخَلق .والأخلاق الحسنة قِسْمة من الله لمن أراد ، ويتولاَّها النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، والسيئة( ) أيضاً قسمة من الله لمن أراد ، ويتولاَّها الشيطان ثم تمثل بهذا البيت :

العلم حرب للفتى المتعالي ... ... كالسيل حرب للمكان العالي

وقال رضي الله عنه لرجل : نَفْسك منطوية فيك ، أدنى كلمة تخلِّيك تفور ، ولهذا ثَقُلْت على الناس فإن النَّاس ما يلينون إلا على الوطاء .

وقال رضي الله عنه : ما عاد مجالستنا لأهل الزمان ومداراتنا لهم ، إلا كمداوي الجرحى ، والمداراة هي التي نسميها المراعاة ، ولكنّها إذا كانت بالدين لأهل الدنيا فهي مداهنة( ) ، ولكن التَّودد إلى الناس بحسن الخلق من المداراة . والتَّوْءَدَةُ : التَّثبت في الأمر ، حتى يتبين رُشْده ، فإذا تبين فالتأخر توانٍ وهو مَذْموم والمحمود التأني فيه حتى يأتي به على الوجه المَطْلوب ، وينبغي أن يداري الناس بحسن الخلق ، وهذا لمن خالط الناس وعَرَف طبقاتهم وأحوالهم .

انظر ما قال في الغضب

وذكر رضي الله عنه الغضب ، فقال : هو طبيعة في الآدمي لا يُمْكنه أن لا يغضب ، ولا يُلاَم عليه ، إلاَّ إنه لا يَنْبغي أن يُكثر منه فيُخْرجه من الحق إلى الباطل .

وقال رضي الله عنه على قوله عليه السلام : ((وخالق الناس بخلق حسن)) أي لا تجفو على الناس ، ولا تشحَّ( ) عليهم ، ولا تُنْكر عليهم ، ولا

تَكُون( ) ثقيلاً على الناس ، ولا عتَّاباً على الناس ، حتى على أهلك وأولادك .

وقال نفع الله به : بحسن الخلق يُسْتجلب خير الأخيار ويُسْتكفى شر الأشرار .

(2/119)

وشكوت إليه نَفَع الله به يوماً في خَلوة ، وذلك بين الظُّهر و العَصْر ، من يوم الإثنين في 27 مُحَرَّم سنة 1126 من سَوْرة الغضب ، تعتريني أحياناً فقال : كيف تجده ، قلت : يصيّر الناس عندي سواء كرجل واحد ، بلا تمييز وتظهر لي عيوب في كثير منهم ، وأتكَلّم على من لا يستحق الكلام عليه ، فقال : ليس هذا صفة الغضب ، إنما الغضب ما كان له سَبب من جهتك ، أو من جهة أحد من الناس ، بأن فعل معك ما تَكْره ، ولكن هذا ضِيْق في الحوصلة ، لعدم وُسْع في الصدر ، فقلت : فكيف مداواة هذا قال : بمخالفته ، بأن تفعل ما تكره فعله حينئذ ، وتترك ما تحب أن تفعله إذ ذاك ، والرياضة على قسمين : رياضة الشهوات بالصوم والمجاهدة بالجوع وكسر النفس ، ورياضة الأخلاق بالتّكلف ، بأن تخالف ما يدعو إليه الخُلق السيء ، وتَفْعل ما يَدْعو إليه الخلق الحسن ، كتكلّف التَّواضع . والنَّفس لها كمائن ودسائس ، فتدّعي شيئاً وإذا جاء هواها لم يصح شيء من دعواها ، وما قرن الله اسمه الواسع في القرآن ، إلا مع اسمه العليم أو الحكيم ، فقال تعالى :{وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}( ) {وَاسِعًا حَكِيمًا}( ) وفيه دليل على أن سعة الصدر تكون من العلم ، وفيه : الحكمة أم الفضائل : { وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً} ( ) ، قلت : فما معنى المجاهدة التي يذكرونها . قال رضي الله عنه : تَصْحيح التَّوحيد ، والعمل على مُقْتضى الشرع ، وتَذْلِيل شَهَوات النفس ، وتَعْديل أخلاقها ، حتى يَسْتقر كلٌ على الأمر العدل الشرعي ، وقد يفتح الله على الولي بعد المجاهدة ، بفتوح من عنده يتحقق له إنها لم تحصل له بمجاهدته ، بل حصلت فَضْلاً منه تعالى ومِنّة ، وقد يجتهد ولا

يحصل له شيء ، ليسلم بذلك من العُجب ، فلا يَرَى أنه حصل له من مجاهدته شئ ، ولا بد من المجاهدة ، قال وسمي جهاد

(2/120)

النفس أكبر ، لأنه دايم ولازم لكل أحد أو كما قال .

وقال رضي الله عنه في قول صاحب "الإحياء" : الطريقة الثالثة في تهذيب النَّفس ، أن يَتّخذ شيخاً صفته كذا فيرشده ويبصّره بعيوب نفسه إلخ ، قال : يكون ذلك بالإشارة ، إن كان من أهلها ، وممن يَفْهم بها ، أو بالتَّصريح في الأمور التي لا بد منها ، ومن نعم الله عليك أن لا يُشَافهك بالأمر والنهي ، بل بالتعريض .

أقول : وهذه سيرته هو رضي الله عنه ، في المتّصلين به والملازمين له ، لا يكاد يواجه أحداً بأمر أو نهي ، إلا إن وَجَب . ومن رآه على أمر فعلاً أو تركاً ، لم يكلمه فيه ، إذا اتسع له فيه العذر شرعاً ، وإن استأذنه أحد أو استشاره راعى مراده وما يميل إليه كما تقدم ذلك من قوله مراراً ، ما لم يكن إثماً أو مذموم العاقبة ، وإذا علم من أحد فعل مكروه ، أو ترك محمود ، ذكر الفعل بعينه ، وبالغ في ذم ما يُكره ، ومدح ما يُحمد بحضرة فاعل المكروه ، وتارك المحمود ، كما بالغ في ذم الكلام ، حال انتظار الصلاة ، ولا قال : يا فلان لِمَ تَتَكلَّم فما سَمِعته قط يقول ذلك ، وكذا إذا علم من أحد تَرْك ما يَنْبغي فعله ، ذَكَر فوات الفضيلة المرتبة على فعله بحضوره ، ومن له بصيرة يَفْهم الإشارة ، ومن عُدِمها لا يُفيده التصريح بالعبارة ، ومع هذا فله نفع الله به ، تَرْبية خاصَّة معنوية ، بإذن ربانية ، لمن سَبَقت له السعادة ، لا يطلّع عليه الخلق ولا من يربّيه ، لا يختص بها القريب ، ولا يُحْرم منها البعيد ، كما قدسمعته يقول : ومن ربيناه يفوق غيره لأنا نربيه تَرْبية لا يَشْعر بها ، فيا سعد ويا فَوْز من حصلت له ، هنيئاً له هنيئاً ، جَعَلنا الله من أهلها وممن نالها وفاز بها .

وقال رضي الله عنه : إلْزق بالأرض تواضعاً ، فإن اللّه ما خَلَق الخلق إلا ليَتَواضعوا لعظمته ، وإلاَّ فخزائنه مملوءة من الأعمال ، ولا اعتراض على المتواضع . وما يَجد المعترض؟.

(2/121)

وعنَّف رضي الله عنه رجلاً على جَلاَفته ، وقوّة طَبْعه عند المصَافحة ، فقال له : طبعك قَوي ، ونَفسك منطوية على كِبْر ، ومادام الإنسان ونفسه ما يحصل على شيء ، وأقل الحال الأدب ، ولو بأدب العامة ، من السّلام والتّحية ، والصلاة على النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، والإنسان لا يخلو إما أن يكون قلباً خالصاً فذلك من جند الرحمن ، أو نفساً خالصاً فذلك من حزب الشيطان ، أو قلباً ونفساً مرة يغلب القلب ومرة تغلب النفس ، وغالب الناس لا يخلو من هذه الثلاثة الأقسام ، وقد أثبت الله الشيطنة بقوله شياطين الإنس والجن ، وقد عجزوا حتى عن التأدب بالأقوال فكيف بالتأدب بالأفعال أو الأحوال ، فإذا كان الإنسان قائماً مع نفسه ، فكيف يمكنه التأدب بالمشايخ والاقتداء بهم ، والتخلق بأخلاقهم ، ونحن الآن ما عاد رأينا محلا يصلح للكلام ، ولا قابلاً له ، ولا رأينا أحداً نتكلم معه ، وإلا فمعنا كلام كنا نتكلم به ، لكن ما رأينا له محلاً لائقاً ، ما عاد يريد أحدهم إلا يقرأ كتاباً و يطرح كتاباً ، لا غير ، وإلى متى هذا ، ما هو إلا كما قال عمرو ابن العاص ، لما قيل له إن النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم كان يحب إنشاد الشعر ، ويعجبه الأنس ، قال عند النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم أشياء لا نعلمها ، أو كلمة نحوها . وذاك الذي له تلميذ يقرأ عليه ، فأراد يوماً يقرأ عليه ، فقال له اتخذتني حرفة لقراءتك ، إقرأ على ربك ، أو كما قال . قال نفع الله به : ولم يزل في نفسي من كلمة عمرو شيء ، وقد لامه السلف جداً حتى فضلوا معاوية عليه ، فقال الحسن [أي البصري] وكان معاوية خير الرجلين .

وقال رضي الله عنه : ينبغي للإنسان في هذا الزمان ، أن يسير إلى الله باللطف ، ويأخذ نفسه بالتي هي

أحسن ، ومن تبعه فهو منه ، ومن عصاه( ) فإن هذا الزمان هو الذي ذكر في الحديث آخر الزمان ، الذي على الإنسان بخويصة نفسه ، ولا عليه من غيره ، لأن الروابط قد ضعفت في هذا الزمان .

(2/122)

وقال رضي الله عنه : الأخلاق الشريفة ، من لا يعلمها يتعلمها ، فإذا لم يتعلمها وأراد يعملها لا يعرف كيف العمل بها ، وقد جمعها الإمام الغزالي وذكر : إن من تواضع لكناس أو دباغ مثلاً غير محمود ، وإنما يحمد التواضع للأكابر ، وأهل العلم .

وقال رضي الله عنه : مقابلة النفس بالنفس ، تورث العداوة ، وإنما ينبغي أن يقابل النفس بالقلب ، والشر كله في الكلام ، فينبغي لمن ثارت عليه نفسه أن يسكت ولا يتكلم ، ما دامت كذلك ، وأنا من طبعي ، إذا غضبت على أحد ، فإن تكلمت استمر بي ذلك ، وإن سكت سكن مني ، وإن خرجت مني كليمة على أحد من المحبين ، فإنما هي حق التنفس ، أو كما قال.

وقال رضي الله عنه : إنا نتكلف إساءة الخلق ، وطبيعتنا عكسه( ) ، بخلاف الغير فإنهم يتكلفون حُسْن الخلق ، وطبعهم ضده .

وقال رضي الله عنه : إذا حسنت أخلاق الشخص ، ساءت أخلاق أخدامه .

وقال رضي الله عنه : الغل : إضمار البغض لمسلم . وهو شديد ، إلا إن كان من غير اختيار ، كأن ظلمه حقه ، فلا يَحْرُم لكن ينبغي أن يكفره بكراهته والاستغفار منه ، ويعزم على أنه إن تمكن منه ، لم يخرجه عن حد المباح فذلك تكفيره .

وقال نفع الله به : سوء الخلقِ ضيْقُ الصدر .

وقال رضي الله عنه : أهل شبام ، كثيري الكلام ، كل ذلك لِضِيْق صدورهم ، فَلِضيقها يتَنَفَّسون بكَثْرة

الكلام ، وضِيْق صدورهم لضيق بيوتهم (لأن من ضاق بيته ضاق صدره).

(2/123)

وعاتب رضي الله عنه خادماً له ، فكان مما قال : إذا حسنت أخلاق الرجل ، ساءت أخلاق خادمه ، وأحب إلينا أن يكون ذلك فيهم ، ولا فينا ، وما كنا من حين ابتداء أمرنا نظن أن نلابس شيئاً من أمور الدنيا وأسبابها للطَّرَف ، حتى صارت الأمور إلى غير الاختيار وأقبل الناس علينا ، فلما رأينا ذلك علمنا إنه إنما كان بسابق( ) إلهي ساقهم إلينا ، فيجب علينا الصبر فيه ، وتمشَّت لنا من الأمور المعاشية أشياء ما يكاد يصدق بها الإنسان كالمحال ، تسْتَبعدها العقول ، ومن رآها وسمعها تعجَّب كثيراً ، وقال : بعيد جداً أن يكون هذا الأمر من هذا الباب أو كما قال .

(2/124)

وقال رضي الله عنه : الأوصاف ما تَصير أوصافاً إلا إذا قويت وثَبَتت ، وهذا في كل الأخلاق ، المحمودة منها والمذمومة ، كالحسد وغَيْره ، وأما الخواطر المتردّدة فلا يُعْتد بها ولا إثم بها ، ولا مَدْح ولا ذَم ، والكبر والإعجاب وحبّ الدنيا ماحِقَات كلّها ، والقليل منها يجر إلى الكثير ، وفي الحديث : إذا رأيتم في إنسان خلقاً محموداً فاعلموا أن هناك له أخوات ، وإذا رأيتم فيه خلقاً سيئاً فاعلموا أن له أخوات ، ثم قال : انظروا إلى أماكن الشّوك والنمل ، كيف يدل القليل على أكثر من ذلك ، وكذلك في الأماكن المُسْبِعة ، ولكن راحت بالناس الأفهام ، فلا معهم أفهام يعرفون بها الأمور ، ولا مفهّمين يُعرِّفونهم بها، فبَقُوا حائرين لا يَدْرون وِجْهتهم ولا أين هم متوجهين ، وذلك حتى في أمور الدنيا ، لا تحقق لهم بها ، وهذه الأشياء لا يقبلها الله تعالى ما دام الإنسان يقبل التشكيك في الأمور الدينيات ، و الإنسان ، أو قال ، وما زال الإنسان يقبل التشكيك في الأمور الدينيات فلا يقبلها الله ، والإنسان في

مطالبه على قَدْر همته وطَلَبه ، فلو كان إلاَّ إنما يريد نكاح امرأة ، أو شراء ضَيْعة ، فإذا طلبت النفيس من ذلك صعب عليك الأمر ، وإن طلبت ما اتفق أمكنك من ذلك كثير ، فطالب الصعبِ أموره صعبة وطالب السَّهل أموره سَهْلة، أو كما قال ، قال ذلك عشية الثلاثاء في 21 جماد الآخر سنة 1129.

وقال رضي الله عنه : النَّفس قاسية رغيبة ، إذا رأت الشيء لم تَقْنع به ، لكن إن رأته كثيراً تبارك وإن كان قليلاً ، وإن رأته قليلاً ذَهبت بركته وقلَّ ، وإن كان كثيراً .

وقال رضي الله عنه : من تهاون بطاعة الله الظَّاهرة ، ووقع في معصيته لا بد له من الموت عاجلاً وآجلاً ، وأول ما يموت منه قلبه .

انظر ما قال في البر وقطيعة الرحم

(2/125)

وتكلم رضي الله عنه في قطيعة الرّحم ، فقال : إذا أراد الله بامريءٍ سوءاً سَلّط عليه قَطِيعة الرَّحم، فعند ذلك يسرع إليه الذهاب والدمار والهلاك،وقد ورد( ): ((صِلْ رحمك وإن قَطَعَتْ)).

وقال رضي الله عنه لبعض السادة : الله الله في الوالدة أنّسها واجبرها ، لعل تحصل لك منها دَعْوة ، والكَبير قد يَتَغَيَّر طبعه فيحتاج إلى صَبْر ، وما مع الإنسان إلا إعانة الله ، إن أعان تَيَسر له الأمر الصعب ، وإن لم يعنه لم يقدر يشل ثيابه ، والبيت بيت أجر وصبر ، والأجر يبغى صبراً ، ولا شئ إلا بالصَّبر ، حتى لو أحد جعل لك دواء احتجت فيه إلى صبر في مقاساته ومرارته ومعالجته ، وقد قالوا : الراحة لا تنال بالراحة وإنما تنال الراحة بالتَّعب ، وأنشد :

بقدر الكَدّ تُكْتَسَبُ المعالي ... ... ومن رام العلا سهر الليالي

وبعده : تروم المجدَ ثم تنام ليلاً ... يغوص البحرَ مَن طلب اللآلي

في أبيات تنسب لسيدنا علي ، ومنها :

لنَقْلُ الصخر من قِلَلِ الجبال ... أحب إليَّ من منن الرجال

وقال رضي الله عنه لرجل يوصيه في أبويه : الله الله فيهما ، برَّهما واتبع رضاهما ، وكن لهما كالعصا المركوزة ، ولا تتحرك إلاّ إن حركاك .

وذكر رضي الله عنه البر وأهله ، فقال : البِر فيه بركة ، وصلة الأرحام مباركة ، فيها طول العمر وسعة الرزق وكفاية الأعداء ، ومن وَفّقَه الله فهو بخيت ، وإذا أضل الله عبداً أو أراد هلاكه ، لا ينفع فيه شيء .

(2/126)

وَذُكِرَ له رضي الله عنه إن رَجلاً غضب على ابن له ، فرماه بشفرة ، فكان فيها حتفه ، فقال سيدنا : لا حَوْل ولا قوة إلا بالله ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، هذا سبب الغضب ، والغَضَب من الشّيطان ، فينبغي للإنسان أن لا يعمل شيئاً حالة الغضب أبداً ، لأن كل شئ يفعله في تِلْك الحالة غير سديد ، ويُرَيِّض الإنسان نفسه بتكلف الصبر ، والإمساك عَمَّا يقتضيه الغضب ، حتى يتعَوَّد ذلك ، فلا يَغْلبه الغضب ، وقد أمر النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، إنه إذا كان قائماً فَلْيقعد ، وإن كان قاعداً فليقم . وفلان لا يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يدعوه إليه الغضب ، سمّى رجلاً من آل فلان ، كان في الحاوي خادماً ، فإذا وصّاه في بعض الحوائج ، يراه وعليه أثر الغضب جداً ، فيزعله ذلك منه .

انظر بعض مكا شفا ته رضي الله عنه

(2/127)

ومن العَجب إن هذا الرجل كان يقول : إن سَيّدنا عبدالله قد كان أوعدني بالحلول والإقامة بوادي الدَّواسر ، وكَرّر ذلك عليه مراراً كثيرة ، قال : كلما خاطبني قال لي : ما لك إلا بلاد الدَّواسر ، وظاهر هذا إنما هو توعد لا وعد ، فاعتقده وعداً ، أو إنه سيصير له بها مَظْهر واسْم وصِيْت ، فاستعدَّ لذلك بكتب فقه وخُطب ، وقال إنها بلاد عامَّة ، يحتاجون لذلك ، فحين وصَلَها وافق حضور الأجل ، ففي سُرْعة من الوقت انتقل ، فكان الوعد له بسكنى في القبور ، لا بسكنى في الدور ، فأعجِبْ من بُعْد مرمى كشف سيدنا . وقد قال نفع الله به : كلما بَعُدَ ما كُوْشف به الأولياء كان أصح وأقوى للكشف ، فتبَيّن بهذا أنه تَوعُّد لا وعد ، كما تَوَعَّد عيسى بن بدر ، لما كثر ظلمه على الرعية ، فقال سيدنا : ما له إلا الكثيب الأحمر ، أي كَثِيب عينات ، وكان مقامه بشبام ، فانحدر إلى عينات فحضره أجله في يومه ، ومات ودفن في الكثيب الأحمر ، كما ذَكَر ، وتقدَّمت قِصَّته ، وكذلك لما قال نفع الله به لي ، قال لنا حسين بافضل : إن بَدَت لكم حاجة ، الحذر ما تَذْكرونها لي ، فقلنا : إن بدت حاجة تُطلب من الخلق ، فما أولى منك ، وقِدْنا ببيتك ، وإن قَضَى الله الحوايج فما بقي كلام ، ثم قال لي : فاعلم ذلك واعمل عليه ، وهذا منّة بفضل الله لي ، وعد لا توعد ، فمن حين وضعت رجلي بالحسا من سنة 1134 قيض اللّه لي بعض المحبين الصادقين ، أن قال لي : إن بَدَت لكم حاجة فلا تَسْتقضونها إلا من عِنْدي ، ولا تَسْتَقضون حاجة من غَيْري ، فقلت له : إن شاء الله إن بدا لنا غرض ، فأنت أحق بذلك وأولى به ، فكان لنا معه في أمور المعاش أحوال غريبة جداً ، لا توجد في أهل هذا الوقت ، من جملة ذلك إنا بقينا نَتَسَلَّف منه إلى أن بلغ ذلك 170 ، غير ما يعطي بغير سَلف ، وهو أكثر من ذلك بكثير ، فقال عند ذلك : أنت بريء من ذلك كله ، ومَرَّة كان للأهل عند رجل ثلاثمائة ،

(2/128)

فَذَكرنا ذلك له فأعطاناها ، وقال : أنا أجوز معه ، وغير ذلك حتى صِرْنا نقْضي أمورنا من بعيد ، ومهما

علم بشئ قضاه من غير ما نعلم ، إلى أن جانا هذا الوقت ، وهو سنة 1163 الذي أقعد الأقوياء ، وأفقر الأغنياء ، صِرْنا نخْفي عنه بعض الحوائج ، شَفَقَة عليه ، وهو يطالبنا بذكرها ، ونخْفيها عنه وعن غيره ما استطعنا ، ولا يمكن اليوم إلا القناعة ، لتغَيّر الزمان وأهله ، ومَيْلهم عن شَاكلة الصَّواب ، لغلبة البخل والشُّح عليهم ، نعوذ بالله من أحوال ما تَدْعو إليه النُّفوس في هذا الزمان ، وكان سَيِّدنا نفع الله به يقول في وقته ما معناه : لو يتصور الإنسان هذه الأمور الوَاقعة في هذا الوقت قبل وقوعها ، هل تقع أم لا؟، لكان لا يجوّز وقوع ذلك ، فلو قيل لك : هل يمكن إن رجلاً كان يحسن إلى الناس ويعطيهم ، إنه سيصير يستعطي ممن كان هو يعطيه ، لقلت : هذا ما يمكن ، وهذا وقع في هذا الوقت كما ترى ، وكلُّ ما يُستنكَر وقع ، فكل ذلك مما أشار إليه نفع الله به ، وهو من أمارات الساعة .

(2/129)

ومن جملة مكاشفاته نفع الله به ، قِصَّته مع حسين بافضل عام حجِّه ، وملخّصها : إنه رضي الله عنه رأى وهو في المدينة المشرفة ، وفي صحبته إذ ذاك الشيخ حسين بافضل ، وكان مريضاً ، قال : رأيت كأن باباً مفتوحاً له من المدينة إلى مَكَّة ، فقلت : إنك لا تموت إن شاء الله إلا في مكة لأنا رأينا لك كذا وكذا ، فقال : وقد قبري في مكة مَبْحوث ، و حَصل لنا بسبب مرضه ، أنا رجعنا إلى مكة ، وجددنا عهداً و اعتمرنا ، و إلاّ فإنه إنما خرج معنا ميتاً وراجعاً ، و نقل شليه( ) عنا هذه الرؤيا ، ونقل معها أيضاً كلاماً ليس على بالنا ، و لا نَعْلم بوقوعه منَّا ، إلا إن كان قد نَسيناه فَيُمْكن ، والسيد ثِقَة ، و هذه الأشياء لا نريد أحداً ينقلها عنا ، و لا نمكّنه من نقلها ، وهو إنه ذكر : إنا وَهَبْنا له من عمرنا أياماً واستَوْهبنا له من الجماعة أياماً ، فلما تمَّت مات ، إلى آخر ما ذكر . وهو مذكور في ترجمته ، من المشرع الروي بأبسط من هذا( ) .

أقول : وقد سَألته عن هذه القِّصة ثلاث مَرّات لأنقلها عنه ، فالأولى سكت فيها ، ولم يرد جواباً . والثانية قال : ذكر هذه شليه ، وهو ثِقة. والثالثة قال : ذلك من بركة المتابعة . وذاكرته في قصة سقاية قَسَم( ) ، فقال : ذلك وأشباهه من بَركة الإتباع ، ونور النبوة ، ومن معجزاته صلَّى الله عليه و آله وسلَّم.

(2/130)

ومن عجيب مكاشفاته رضي الله عنه وبُعْدِ مرائي( ) إشاراته ، قصة محمد المغربي ، الذي كان ينزح على بير زمزم ، وقد جاء إلى حَضْرموت ومَكَث عند سيدنا في الحاوي مدة ، فكان ليلة كما ذكر ذلك عبدالله باشراحيل بمَعْناه في مَجْموعه( ) الذي جَمَعَهُ في كرامات سَيِّدنا ، وهم في الراتب ، وهو يفص رجلَيْ سيدنا الحبيب ، إذ شَراه ظَهْرُه ، فجَعل يحكّه وقال : يا حبيب ظَهْري يشْراني( ) ، فَرَفع سَيّدنا يده و ضرب بها على ظَهْره ، وقال : هذا إبراهيم في ظهرك فنريد أن نزوجك ، فحين ما قال له ذلك ، أمر رجلاً كان حاضراً ، و قال له : سر إلى أختك ، و استأذنها أن نزوجها بفلان ، فسار إليها واستأذنها فأذنت له في ذلك ، وزَوّجها إياه بحَضْرة سَيدنا وزُفّت إليه ، ومكث معها أياماً ، ثم جاء إلى سيدنا يطلب الإذن في المسير إلى الحرمين فأذن له ، فلما جاء يَسْتودع مسافراً ، قال له : إن زَوْجتك حَملت بولد ، فإذا وَلَدَته سَمَّيناه إبراهيم ، فإذا بلغ يحج أحد من عيالنا ويحج معه ، فَولِّم( ) له كل ما عندك من الدَّراهم ، واجمع له ما قدرت عليه منها ، ثم يجيئك بعد مدة حاجًّا ويجيئك من عندنا بكفنك ، يكون هذا على بالك ، فسافر وقد حفظ منه ما قال ، وصار ذلك على باله ، ثم ولدت زوجته ولداً و سمّاه سيدُنا : إبراهيمَ ، فلما بلغ وكان سنة 1118 حج السيد الحسين بن الحبيب( ) ، فحَجّ إبراهيم معه و إذا بأبيه مجمّع له ما قدر عليه ، فدَفَعه إليه ، وهو سَبْعون قرشاً ، فجاء بها فغرس واشترى منها نَخْلاً ، و بنى داراً ، و تزوج منها ، ثم إنه حج مرة أخرى بعد الأولى بنحو عشر سنين ، فأعطاه سيدنا لأبيه ملحفته التي يلبسها ، و قال إدفعها لأبيك ، و قُدْ معه خَبَرها ، أي كونها كَفَنه الذي عهد به

إليه ، فلما سَمع أبوه بوصوله إلى جدة قادماً ، حَزن حزناً شديداً ، فَهنّاه بعض أهل المدينة بقدوم و لده ، فقال : فبم تهنيني ، أتهنيني بالموت ، فإنه جاء يبشرني

(2/131)

بالموت ، فلما قدم المدينة و أقبل على أبيه يحيّيه ، قال له : هات كفني الذي جئت به من عند حبيبك ، فدفع له الملحفة ، فتَمسَّح بها وقال له : ليتني ما رأيت وَجْهك ، ما كان تَرَكْتني أذوق الرُّطب ، وكان قد قرب إدراك الرطب ، فَمرض من يومه أو ثاني ، والحاصل ما بقي إلا نحو ثلاثة أيام ، وتوفي ، فيا للعجب ، من هذا العجب .

ومن جملة مكاشفاته نفع الله به بشارته للسَّيد الحبيب أحمد بن زين الحبشي ، بابنه جَعْفر قبل يولد ، وذلك إنه توفي للسيد أحمد ولد اسمه علي ، وكان قد حفظ القرآن وطلبَ العلم ، وكان أبواه مشغوفين به ، فحَزنا لموته ، فقالت أمه لأبيه : زُرْ بنا السيد عبدالله الحداد ، أريد ألازمه ، يدعو لي بولد مبارك يخلف عليّ ذلك الولد ، فأتياه زائرين ، وتَكَلَّمت له بما في نَفْسها ، فقال لها : اصبري الآن ، عادكُما إلا جئتما ، فإذا أخذتم كم يوم أرسلنا لكم ، فلما مَكَثا المدة التي قال لهما ، أرسل لهما فأتياه ، فقال : سِيرا على بركة الله ، ونُبشّركما بولد مُبَارك سَمياه جعفراً ، فسارا على إشارته ، ثم بعد أيام جاءت من السيد أحمد وَرَقة ، ذكر أن الشَّريفة حملت ، ثم بعد ذلك أرسل كتاباً آخر ، وذكر إنها ولدت ولداً سميناه جعفراً ، ثم نشأ هذا الولد نشواً حسناً ، وصار فيه بركة كما وَعَد سَيّدنا ، وصار اليوم القائم في مقام أبيه ، فانظر وافهم ، واعتبروا يا أولي الألباب .

انظر ما قال في موت الفجاءة

(2/132)

وقال رضي الله عنه : ينبغي إذا مات أحد فجاءة أو بِمَرض خفيف أن لا يُسْتعجل بِتَجْهيزه ، حتى يتحَقّق موته إمّا بتغير ، أو علامة تفيد اليقين ، أو معرفة طبيب حاذق ماهر في الطب ، ورأينا في بعض كتب الطب ، ذكر علامة وهي أن يُجعل عند أنفه قطنة مندوفة مهبَّاة ، فإن تغيرت بنحو حرارة أو غيرها ، دل ذلك على حَياته ، لأن ذلك من أثر النفَس ، ثم أطال الكلام في ذلك ، وذَمّ أحوال الناس في استعجالهم بالجنائز ، فقال : إنما نحن إذا عَرَضت لنا مسألة تَكَلّمنا فيها و بَيَّنا تساهل الناس فيها ، ولا أحسن للإنسان من اتباع سَلفه ، لأن للناس سلفاً هم أهل علم و صلاح ، و يكفيهم الأمر في تَجْهيز النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، ما جَهَّزوه إلا لثالث من مَوْته ، أوَ هُمْ ما رأوا سُنّة يعملون بها في زَعْمهم إن مرادهم السنة في السّرعة بِتَجْهيز الميت إلا هذه؟ ، و التَّجهيز للميت بعدما يتحقق موته ، لا في الحال ، فرب من تَحْصل له سَكْتة أو إغماء يظنّ أنه مات حتى ذكر : إن رجلاً خَرَج من قبره ، بعد أن دفن عاضًّا بإبهامه ، دُفن حيّاً ، و قصته مشهورة يسمى عاض الإبهام ، و آخَر سمع صياحه في قَبْره ، فلما بَحَثُوا عليه رأوه في آخر رمق فمات ، وذكروا : إن الإنسان قد يموت من شم ريح الكافور ، فيفزعه وهو حاله ضعيفة فَيَمُوت ، وليس عَمَلهم من عمل الدين ، ولا من أعمال أهل الجهة فإن البلد( ) مدولة ، دَوْلة عِلْم ، ما هي دَولة جَهْل ، فينَبْغي إذا مات عشيَّة أن ينتْظر به إلى الصّبح ، أو ضحوة ينتظر به إلى عشية ليتحقق مَوْته ، فإنما التَّجهيز للميت لا للحي ، أوَ ما رأوا سنّة يعملون بها إلا هذه؟ ، فلأي شيء ما يطمئنّون في الصلاة ، و يَتْركون الهَذْوة في المساجد وفي الحزب ، كيف هذا ، ويريدون يَعْملون بالسنة ، فينبغي أن يشبه الماعون الماعون ، ثم ذكر قِصصاً وحكايات كثيرة في هذا( )، كقصّة( ) هارون الرشيد ، لما ظنوا مَوْته و أرادوا تَجْهيزه ، فدخل عليه

طبيب فأمر بجريد( ) فأتي به فضربه به ، فجعل يتحّرك قليلاً قليلاً ، حتى انتبه من حالته ، ثم برىء

بعد ذلك و صَحَّ ، و ذكر غير ذلك . ومما ذكر قال : حكاية نَسْمع بها ، إن امرأة حبلى ، رأوها كأنها أسكتت فظنوها ماتت ، فأرادوا تَجْهيزها ، فجاء إليها طَبيب ، فقال إئتوني بإبرة فأتوه بها فغرزها في بَطْنها فتنفست ، وتحقّقوا حياتها ، فسألوه عنها ، فقال : إن ابنها وضع يده على مَوْضع نَفَسها ، فتنَفّست من مغرز الإبرة فصَحّت ، أو كما قال ، وذلك عشية الأربعاء في 22 محرم سنة 1123.

أقول : سمعت إن الإمام البيضاوي ، حَصَل عليه مثل ما ذكر ، فجهز ودفن حَيًّا فانتبه مما جَرَى عليه في قَبْره ، وَعَرف أنهم ظَنّوا موته ، ففعلوا به ذلك ، فنذر إن أخرجه الله سالماً ليفسرن القرآن ، فجاءه نَبّاش كان ينبش القبور ، ويأخذ الأكفان ، فنَبَش عليه حَتّى إذا وصل إليه تنحَّى له عن الكفن ، وقال له : امض إلى بيتنا آتني منه بِقَميص ، فارتاع النَّباش وغشي عليه ، فقال له : إنهم ظنوني مُتُّ فسر إليهم بَشّرهم ، وآت لي بِثَوْب ألبسه و خذ هذا الكفن ، فذَهَب و أتى له بقميص ، فلبسه وَ خَرج ، ثم فَسَّر القرآن التَّفسير المشهور.

وقال رضي الله عنه : الأمور الفجائية ، التي تأتي الإنسان بَغْتة ، أو يُخْبر بها كذلك ، قد تَقْتل وقد تُرْعب رُعْباً شديداً ، بحيث يغمى على الإنسان ، كما حكي : إن حارساً كان في بَعْض الحصون رأى جرادة في الجو طائرة ، فظنها سهماً فوقع من الحصن ، فبقي مطروحاً إلى اليوم الآخر كذلك ، ثم أفاق ، وكذلك اتفق لشخصين مسافرين أن نام أحدهما ولم يَنَم الآخر ، فرأى( ) حية لدغته ، إلى هنا رأيت في الوَرَقة ، وأظن إن النائم رأى ذلك فصاح فقام مرعوباً فقام إليه الآخر وأمسكه .

وقال رضي الله عنه : إذا أفرط الإنسان في محبة أمر أو بغضه انعكس إلى ضده ، لأنه لا ضابط حينئذٍ ، فينعكس الأمر، كذلك الذليل جداً لو سمع خربشة يفزع منها يظنها شيئاً يخاف منه ، وليس كذلك ، كما

ذكر إن رجلاً رأى جرادة طائرة قاصدة نحوه فظنها سهماً فصاح فوقعت عليه ، فسقط وهو يقول بصياح شديد، أصابني سهم حتى مات ، وآخر خرج من بعض الحصون ، فسمع ضربة بندق فظن إن رصاصة وقعت فيه ، فسقط فخرج إليه أهله فرأوه ملقى ، فلما أفاق قال : إنه أصابني ، إلا إنه لما آتيتموني ذهب ذلك عني .

ومر رضي الله عنه في طريقه من الحاوي إلى السبير في باجبهان بنساء ضعاف ومنهن عميان ، فسألوه( ) فقال للخادم : إعتن ، أما لك عناية بالمساكين، أما ترانا بعد كل صلاة ندعو: إن الله يحبب إلينا المساكين ، يعني في الدعاء بعد الصلاة : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، إلى أن قال : وحب المساكين ، فقيل : إنهم مساكين بلا دين أي بلا صلاة قال : ولو ، لأن الله يحب المساكين ، ولو أن غنياً بلا دين ، وآخر مسكيناً بلا دين ، يكون ذلك المسكين أحب إلى الله من ذلك الغني ، ففيه وصف مما يحبه الله ، ولو قلت له : لِمَ لا تصلي؟، لقال : ما علي ثوب يعني يعتذر بذلك أو غيره ، ولا يقول : ما عليَّ صلاة فينكرها.

وذكر رضي الله عنه جماعة من آل الشيخ أبي بكر كانوا يترددون ثم انقطعوا، فقال : ماكان بيننا وبينهم شيء من أمور الدنيا، ولا نالنا منها منهم شيء، وهم عالمون بذلك ، ولو أرسلوا لنا شيء رديناه ولا قبلناه ، وإنما مرادنا منهم أن يتربوا ويتخلقوا بأخلاق سلفهم ، ماهم داريين إنا نربي الرجل من أولادنا على الخلق الواحد سنين( ) .

ما قال في عقيدة أهل شبام

واستأذن عليه رضي الله عنه بعض السادة من شبام ، فأذن له بالدخول وذلك بعد إشراق يوم الثلاثاء في 25 صفر سنة 1132، فكان مما تكلم به أن قال له : أهل شبام لهم عقيدة وحسن ظن في السادة ظاهراً عليهم ، ليسوا كأهل تريم ، فإن لهم أيضاً كذلك

لكنهم مستبطنينه لا يظهر عليهم إلا عند الاختبار ، كما ترى إذا كانوا في سفر أو رأوا أمراً نزل بالشريف فيظهر عليهم أثر التعب حينئذٍ، وما ذاك إلا لكثرة الأشراف ، ومخالطتهم لهم، كالمسك إذا قل عَزَّ وإذا كثر هان.

وسأله عن رجل بشبام ، كيف هو وأهله ، وامتد به الكلام إلى أن قال : أرسل أهله إلينا نأمره بالفراق ، ونحن كلامنا ماعاد نسيبه لأهل الزمان، لقلة امتثالهم ، وماذا ينفع الكلام مع قلة الاستماع له والعمل به، كالذي يعجن الطحين بلا ماء، كيف يمكنه عجنه بلا ماء، لأن فيهم مباهتة وكذباً ، إن ذكرت له حال نفسه وما فيه من مذموم الخصال لأجل نصحه وتبيين عيوب نفسه ، حقد عليك ، وربما أقر على نفسه بذلك، وقال مثلاً : نحن إلا كذا وكذا، فإذا وصفته بما وصف به نفسه ثقل عليه ذلك، وأضمر لك الحقد، وما يحسن في هذا الزمان إلا الإنفراد عنهم، إن أمكن، أو المجاملة معهم وهي المداراة المطلوبة في الشرع، وأنشد بيتاً للزمخشري وهو :

قد كان لي كنز صبر فاضطررت إلى ... إنفاقه في مداراتي لهم ففني( )

(2/136)

فقال له ذلك السيد: أهو معتزلي؟، يعني الزمخشري ، فقال : نعم ، في العقائد دون الفروع، فإن مذهبه حنفي، ثم جرى ذكر أبي طالب وإجتهاده في نصرة النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، ومنافعه له، فقال سيدنا: لكن ما نفعه ذلك، لأنه كان لمجرد العصبية، ولا كتب له إسلام حيث عرض له النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم بكلمة التوحيد ، وطلب منه أن يقولها، وكان عنده أولئك الرجلان من كفار قريش ، حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبدالمطلب ومات( ) ، ثم قال سيدنا : ما يحصل للعبد التثبيت، إلا إن ثبته الله وإلا أدنى خاطر يخطر له يزلزله، فقال ذلك السيد: أدعوا لنا بالتوفيق، فقال سيدنا : إذا جرى شيء في خاطرك فهو بايقع

لك، لأن الله سبحانه وتعالى لا يخطر في خاطرك رجاء حصول أمر إلا ويريد أن يعطيكه ، لأنه سبحانه لا يؤمل أحد منه أمراً فيقطع به عنه، لأنه تعالى كريم رحيم ، وما خلق الخزائن الا ليعطيها عباده ، مع قوله تعالى : { أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }( ) ثم سأله في شيء من الكتب يطالع فيه، قال : في "الأربعين الأصل" و "المنهاج" فقال له : كتاب الأربعين الأصل فيه أشياء ليست في الإحياء، وهو كتاب جليل، وسماه الشيخ عبدالله العيدروس الصراط المستقيم، وفي كتب الإمام الغزالي خاصية ، وهي إنها تجلب القلب الى الحضور مع الله بالخاصية لا بمجرد العلم ، وقد ذكر الشيخ عبدالله أي العيدروس لذلك مثالاً : كما يحصل السواد بمجرد اجتماع الماء والزاج ، ثم أمر بالقهوة، وبعدها بالدخون، ثم قرأ الفاتحة ثم خرج ذلك السيد، وتم ذلك المجلس المبارك .

(2/137)

وذكر رضي الله عنه أهل شبام ، فقال : كان فيها ناس زهاد، ولا رغبة لهم في الدنيا ، أهل خير، فصاروا اليوم كلهم مشغولين بالدنيا، فصاروا إلى لهو ولعب فإن كان في أحد خير فهو اتفاق . وكان الفقيه بامجبور إذا جاءه حَكَمان يتحاكمان يبكي أولاً قبل الحكومة ثم يفتي فانظر الآن، وهكذا كانوا، وما يستجري العامة، الا باستجراء العلماء، وأدركنا كثيراً من أهل الأحوال في الجهة، مساتير ومشاهير، ولكن انطفى ذلك النور ، واشتعلت بدله نار، ولو كان هنا أحد من أهل الكشف لرآها ناراً من أعمالهم لا من غيرها.

وفي بعض الأيام وهو يوم السبت 23 ربيع آخر سنة 1132 دخل عليه السلطان عمر بن جعفر في داره في البلاد بعد صلاة الصبح ، ووصلت من الحاوي وهو داخل، فوقفت في الضيقة الى أن خرج ، ثم خرج سيدنا وقال : يوم هو هنا قدْ جيت ، قلت : نعم ، ولم أجزم بالدخول فقال : نعم نحن الغِنا ، وهو العَنا ، إذا دخل علينا لم نخل أحداً يحضر إلا إن كان العيال ، لأن الناس ليس فيهم أمانة في حفظ الكلام ، وأيضاً إذا

كل من جاء حضر فما فائدة في كلام الخلوة ، وكذلك إذا كان عندنا سماع، إذا خلونا لانمكن أحداً من الحضور إذا كان السماع خاصاً في خلوة، فإن كان ظاهراً فلا نمنع أحداً أو كما قال .

وشكا إليه رضي الله عنه بعض السادة ، من ألم ضرس أضرَّ بِهِ فقرأ عليه، ثم قال: يقال بئس الصاحب الضرس ، إذا رأيته ما نفعك( ) ، وبئس الصديق الدرهم ما ينفعك حتى يفارقك، ثم قال لي : إحفظهما .

وقال رضي الله عنه : أكثر زلات أهل الزمان في ألسنتهم، ومعاملاتهم الفاسدة، و يظن أحدهم أنه يتعدى شجرة إلى فوق يريد الجنة ، وعاد العلم وعاد العمل( ) ، و إذا نظر الإنسان إلى أهل طبقتين وتفاوتهم يرى بينهم بُعدًا ، حتى إنهم مايتعارفون ، فإن الزمان إلى نزول .

(2/138)

وذُكِر عنده رضي الله عنه جملة من صالحي الزمان ، فقال : فلان كذا، وفلان يجيء عند الدولة، يعيبهم بذلك، ثم قال : كانوا( ) أهل يقظة وانتباه، فقد كان بعض الصالحين له صاحب، فرأى صاحبه أنه يناوله شيئاً يأكله ، فتأمله فإذا هو خَرَا الجرذان، فحكى له بالرؤيا، فقال : نعم، إن لنا جماعة مالُهم غيرُ حلال ، يجيؤون لنا بشيء فنرده ولكن قد دَخّنتك بشيء من دخونهم ، ثم امتنعَ منه ولا عاد عالقه ولا صارمه .

وقال رضي الله عنه : بعدما ذكر جماعة نقلوا من كلامه شيئاً، قال : فلم يعجبنا نقلهم، فإنهم قد يأخذون بالمعنى ولا عرفوا مقصود الكلام ، وقد نهى بعض العلماء عن نقل الحديث بالمعنى، لكن ضاق عليهم الأمر واحتاجوا لذلك، والكلام له أول وآخر، وعلى مقتضى السؤال يكون الجواب ، وقد قال لنا رجل : إنكم تذمون فلاناً يعني من سلاطين الجهة( ) مرة ، ومرة تمدحونه ، ولا عرفنا كيف حاله، فقلنا إذا ذُكِرَ بظلم تكلمنا بما يناسب ذلك، وإذا ذُكِرَ بنفع تكلمنا كذلك، أَوَ نسكت مع ما نُسأل؟، وكثيراً إذا

سألَنا أحدٌ مسئلة في المجلس، أود أن أخلِّف جوابه إلى بعد المجلس، والجواب أوسع من السؤال، وقد قالوا : لا ولد أكبر من أبيه إلا الجواب( )، فهو الولد والسؤال الأب، وكتب لنا يعني ذلك السلطان، وقال : إنكم تشددون في نقل الكلام، ولا يمكننا نحضر مجلسكم مع ذلك( )، وقيل لسيدنا نفع الله به : فلان يريد يكلمكم، وذلك عند خروجه لصلاة العصر يوم الخميس في 27 صفر سنة 1128 ، فقال : للكلام وقت غير هذا، وأما مع اجتماع القلب للصلاة فلا يحسن الكلام، وما شُرِعت النوافل قبل الصلاة إلا ليحصل فيها اجتماع القلب على الله، حتى يدخل الصلاة بحضور وإقبال على الله، وقد كدت أمس أن أسهو في الصلاة لكون قد صافحني جماعة وأنا خارج اليها.

وقال رضي الله عنه : إذا سار الإنسان في الدنيا إلى ربه في طاعته، سار إليه في الآخرة إلى جنته والجنة فوقهم فهم يمشون في الدنيا تحتها وهي فوقهم ، فإذا كانوا في الآخرة صعدوا إليها( ) ، والعصاة يمشون فوق النار في الدنيا وهي تحتهم، فإذا كانوا في الآخرة نزلوا إليها .

وقال رضي الله عنه : الصُّعلوك( ) إذا أطاع الله ، نال رتبة الملوك، وحصلت له الآخرة، وجاءته الدنيا فتكون من خلفه( )، لأن الدنيا كالظل، إذا استقبلها الإنسان صارت خلفه( ) .

وقال رضي الله عنه : كل ما مَنَعَ من المباح فهو محمود، وما المذموم الا مامَنَع من الخير الصريح، ولكن ينبغى أن يُعرف الفرق بين الأمور .

وقال رضي الله عنه : ما كان من الأمور بسبب الضعف، يعذر اللهُ تعالى فيها كما تعذر الشريعةُ، فإن الشريعة من عند الله أيضاً. وما استنبطه العلماء فيها فهو من هذا القبيل، وهكذا في جميع أمور الأرواح المقتضية للترقي والمقتضية للنزول بحسب الأخلاق ، فترقى إلى أعلى عليين وتنزل إلى أسفل

سافلين، تصعد وتنزل في مراقي الصعود والإنحطاط، ثم ذكر قصة الشيخ أحمد الصياد، من أهل زبيد لما رأى كشفاً وهو بزبيد، أن الأمام الغزالي صُعِدَ به من قبره إلى آخر القصة السابقة .

(2/140)

وذكر رضي الله عنه : حديث معاذ، تصعد الحَفَظَة بعمل العبد...الخ ، ثم قال: وهكذا في سائر أحواله، فإن مات ولم يتب صار على مثل هذا الحال، ثم قال قد تطول بنا المذاكرة، ونخاف على دماغنا منها، وإذا طالت بنا في المدرس، نود أن القاريء يكون واحداً ولكن كل واحد يريد لنفسه قراءة، وإذا كان أحد من السادة فيه فضيلة، نريد عيالنا أن يتباركوا عليه بقراءة الفاتحة فقط، لأن مدد آل باعلوي من بعضهم بعضاً، فإن جاء شيء من غيرهم ، كان كالسيل يجيئك منه رِدف فقد كانوا( ) متعلقين بالأخذ كل واحد عن غيره حتى الصلاة، فإن كل واحد تعلمها من أبيه عن أبيه، إلى سيدنا علي إلى النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، ولما فرغ القاريء في حضرة سيدنا نفع الله به في مجلس القراءة في شرح الحكم لابن عباد، قال: القصد أن تكون متعلقاً بالله، وإلا فمعلوم أنه لا غنى به عن ربه حتى في عشاه وغداه ، وكثيراً مايستبعد الإنسان أشياء من نفسه وهي موجودة عنده، لا يعلم بها، وترى من هو في خدمة ملك متى رأى منزلته، واختار شيئاً لنفسه عزل عنه، وإنما المراد، أن يقوم بما أقيم فيه ، تحقيقاً للعبودية ، لا ليختار ماشاء .

وذكر رضي الله عنه واقعة علي بن موسى الرضا رضي الله عنه ، حيث لم يضره الأسد في قصته مع زينب الكذابة ، فقال : الكرامة وخوارق العادة ، لا تأخذ بها تجربة لا في نفسك ، ولا في غيرك( ) فإن الله سبحانه يجيب المضطرين، ولا يحب المتكبرين، والله تعالى إنما يقبل المخلصين، واختلفوا في أن الإخلاص ما هو ، فقالوا : إنه ما ليس للنفس فيه حظ، وهذا عزيز، وللنفس دسائس خفيّة، حتى لو كان

اثنان في مرتبة واحدة ، لدعت أحدَهما نفسُه أن يسعى في إزالة صاحبه عن مرتبته لينفرد وحده .

(2/141)

وقال سيدنا رضي الله عنه يوماً في معرض المزح : وهل لو جاء رجل إلى بعض الناس ، وقال له: أبسط سجادتك على الماء أو على - أظن قال الهواء- ولم يألف ذلك، ولم يعرف القائل له هل يطيعه أم لا، ثم قال : ما أظن أن أحداً يجيب إلى ذلك إلا إن كان فلان، لأن الإنسان لا يدري هل ذلك من الصالحين أم شيطان، ثم التفت إلي وقال : لوقال لك أحد تعال أوصلك إلى بلادك في ساعة. تطيعه؟ قلت: أشاوركم وأشرط عليه الإعادة على قرب قال : لا ، إنه لو جاءك وحدك. قلت : لا أجيبه قال: قد قيل : إن كرامات الأولياء وغاراتهم قد طويت حتى إنه رُوي أن بعضهم جاء بحزمة سيوف إلى آخر وقال هذه أحوال الصالحين طويت .

وذكر رضي الله عنه التقوى فقال : التقوى يريد ورع وقناعة ، فلا يفتح بطنه، فإذا فتح بطنه أمتلأ ناراً، فلا يملؤه إلا النار .

وسأل رضي الله عنه عن رجل غائب ، هل أموره متيسره أم لا فقيل: لا ، فقال مازحاً: هو ما يبرهن مثل أبيه؟ وكان أبوه مقبولاً عند الناس ، لو إن كل من جاء نجر مابقي في الوادي شجر، بل ولا حجر، وما كل الناس يبرهنون ، وأحد يبرهن لنفسه وأحد يبرهن له غيره ، ومن هو يبرهن لا يعد هذه الأمور شيئاً.

وقال رضي الله عنه ما معك من أهل الزمان إلا خير ، وليس شيء هين إذا قامت النفوس والأهوى، وأما أمور الدين والتقوى وأمور الآخرة، فقد تخلفوا عنها ولا بالوا بها ، فإذا انخلع الإنسان من الدين والتقوى، فماذا يبقى من الخير فيه .

قف على تقسيم الرزق

وذكر رضي الله عنه السفر وذَمَّ الرثاثة فيه، ومَدَح الحزم والنباهة، فقال: ما السفر إلا نَظَر، ولو إن الرزق مقسوم ، لكن الحركات بها البركات ، والأسباب موزعة على المسببات ، فكم من جالس من غير سعي، يبقى جائعاً، وساعياً قد نال ما يطلبه ، وهذا جرياً على الغالب، وإلا فكم من ساع محروم، وجالس مرزوق، وذلك بحسب الأقسام المقدرة ، فإن الرزق نوعان : مضمون ومقسوم، فالمضمون ما به قوام بُنية البدن، وذلك لكل موجود إلى مدة أجله ، والمقسوم ما زاد على ذلك، والناس فيه مختلفون، فمنهم الموسَّع عليه والمقتَّر.

وذُكِرَ عنده رضي الله عنه أنه قد سُرِق شيء منسوب لبعض السادة ممن تقدم، فقال : تغيَّرَ الناس اليوم وانقلبت قلوبهم ، ودَخَلَتْها دواخل ، فهم كما قيل : لو قطّعت الإنسان قطعتين مابالى ، وأهل هذا الزمان دخلت بواطنَهم شياطين، فما عادهم ناس ، فلا عاد تلوم الآخذ( )، وإنما تلوم المضيع( ) .

وقال رضي الله عنه : إن الله لا يؤاخذ الإنسان بوساوس الشيطان إذا كان كارهاً له وعقيدته بخلافه، وهذا الوسواس مانقيم له وزناً لأن عندنا : كلما خرج عن الإختيار لا نرى فيه حرجاً، وهذا منهي عنه ، حتى في حق الرجل مع زوجته ، وفي الحديث : ((لا تكونا كالعَيرين( ))) ، وقد قال لنا يوماً فلان : ما أنا مشغول إلا من الورود، ما أدري كيف نكون، فقلنا له : لا تشغل نفسك بهذه الأمور، وأمور الآخرة ألا قَصِّرْها ولا تطولها على نفسك، فكيف يكون دخول القبر وسؤاله .

وقال رضي الله عنه : سبحان الله ، يسهن( ) الإنسان الأمر يأتي من جانب ، فيأتي من جانب آخر فلهذا وجب التسليم .

وقال رضي الله عنه : لا يخلو الزمان من الأفاضل من آل أبي علوي حتى يخرج المهدي، إما خامل مستور، أو ظاهر مشهور .

وقال رضي الله عنه : المريد أو المعتقد في أحد إذا سمع منه كلمة فيعمل على مقتضاها إن أراد العمل ، ولا يثني فيها الكلام .

(2/143)

وقال رضي الله عنه في حديث : ((لا تغضب)) أي إن أمكنه ألا يغضب فذاك ، وإلا فله أدوية فليستعملها ولا يجري على مايقتضيه غضبه ، والأدوية إن كان قائماً قعد، أو قاعداً قام، أو يتكلم سكت، أو ساكتاً تكلم، أو يفعل شيئاً تركه، أو يتوضأ أو يغتسل، أو يقوم من مكانه ذلك، وأمثال هذه الأشياء، فإذا سألت في الحديث عن شيء فقل : ما الحكمة في كذا ولا تقل : ما العلة فيه ، إنما العلة في الفقه .

وذكر رضي الله عنه الحِرَف فقال : ما يأخذ الإنسان معرفة الشيء وأحكامه إلا من أهله، ومن لا نفعته التجارب( ) . ولا تنفع التجربة إلا من له عقل غريزي لأنه الأصل ، والتجربة فرعه ، ولا ينفع تجربة الأحمق ، وإذا جرب شيئاً فينتفع به في نفسه، لا في حق غيره إلا إن أعلمه بأنه جرب الأمر كذا قبل، فإن أخذ الأحمق بتجربة العاقل فإن انتفع فمليح ، لكن الشيطان لا يرى الإنسان في أمر إلا أمره بأمر آخر، حتى يشتت عليه أمره من أمر الدنيا والدين، لكن يأخذ في الدين بما اتضح عنده ويترك ما اشتبه عليه :

خذ مارأيتَ ودع شيئاً سمعتَ به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَلِ( )

قف على درجات العقل

ثم قال : العقل على أربع درجات ، أعلاها أن يزهد في الدنيا ويرغب عنها ، وكل من لم يعرف شيئاً أنكره، فلو قلت لأحد : إنه يمكن أن يبلغ الإنسان إلى حالة يستوي عنده الذهب والحجر لم يصدق، فلينظر إلى حالة الذي في سكرات الموت، كيف لا يلتفت إلى شيء في حق نفسه، لكنه يريده لولده، ومن هو في تلك الحالة( )، فهو في الآخرة بقلبه، وإن كان جسده في الدنيا، والكرامات التي تظهر عليهم، ما

عادها من أمور الدنيا، بل من أمور الآخرة، قيل: أَفَمِن لازِم العاقلِ أن يجرب الأمور ويعرفها بالتجربة، قال نفع الله به : إن لم يكن فيه هوى . وكلما قوي الهوى ضعف العقل، وكلما ضعف الهوى كثر العقل .

(2/144)

وذكر رضي الله عنه المجددين من أهل القرن الحادي عشر، فقال: ما عاد عليهم إلا يقبلون من غير دعاوي ولا بلاوي، ما عاد في هؤلاء مجددين، إنما هم مقددين، وضرب نفع الله به مثلاً لدعاء أهل الزمان إلى الخير وإنهم لا يجيبونه : كمثل نائم غلب عليه النوم، فتنبهه ليقوم للصلاة وتجر برجله ، ثم يخالفك وينام، فإن كان نومه إلى أُمَّة( ) قليلة أشكل( ) ممن نومه إلى الموت ثم ينتبه حينئذ ، وكل ينتبه إذ ذاك .

وقال رضي الله عنه : العمل إذا رُفِع أو نُسِخْ نُسِي ، وربما يؤخر عمل الخير ليزداد صاحبه ندماً.

وقال رضي الله عنه : كان السادة آل أبي علوي، إذا ظهر واحد منهم انطوى فيه الباقون، وخملوا هُم ، حتى لايبقى لهم وجود لأن النسب واحد ولهم في بعضهم( ) العقيدة التامة ولا رغبة لهم في جاه ونخوة ، ومناقبهم لم يُدَوَّن أكثرها ، وإنما عرفنا منها ما عرفناه بطول مطالعتنا في الكتب من سابق الوقت ، وكثيراً عرفناه ممن أدركنا من شيابتهم ، وقد أجاد الشيخ علي في ذكره المناقب، في " البرقة"( ) وأفاد ، لأنه أتى بهم من أولهم ، ولم يذكر الكرامات ، وكل بيت آل أبي علوي بيت مناقب ، ولكن تؤخذ مناقب كل بيت من أهله ، إذ كلٌّ يحفظ مناقب أهله ولا يعرف مناقب غيرهم ، إلا إن كان واحد ظاهر كثيراً ولا لوم عليه إذا لم يعرف غير ذلك . وهذا بسبب نقصها في التواليف حيث ذكر مؤلفوها ما سمعوه من مناقب غيرهم ولم يسألوهم عنها ، ولكن أين المناقب اليوم إنما المناقب اليوم والمناصب : الحِرَف والكسب . والأولون قد صححوا بهما المناصب والمناقب فأنفقوهما في سبيل الله وطاعته، ومثلهم اليوم كالذي قيل له : مامهنة أبيك؟،

قال : مفلِّح( )، قال : قد خرج رمضان( )، ويُسلَّم للإنسان في معرفة أهل بيته ما لا يُسلَّم له في غيرهم .

(2/145)

وقال له رضي الله عنه رجل : لا تروا علينا في قلة الأدب، فضحك وقال : و نحن وإياكم وما نرى أنفسنا أن نستاهل حسن الأدب إنما هو لأهل العلم الذين هم في الكتب مذكورون ، وعدم رؤية النفس هو الذي يرفع الإنسان، فإن كان هناك شيئٌ كان متواضعاً، وإلا سلم من الدعوى، ويَقبُح جداً أن يدعي من غير حقيقة، كالمرأة التي تدعي الجمال، وهي في غاية القبح، وإنما يرى الإنسان نقص نفسه، إذا تأمل أحوال السابقين وما كانوا عليه من الجد والإجتهاد، فعند ذلك يعترف ويتحقق أنه ماهو شيء ولا ينظر إلى أهل زمانه المتشبحين من غير شيء فما حصلوا من ذلك على طائل .

قف على من يتجاوزون الحد

وقال رضي الله عنه : ثلاثة يتجاوزون الحد : المعتقد، والشاعر، والعدو، لايقفون على حد الوسط فيما يتكلمون به ، المعتقِد في معتقَده ، ولا الشاعر فيمن يذمه أو يمدحه على من عداه( ) ، وإن كان هناك من هو أفضل منه .

وقال رضي الله عنه : مانحب مجيء الناس إلينا ولا نحبهم إلا لأجلهم، ولا نكرههم إلا لأجلهم، وأهل الزمان يفتحون أقفال الفتنة وهي مقلودة ولا يفتحون أبواب الخير إلا بزعمهم( )، هذا يفتح باب الفتنة من طرف ، وهذا من طرف .

وقال رضي الله عنه : ينبغي للإنسان أن يقتصر من الملبوس والمأكول والنوم والكلام على ما لا بد منه ، لأنه على هذا درج السَّلف والأخيار. وخصوصاً في هذا الزمان، الذي كثر فيه الحرام وقل الحلال والنيات الصالحة، فإن كان ممن وسّع عليه فيُنفق منه إن

وفقه الله في كل الأوقات، وإلا ففي بعضها، وإن كان ممن قتر عليه فما معه إلا ذلك، أي ما أمكنه .

وقال رضي الله عنه : أصلح الصالحين من لا يرى إنه من الصالحين .

وقال رضي الله عنه لرجل : الله الله في السكون وترك الحركة، واستعن بالله وبكتابه فإن الله خلق الإنسان متحركاً، وقال له : اسكن ، فقدِّرْ أن الذي أردته من الناس قد أعطوكه أمس وبقيت الآن بلا شيء منه، وذكر الأبيات التي أولها:

(2/146)

أقسِمُ بالله لرضخ النوى ... ... وشرب ماء القُلُب المالحة

أحسن للإنسان( )من حرصه ... ... ومن سؤال الأوجه الكالحة

فاستغن بالله تكن ذا غنى ... ... مغتبطاً بالصفقة الرابحة

اليأس عز والتقى سؤدد ... ... وشهوة النفس لها فاضحة

وهي مذكورة في رسالة المذاكرة .

وقال رضي الله عنه : وأهل الزمان كبرت جسومهم وصغرت عقولهم.

وذكر رضي الله عنه البيع والشراء فقال : البيع فيه بركة ، خصوصاً إن حَمَل الطعام من مكان إلى آخر، وباعه بسوق وقته من غير احتكار إلى أن يغلى، فإن الإحتكار لا بركة فيه، إذ لا خير في اغتنام الناس، وقد نهى بعضهم عن بيع المأكول، خوفاً من أن يتمنى الغلاء على المسلمين، وكذا عن بيع الأكفان والذبح لأن ذلك يقسي القلب، لأنه إذا اعتاد الذبح وتمرن عليه، ربما لا تبقى في قلبه رحمة، فقد قيل لنا عن رجل من آل بافضل وكان يبيع الأكفان، إنه

ماتت له أخت، أو بنت أخت فترك حضور جنازتها وراح القنيص، وكان سليم القلب.

وقال رضي الله عنه : الإنسان في هذه الدنيا مغرور يجرونه، ويُنَبَّه( )، وينام فكلما جروه انتبه، وإن تركوه نام .

وذكر رضي الله عنه الميراث فقال : كلما ذكر الإنسان في مرض موته شيئاً من النخل ونحوه يريد يجعله لله ذكر أولاده وأهله فآثر أن يكون لهم، ولا يجعل لله شيئاً.

وقال رضي الله عنه : للأنبياء معجزات ، وللأولياء كرامات ، هي من بركات النبي أو الأنبياء ، ولا ينبغي أن يقال أكثر من ذلك ، ولم يذكر عن ولي في كرامته أنه أشبع أناساً كثيراً من طعام قليل كما جاء معجزة( ) .

وذكر رضي الله عنه الطرائق ، فقال: كل علم الطريق علم واحد وإن اختلفت الطرق، وإنما من تعلق بمسألة منهم نسب اليها وإلا فهو علم واحد، هو علم التصوف، وهو الذي قرره الشاذلية، وقرره الإمام الغزالي والقشيري والسهروردي .

(2/147)

وتكَّلم رضي الله عنه على بعض القُرَّاء وقت القراءة فقال : ليعرف أحدكم اللّفظ أولاً ثم المعنى، ثم يعمل ويعلّم ، ولو تركناكم على هذا ما فهمتم ، وليس المراد مجرد القراءة بل المراد شيء آخر فحاك في صدر الرجل خوف، إن تغير خاطره عليه ، فقال عند ذلك : إني لا أغضب على أحد إذا تعاطى معنا ما يغضب ، إلا إن تكلمت كلمة أو كلمتين( )، وإلا فلا، وذلك لعدم المخالطة فهذا من طبعي، والإنسان متردد في الخطأْ، إلا إن عصم الله ، وكان عندنا خادم إذا غضبت عليه أعطيته شيئاً ليزول عني الغضب عليه، فيقول ليته يغضب علي كل حين، وهذه عادتي إذا تكلمت لأحد بما يغضبه ، إني بعد أترضاه بما يرضيه ، من قول أو عطاء ، ثم قال : مرادنا العيال

والجماعة وأنت تتباركون ، وإلا كان جعلنا السيد أحمد( ) إذا جاء يقرأ وحده ، والباقون يستمعون، نخاف إن العيال يحتاجون إلى أحد في ذلك أو أنت إن أردت تقرأ - وهذا قوله لي والقاريء المذكور غيري .

ما قال في التطفيف في الكيل والوزن

وذكر رضي الله عنه من يبخس الكيل والميزان ، وأطنب في ذمه ، فقال : هو من بقية مَدْيَن أهل البخس والتطفيف ، فكل من يعمل بعمل قوم فهو منهم، ثم أطال الكلام حتى قال : لما انفردوا بها وأقبلوا عليها( ) ، نُسِبُوا إليها، والكبائر حتى في الجنة محرمة كإتيان المحارم والزنا وغير ذلك ، ولو كان الأخت في بعض الصور حلالاً في وقت آدم( ) .

وقال رضي الله عنه : قاعدة : إنا إذا عزمنا على أمر لانظهره للناس، خوفاً من عدم الوقوع، ولكنا نعلقه بالمشيئة، ولكنهم ينسون المشيئة ويتعلقون بالقول .

ووقعت ذات يوم مشاجرة بين بعض الناس في الحاوي فبلغه ذلك ، فقال نفع الله به: إن أناساً يقيمون عندنا ، ولم يكن فيهم أهلية للجلوس ، فمَنْ حَسُن خلقه واستقام على الصواب فذاك ، ومن خالفه فهو في حبل المقصورة( ) ، وحسبه الله .

وقال رضي الله عنه : عجبت من أهل الزمان إذا طلبت منهم الإستقامة ، لم يمكنهم ذلك ، وتعدوا منها إلى الإفراط والإعوجاج ، وذلك لأنهم تبعوا نفوسهم وولَّوها، وصاروا منقادين لها، والنفس خبيثة كالمرأة السوء، وقد قال عليه السلام( ): ((لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة)) .

وقال رضي الله عنه : مع كبر السن وخشونة العيش ، قَلَّ ماتحصل في البدن قوة ، بل لا يكون مع ذلك إلا الضعف ، إلا بين ضعيف وأضعف ، أمّا مع ليونة العيش ، فقد يكون بعض قوة أو مع صغر

السن( )، اللهم إلا إن كان معه قوة روح فيحصل فيه قوة مع كبر سنه( ) وخشونة عيشه ، لكن قوة الروح أعني الروح الإلهي الأمري إنما تكون بأمر آخر ، فقُوْتُه الذكر لا الأكل فإنه قوت الروح الحيواني وهو النفس التي تطلب منافع البدن من اللذات ، فقلت له : فكثرة الخواطر من أي شيء تكون ، قال : من غبار النفس ، فقال رجل كان يمكث فيما أظن ريدة المشقاص أياماً قال : وكنت هناك مطمئن الفؤاد ، وقليلاً ماتخطر لي الخواطر، فلما جئت إلى الحاوي( ) تشعبت علي من كل وجه ، ولا أراها تكثر إلا فيه ، فقال له سيدنا : لأنك فيه في طاعة ، وفي معزل عن الشيطان ولا له قدرة عليك ، فلما كان كذلك جعل يوسوس ، حيلة العاجز لما لم يقدر على غير ذلك، وأما هناك فأنت في قبضته، كالمقبوض في اليد، وقد حكي : إن رجلاً صالحاً مرَّ بالشيطان قائماً على باب مسجد فيه رجل نائم( )، وآخر يصلي، فقال له يالعين، ماتفعل هاهنا، قال: أردت أن أدخل على هذا المصلي فأُفْسِدَ عليه صلاته، لكن منعني نَفَس هذا النائم عن الدخول إليه، قال ذلك نفع الله به في مجلس جلسه في الضيقة بين الأذان والإقامة، من ظهر يوم الأحد في 12 رمضان سنة 1125.

(2/149)

ومرة قال نفع الله به : إن الطاعات والمعاصي تختلف باختلاف العاملين ، وهم فيها مختلفون، أحد أوفر حظ منها من أحد ، تختلف المعاصي باختلاف نياتهم ومقاصدهم، وكذلك الطاعات، وقد تحصل منها واحدة وقد تكون مضاعفة، والعاملون بما ذكر مختلفون، من حيث الصدق وعدمه، حتى إن بعض الأكابر مر على الشيطان وذكر القصة المتقدمة آنفاً ثم قال : لأن النائم كان شأنه الصدق فيما بينه وبين ربه بخلاف الآخر فبهذا السبب لاتقع طاعة هذا وما عمل من أعمال البر كذاك ، بل ذرة من عمله أفضل عند الله من أمثال الجبال من أعمال الآخر مثلاً لأن الصدق هو الأساس، وما لا أُسَّ له لا ثبات له .

أنظر تعريف الأخلاق الحسنة

وقال رضي الله عنه : إذا أردت محبة قوم والإنتفاع بهم، فَلِنْ لهم وتَخَلّق معهم ، ولا تناكرهم ، وتأدب معهم ، حتى يثبتوك ، ويتأدب معك غيرك وينتفعوا بك ، وإن بقِيْتَ مثل الحجارة تباعدوا عنك وتباعد عنك كل من قربت منه ، فقد قال معاوية في خلافته : لو أن مابيني وبين الناس إلا شعرة أقودهم بها لما انقطعت بيني وبينهم ، لأني إن رأيتهم اشتدوا لنت لهم ، وإن لانوا اشتددت معهم ، وايش تكون الشعرة وما قدرها حتى يقود الناس بها، وإنما هذا مثال حتى صارت مثلاً يتداول بين الناس ، يُضْرَب لمن لاَنَ وحَسُنَ خلقه. فيقال فلان ألين من الشعرة . واللين والشدة لكل منهما مَحَال ومواضع ، فاللين مع الأكابر ووجوه الناس إذا لم ينفع معهم إلا ذلك ، والشدة والعنف مع أداني الناس إذا لم ينفع معهم إلاّ ذلك ، وكل من اللين والعنف مع أحد الفريقين ليس كهو مع الفريق الآخر .

(2/150)

وذكر رضي الله عنه : كثرة الشواغل من الناس ، في زياراتهم ومصافحاتهم ، ومطالبات مَنْ بَعُدَ بالأوراق ، ثم قال : أهل الزمان يطالبون الإنسان بالحظوظ لا بالحقوق ، وفرق بين الأمرين. فإن طالب الحق يطلب الشيء لله ، وطالب الحظ يطلب الشيء لنفسه ، وماعاد معنا لهم إلاّ المسامحة ، نسامحهم لعل الله أن يسامح الجميع ، كما في قصة الذي كان يعامل الناس، ويأمر أخدامه بالتجاوز عن المعسر إلخ ، حتى قال الله تعالى : نحن أحق بالتجاوز منه فتجاوز عنه .

واستخلف منه رضي الله عنه رجل يريد الحج ، وبعدما أوصاه بالتقوى ، وملازمة الطّاعة ، والدعاء في الأماكن الشريفة ، قال ذلك الرجل : اعفوا عنا، ولا تروا علينا فيما قصرنا به من حقكم ، فقال رضي الله عنه : لا ، إنما نحن نخاف أن نكون قصرنا في حق الوافدين والزائرين، أي فكلنا نسأل من الله سبحانه المسامحة في التقصير.

وصافحه رضي الله عنه بعض الصغار فلما أحسّ به ، ذكر هذا المثل فقال : إن هؤلاء غلبت عليهم المَصْرخية ، ثم ذكر لهذا حكاية وهي : إن النبي سليمان عليه السلام ، كان ذات يوم في حرّ شديد، والطير تظله بأجنحتها، فأمرها أن ترفع كل واحد منها جناحاً، وتخفض جناحاً ليحصل الظل من المرتفع ، ويدخل الهوى من المنخفض ، فمكث كذلك فلما رآها هكذا ، قال : غلبت عليها المصرخية ، ومعناه : إن المَصْرخية اسم لطير معروف ، هو أكبرها ومعها أصغر منها، فغلبت هذه لكبرها على تلك لصغرها، أي لم يظهر لها كثير أثر معها، والشَّاهد فيه كون المصافحين ، فيهم الكبير والصغير ، إلا إن الكبار أغلب وأكثر ، ولما أحسّ بذلك الصغير ، ذكر هذا المثل في خاطره فذكره بقوله .

(2/151)

وخرج رضي الله عنه إلى مسجده الأوابين ، يوم الثلاثاء سابع ربيع ثان عام 1125، فمما تكلم به أو معناه : أن ذكر رجلاً كبير السن بأنه في عشر السبعين قال ومن لم يبلغها ففيه قوة ، وإنما الضعف منها، وفيما بعدها، ومن العجيب إن النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم نحر في حجة الوداع ، وسنه نحو ثلاث وستين سنة، سبعاً وستين بدنة ، ونحر سيدنا علي بقية المائة وإن الرّجل من أهل هذا الزمان يعجزه ذبح اثنتين ، ثم قال : أما مَن عادته الحركة وإن كَبُر سنا فهو أقوى من المتخمّل وإن كان دونه ، فالرياضة خير له من القوة ، ويحتاج إلى القوة في الكد على نفسه وأهله في المعيشة وفي تحصيل الأعمال الصالحة حاجة شديدة ، ثم امتد به الكلام إلى أن قال : إن خزائنه تعالى مملوَّة من كل شيء ، مملوَّة بالرزق والأعمال والرَّحمة ، وإنما أراد سبحانه من العبد أن يملأ خزائنه هو مما ينفعه وهو الطاعة ، فإن أوقات الإنسان التى تمر به تعرض عليه في الآخرة ، التي مرَّت في الطاعة مملوَّة نوراً، والتي في المعصية ناراً، أو قال ظلمة ، والتي مرت بلا شيء فارغة ، فتتقطع كبده من التحسر على الفارغة ، أن لو كانت مملوَّة نوراً، فكيف بالتي فيها

المعصية ، و هذا في حق المؤمن الذي ثبت له أصل الإيمان ، وأما الكافر فيجازى بما عمل من خير في الدنيا لأن الله تعالى عدل ، لا يأخذ بلا حجة ، ولهذا بعث الرسل وقال : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }( )، وعرض جبريل عليه السلام لفرعون في صورة رجل ، فقال له ما تقول ، لي عبد أنعمتُ عليه وأعطيتُه وفعلتُ به كذا وكذا، فلما تَمَّت نعمتي عليه ترك أمري وادعى أن له مِثْل ما لي ، فقال فرعون : لو أن هذا عبد لي أغرقته في بحر القلزُم ، فقال له : أكتب لي هذا في ورقة ، ففعل فأخذها وانصرف فلما كان وقت غرقه في البحر عَرَض له جبريل ، وأراه كتابه وقال : هذا حُكمك على نَفْسك ، أي فأُغْرِق في بحر القلزم ، كما حكم على نفسه ، ولهذا اشتد

(2/152)

حرص الأكابر على ثبوت أصل الإيمان وتقويته واشتد خوفهم من زواله ، وحكى لنا بعضهم : أنه رأى في النوم باباً، وكأنه باب الجنة وهو من خارجه ، قال ففرحت ، و قلت الحمد لله قد صح لي أصل الإيمان. ثم المفاضلة في الأعمال وتعرف في الآخرة بالميزان فمن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة. ومن كثرت سيئاته على حسناته دخل النار، إلى أجل معدود ، إلا أن يغفر الله ، ومن استوت حسناته وسيئاته جُعِل في الأعراف ، إلى أن يأذن الله له بدخول الجنة ، فتفكر في هذه الأشياء ، لكن إبليس قائم للناس بالمرصاد، و يوسوس لهم بخواطر لا حاصل لها، فلو كانت نافعة لنفعته هو ، كيف ضَلّ في نفسه ولم ينتفع ، ولا نفعته وساوسه هذه التي يوسوس بها، بل ضَرته وهو يريد أن ينفع بها غيره ، وهو إنه يُمَنّى الإنسان مع المعصية أو عدم العمل الصالح بفضل الله وعفوه ، وهذا هوس و باطل ، أيظن المغرور أن العفو والفضل يتعدى من جميع الأمة وفيهم أهل الطاعة ومن لم يتعمد معصية إلى هذا المغرور ، وهو وغيره في كرم الله تعالى لتَرتُّب الجزاء على الأعمال .

تأمل أيضاً ما قاله في القضاء والقدر رضي الله عنه

(2/153)

وأَمْرُ القضاء والقدر خفي جداً، وأمر دقيق لا شيء أخفى منه . وينبغي أن تفطم عنه العامة بالكلية حتى لا يخوضوا فيه أبداً. فإن الخوض فيه زندقة ، ولئلا يغتروا ، فإن هذه أمور دقيقة جداً ، ولا أخفى منها أدق من بيت العنكبوت ، لأنها تنزلت قليلاً قليلاً.
وكلما لها تَدِقُّ حتى انتهت إلى العلماء وهي في غاية الضعف والدقة ، فلا وصلت إلى العامة إلاَّ وهي شيء لا يكاد يُدرَك بسبب ذلك ، وفي الخوض فيها خطر عظيم ، لا ينبغي أن يفشى ، ومنه( ) فرَّت القدرية( ) حتى سقطوا في الجانب الآخر، و قد قال بعضهم إن القدرية مُعظِّمون للحق [أي الله تعالى] أو كما قال انتهى ، ثم ختم المجلس بقراءة الفاتحة ، ودعا بهذا الدّعاء وفيه مناسبة للمجلس : اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى و العافية واليقين والثَّبات على الحق ، والوفاة على الإيمان ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية ، والمعافاة الدائمة ، في الدين والدنيا والآخرة .

وحصل شدة برد وذلك في نجم الطرف ، فقال نفع الله به : إنه فيما يعتاد عندنا إن البرد بعد دخول الطرف يفتر ، وكان العرب في هذا الوقت يُخرجون الغنم من الزرائب لأنهم حينئذ قد أمنوا من شدة البرد ، ولكن لعل ذلك لأمر أراده الله ، فإنه سبحانه يُحدث الحادث( ) للحادث( ) ، مما لا يعلمه إلا هو سبحانه أو بعض ملائكته أعني الموكلين بتلك الأمور لا كُلِّهم ، فإنه بلغنا أن الله تعالى خلق ملائكة موكلين بالأشجار والثمار . وشدة البرد عندنا في ستة نجوم ، أولها الثريا وآخرها النثرة ، يَعني النجوم الشبامية ، وهي معروفة عندهم لغالب الناس حتى الفلاحين( ) وكثير من الصغار والعوام .

وقال رضي الله عنه : أكثر ما يُدخِل الناس الجنة التقوى وحسن الخلق ، وأكثر ما يدخلهم النار

الأجوفان : البطن والفَرْجُ ، وقد ورد : أشقى الناس من أدخله أجوفاه النار.

(2/154)

وقال رضي الله عنه : إن الله يُذَكِّر عباده في الدنيا بذكر الوعد والوعيد ، فإذا كان يوم القيامة جَمَع الخير كله في الجنة لأهلها ، وجمع الشر كله في النار لأهلها.

وقال رضي الله عنه : إذا فزع الإنسان من شيء ، أو فعل به أحد شيئاً أو هاب من وقوع الأشياء ، فيتوضأ ويصلي ركعتين ، لأن الله تعالى قال : {اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَلوة}( ).

وقال رضي الله عنه : كان بعض المشايخ إذا أراد شيئاً أو دفعه( ) أمر ، طلب من المريدين الدعاء له بذلك ، لأن المشايخ الظاهرين بالمشيخة ، يغلب عليهم الرضاء بالقضاء ، فلا ينزعجون لشيء ، وإنما ينزعج المريدون ، ويتضرعون إلى الله فيه ، ولأن الدعاء بلسان الغير مستجاب ، لما جاء : إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام ، ادعُني بلسان لم تعصني بها ، ومعناه أطلب من غيرك أن يدعو لك .

قف على الفرق بين الإيثار والمواساة

(2/155)

ومر في القراءة ذكر آداب الطعام ، فقال رضي الله عنه : إذا أكل القوم بقصد الكفاية بلا شَرَهٍ مع اعتقاد الإيثار ولا يَكْرَه أحدهم أن يأكل صاحبُه أكثر منه نزلت عليهم البركة ، وإلاَّ نُزعت البركة من طعامهم ، وقد ذُكِرَ : إن جماعة من الأخيار جلسوا للأكل ليلاً وكل واحد منهم معتقد للإيثار من غير ما يعلم بذلك أصحابه ، فأطفأوا السراج ، وجلسوا قدر مدة الأكل ، وكل منهم يوهم أنه يأكل ، ثم قاموا وإذا بالطعام

على حاله ما نقص منه شيء ، وكذلك قصة الرأس في سبعة من الصحابة ، أو من التابعين ، وهي إنه أُهْدِيَ لواحد منهم رأس ، فدفعه لواحد من أصحابه ، فدفعه الآخذ لآخر ، وكانوا كلهم محتاجين ، فدفعه لآخر حتى رجع إلى الأول ، فهكذا كانت سِيَرهم ، فقل لهؤلاء الذين يجلس أحدهم يأكل ويقطع اللحم ، ويسمع السائل ما يعطيه شيئاً، وهو يتبلع بالطعام ، والإيثار شيء والمواساة شيء آخر ، فالإيثار أن تمسك وأنت محتاج ، وتعطيه محتاجاً آخر ، والمواساة أن تعطيه شيئاً منه ، وقد قلنا لهم في أيام الأزمنة الشديدة ، انقِصُوا من طعامكم المعتاد قليلاً بحيث لا ينقص كل واحد من عادته إلا نحو ثلاث أو أربع لقم ، وتواسون بذلك محتاجاً.

وقال رضي الله عنه : إذا أخذت شهوة فقدم قدّامها أو بعدها ذكر الله ، حتى ترفعه الملائكة ، شوبوا مجالسكم بذكر الله .

وقال رضي الله عنه : إذا أردت أن تفعل الخير هونه على نفسك حتى يسهل عليك ، وأكثر منه ما استطعت .

وذكر رضي الله عنه الصدقة فقال : إن الآخذ قد يكون من الأنبياء( ) والأولياء والأبدال ، وأهل هذه المراتب متجرّدون ، لا يأخذون من الدنيا إلا كفايتهم ، ويردون الزائد ، وإن احتاجوا عند الفاقة سألوا بقدر الحاجة ، وجعلهم الله يبتلي بهم أهل الجِدَة والسعة ، وكذلك قد يبتلي بملائكة خصوصاً عند المساغب والأزمنة الشديدة ، فإذا رأيت فقيراً يسأل فبادر إلى إعطائه ، فلعله ساقه الله إليك اختباراً لك .

(2/156)

وقال رضي الله عنه لرجل من دوعن ، يستفهمه عن إرادة السفر قرب شهر رمضان ، فقال سيدنا له : الزائر لأحدٍ فهو في كنفه ، وقاعدة : من هو في كنف أحد لا ينبغي للمزور أن يقول له رح ، ولكن الزائر إذا خطر في خاطره شيء يخبره به ، وإذا أمرت أحداً بما في نفسك ، وهو خلاف ما عنده

أتريده يوافقك ، ويترك ما يريده( )؟، أترى صاحب السفينة إذا أراد السفر، فقال له بعض الرَّاكبين : أريد أن تتخلف إلى غدوة ، يطيعه( )؟ وقد قلت لكم غير مرة ، إنا لا نشير على أحد بخلاف رأيه ، ولكن نرد الرأي إليه ، فإن وافق فذاك ، وإن عمل بما يريد لا بأس ونسلم نحن من اللوم ، ورمضان إلاّ مقبل ، والسكون فيه خير من الحركة ، وقد ذكر الله السكون في عدة مواضع من القرآن ولم يذكر معه الحركة ، منه قوله تعالى: {وَلَهُ مَا سَكَن}( ) الآية ، كل ذلك للأمر بالسكون وترك الحركة ، ثم قال هذا البيت لابن الفارض :

في هواكم رمضانُ عمره ... ينقضي ما بين إحياء وطي

(2/157)

ثم قال : فلان قد مر القصيدة مرات كثيرة ولو سألته عن البيت الذي قبله ما عرفه ، فقال المشار إليه : لا ، ولو آية من القرآن ، فقال: دريت ، وقد نزل الناس اليوم نزولاً كثيراً ، نزلوا إلى الأرض ، ولو ماشي أرض ظاهرة ، ولكن من تخلّق بخلق مذموم ، أو عمل عملاً مذموماً فقد نزل ، ولم نر في الزمان إلا رجلاً له نفس غير مطمئنة ، أو قلب مضطرب ، أو روح منزعج ، ومن استقام منهم كان في درجة أصحاب اليمين ، فهو شأن من صلح من أهل هذا الزمان ، وأما السابقون فقد تقدم زمانهم ، ولو خرج اليوم منهم واحد لأنكروه ، ولم يعرفوا حتى كلامه ، وأصحاب اليمين ما هم كالسابقين ، ولو كانوا سواء لما فاوت في ثوابهم في سورة الواقعة ، ثم ذكر رجلاً من أهل الدَّار خرج إلى الخلا( ) ومكث أياماً فقال : نحن من عادتنا أن من كان في كنفنا فخرج من عندنا لا نكلف عليه في الرجوع ، ولكن لابد ما يخلف الله علينا خلفاً خيراً منه ، أقله الصبر عنه .

وذكر رضي الله عنه رجلاً وإنه كان مجذوباً منظوراً، قال : لكن فيه تَمَسُّك ، ثم ذكر عياله وأنهم يَقْصُرون عنه ، ثم قال : ليس بول الإنسان كنفسه ، لأن الولد

من البول( ) ، ولا يكون كأبيه( ) ، كما لا يساوي البول من بال ، ثم قال : هذا الزمان ، الصالح فيه من لم يحصل منه أذى ، فمن كان كذلك فهو من صالحي الوقت ، وأما حصول النفع فقلّ أن يكون .

وقال رضي الله عنه : صاحب القلب يأخذ العطا بشرطين ، أن يراه من الله وأن يستعين به على طاعة الله ، وفي قضاء الحاجة إرفعها إلى الله ثم أنزلها إلى من جعلها الله على يديه ، مع تعلق قلبك بالله .

وقال رضي الله عنه : وما مثال من اهتم بطاعة من أهل الزمان ، إلا كالذي كان نائماً فانتبه من نومه فزعاً( ) .

ما قال في الخوف والرجاء

وقال رضي الله عنه : الرجاء أوسع من الخوف ، لأن النفس مغرورة ، ومن لا معه معرفة بقدر خوفه ، يُخشى عليه الإنقطاع ، ثم قال : إن وَضَع على عبده عدله ما نفعه عمله ، وإن عامله بفضله يرجى له السلامة بأدنى شيء ، والخوف أهم من الرجاء ، لأن فقده مضر، ويسوق إلى المعاصي ، والنفس كالمرأة السوء ، كن شديداً عليها في الظاهر، مع التحنن عليها في الباطن وهي قط لا تدعو إلا إلى الشر، ومن لازِم الرجاء الخوف ، و وُسْعُ المعرفة ، وأما هؤلاء فيرجون بلا خوف ولا معرفة( ).

وقد قيل : الخوف كله للرَّاجين ، والرجاء كله للخائفين ، وطبيعة النفس طبيعة ما هي من طبائع الدين ، بل هي طبيعة جاءت من جهة الطين .
وأحوجَ( ) الإنسانَ إلى قدر الضرورة من الدنيا، ولو اكتفَوا منها مثل الملائكة لاستراحوا ، وأولئك قد كانوا ضعفوها بكثرة الأعمال الصالحة ، وأعمال الدين ، وأنت اليوم كلما لك تجدّد على نفسك ما يشغلك ويؤذيك ، وما زاد على الضرورة فهو عندك بمنزلة الأمانة ، وعاد متعلق به شواغل و أمور أخرى ، ولكن

لم يتم لك شيء فإن الإنسان خلق محتاجاً، وخلق مبتلى ، ومثل ذلك ، قد أسسها لهم آدم ، إذ أخرجه الشيطان من الجنة ، ولكن عليك بتذكر ما يسليك ، فإذا لم يُعَزِّك أحد فَعَزِّ نفسك .

وقال رضي الله عنه : الطاعة في الأماكن بركة ونور، وقد جاء : إن أماكن الطاعة تتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض .

وذكر رضي الله عنه الحيوانات والدواب ، فقال : جميع المخلوقات تُسَبِّحُ خالقها، وهي لا يتعارف بعضها مع بعض .

وذُكِرَ له رضي الله عنه مجلس يجتمع فيه رجال ونساء ، فقال : هذا مجلس من حَضَره يَغْضَبِ الله عليه .

انظر ما قال في أهل القرن الثاني عشر

(2/159)

وتكلم رضي الله عنه في الزمان وأهله ، فقال : هل سمعتم أحداً ذكر القرن الثاني عشر ، قط ، لا ما ذكره أحد، إنما آخر ما ذُكِر القرن العاشر، وقد كُنَّا لما كنا صِغاراً، يعيّبونا الكبار يقولون : اسكتوا إنما أنتم أهل القرن الحادي عشر، ثم قال مشيراً إلى نفسه ، نفع الله به : وقد قال بعض آل باعلوي : أنا في طرف البساط ، فلو قَدْ مُتُّ لطوي البساط( ) ، أعني بساط العمل ، ولو سئل إنسان : أأنت من الأولياء؟، فقال : لا، وسئل آخر فقال : نعم ، لاحتُمل صدق كل واحد منهما ، وإن كلا منهما ولي ، فالعلم واسع لا طرف له .

كلامه رضي الله عنه فيما يسهّل أمر المعاش

وقال رضي الله عنه لرجل رآه مهتماً بأمر معيشته : طالع في كتاب "الفرج بعد الشدة" وواظب على : {وَمَن يَتَّقِ اللَّه يَجْعَلْ لَّهُ مَخْرَجًا}( ) إلى : {قَدْرًا}، ولو ثلاثاً بعد كل صلاة ، ومبنى الكتاب( ) على هذه

الآية ، ثم قال له : ابن أمورك على حسن الظن بالله حتى ينشرح صدرك ، فإن الأمور إذا بنيت على حسن الظن بالله تيسَّرت والإنسان ضعيف ، جبله الله على ذلك ، وما ذكر الله قصة آدم وقصَّها ، إلا لينبِّه بها على ضعف ابن آدم ، فإن الله سبحانه جعل له جَنَّة وغيرَها، فلما نهاه عن أكل الشجرة عجز عن الإمتناع . ويس ولا إله إلا الله ، دواء لكل شيء ، وإن تعسرت عليك السورة كلها، فاقرأ إلى : {يُبْصِرُون}( )، لأنها قلب القرآن ، وشأنها عند المؤمنين عظيم ، حتى إنهم إذا مَرِض الإنسان ، أو عثر، أو ذُكِر بعيب ، أو سقط ، أو وقع عليه شيء من المصائب ، أو أي شيء يُتَرَحم عليه منه ، يقال له : يس عليك ، يحصِّنونه( ) بها لمكانها من المؤمنين ، لما كانوا عليه من التعظيم لها، وعاد أثر ذلك إلى الآن .

قف على الأحرف النورانية

(2/160)

ثم قال له : وعادنا نكتب لك الأحرف النورانية( ) تكررها وهي أربعة عشر حرفاً ، ا ل م ر ك هـ ي ع ص ط س ح ن ق ( ) من أوائل سور من القرآن ، أقول : هي أوائل ست سور الر ،كهيعص ، طس ، حم ، ق ، ن ، وكذلك أول أربع سور كهيعص ، طس ، ق ، الرحمن ، وكان عبدالرحمن بن عوف وجماعة من الصحابة يكتبونها على أمتعتهم ، لسلامتها في بر أو بحر، ويقولون اللهم بحق كذا وكذا، سلم هذا المتاع ، ويسميه .

وقال رضي الله عنه : ينبغي أن يأخذ الإنسان من الأعمال على قدر ضعفه ، وضعف زمانه ، ولا يَدَّعي القوة في غير موضعها، لأن أمور الدين كالمسك ، كلما ازددت له شمًّا نقصت رائحته عندك .

وقال رضي الله عنه : مقام ساداتنا آل أبي علوي الضعف والمسكنة والخمول ، غير ما هو لغيرهم من الأولياء من ضد هذه الصفات ، والصفات المذكورة أمر عظيم في التقرب إلى الله والسلامة في الدين .

وقال له نفع الله به رجل : أعطوني طريقة آل أبي علوي ، فقال : انظروا إلى الأعمال ، ولا تنظروا إلى الأقوال ، ومن أرادها ينظر إلى أفعالهم وأقوالهم ، ومن رآنا ظن أنا على الطريق الخاصة ، طريقة المقربين ، وليس كذلك إنما نحن على الطريقة العامة ، وهي طريقة أصحاب اليمين ، ظاهر الكتاب والسنة .

أقول : ومعنى ذلك : أن مقامه مقام الدعوة إلى الله لعموم الخلق ، وأن يقتدوا به في سيرته ، وأعماله وأقواله وأخلاقه ، عبادةً وعادةً ، وهذه هي طريقة أصحاب اليمين ، ولا ينبغي أن يسير فيما بين الناس ويدعوهم إلى الإقتداء إلا عليها، فهي سيرته ظاهراً لعموم الخلق ، وأما شأنه وحقيقة أمره ، فيما بينه وبين ربه ، فهو على أكمل حال ، وأعلا مقام من طريقة المقربين ، ومن سمع ظاهر الكلام يظن أنه في الحالين على ما ذَكَر، وليس كذلك ، بل على ما ذكرناه ، وراثة نبوية ، وإذا اتفق له من هؤلاء المخصوصين أحد من أهل طريقة المقربين ، رقَّاه إليها، فهذان مقامه في الدعوة للناس على طبقاتهم ، كما تقدم من قوله لعبدالله باسعيد العمودي ، كم ألسنة الدعوة إلى الله ، فقال الله أعلم ، فقال سيدنا : خمس ، وتقدم ذكرها في أول هذا النقل ، وقلت له : يا سيدي ما لنا بعد رسول الله إلى الله وسيلة ، سوى رؤيتكم ، والإتصال بكم ، والإنتساب إليكم ، فقال نفع الله به : إن فضل الله إنما يجيء من باب واحد.

أقول : لعل مراده إنما يصل من الله إلى عبد من عبيده بواسطة النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم ، أو من ينوب عنه ، وهو واحد في كل زمان .

وقال رضي الله عنه لي : جاءتنا كتب من أناس من أهل الحسا، يسلمون عليك ، وذكروا إن أردتم حاجة أو شيئاً، قولوا لنا، ونحن لكم في الخدمة . أوَ نحن تجار حتى نحتاج إليهم؟، ما حاجتنا إليهم إلا أنهم

يتقون الله ، ويؤدون ما عليهم من حقوق الله وحقوق عباده ، فهذه هي حاجتنا التي نطلب منهم ، لأن هذه هي حاجتنا من أنفسنا نطلبها منها ، فنحتاج إليهم فيها، ونطلبها منهم أيضاً أو كما قال .

(2/162)

وقال رضي الله عنه : الملائكة والشياطين محيطة بالإنسان ، وعنده لكل منهما متاع ، فإذا تكلم الإنسان بالأمور الغيبية ، كحال المجذوبين ، فإن كانت من الحق ، فهي على لسان مَلَك ، وإن كانت من الباطل فهي على لسان شيطان ، كما ورد في حالة الجماع ، إذا ذَكَر اللهَ حضره المَلَك ، وإن لم يذكره حضره الشيطان .

وقال رضي الله عنه لرجل من الحاضرين : كتبنا لفلان وقلنا له : يسلم عليك الشيخ فلان ، فسميناك شيخاً، تفاؤلاً بأن تحصل لك رتبة المشيخة ، فقال ذلك الرجل : ما مقصدي إلا أن أكون مرضياً عند الله وعندكم ، فقال له : إتبع رضى الله ورسوله ، ولا عليك ، فالباقي تبع له ، والإنسان لا يقطع بحسن العاقبة لأحد إلا لمن ورد فيه نص كالعشرة من الصحابة ، فسلم ما فيه القطع( ) ، ودع عنك غير ذلك ، فلو قيل لك : إن فلاناً من المشايخ السابقين ، هل تقطع بأنه في الجنة؟، لقلت : لا، فقال له : لكن بعض الناس يقع في الخاطر إنه كاليقين إنه من أهل الجنة ، فقال : لا إنما هذا عيش النفس ، فلو قَوَّمَكَ من مجلس أنت فيه جالس إلى مكان آخر، تغيرتَ عن تلك الحال ، وإنما ذلك ما دمت راضياً، فقال له : فالعمر يمضي على هذا التلبيس من النفس ، ولم يُعرف الصواب ، فقال : لا ، الزم الطريقة المثلى والمحجة البيضا، ولا عليك من هذا، فكل شيء يرجع إليها، فقال له : فهذا التلبيس من النفس يكون لبعض الناس أو لكلهم؟ ، فقال لبعضهم : وبعضهم يكشف الله لهم الحق ، ويقيمهم عليه من غير تعمل منه ، مثل الذي يتكلم من غير لحن ، وهو لا يعرف نحواً وإعراباً، وآخر يعرف أحكام النحو وهو كثير اللحن ، فقال ذلك الرجل : فعسى ببركتكم يحصل

التوفيق لطرح الأشياء على من هي عليه ، ويستريح الخاطر والبال منها، فقال : نعم ، هذا هو الصواب ، إلا إن الله يقيم الناس على درجات كما يريد، ولا يمكن الإنسان ولا يثبت له أن يقيم نفسه في شيء، ولهذا كانت الجنة درجات ، والنار دركات ، فلو كان مع

(2/163)

إنسان عشرة أعبد هل كل واحد يقيم نفسه فيما يريد، أو سيدهم هو الذي يقيمهم ، بل هو، فيجعل واحداً على الباب مثلاً ، وآخر في الضيقة ، وواحداً في الرقاد( )، وواحداً عنده في الغيلة ، ونحو ذلك ، ويوعد كل واحد بما أراد إذا قام بما أمره به ، وكل منهم فائز إذا قام بما عليه ، وإن اختلفت درجاتهم ، ووعده لهم حاصل ، إذ لا يُخلف ، وأما العبد السوء فيبقى متعلقاً بالوعد، حتى إنه يطلب أجرته قبل العمل درهماً إذا وعده عليه بدرهم ، وإنما المطلوب أن يكون متعلقاً بالخدمة لا بالأجرة ، وما وَعَده لا يفوته ، وفي هذا اختلفت درجات العبَّاد، انتهى ما حصل في هذا المجلس الأنيس ومثل هذا يكون من التبسط معه في أوقات البسط والفسحة كما قال القائل :

أويقات وصل لو تباع شريتُها ... بروحي ولكن لا تُباع ولا تُشرى

فرضي الله عنه ونفعنا ببركاته وأسراره في الدنيا والآخرة .

انظر إلى هذه الرؤيا

(2/164)

أقول : ومما يناسب هذا الكلام : إني رأيت في 21 ربيع ثاني سنة 1125، رؤيا ملخصها: كأن سيدي يقول لي : نريدك تسافر إلى بلادك ، فقلت له : يا

مولانا دعوني أتمتع برؤيتكم ، فقال : لا ، قد طالت بك المدة هنا، والأمور إلا جميلة ، فسر إلى بلادك ، فقلت : تفضلوا علي بالمقام عندكم ، فقال : سر إلى بلادك أحسن لك ، فطلبت الجلوس ، هكذا وقع ثلاث مرات ، إذ لا طاقة لي بفراقه ، كما لم أطق الجلوس بعده ، فلما أكَّد علي في المسير، ولا قبل لي عذراً، قلت له : أروح بماذا؟، أريد أن تظهر عليَّ ثمرة مقامي عندكم ، أتريدون أن أروح كما جئت ، لا يكون ذلك أبداً، فلما علم ما أردت سكت ساعة متبسماً كما هي عادته يقظة ، وأراد أن يجيبني بكلام ، وخاف أن يثقل ذلك عليَّ ، ويشتغل خاطري منه فضرب لي مثالاً ففهمت منه ما أراد ، فالله المستعان ، وهو أنه قال : إن واحداً له عبدان ، أحدهما صادق في خدمة سيده ، ومخلص فيها بظاهره وباطنه ، كما يحب سيده ، وسواء كان بحضرة السيد أو في غير حضرته ، والسيد يحبه لذلك كثيراً، والآخر ليس كذلك ، يعني لا في خدمة السيد، ولا في محبته ، بل إذا كان في مرأى من السيد، تكلف أن يكون مثل الآخر، وإذا خلي لا يبالي ، ولو ضيع حق سيده ، فاتفق أن كانا يوماً بمحضر من سيدهما، فقال السيد لذلك الصادق : نِعْمَ العبد أنت يا فلان ، فلما سمعه الآخر غار ، فزاد في التكلف في حضرة سيده ، طامعاً أن يثني عليه كصاحبه ، فاتفق أن قال له وصاحبه الصادق يسمع : يا فلان ولو تكلفت ما عسى أن تتكلف من خدمتنا ما أنت إلا بئس العبد ، قال الرائي : فغلبني البكاء كثيراً ، حيث فهمت أنه أراد أنك مثل هذا العبد المقصر، وأنت تطلب أن تكون عند سيدك مثل ذلك الصادق ، نسأل الله العافية والتوفيق ، والتسديد والرشد ، والهداية والتأييد، والمثال المذكور يدل على قوله نفع الله به : لا تقطع بحسن العاقبة لكل أحد، إلا لمن ورد فيه النص ، وبودّي أن قد قصصتها

على سيدي ، وكان يمكنني أن أقصها عليه وأسمع ما يقول فيها، كما قد قصصت غيرها عليه ، وذكرت ما قال فيها كما تقدم أول هذا النقل ، وإنما منعني أنه

لزم علي فيها في السفر إلى بلدي ثلاث مرات ، وأنا أعتذر، فخفت إذا سمع ذلك أن يجعل الرؤيا يقظة ، والمثال حقيقة ، فهذا الذي منعني ، وبعد ذلك وددت أني فعلت وأبقى بين الخوف والرجاء ، ولعل ما خفته لا يكون ، ويكون ما رجوته كما قيل :

ولعل ما تخشاه ليس بكائن ... ولعل ما ترجوه سوف يكون

ولكن ما أراد الله إلا ما قد كان .

وذَمَّ رضي الله عنه أهل الزمان ، فقال : أهل الزمان كلهم أقفية ، وليسوا بوجوه ، فإذا لم يكن لك بهم نسبة لا في شور ولا عطا ولا غير ذلك ، فهو أحسن ، فإنك لو أحسنت إلى أحدهم ، ما رجع منه إليك إلاَّ شر، وكل أمورهم راجت( )، الدَّولة والفقير وغيرهم ، وهم كقوم جاءهم صيَّاح فاختبطوا ، منهم المقبّل ، ومنهم المشرّق .

وقال رضي الله عنه : في معنى قول بعضهم : أن ترى الله في كل شيء، أي ترى وتعتقد أنه فعله ، وهذه حالة تقع على القلب ضرورة من غير تكلف، ولو تكلفها لم تحصل له تلك الحالة.

(2/166)

وقال رضي الله عنه : عندما خرج لصلاة الظهر ، لذلك الرجل المشار إليه ، وذلك يوم الخميس غرة جماد آخر سنة 1126، هل صليت الاستخارة ، وانشرح صدرك لذلك الأمر الذي قلنا لك ، فقال : صليت الاستخارة ولا ظهر لي شيء، ولكن ما أشرتم به هو الصواب ، فقال نفع الله به : لا ، قد حكينا لكم أن طريقتنا أنَّا لا نأمر أحداً ابتداءاً بأمر لأنا قد صحبنا على ذلك أقواماً ما فعلوا معنا إلا هكذا، وإنما نشير على من استشارنا بما نرى فيه الصواب ، ونبين له وجه الصواب فيه ، وهو بالخيار مثل ما إذا استشارنا فقير في الصوم فننظر في مزاجه وقدر طاقته ، ونحن في هذا الزمان لا يتأتى لنا ذلك ، لأنا رأينا أهل الزمان وجربناهم مراراً كثيراً( )، تقول له في الشيء

وكأنه لم يسمع منك فيه كلمة ، والتجربة تحصل بمرتين من شخص لا أكثر من ذلك ، وقد مكث صلَّى الله عليه و آله وسلَّم 13 سنة ، يَعرض نفسه على الناس يدعوهم إلى الله ، وما قابلوه إلا بالأذى ، ولو قلنا لواحد : افعل كذا ، لراح وترك ، وربما أوجب له ذلك الإنقطاعَ عَنَّا، وإنما نحن مُيسِّرين ، ونَسْتَجِرُّ الناس إلى الصواب ، وتلك درجة أصحاب اليمين ، ولا يجينا إلا من أردناه ، ولو جلسنا منقطعين عن الناس في جبل فمن يجينا، ومن كان عندنا من ولد وفقير وخادم فإنما هو في كنفنا ولو أمرناه بأمر لا يمكنه إلا أن يجيب ، ولكن ما نحن بجالسين لهذا، وإنما إذا أمرنا أحداً بأمر وطلبناه منه ، إن استراحت بذلك نفسه ولا يشق عليه ، أو نعرّض له بفعله إن أراد فعله ، أما مع استثقال نفسه ، إن فعل مرة ما فعل أخرى ثم لا يدوم ، ولا نحب أن نأمر أحداً بما يشق عليه أبداً.

(2/167)

أقول : وذلك لأن قولَه حجةٌ ، يلزم إمتثاله ، ويأثم بتركه ، فهذا شأن القائم في مقام الدعوة إلى الله ، لأنه قائم في مقام النيابة عن النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، فانظر كيف يجب امتثال أمر الإمام ، إذا أمر الناس في صلاة الاستسقاء بالصدقة وصيام ثلاثة أيام ، فهذا من ذاك القبيل ، فقيل له رضي الله عنه : كان عادة المشايخ ، مَن صَحِبَهم ، لا يراعون معه ذلك ، فقال وأين هذا، كانوا إذا جاءهم أحد، لا يجيء حتى يجعل إليهم النظر في نفسه ، حتى لو أرادوا ذبحه لا يقول في نفسه : إن هذا لا يجوز في الشرع( )، ثم تكلم في هذا كثيراً، و بَعَّد الأمر فيه جدًّا، ثم قال: لو قلنا لك اعط فلاناً ثيابك ، خطر لك عشرون خاطراً من هذا القبيل ، وقد سَكِر( ) كثيرٌ من الناس من الصوم ، حتى مَلَّهم الصوم وما مَلُّوه ، ولم يحصل لهم من ذلك ذرة ، لأنها قِسَم ومواهب لبعض العبَّاد، ألا ترى إن الإمام الغزالي بعدما ملأ الأرض علماً ، لما جاء إلى بغداد وأراد أن يدرس امتسك لسانه عن التدريس من غير سبب ظاهر، فهذا بأي سبب كان( )، حتى قيل : إن عينا أصابت

الإسلام ، والإمام النووي مع جلالته وكثرة علمه ، يثني على الصوفية ويستحسن أحوالهم ، ولكنه ما تصوف ، فماذا منعه من التصوف ، وهو يعتقد إنه الحق ، فاعرف بهذا، إنما هي أقسام ، قيل له : لكن يحصل نشاط فيما تأمرون به إبتداءاً دون ما تُستأذنون فيه ، فقال : نعم يتوهم إنه يحصل له بذلك شيء، وتلك الأشياء قد قسمت ، أما تسمع قوله تعالى : {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم} ( )، {نَحْنُ قَدَّرْنَا}( ) قيل : فعسى ببركاتكم يحصل كمال الرضى بالقضاء، فقال : قال النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم : ((اتركوني ما تركتكم))( ) أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : لا تطلب من زمانك غير طبعه ، فإنك إن طلبت منه ذلك فقد طلبت محالاً ثم أنشد هذا البيت :

ومُكَلّف الأيام ضدّ طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار( )

(2/168)

فرحم الله امرءاً عرف زمانه ، وسالَمَ أقرانه ، وقد قال سيدنا علي : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وما عاد إلا تَغافَلْ ما أمكن التغافل من غير مداهنة ، والخير في هذا الزمان وأهله قليل ، ولكن إذا وجد يرجى أن يدفع الله به عن الناس البلاء، لأن السراج الواحد يضيء في أماكن متعددة ، وقد كان الرجل( ) يقرأ الآية من القرآن فيمرض حتى يعاد ، لعظم ما يظهر له من معانيها، كعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وآخر سمع النبيَّ صلّى الله عليه و آله وسلّم يقرأ الطور، فكاد قلبه أن ينخلع ، لأن قلوبهم وأبدانهم متعلقة بالآخرة ، وهؤلاء على العكس ، قلوبهم وأبدانهم متعلقة بالدنيا، وتركوا قلوبهم مفتوحة للدنيا، فدخلت فيها وقَلَدَتْها( )، وبقيت من داخلها، ومن يحتاج إلى سعي وكسب وعبادة ، فليجعل الكسب في بعض الأوقات والعبادة في الباقي ، والليل فيه البركة ، فليجعل معظم اجتهاده

فيه ، وكل هذه الأشياء ما تنالها إلا بالصبر، أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : سِترُ الأمور بحيث لا تظهر للناس غم( )، خصوصاً إذا لم يحصل منهم نفع ، ولا كلمة طيبة ، والتدبير عَسِر خصوصاً في أمر المعيشة إذا لم تعرف من أين يجيء، وكم ظاهر الحال سُوْقِيٌّ أَرْوَحُ منه ، وقد قال بعض أهل البيوت الثقيلة لعبد كان يحمل لهم الماء : من أتعب من يكون في البيت ، فقال : أتعب من يكون أنا وأنت ، أنا آتي لهم بالماء، وأنت تأتي لهم بالطعام ، وهم يأكلون ويشربون ولا يدرون ، وكلّ مقيم بحضرموت فهو في التعب( )، إلا من أعطاه الله قلباً بارداً أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : الأرزاق وحشية لا بد لها من قنص .

وذكر رضي الله عنه المطر ، فقال : الإنسان خلق من الطين ، وما يلينه إلا الماء.

وذكر رضي الله عنه العين، ثم قال : اللهم إني أعوذ بك من شر الجان ، ومن عين الإنسان. وإن بعضهم كان يحس حرارة تخرج من عينه( ) ، ثم قال : كلّ متعلقٍ بشيء يكون راغباً فيه ، ورغبة الإنسان تُتْلِفْ .

(2/169)

وحضر مجلسه رضي الله عنه يوم عيد الفطر من سنة 1124 في الغيلة على الغدا، رجل من الدَّراويش الهنود فذكر عند ذلك المساكين ، وقال : نحن في بركة المساكين ، وهم في بركتنا، وهذه هي حالة التجريد والإنقطاع الذي يذكر عن الصالحين الأولين ، ما هو متعلق بمال ولا حال ولا أهل ولا راجي لذلك ، بل منقطع عنه بقلبه لكن بقي معرفة الشروط وأمور الباطن وقوةُ اليقين ، ومعرفة الرُّخص وأوقاتها، والتصوف على شعبتين ، إما ظاهر مشهور، كحالة الحسن البصري ، وحالة الإمام الغزالي أول عمره ، وإما خامل مستور كحالة أويس القرَني ، والإمام الغزالي آخر عمره ، وكذلك الفقه

أو قال العلم الظاهر وإن كثرت طرقه ، فهو على شعبتين إما عالم على الحق معترف بالتقصير، وإما عالم فاجر مخلط ، ثم قال : ولو خيرت أنا بين حالتي التصوف ، الظهور أو الخمول ، لاخترت حالة الخمول لأنها أسلم ، يبيت الإنسان في مسجد طاوياً لا يعلم به أحد ، وإن كانت الأولى فيها نفع للمسلمين ، فلو كانت أحسن من الثانية لما تركها كثير من الأكابر واختاروا الأخرى ، أحد منهم من أول أعمارهم كإبراهيم بن أدهم والفضيل وغيرهما، ومنهم في آخر أعمارهم كالإمام الغزالي وغيره .

وأنشد منشد بحضرته رضي الله عنه في مسجده الأوابين ، يوم عشر صفر سنة 1126 بقصيدة ابن الفارض :

ما بين معترك الأحداق والمهج ... أنا القتيل بلا ذنب ولا حرج

فقال للمنشد : أتحسن أن تشرحها؟. ثم قال : الكلام في الأعمال ومعاملات النفوس ، ورياضتها أسلم وإلا فعلوم الحقائق إن ما غلط في التصنيف فيها غلط في إخراجها لغير أهلها، والإختصار والإيضاح أولى ، فاختصِرْ ما فيه النفع .

(2/170)

وقال رضي الله عنه : كان المعزمون في وقت الشيخ عبدالقادر، إذا طلب أحد منهم عزيمةً ، لم يفعلوا ويقولون : إنا نحضر مجالس الشيخ عبدالقادر. ومَرُّوا سلفنا ولم يجلسوا لذلك ، فقلنا : ذلك منهم لعذر ، لأن الناس في وقتهم مستجيبون ، ويتنافسون في الطاعات ، والمتصدقون إذ ذاك أكثر من المتصدق عليهم .

قف انظر هذه المقالة

وكنا أردنا أن نفعل مثل ذلك يوماً في الأسبوع في الحاوي ، أو في مسجد باعلوي ، لكن رأينا إعراض الناس إما اجتمعوا وأشغلوك ، وإما جاءوا يومين

وانصرفوا، وهذا يحتاج إلى إذن وإلى مساعدة ، وهذا الكلام ليس ككلام التصنيف ، لأن هذا عام يجتمع فيه طبقات الناس ، وحتى النساء ، وكل أهل طبقة من الناس في موضع وحدهم ، وكان العزم منا على ذلك من زمان قديم ، حال القوة والنشاط ، وأما الآن لو جاءوا يطلبون ويسألون ما أجبناهم ، وقد عزمت على أن لا أتكلم مع أهل هذا الوقت ، فإن كان من حيث التحذير، فقد بلغ ذلك منا حده ، فترى الإنسان منهم إذا تكلمنا في أمر الصلاة ، وإنها بترك الطمأنينة لا تصح ونحو ذلك ، قام يصلي صلاة لا تجوز، وقال : يُبطِّل علينا صلاتنا أو قال على الناس صلاتهم ، أو في أمر الزكاة والتقصير فيها ، خرج وقال : يغتاب الناس ، فينبغي إذا سمع أحد ما فيه ، فليمتثل ولا عاد يقول : يغتاب الناس ، وهل قد ذكرناه بالخصوص حتى إنا اغتبناه . قال : وكان الشيخ عبدالقادر إذا تكلم في مجلسه كثيراً ، ولم ير أثر الإجابة على الحاضرين ، يقول : لا تظنوا أني أتكلم عليكم ، إنما أتكلم على أقوام لا ترونهم ، وعلى أقوام تشتب في رؤوسهم النار، وكان ابنه عبدالرزاق جالساً تحت المنبر الذي هو قائم عليه فرفع رأسه فاشتبت فيه النار فنزل الشيخ فأطفأها بنفسه ، أو كما قال .

(2/171)

وقال رضي الله عنه : السر في العقيدة ، ما هو بالأوراق ، كما في قصة ولد الشيخ عبدالقادر، حيث تعلم العربية والعلوم واجتهد فيها حتى أتقنها ، يريد أن يقوم مقام أبيه في الكلام على الناس وَوَعْظِهم فاستأذن أباه يوماً أن يتكلم على الناس ، فقال له : ليس هذا بالفصاحة وإنما هو سر، ثم أذن له فصَعَد على المنبر ، فتكلم بكلام بليغ فصيح ، فضجوا واستغاثوا منه بالشيخ وأبَوا من سماع كلامه ، فنزل وطلع الشيخ والده ، فأول ما تكلم به أن قال : البارحة قَدَّمَتْ لي زوجتي أم الفقراء دجاجة في غضارة ، فدفعتها الهرة فانكسرت فلما سمعوا ذلك ضجوا بالبكاء والنحيب بأجمعهم حتى لم يبق أحد إلا

بكى فالشأن في السر والإقبال القوي فَخَلِّها( ) تُقْبل أولاً.

ما قال في ضرب الأمثال

(2/172)

ومر في القراءة في "الإحياء" ضرب بعض الأمثلة في كتاب الشكر، فقال نفع الله به : هذه الأمثلة لإيصال المعاني إلى قلوب العامة ، إذ لولاها لما عرفوا تلك المعاني ، ومثله ما مَثَّل به في الذكر، من إنه كالجوز له قشران ولب ولب اللب ، ولا بأس بضرب الأمثال ، فقد ضرب الله ورسوله للناس الأمثال ، ولكن قال الله : {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُون}( ) وإن اعترض على ذلك معترض ، فإنه منافق ، فإن المنافقين واليهود قد اعترضوا في تمثيل الله بالذباب والبعوض والعنكبوت وأمثالها ، ولكن قال الله تعالى : {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا}( ) الآية ، وكل من اعترض في شيء فإن ذلك هو الذي بلغه ، ولو بلغه أكثر من ذلك لاعترض عليه أيضاً، وقد سمعنا فيما سمعنا عن عبدالله بن عمرو بن العاص إنه حفظ من رسول الله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ألف مثل ، ولما قيل له : ألا قاتلت مع علي رضي الله عنه؟، قال : امتثلت أمر رسول صلَّى الله عليه و آله وسلَّم، إذ قال لي : لا تفارق أباك ، فتأولَه في هذا، ولكن بان لهم الأمر بعد قتل عمار، إذ كل من الفريقين معه علم من النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم إنه تقتله الفئة الباغية ، حتى إن معاوية رجع يعتذر من سيدنا علي رضي الله عنه ، وعند ذلك جبنوا واستحيوا، إلا بقي معاوية يشجع عَمْراً ، وعمرو يشجعه ، ولا عاد ينفع ، فينبغي لمن أراد الإقدام على أمر خطر أن يتحقق الأمر أولاً، وخصوصاً إذا لم تطعه نفسه على تركه إذا تبين خطؤه ، أو يتركه من أول الأمر احتياطاً أو كما قال .

(2/173)

وذكر رضي الله عنه الشهرة ، فقال : الشهرة ما تعطي الرفعة عند الله تعالى ، فكم من مشهور في بركة مستور، وكان سيدنا الفقيه المقدم غاية في الخمول ، وله من التواضع ما لا يكاد يوصف ، حتى إنه مع عُظْم حاله يكره أن يسمى شيخاً، وأول من سُمِّيَ به ابن ابنه عبدالله بن علوي ابن الفقيه المقدم ، وكان عبدالله إذا قيل له : يا شيخ ، قال : الشيخ أبوك ، وإذا سمع الإنسان سِيَرَ الأولياء اليوم يقول : ما هذه إلا أضغاث أحلام ، فأين هي اليوم ، وإنما المتعنتين هم الذين يطلبون معرفة أيهم أفضل ، وبيقين : إن الأنبياء والأولياء بعضهم أفضل من بعض ، ولكن من الذي يعرف ذلك ، وإذا وُزِن بعض الفضائل ببعض عُرِفَ الأفضل ، ولكن في ذلكَ فضول ولا حاجة إليه ، وإن دعت حاجة إلى ذلك ينظر بقدرها ، كما دعت العلماء الحاجة في أمور العقائد بسبب المعتزلة إلى تأويل وتفضيل ، وإلا فلولا ذلك لكان بعدما يحرز معتقده ودينه ، ما عليه إلا العمل ، ولا يوسوس إلا إن كان حصلت وسوسة في العمل ، كما تكون في الصلاة ، وخذه من هنا من حديث قول الله تعالى لآدم : أَخْرِجْ بعثَ النارِ إلخ .

وذكر رضي الله عنه الشيخ عبدالقادر نفع الله به ، قال : كان صاحب رياضات ومجاهدات ، حتى إنه قال لأمه : هبيني لله ، فوهبته ، فخرج إلى العراق سائحاً متغرباً ، فما نالوا ما نالوا بسهولة ، وكان إذا غلب عليه الحال ، إنما يقول مثل قوله : يا غلام سِرْ مِيلاً زُرْني ، أو كل عندي لقمة ، أو اشرب من عندي شربة ، ونحو ذلك ، ولا يفضل نفسه على أحد، فإن عباد الله العقلاء لا يفضلون أنفسهم ، فكيف الأولياء.

(2/174)

وقريء عنده شيء من نظم ابن الفارض الخمرية وغيرها، فقال نفع الله به : أشياء تظهر لهم بعد الرياضات والمجاهدات ، وقد ذكروا : إنه لا بد قبل الدخول في السلوك والرياضات والمجاهدات من معرفة العلم لئلا يتغير اعتقادهم من ذلك( )، لأن للشيطان فيها مجالاً ، ولهذا لابد فيها من موافقة

الشَّرع الصريح الذي هو الأصل ، ماهو أقوال العلماء واختلافهم ، ألا ترى كيف اعترض( ) للشيخ عبدالقادر، فامتد له عمودًا من نور، وقال له : أسقطتُ عنك التكاليف ، فقال له : إخسأ يا لَعِين ، فاضمحل عند ذلك ، فقال له : قد فتنتُ قبلك بهذا سبعين صدِّيقاً، فبم علمت ذلك؟ ، قال : بقولك : أسقطت عنك التكاليف ، وكذلك قصة الذي شكوه إليه( )، لما قال إنه ينظر إلى الله عياناً فعذره الشيخ بين الناس ، وقال إنه انخرق بصره إلى قلبه فرأى بعين قلبه ، فظن إنه رأى ببصره ، وعاتبه خفية في تكلمه بذلك بين العامة . ورؤية العقل بالعلم ، فإذا دقق فيه فكأنه رأى بعينه ، حتى إن الشيخ أباعبدالله القرشي قال : انفتح لي باب النظر يوماً فرأيته من كل الجهات الست ، وهي رؤية العقل ، فلو كانت رؤية بالبصر، فما كان فرق بين رؤية الأنبياء، ورؤية غيرهم( ) ، وهذه الأمور كلها فيها القرب من جانب ، والبعد من جانب ، ولا فيها شيء من الحلول والتشبيه . واسمعوا عنا : السعيد في مثل هذه العلوم يمرها ولايدري بها ، وإنما يمرها للتبرك ، ولايتفكر فيها ، فإن التفكر فيها ضلالة ، فاحفظوا هذا عنا وانقلوه ، فربما تدركون أحداً .

ما قال في الغزل

وسمع رضي الله عنه : شيئاً من نظم السودي فيه غزل ، فقال : يذكرون أشياء لا يعرفونها، يعني مايشبه ذكر النساء والخمر، وهم بُرَآءُ منها، فيدل هذا إن هناك شيء آخر، ولهم خمر وراح غير ما يعرفه الناس ، ولا حرج على من تغزَّل ، وإنما يُخشى أن يستزل به الضعفاء ، وصاحب الحال معذور فيما يقوله لكن يخشى عليه في آخر أحواله أن يغلط بشيء من أمور الدعاوي .

ماقال في الوجد

وتكلم رضي الله عنه يوماً في الوجد فقال : من تمكن في روحه غلب عليه وجد الروح ، ولا يظهر

عليه وجد البدن ، فإنهم لا يرونه شيئاً، ومن هو كذلك غلب على كلامه وجد الروح ، كما إن من غلب عليه أمر الجسم ، غلب على كلامه الكلام في أمر الجسم ولا معه إلا وَجْدُ الجسم أو كما قال .

ما قال في الوسواس

وذكر رضي الله عنه : الوساوس في الصلاة والتلاوة والذكر ، وقد فَصَّل ذلك في "الفصول العلمية"، وفي "إتحاف السائل" أكثر، فقال : لا أحسن للإنسان في الصلاة من تركها [أي الوساوس] والإعراض عنها، ولا شك إن الخواطر الحاصلة في طاعة تدعوه إلى طاعة أخرى إنها من الشيطان لأنها تسلبه الحضور، فإن دعته إلى مباح كان أخس ، فإن كان إلى حرام والعياذ بالله فالأمر أشد، وإذا لم يمكنه الحضور الكلي التام ، الذي يعرفه من ذاقه ، وفيه يكون اللسان تابعاً للقلب ، فلا أقل من أن يجعل القلب تابعاً للسان ، بحيث يجري عليه معاني مايجري به اللسان ، ويتأمل مايقرؤه ، ومن العجائب إن الإنسان في حالة الأكل تَقِلُّ خواطره ، لأن النفس مجتمعة على مطلوبها، فإذا قام إلى الصلاة تفتحت عليه الخواطر من كل جانب لأنها خلاف مطلوب النفس فتضيق منها.

وقال رضي الله عنه في قولهم : حضرةُ الله : هي حضرة معنوية ، ومن حضر في صلاته ، فهو في الحضرة ومن وسوس فيها بمباح فهو خارجها، أو بمحرم فهو في حضرة الشيطان ، والرياء هو الفعل بالقصد، غير الخواطر التي تخطر من غير اختيار فإن قلوب الضعفاء تكثر فيها الخواطر من هذا الجنس ، حتى يتخلى القلب من الخلق ، وقليلٌ خطورُها في قلوب المتقين ، فإذا خطر منها خاطرٌ ، نادراً بادَرُوا إلى الرجوع عنه ، وهو معنى قوله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا}( ) الآية ، وذلك حين يتخلى القلب وينخلع من كل

ماسوى الله تعالى ، وذلك هو الكبريت الأحمر الذي يعز وجوده ، ويُتَحَدَّثُ به ولا يوجد، أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : النفس تحن إلى السماع أكثر من حنين الروح ، لأنها تطرب إلى هذه الأمور، وإنما لذة الروح بالمعاملة( ) وسماع القرآن ، والنفس كثيفة تحب هذه ، أما ترى الضَّعْفا( ) كيف يرقصون عند سماع الأشعار، فكل هذه حظوظ النفس ، وإنما ميل الروح إلى العالم العلوي ، ومن نزل منه نزل إلى أسفل السافلين ، وإن الله ما أنزل الروح إلى الجسم إلا بعد ما أخذ عليه العهد، فكلما تعلق بالحادث( ) فهو ناكث ، وذكر بعضهم : إنه إذا بالغ في الرياضة إن الروح تسمع طنين العرش ، فتجد لذلك من اللذة ما لا يدخل تحت الوصف .

(2/177)

وحضر مجلسه رضي الله عنه ليلة الجمعة وقت الذكر بعضُ العامة وكان قد تفقر فتحرك فلامه على تحركه ، وقال له : أنت على طريقة العيدروس أو طريقة بن علوان؟، فقال : بل على طريقة العيدروس ، فقال : فَلِمَ تتحرك؟، فقال : لضيقٍ يحصل في قلبي ، قال : هذا من الشيطان ، لأنه يُضيِّق القلبَ إذا دخله ، وأما الحق فإنه يُوَسِّعُ القلب ، قال الله تعالى :{أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ}( ) الآية ، وقال صلّى الله عليه و آله وسلّم : ((إن النور إذا دخل القلب انشرح له وانفسح)). فإذا حصل عليك مثل ذلك فليقرأ عليك أحدٌ شيئاً من القرآن ، وإلا فقم إمش خطوات ، والعامي الذي لا يعرف الطريق يَدخُل الشيطانُ في صدره ، والشيطان إذا دخل القلب لم يُرِد أن يبقي من الإنسان للحق بقية ، وقد ذكر ابن عربي إنه حضر محضراً فيه سماع ، قال : وكان في المجلس رجل صالح مكاشف ، يعتقده الحاضرون ، فبينما هم كذلك ، إذ به يقول : إن الشيطان دخل إلى الحلقة ، وإنه دخل في صدر فلان ، فما تم كلامه حتى قام الرجل الذي ذكره يستوجد.

انظر إلى عَتْبِه على من لم يحضر ضيافته

(2/178)

وعتب سيدنا نفع الله به على رجل ممن يتخدم له أن لم يكن حضر وليمة ليلة العشرين من رمضان ، فقال له : أتتأخر لَمْ تجئ وأنت تطيق ، ولا عذر معك يمنع ، ماهذه حالة المتعلقين ، والتغصَّاب( )ماينفع ، ألا ترى فلاناً( ) ندر( ) وحضر وهو محموم ، وما طلع إلا راكباً ، ولو أُخْبِرتَ بحَجَّة في شبام سرت اليها، فقد علمنا إنك لما كنت تدور للحَجَّات لا يجيء منك شيء لأن حب الدنيا ذنب لا يغفر( )، فقال الرجل : ياسيدي ، الآن عمري سبعون سنة ، وليس معي منكم شيء، ولا عُرِفَ لي بكم اتصال ولا نسبة ، فعسى ببركتكم يقع لي شيء، فقال رضي الله عنه : أوَ أنَا أطرح فيك ما ليس فيك ، إنما الأنبياء والأولياء مهيِّئون ما جعله في العبد، ومن لم يجعله الله فيه ، فماذا يفعلون به ، قال النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : ((إن الله هو الرزاق ، وإنما أنا قاسم)) . لكن معك القرآن ما يسيبك ، ولو إنك لم تعرف منه إلا لفظه دون معناه ، وما أحد يسيب الدين للدنيا لأن أمور الدنيا معروفة من محارثها وتجاراتها، وما سيب الدين منها: {أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ}( )، {وَمَآ أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين}( )، لكنك أكثرمن قراءة القرآن والإستغفار والصلاة على النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم، إن سقطت من هذا ما سقطت من هذا، ولو إنك على الطريق التي دخلتها لكان الناس يتبركون بك ، ولكن اخرج القابلة إلى الحاوي افطر ، والسباق إلى هناك يافلان ، فإذا بُسِطَ بساط الكرم فلا أحد يغتر به ، فبكى الرجل عند ذلك بكاءً كثيراً ، هذا أو كما وقع وقال .

(2/179)

أقول : كل هذا العتاب له ، حيث لم يحضر العزيمة العظيمة ، وكان لسيدنا بها اعتناء كثير وبمن يحضرها خاصة دون غيرها وإن كان شأنهن أيضاً كذلك ، لكن لهذه زيادة حيث جعلها في وقت شريف عند العشر

الآواخر ، وفيها من تقسيم المدد المعنوي أمر عظيم كما مر قوله : من أكل من طعامنا إلخ ، وقول الشعراوي عن الشيخ المتبولي ، إنه يحصل بأكل الطعام ما ينوب عن التلقين ولهذا طال عتاب سيدنا لهذا الرجل المشار إليه ، فرضي الله عنه ما أشفقه على أصحابه ومن انتمى إليه .

وقد سمعته نفع الله به مرة قال لرجل من السادة اعتادحضور مجلسه يوم الأحد في السبير وقد تخلف عنه ثلاثة أسابيع لِحُمَّى أصابته ، وفي كل مرة يسأل عنه ، فلما حضر بعد ذلك قال له : أين كنت؟، فذكر عذره ، فقال : قدسألنا عنك كلما جلسنا ولم نرك ، أتظن أن من تعلق بنا وأمسكناه ، أنا نسيبه؟، لا ، ولو سَيَّبَنَا هو ، أصل إنا نمسكه ، ثم بعد لا نسيِّبه أو كما قال .

وأنشد منشد بين يديه بقصيدة فيه ، مُدِحَ بها، فقال نفع الله به : نحن مانستثقل من هذه الأشياء، لأن ما وقع لنا طرحناه في بحر النبي صلّى الله عليه و آله وسلَّم، لأن النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم منبع الفضائل كلها وهو الممدوح بها كلها، فكل من مُدِحَ بعده بفضيلة فإن مدحه يعود إليه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، لأنه السبب في حصولها . والشيطان منبع الرذائل كلها، فكل من ذُمَّ برذيلة فذمه عائد إلى الشيطان ، لأنه السبب في حصولها، وناس يكرهونها، أحد كذب ورياء وأحد من نفسه .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله : من عرف نفسه لم يضره المدح .

وقال له رضي الله عنه رجل : الله الله فينا ، لا تنسونا ، قال : الأمر في هذا من عندك أي العبرة في حصول الإنتفاع بالعقيدة منك ، فمن اعتقد انتفع ومن لا ، فلا .

وقال رضي الله عنه لرجل يريد السفر: عليك بحسن الظن في الله مع حفظ أمرِه يكن لك ، إحفظ الله يحفظك ، وماذا تكون قدرة العبد وجهده ، ولكن يبذل جهده في طاعة الله سبحانه ، ويعتذر فيما قصر فيه ويستغفر .

ما قال في الذي يأخذ من أيدي الناس

وذكر رضي الله عنه الآخذَ من أيدي الناس فقال: إعتقد إن الله تعالى هو المعطي حقيقة ، ولا تُعلِّق قلبك بالخلق ، ثم خذ ولا عليك ، وإنما المكروه أن يأخذ ما استشرفت إليه نفسه ، بأن يرجوه من محل مخصوص ، فقد كانوا يردونه كما في قصة الإمام أحمد مع الحَمَّال الذي حَمَّله ابنُه له متاعاً من السوق إلى داره ، فشم ريح خبز في البيت ، فأعطوه قرصاً فرده فلما خرج من الدار وذهب ، ألحَقَ الإمامُ ابنَه بالقرص خلفه فأخذه فقال الولد لأبيه : لِمَ رده أولاً ثم أخذه آخراً فقال : إنه كان رجلاً صالحاً فلما شم رائحة الخبز استشرفت إليه نفسه فرده وكان صائماً فلما مضى وأيس منه أخذه ، فقلت لسيدنا : ما الذي يُذهِب من القلب التعلق بالخلق؟ وكيف له بأن يَقْدِر أن يرد ما استشرفت إليه نفسه مع احتياجه ، ولا شك إن الأخلاق المحمودة محبوبة بالطبع ولكنه يعجز عن ذلك؟ ، فقال رضي الله عنه : حتى يعلم إنه مُصَرَّف غيرَ متصرف فإنه لا يحصل له ما أراد ، وأنشد هذين البيتين لأبي الدرداء، وقال ليس له من النظم سواهما :

يريد المرء أن يُعطى مناه ... ... ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتي ومالي ... ... وتقوى الله أفضل ما استفادا

ثم قال نفع الله به : هذه خصوصيات عزيزة لله سبحانه يجعلها في خواص الناس ، ولو كانت في كل أحد ماصار لها موقع وانتفت عنها العزة ، ولاختلاف الناس خلق الله الجنة والنار، ولو كانوا على حالة واحدة ، لكان إحداهما كافية .

وقال رضي الله عنه : صاحب اليقين يأخذ العطا بشرطين ، أن يراه من الله ويستعين به على طاعة

الله . وفي قضاء الحاجة ارفعها إلى الله ثم أنزلها إلى من جعلها الله على يديه مع تعلق قلبك بالله .

(2/181)

وقال رضي الله عنه : الأمور الإلهية السماوية أعظم وأعز من الأمور الأرضية السفلية ، وكلما قرب إلى العلو زاد على مادونه ولذلك زادت السماء الدنيا على الأرض بأضعاف كثيرة مضاعفة حتى صارت فيها كحلقة درع ملقاة في فلاة ثم هي في الثانية كذلك ، ثم هما في الثالثة كذلك ، وهكذا إلى السابعة ثم هي وما دونها في الكرسي كذلك ، ثم الكل في العرش كذلك ، وهكذا وكلما هو إلى العلو كان أعز وأعظم ، ولذلك عظمت علوم الصوفية ، وعزت على ما سواها، لأنهامن العلو، وهي علوم إلهية سماوية ، والعلوم الأرضية دونها فيما ذكر، كعقود الأنكحة وغيرها، ولكن من لزم العلوم الأرضية ، بحيث استقام عليها، ولم يخالفها في شيء، أفضى به ذلك إلى العلوم الإلهية السماوية ، ولمَّا كان مجرد العلو أعز وأعظم من مجرد السفل ، كان الناس في جميع الأشياء درجات بعضهم فوق بعض ، بنسبة بعضهم إلى بعض في الإستعلاء والتَّسَفُّل .

وقال رضي الله عنه : قال سيدنا علي في من قَصَّر ثم رجا المغفرة : هبك إنه قد عفى عنك ، أليس يفوتك ثواب المحسنين ، فسمعها بعض السلف فبكى عليها أربعين سنة ، قال الإمام الغزالي : لقد دُفِعْنا إلى أمر إن كذَّبنا به كنا من الكافرين ، وإن صدَّقنا به كنا من الحمقى المغرورين .

وقال رضي الله عنه : ما عاد معك في هذا الزمان إلا الصبر والتغافل ، ثم ذكر الناس وتقصيرهم في العلم ، فقال غرقوا في بحار الدنيا، فترى الواحد منهم كالغريق في البحر، ما يرى بَرَّ النجاة إلا نادراً، كما ينظر الغريق البر عندما يرتفع رأسه بحركة الماء لأنه غريق حيران ، ومن هو هكذا لا يمكنه النظر.

ما قال في مدح الخمول

وقال رضي الله عنه : من حكمة الله ، إن الخاشع قلبه كالماء ولكنه لم يزل يقسو من المعاصي ، حتى يصير كالحجارة ، قال الله تعالى : {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَة}( ) الآية .

(2/182)

وذُكِرَ له رضي الله عنه من حال رجل منسوب إليه ، فقال : الولي أو قال : الصالح إذا كان منسوباً إلى أهل البيت ، لا يُخشى عليه في ظهوره ، ويُحصِّل من هنا ومن هنا، ولكن لا ينبغي أن تظهر في هذا الزمان إلا إن كان معك نجم وقَّاد أو شمس مشرقة ، وإلا فإن معك( ) إلا سريج ، فاترك الظهور لئلا تطفيه الرياح ، ولا تشعله في النهار فلا يكون له أثر ، لأن الخاملين فيه على خطر، فكيف بأهل الظهور، لأن فيه رياحاً شديدة وظلمة شديدة ، وقد كان في الأزمنة الماضية إذا كثر فيها الفساد إما الظلمة وإما الرياح ، فقد يظهرون( ) ، وأما اليوم فقد اجتمعتا فيه ، أو كما قال .

وذكر رضي الله عنه : أقواماً أفرطوا في محبة الجاه والرعونة( ) ، فقال : إذا استحكم الحسد، ومرة قال : الجهل ، يخرج الإنسان عن دينه ، فيحتاج أن يسير بالنور المذكور في القرآن : { فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِهِ}( )، {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}( ) وإلا وقع في الأخرى أي العكس : {كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} فكل شيء في القرآن . ما خرج منه شيء ، إلا إنه يحتاج إلى قوة فهم .

أقول : وهذه المقالة تبين معنى المقالة التي قبلها، فالنور في هذه هو النجم الوقاد في تلك ، والشمس فيها عبارة عن قُوَّته ، والسريج عبارة عن ضعفه ، والرياح الشديدة والظلمة عبارة عن شدة الفساد والبدع المشتمل عليهما الزمان الفاسد، والنهار عبارة - والله أعلم - عن الرجل الصالح ، والزمان الصالح ، فإن نوره كثير لكثرة الصلاح والصالحين فيه أو كنت أيضاً في حضرة شيخك ، الذي أنت مقتد به

فإن نوره يغشاك ونورك مندرج في نوره ، هذا ما ظهر لي من وجه الموازنة والله أعلم .

وقال رضي الله عنه : لا ورع إلا ما كان مصحوباً بالعلم ، لأن العلم كالميزان للشيء، إن زيدت قليلاً أخطأت( ) .

(2/183)

وقال رضي الله عنه في حديث( ) : ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) : هذا يقتضي عدم الحسد والبغض ونحو ذلك ، تعتقد هذا في قلبك ، وما عليك من فعل الله أن لا يكون فِعْلُه لك أو له ، أو لواحد دون الآخر.

وقال رضي الله عنه : لا يَحدث شيء من الأمور السماوية كمنع قطر، وقحط ونحو ذلك مما يُشغل الناس، إلا بحدوث شيء من العباد كمنع زكاة وقطع رحم وعدم المبالاة بالفقراء، ونحو هذا.

وقال رضي الله عنه : إذا رأيت الإقبال فأقبل ، وإذا رأيت الإدبار فأدبر، وإذا أقبلت كن مُوَحِّداً، فانظر إلى الله وعلق به قلبك ولا تعلقه بغيره ، بل ارحمهم كما قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : أيست من الناس لأنفسهم ، فكيف أرجوهم لنفسي ، ورجوت الله لغيري ، فكيف لا أرجوه لنفسي .

وقال رضي الله عنه : الأمور التى يطلب القصاص فيها، ورخص الشرع في ذلك ، هي الأشياء الظاهرة بخلاف الباطنة ، فمن ضربك تضربه بقَدره ونحو ذلك ولا تحسد من حسدك، أو تبغض من أبغضك ، بل تحب الصنعة( ) المحمودة ، وتُحرِّم المكروهة على أي حال ، وإن كان منطوياً لك على خلاف ذلك .

وقال رضي الله عنه : يسمع بعضُ الناس كلامَ الحال ، فيظنه كلام المقال ، وليس كذلك ، وليس هو على ميزان الحس ، بل على ميزان آخر، فإذا سمع من يقول : قال لي الله كذا وقلت له كذا فلا يظن أنه كَلَّمَهُ مشافهة ، وإنما هو لسان الحال ، كالمريض

تراه يحكي لك بحاله ، وهو ساكت ، فإذا سمعنا من يقول من ذلك شيئاً عرضناه على الشرع ، فإن كان له وجه قبلناه ، وإلا رددناه ، ومن سمع كلامهم وأشكل عليه فليسلم لهم على كل حال، وينسب التقصير إلى نفسه ، وقلة فهمه .

وقال رضي الله عنه : إذا أضل الله عبداً وأراد هلاكه ، لا ينفعُ فيه شيءٌ.

(2/184)

وقال رضي الله عنه : أمور الآخرة كلها محتملة ، ولا على الإنسان إلا أن يؤمن بها مجملة ، ولا يفصِّل ، وقد استدل بعضهم بقوله تعالى : {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ }( ) إن الجن مؤمنوهم يدخلون الجنة ، ولما كانوا خلقوا من النار التي خلق منها إبليس قال العلماء : إنهم لا يرون الله تعالى ، ولم يَرد ذلك في صريح الأخبار وصحيح الأحاديث الواردة ، حتى إن النساء لم يصحَّ حديثٌ بالرؤية لهن( )، بل في الأحاديث الصحيحة ما يوهم عدم ذلك ، كما في حديث يؤذن لأهل الجنة في مقدار جمعة إلخ ، وفي آخره فيأتون أهليَهم ، فيقولون لهم : قد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فهذا شاهد على أنهم أُبْقُوا في منازلهم ، ولم يزوروا معهم.

(2/185)

وقال رضي الله عنه : أكثر صالحي الزمان لا يَعلم بأنه صالح ، ولو نادى مناد بين السماء والأرض ، بالغرور مثلاً ، بأن قال : من فعل كذا فهو كذا ما صدقناه ، كيف والشيخ عمر يقول : لو صَحَّت لي سجدة لعشيت أهل تريم . ولو وقع اليوم نحو عشرة جماعة في شدة ، فدعوا الله ففرَّج عنهم ، لادَّعى كل واحد إنما هي كرامته هو، عكس ما كان عليه صالحو الزمان السابق ، من أن كُلاًّ يراها إنما هي لصاحبه لا له ، فيتداعَون الكرامات كما يتداعَون الأموال ، وكانوا يرون الصالح مَن هو خامل إذ هو

أكمل ، ومَثَل الظاهر منهم والخامل ، كرجلين مع كل واحد زِق عسل ، فالظاهر أخرج بعض زقه ، والآخَر بقي زقه ملآن على حاله ، ثم ذكر : إن الشيخ أحمد باجحدب ، سأل من المعلم باجابر أن يَصَل تريم فقيل : إنه يخاف فيها من السلب ، فقال : أنا أضمِّن له اثنين يَضْمَنون له الأمان من ذلك ، واحد من أهل الظاهر، وهو الشيخ محمد بن حسن( ) ، والآخَر من أهل الباطن ، وهو الشيخ أحمد بن الحسين العيدروس ، ولكن لا يجلس في تريم إلا ثلاثة أيام ، فجاء وجلس في مسجد بروم للإلباس بأمره له بذلك فألبس نحو 98 نفساً، فقيل له : هل يُسْلَب أهل الظاهر، فقال : إنه من أهل الباطن أيضاً لكن أقيم في الظهور فيجري على ظاهر الفتوى أو كما قال .

وسأل رضي الله عنه عن بعض الخطباء في بعض البلدان ، فقيل له : لا بأس به ، وكان من المترددين عليه ، فقال : هل يخطب ببكاء أو بغير بكاء؟، فقيل : بغير بكاء، فقال نفع الله به : سبحان الله كأنهم بلا ذنوب ،لا، بل هم بلا قلوب ، وإلا فكل معترف بالذنب، ومن يخلو من ذنب؟، وأتاه هذا الخطيب يوماً زائراً فسأله عن ذلك أيضاً، فقال له : الخطبة بلا بكاء كالقوت بلا ماء .

انظر إلى هذه التورية به عن نفسه نفع الله به كما هي عادته

(2/186)

وقال رضي الله عنه : الحقائق المجردة لا تنفع ، ولا تنفع الأعمال المجردة أيضاً، إلا أنها تستر مولاها، ولا تعجبوا من كلامنا هذا فإن له أصلاً ، والكلام الذي له أصل يؤخذ منه معان كثيرة ، فقد قال الشيخ أحمد باجحدب : من جالَسَنا أربعين يوماً إذا قال للشيء كن فيكون ، أو ما هذا معناه ، ولما سمع منه ذلك بعضُ الناس جالسه لأجل ذلك ، فلما كان بعدُ، مَرَّ يوماً وهو حامل شيئاً فرماه يريد أن ينقلب ذهباً فلم ينقلب( )، فانقطع عن الشيخ ففقده فسأل عنه ، فقيل له : إنه مختلٍ في بيته . إلا إن الإنسان قد يترقى من

شيء إلى شيء إن كان أهلاً للترقي ، كالذي يريد المنزلة عند الناس ، حتى يكون في أعلا عِلِّية ، ومن لم يكن منهم كان ينزل إلى أسفل سافلين ، لأنها إنما هي مرتبتان إما علِّيون أو سِجِّين ، وهذا يعرف بالبصائر وله شواهد قرآنية وحديثية : ((من أحب قوماً فهو منهم))، وغير ذلك وبعيد أن يكون منهم ولا يعمل بعملهم.

وقال رضي الله عنه : من العجائب : إن الروح تحجب الجسم ، حتى إن بعض من يغيب ويصعق لو سئل ماذا رأى ، قال : ما رأيت شيئاً ، منعه الجسم من الإطلاع ، ولم يزل الإنسان يلطِّف كثافاتِ نفسه حتى يرتقي إلى طبع الملائكة ، وقد تعاوده البشرية ، كالذي يمكث مدة عن الأكل ولم يزل يكثِّف نفسه حتى يحصل في طباع الشياطين ، وقد يرتاح الروح لحصول مطلب النفس ، كمن يفرح بأكلة ستحصل له ، وقد تكون النفس كذلك ترتاح لحصول مطلب الروح ، كما إذا التذ بالطاعة فالنفس تلتذ بها تبعاً للروح ، وكل واحد فيما يخصه أصل ، والآخر تبع له فيه ، أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : من رأيت فيه أدنى ميل عن شاكلة أهل الزمان إلى طريق أهل الخير، فهو صالح الزمان ، ومن رأيته مائلاً عن ذلك كذلك إلى طريق الشر ، فهو فاجر الزَّمان .

(2/187)

وقال رضي الله عنه : كان السابقون إذا عملوا شيئاً للدنيا جعلوا بعضه للدين ، وقالوا : لا نجعل هذا كله للدنيا، وهؤلاء عميت بصايرهم ، فلا ينفعهم مع ذلك رؤية أبصارهم ، فتراهم يعملون في الدنيا جهدهم ، ولا يهتمون للدين بشيء البتة ، فقيل له : إن الإنسان قد يهتم بطلب شيء ولم يكن أهلاً لذلك ، فقال : الإنسان أهل لكل شيء، لكنه يطلب ما يطلبه لطاعة الله ، ومن طريقه .

وقال رضي الله عنه : قلوب أهل الزمان انقلبت في وجوههم ، فلذلك يحصل للإنسان بسببهم خواطر،

ولكن هذا أهون من أن يتعطَّلوا من الأمرين جميعاً فيبقون بلا قلوب ولا وجوه.

وقال رضي الله عنه : أهل الزمان ما يراعي أحدهم إلا نفسه فقط ، أعني نفسه الدنياوية ، لأن النفس نفسان ، نفس غذاؤها في لقاء الله ومحبته وذكره ومعرفته ، ونفس غذاؤها في الأكل والشرب ، فهذه هي التى أفرط أهل الزمان في مراعاتها.

وقال رضي الله عنه : ينبغي أن يحترم الإنسان جانب الربوبية أولاً، ثم جانب النبوة ، ثم جانب العلماء العاملين ، ثم جانب أولياء الله لأنهم خاصته ، ولا يعترض على أحد ويخصصه ، والإمام الغزالي مع كثرة ما اعترض على علماء السوء لم يخصص أحداً بذكر.

فائدة

وقال رضي الله عنه : ينبغي للإنسان في هذا الزمان أن يسير إلى الله بلطف ، ويأخذ نفسه بالتي هي أحسن .

(2/188)

وقال رضي الله عنه : من أتى بأذكار النوم عند المنام فتكلم بكلام أجنبي ، ينبغي أن يعيد { قُلْ يَاأَيُّهَا الكَافِرُونَ} و(الإخلاص) فقط لأنه ورد أن يأتي بهما آخراً فإن انتبه أثناء الليل ونيته العود إلى النوم يكفيه الأول ، فإن قام وليس نيته العود إلى النوم ، ثم بدا له أن ينام يأتي منه بما تيسر، ولم يرد في القيلولة شيء، ولا بأس بيسير منه ، ولو لم يرد إذ ذاك ، فإن أوقاته صلَّى الله عليه و آله وسلَّم كانت محفوظة ، ثم تكلم كثيراً ثم قال : وأين ملبوسنا ومأكولنا وجميع أشيائنا من الأولين ، لكن الدَّائرة دائرة التوحيد تشملنا ولم يرد في شيء أن فيه النجاة من النار، أو من مات عليه دخل الجنة ، سوى التوحيد.

وقال رضي الله عنه : خروج الروح عند الموت ، من حيث سهولة خروجها، وتعسره على قدر زهده في

الدنيا وانزوائه عنها ، أو رغبته فيها وتعلقه بها، فمن كان زاهداً فيها فارغ اليد منها سهل عليه خروج الروح ، ومن كان محباً لها وواجداً لها عسر عليه خروج الروح ، ويختلف أيضاً باختلافه قوةً وضعفاً ، ومثاله : كطير( ) في قفص( )، ضجر من الحبس فيه : فإذا فُتِحَ له القفص فيفر منه مسرعاً إلا إنه إن لم يعوقه شيء ولم تتعلق رجلاه بشيء من داخل من حبل أو غيره واتسع له المخرج خرج بسرعة بلا مهلة ، وإن كان شيء مانع أو عائق عن الإسراع تعوق على قدر ذلك .

وقال رضي الله عنه : والعمدة على اجتماع الأرواح ، وبالأبدان يكون الإجتماع في الدنيا، وبالأرواح يكون الاجتماع في الآخرة ، ولا عبرة باجتماع الأبدان مع مفارقة الأرواح .

(2/189)

وأخبرني السيد محمد بن شيخ الجفري( )، إن سيدنا تكلم عليهم يوماً بهذه الكلمات وما يتعلق بها سابقاً قبل وصولي إلى حضرته من بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ، وتركوا قراءة الحزب لذلك ، وبكى الحاضرون وهي مما تقدم نقله عنه من قوله : طريقتنا نحن هذه طريقة الإمامة ، وهي طريقة مظلمة ينبغي للمتعلق بنا أن لا يسأل عن شيء وإذا رأى شيئاً يقول في نفسه الصواب خلاف هذا ، بل يسلم قياده ويسكت ، ويكون كالأعمى الذي يقوده بصير، أو كمن في ظلمة وماسكه من يعرف الطريق وهو لا يعرفها ، فلا يقول تعال من هنا أو ارجع إلى هنا، ثم قال: إنما المقصود بهذا الكلام أنت يعني المخبر لي بذلك ، وفلان يعني زين الحبشي( ) قال فاشتد علينا وبكينا، فلما رآنا كذلك جعل يمدحنا ويسكن خواطرنا، وقال: إنما نحن ننتظر بركاتكم .

وقال رضي الله عنه في قول صاحب "الإحياء" : من لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه ، قال : لأن أسرار الطريقة أمرغامض جداً، لا يطلع عليه الذكي ، لأنه يرجع إلى العقائد، وقد يدرك الذكي

شيئاً من خفي ظاهر الشريعة . وباطنُ الطريقة لا يطلع عليه إلا الشيخ( )، وقدكان الإمام الغزالي في أيام سلوكه يسأل في طريق السلوك ، وكان معه ذكاء مفرط.

وقال رضي الله عنه : لا أعسر عليَّ من الطَّعام والكلام ، فإن الكلام مشق علي جداً، إلا إنا نستذكر به ما معنا من العلوم ، لا فائدة فيه إلا ذلك ، وذلك بسبب قلة مخالطتي للناس ، ولا نجلس معهم إلا أوقاتاً متقاربة ، لو جمعت كلها ما بلغت ساعتين ، وغالب جلوسي إنما هو وحدي، ولو أنا نجلس مع العيال والصغار في الدار، وأوقاتاً مع الجماعة كل ذلك لايبلغ أكثر من نحو ما ذكر.

(2/190)

وضرب رضي الله عنه مثلاً لدعاء أهل الزمان إلى الخير، وإنهم لا يجيبون من دعا ، قال : هم كمثل نائم غلب عليه النوم ، فتنبهه ليقوم للصلاة ، وتجر برجله ثم يخالفك وينام ، قال : فإن كان نومه إلى مدة قليلة ، كان أشكل( ) ممن نومه إلى الموت، ثم ينتبه حينئذ، وكل ينتبه إذ ذاك.

وقال رضي الله عنه : قاعدة : إن من تعلق بالدين ثم بعد ذلك مال إلى الدنيا أصبح بلا دين ولا دنيا، فليُفهم .

وقال رضي الله عنه : من هَمَّ على معصية ، فقيض الله عارضاً منعه منها، فهو يحبه ، ومن هَمَّ بطاعة فقيض الله له مانعاً منعه منها فهو يبغضه .

وقال رضي الله عنه : كرامات الأولياء منذ زمان النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم لم تبلغ معشار عشر معجزاته عليه السلام ، لأن من معجزاته القرآن ، وتحت كل آية معجزات لا تحصى .

وقال رضي الله عنه : من لم يحسن النظر مع أهل الباطن ، لم يحصل له منهم ظاهر ولا باطن ، وإن حصل له شئ من الظاهر لم يبارك له فيه .

وقال رضي الله عنه : إذا اجتمع باعث ديني وباعث طبيعي في أمر ، كان العبد أقوى ما يكون في فعل ذلك ، وغالب ما ينبعث لأهل هذا الزمان الباعث الطبيعي ، وأما القوة المجردة في فعل ما انبعث له في فعل الدين ، فلا يكون إلا لنبي أو قطب ، فإن رأس القطب تحت قدم النبي ، يستمد منه ، فهمة العوام في الأمور الدينية هي طبيعة القطب ، والقطب هو الغوث ، وكل من ارتفع في مقام على غيره فهو قطب أهل ذلك المقام ، أي رئيسهم فيه ، كما يقال قطب الراضين ، وقطب المتوكلين ، ونحو ذلك ، وإذا رأيت إنساناً يعمل شيئاً من أعمال الدين فاتركه عليه ، ولا تذكر له النية وإخلاصها، فإن فعله ذلك نية ، ولعله لا يعرف معنى اخلاص النية فيتكدر عليه الحال .

ما قال في المحبة

(2/191)

وقال رضي الله عنه : معاني المحبة تَلْطُف وتجل جداً عن التحدث بها، لأن العبارة لا تأتي على معانيها، ولا يمكن التعبير بالمعاني بحال ، لأنها لا تدركها العبارة ، ولهذا ترى أهل المحبة لما أدركوا من معانيها ما يجل وصفه ولا يمكن كشفه ، واحتاجوا بسبب ذلك إلى التنفس والتروح ، يعبرون عنها بقوالبها التى هي صورها، والمعاني أرواح قائمة بها، وذلك لما عجزوا عن التعبير بالمعنى ، وذلك كتغزلهم بليلى وسعدى وسلمى ولبنى وهند ودعد، وغير ذلك لما ذكر، ألا تسمع إلى ما ذكر : إن رجلاً جاء إلى بعض الأنبياء وقال له : ادع الله أن يرزقني ذرَّة من محبته إلى آخر القصة المتقدم ذكرها، ثم ذكر قصة موسى لما رأى العصا ثعباناً هرب منها، لأن ذلك حصل له بغتة ، ولم يكن بصدده إنما كان يطلب جذوة من نار، فلما أن تمرَّن وكلمه ربه لم يقنع بالكلام ، حتى سأل الرؤية ولم يحصل عليه عند الكلام ما حصل عليه عند الخطاب الأول ، لأنه قد تعود وتمرن على ذلك ، وقد جعل الله له في المرة الأولى الشجرة سبباً لسماع النداء ، وجعل في الثانية الطور سبباً لسماع الكلام ،

ولهذا لما أُسري بنبينا محمد صلَّى الله عليه و آله وسلَّم لم يفزع في شيء من المواطن ، لأنه من ابتداء أمره إلى منتهاه كان في صحبة المَلَك ورؤية الملائكة والترقي من حال إلى حال ، فلم يندهش في شيء منها، بخلاف ما لو كان فَجَأَه أمر في أول وهلة ، فإن هذا من طبيعة البشر ، كما وقع لموسى ولنبينا عند ابتداء الوحي ، لما قال : زملوني ، زملوني ، دثروني . أو كما قال من جملة ما تكلم به ضحى يوم الثلاثاء 24 جماد أول سنة 1124 في غرفة السيد حسين بن عمر بلفقيه في الجحيل .

ما قال في أدب السائل

(2/192)

وسمعته رضي الله عنه يقول : من تأمل أحوال الصحابة ، وتوقفهم في الأمور عما لا يعني ، عرف آداب الرجال ، وآداب العلم ، وآداب الأئمة ، وعرف ما ينبغي أن يستكثر منه من العلم ويستقل منه ، وما يُظهر منه ، وما يكتم ، انظر كيف لم يسألوا النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم عن الرجل الشديد بياض الثياب ، من هو ، ومن أين جاء ، حتى ابتدأ بنفسه يحكيه لعمر بعد مدة ، ويعرف من ذلك منع الإخبار عن الشيء قبل وقته وإذا جاء أخبر من غير سؤال ، وكيف لم يسألوا عن المرأة التى طلبت أن يقام عليها حد الزنا، وعن الرجل الذي أتاها وهل هو بغصب أو برضى منها، ونحو ذلك .

وقال رضي الله عنه : إذا أردت أن تعرف أنك لم تعلم عيبك من نفسك ، وإنما تعرفه من غيرك ، فانظر إلى نخامتك ومخاطك ونحوهما ، كيف لا تكره ذلك من نفسك لو وقع في أي موضع منك ، ولو وقع بك من غيرك ولو في طرف إصبعك ، لكنت تستقذره وتكره الفاعل ، فكذلك العيوب ، فاترك كلما يكرهه غيرك منك ، وما تكره من غيرك .

ما قال في انتظار النفحات

وقال رضي الله عنه : باطن العادات عبادات ، وباطن العبادات مشاهدات إن كان له ترقي ، والنفحات ما تنتظر إنما هي يتعرض لها، فقد تحصل في عروض الأوقات .

وقال لي نفع الله به يوماً : استفتح الباب بأظفارك لعل أن يفتح لك ، فقلت : التعرض للنفحات الوارد في الحديث بماذا يكون؟، فقال : بالدعاء والجلوس في الأوقات المرجو حصولها فيها والإنتباه وعدم النوم إذ ذاك ، فإذا وردت النفحة عليك وأنت نائم فما يقال لك متعرّض .

ما قال في التوبة

(2/193)

وقال رضي الله عنه : من تاب من ذنب وفي نفسه إنه إن تمكن منه فَعَلَه ، فهو مصرّ عليه ، ولا توبة له ، وإن انتفى هذا العزم بعد التوبة ثم رجع بعدُ بباعث آخر، صحت توبته الأولى ، وتوقفت إثابته وإثمه على أن يتركه خوفاً من الله أو يقتحمه ، وإن تاب كذلك صحت ، والعبرة فيها بالندم . وفاعل الذنب كمن يأخذ القَدوم ويهدم ، والقدوم الذنوب ، والمهدوم الدين ، والطاعات بناء له .

ما قال في خداع الشيطان

وقال رضي الله عنه : من دسائس الشيطان أن يشغلك عن الخير بخير آخر حتى لا تحسن الأول ، فلا تستعجل بخير لتفعل خيراً آخر ، بل أحسن الذي أنت ملابس له ، ثم افعل الثاني ، وشغله له بأن يوسوس له ويهممه على الذي يكون غير ملابس له عما هو ملتبس به فيتعلق قلبه به عما هو فيه ، وبهذا يعلم إن كل خاطر يخطر للانسان في الصلاة والذكر والقراءة فهو من الشيطان ، وإن كان خاطر يخطر يأمُرُ بخير فضلاً عما يأمُرُ بمباح ، بل عما يأمر بمكروه ، فإن أمر بحرام كان أشد .

انظر إلى هذا التأويل البديع

وقال له رضي الله عنه رجل : إن فلاناً كُف بصره فتعب لذلك ، وقال : ما مرادي إلا لأجل أنظر في المصحف فأقرأ نظراً ، ورأى النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم في المنام فقال له : اكتحل بالعِظة ، وإنه سأل عنها فقيل له : هي كل شجرة ذات شوك ، ويريد منكم تأويل ذلك ، وكيف الكحل بذلك ، فقال له نفع الله به : قل له : يقول لك : العظة إنما هي الإتعاظ والصبر، فليصبر على ما أصابه ، ولا عاد يسأل ، ولا عليك من أهل الزمان ، فإن مطالبهم كلها دنياوية ، وإنما يسترونها بأمور الدين ، كمن لا مال له ، فيقول : لو أعطاني الله مالاً تصدقت منه ، وفعلت وفعلت ، فانظر لو حصل له مال واجلس له عند داره .

(2/194)

وقيل له رضي الله عنه : نظركم علينا، فقال : نظر الله يشملنا ويشملكم ، وإذا رأيت المنقّر يسقط من الدار، فاشرد لئلا يسقط عليك ، والوسائط ما عليهم إلا أن يفتح الواحد منهم لك بابه ، والمدد يجيئك مثل البحر، وأصل المدد من النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، ومنه تتفرع طرق السماء ، ثم ذكر قصة الحنفي مع تلميذه في المشي على الماء ، وتقدمت ، وكذلك قصة سهل بن عبدالله التستري ، وقد قيل له : نريد أن نرى منك كرامة نراها مشاهدة ، فنحب أن نراك تمشي على الماء، فقال : سل فلاناً المؤذن ، فسأله فقال : ما أعرف منه كرامة إلا إنه يوماً جلس يتوضأ ، فزلق في النهر ، فلولا أني أمسكته لغرق ، وكذلك ذكر قصته( ) نفع الله به مع باجبير، لما زار معه الشعب( )، ومرورهما المعجاز ، وكان باجبير صائماً، قال : فلما وصلنا الشعب قلت لباجبير في الليل : نم ، فأبى فقال : أخاف اذا نمتُ زرتَ الشيخ أحمد بن عيسى وتركتني ، قال : فعالجته على النوم ، فما صدقت على الله أن ينام ، هذا حد لفظه في حكاية القصة ، وسمعتها من غيره ، ورأيتها أيضاً مكتوبة إنه أمره بالإفطار من الصيام ، وعالجه فيه، وقال له : إنه في الحديث : ((ليس من البر الصيام في السفر)) ومع كل ذلك أبى أن يفطر، وبقي على

صيامه ، وسلط الله عليه شدة العطش ، فلما صعد المعجاز، ورأى هناك سقاية ماء، فوقع كالمغشي عليه ، فشرب كثيراً حتى تقيأ ما شربه .

(2/195)

وقيل له رضي الله عنه : قيل لفلان من السادة : ينبغي لمن أراد الهند، أن ينوي إنه إذا حصل له عوين( ) يحج به ، فقال سيدنا: هذه نِية نَية ، لأنه إن أراد الفرض فينظر في كتاب الله من حيث الشروط والإستطاعة ، وإن أراد التجرد والإنقطاع ، فليكن كل يوم حليف مسجد، ونحن مانطالب أصحابنا بالإجتماع ، أي علينا ، ولا نحبه منهم ، بل الأحسن أن يبقى كل مكانه ، حتى تبقى القلوب سليمة ، ومع كثرة الإجتماع لم تحصل سلامة القلوب ، ونكره كل أمر يكون فيه وحشة الخاطر على أحد ، فينبغي أن تحصل السلامة في القلب ، ليحصل المدد والإنتفاع ، وقد ذكرنا لكم اختلاف المذاهب ، وقصة الحنفي والتستري ، وقصتنا مع باجبير، لتعرفوا بذلك ماهنالك ، وأهل الزمان مامرادهم إلا كرامات كخوارق السِحْر، أو كما قال .

وسأل نفع الله به عن شخص مات ، وكان قائماً بتدبير بيت ، وهل قام مقامه أحد مثله ، قيل : نعم ، فقال نفع الله به : من عمل عملاً وأحسن فيه ، نفع اثنين المقدِّر والمدبّر ، والإحسان في الدين أعظم من الإحسان في الدنيا بكثير ، ومن أين إلى أين .

وقال رضي الله عنه : من حج - أي حجة الإسلام - ليصح حجه لغيره ، فأمره مشكل ، ويصدق فيه قول القائل :

إذا حججت بمال أصله سحت ... ... فما حججت ولكن حجت العير

لا يقبل الله إلا كلَّ طيبة ... ... ما كل من حج بيت الله مبرور

(2/196)

وقال رضي الله عنه : قد يجيء شيخ صاحب طريقة ، وهو على حق ، ثم يجيئون ناس يترسمون برسومه ، فإن كانوا على قصد الإقتداء به ، لايخلون من خير وبركة ، وإن قصدوا أن يظهروا التشبه به ليظهر أمرهم عند الناس ويُعرفوا ويُعظموا، فهؤلاء إنما هم أكلة الدنيا قد حبط عملهم وخاب سعيهم ، وينبغي لمن له سلف صالح ، أن يتشبهوا بهم ويهتدوا بهديهم ، فإن لم يقدروا على ذلك فليترسموا برسومهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك بقصد التشبه بهم لايخلون من خير وبركة ، والأكابر لايقتدى بهم في العوائد والحقائق ، كيف يقدر أن يقتدي بهم في أن يصلي الصبح بوضوء العشاء كذا مدة ، أو يمكث كذا أياماً من الأكل ، هكذا ماحفظته على مافهمته من كلامه ، ضحى يوم الثلاثاء 24 ربيع الثاني1124 في دار آل فقيه ، عندما حصل منه التلقين لجماعة من السادة .

وحضر رضي الله عنه في مجمع في داره الشرقية من الحاوي التي فيها ابنه السيد حسين ، وذلك يوم الأحد18 ذي القعدة سنة 1126، وختم ذلك اليوم السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي كتاب صحيح البخاري ، وحضر من الطعام ماتيسر كطعام المداد( ) . فمن مجموع ماتكلم به إنه ذكرت له زوجة السيد أحمد الهندوان توفيت ، فقال : اللهم إنا نسألك حسن المصير عند المسير، وحسن الثبات عند الممات، ولم يزل يتكلم حتى حضرت القهوة ، فقال: الفاتحه إن الله يوفق الأحياء، ويرحم الأموات ، ويغفر للجميع ، وكان عادته قراءة الفاتحة عند القهوة وذكر هذا البيت للبوصيري:

وإذا تحققت العناية فاسترح ... ... وإذا تحققت العناية فاجهد

(2/197)

فقال نفع الله به : فاسترح أي في الباطن ، فاجهد أي لا تجلس بطالاً ، فلو قيل لك : إنك سعيد، أتجلس

وتترك العمل وكأن بين أول البيت وآخره مباينة ، فكيف إذا تحققت العناية يستريح وإذا تحققت يجتهد فهو على ما ذكرنا، والبيت للبوصيري ، في قصيدة مَدَحَ بها شيخه أبا العباس وشيخه أبا الحسن الشاذلي ، ونحن أول ما أخذنا طريق الشاذلية ، وطريقتهم تميل إلى الشكر، أخذوا ماجاء فيه عن الله ورسوله ، فشرحوه وفصلوه واختصروه ، وأول ماطالعناه من كتبهم "لطائف المنن" ولو بقينا عليها( )، لحصلت علينا أمور( )، ولكن تداركَنا الله بكتب الإمام الغزالي لأن ماجاء عن الله ورسوله شبه الأدوية ، وهو شرَحَها وأوضَحَها، وجعل العلماء يقدمون في كلامه ، أو قال فيها ويؤخرون ، والإمام الغزالي ما استيقظ( )، إلا وقده مقبل على الآخرة ، لأنه أفنى عمره في طلب العلوم ، فتداركه الله بعد، فكأنه مااستيقظ إلا وهو على التجرد ، وإلا فكان كهؤلاء الذين يُحضرهم الوزراء والسلاطين ، فاستنقذه الله ولكن قد معه علم واسع.

ماقال في كتب ابن عربي

(2/198)

وذكر رضي الله عنه : كتب ابن عربي وبعض مشكلاتها فقال : ينبغي للإنسان أن يرجو ولا يغتر ، ويخاف ولا ييأس ، ولا يتساهل بخطرة ولا نظرة ، وهذه الأشياء ذوقية ، ولا يُسلِّم لصاحب الذوق إلا فيما وافق الشرع الصريح ، ولا أسلم ولا أحسن ولا أجمع من كتب الإمام الغزالي ، لا في الشريعة ولا في الطريقة ولا في الحقيقة ، ويدَع ما أشكل عليه ، والمراد بذكر هذه الأشياء الحزم حتى يحذرها الإنسان كالبحر أول ما يدخله إلى الركبة مثلاً ثم إلى الوسط ، ثم إلى القامة ، ثم يغرق ، ودليل هذه الأشياء في القرآن ، لكن لأهلها، ومن هو في القاع من يجيء له ما في السماء ، وهذا إن لم يُخْطِ في ذلك والله أعلم بهم ، وقد سمعنا عن الشيخ الفقيه حسين بافضل : إن ابن عربي ما سار إلا في ظل الإمام الغزالي ، ولولاه ما جاء ولا راح ، ولكن إذا خالط الإنسان القاع إلى خمس( ) ما يدري ماذا يقع له ، انتهى ماحفظناه

مما تكلم به في هذا المجلس في هذا اليوم المذكور، وفي اليوم الذي يليه يوم الإثنين وقت القراءة تكلم في العلوم من العقائد وغيرها وفي الأعمال : أن يعلم مايلزمه من أمور الإعتقاد بالإجمال ومعرفة العبادات ويشتغل بالعمل ، ولا يلتفت إلى ما يصد عنه من آدمي أو خاطر أو قاطع ، قال : وهذا هو دين التصميم على الفعل من غير تعرض لإزالة شبهة ، فإن التعرض للشبهة يدعو إلى شبهة أكبر منها، ولا أشد من التعرض للجواب ، وأمور الشيطان مالها إلا مثل هذا ، كل أمر تعرف إنه يشغلك ، حتى في المعاشاة وفي أمر الرزق من الخواطر لأن الشيطان يريد أن يشغلك فإذا تدحرجت له في الأمر الصغير ، جرك إلى أكبر منه ، وهو مثل العدو المنازع ، فإن كان معك له مكافأة وإلا فَرُدَّ عليه بابك ، والأمر ولله الحمد مكفول إن تركت الأمر على الله وعرفت الأمور الواضحة . وقد وقعت لنا هذه الخواطر سابقاً، عندما أنشأنا هذه القصيدة( ) :

إن كان هذا الذي أكابده ... ... يبقى عليّ فلست أصطبر

(2/199)

إلخ وذلك نحو سنة 1087 وسنّه رضي الله عنه إذ ذاك نحو 43 سنة أو قريباً من هذا، قال : والشيطان ما قام في مقام النبوة ، وإنما قام بالباطل في مقابلة الحق ، ومتابعتُه أقذارٌ، وإنما غمس أتباعه في الأقذار من فعل المعاصي ، كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وهكذا كل معصية ، ولا تدَّعي القوة فتخفي ضعفك أصلاً ، وإلا ظهر ضعفك بشيء سهل ، ولو بشوكة ، والقاع القاع ، ألق نفسك في القاع ، فإذا كنت لاتطيق فهم يشلونك ، ولاتلام في ضعفك .

وذكر رضي الله عنه قول النبي سليمان عليه السلام : لأطوفن الليلة إلخ ، ولم يقل إن شاء الله ، الحديث ، فقال : ينبغي إسناد الأموركلها إلى المشيئة ، إلا ما لا خير فيه مما فيه سوء أدب ، وليس هذا بحكم منه ، إنما هو الفعل .

وتكلم رضي الله عنه في القُصَّاص فقال : كانوا يفتشون أحوالهم وينظرون ماذا جاء ، وماذا حدث .

ما قال في كلام الحقائق والحذر منها

(2/200)

وذكر رضي الله عنه الشيخ ابن عربي وذلك عشية الثلاثاء في الحاوي سادس ذي القعدة سنة 1126 فقال فيه : إنه تقدم له زهد وصلاح فيُسَلِّم له أمور الدين والآخرة ، وكذلك ابن الفارض والسهروردي ، وأمثالهم من المتكلمين بالحقائق ، ثم قال : أمر الله عظيم ، وكل يقول ماهو إلا أنا. كالشمس والقمر، كل يراهما، ولهذا مثل الله بهما في الامور الإلهية ، ولو ظهر لهم جبريل ، مااستطاعوا النظر إليه ، لكن الآدمي ضعيف ، وهو معذور لضعفه ، ومن طبيعته التيه ، لكن إذا كان ذلك في محل العفو ، بأن لايكون متبطراً ولا كاذباً، وقد مثل الإمام الغزالي في هذا بالفيل ، واختلاف مرائيهم فيه مثلاً، وكل منهم صادق ، ولكن إذا لم يكن شعور، وفيه إشكال فينبغي البيان ممن يعرفه ، لئلا يدخل على الناس منها التعقيد والتشبيه ، وإلا فإن سلم من الناس ماسلم من الله ، فربما ادعاه أحد من الناس فاغتر به ، فترى أناساً يروحون يطالعون في "الفتوحات"( ) ونحوها، ويتركون مطالعة "الإحياء" لأن أنفسهم تهوى أمثال ذلك ، وتشمئز من "الإحياء" لكون فيه تبيين الأحكام وتعريفها، فينبغي إجتناب أقاويلهم المعقدة لئلا يدخل منها التشبيه والتعقيد، فما الفائدة في ذلك ، ومن يحل لهم التعقيد إذا ركب في قلوبهم ، وقد جاء في القرآن وفي الحديث : إن الأمور الإلهية لا تُتعقل ولا تكيف ، وأين الإسراء إلى فوق السبع السموات إلى العرش ، من سماع الخطاب من الشجرة في الأرض ، يعني في قصة الإسراء بالنبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم وسمعه لكلام الله من قاب قوسين ، وتكليم الله لموسى عليه السلام من الشجرة وسماعه لذلك ، والمتكلم واحد، والأماكن متباعدة غاية البعد، ففي هذا دليل على أن الأمور الإلهية أمرها على غير ماتعرفه

العقول ، وأنه لا يسع إلا الإيمان بها والتسليم ، والله أعلم ، قال : والغلبات لها أحوال ، وهذه المسائل لها حقائق عند أهلها، لكنها لها عندهم أشياء، وفيها مخاطرة حتى في الدنيا فضلاً عن الدين ، وقد ذكر

(2/201)

الإمام الغزالي : أن من أراد أن يسلك ، فليأخذ ما اتفق عليه أهل العلم وصح ، ولكن إذا تغير المزاج مايقع شيء، وقال الفقيه بامخرمة : ماهي إلا معاني ماتسعها العبارة . ولأي شيء ما يروح الإنسان في الأمور الواسعة ، ويدخل في سم المخوط ، وقد ذكر ابن عربي : إن كل أحد ما يخرج من الدنيا إلا مكاشف حتى الكافر، لأنه يرى عند الموت ملك الموت ، والأرواح مثل السرج ، وكل ما جئت بسراج زاد الضوء ، وقده حاصل بالسراج الأول ، لأن هذه معاني ماهي صور، قال الشيخ عبدالرحمن السقاف : مانشل الراتب إلا وعند السارية نحو ثلاثة آلاف من الصالحين ، وكم قد وقع غلط في الأمور الظاهرة ، فغلطوا في فجر( ) ونحو ذلك ، لكن الإنسان ضعيف ، والضعيف إذا دخل ما لايقدر عليه يلام ، كمن دخل في بحر بلا سفينة ، وإذا حمل التغزلات على الروح ، فماكان من هجر ومطل وكل مايذم ، فمن صفات النفس ، وما كان من لطافة ومدح فمن صفات الروح ، وما كان من الشوق وتمني اللقاء ، فمن شوق النفس إلى الروح ، والمعاني قد تضيق ، واللسان قد يطغى ، كمن يصب دن ماء في فيجان فيأخذ منه مايسعه ويتطير مازاد ، هذا أو كما قال .

وقال رضي الله عنه لبعض المنشدين : لا تقصر عن أن تحفظ لعبدالرحيم [أي البرعي] لأن نفوس الناس تطمئن إلى نظمه لكونه يمدح نبيهم ، أي فتميل بذلك أرواحهم إلى ذكره ، وتطرب أسماعهم وأسرارهم إلى مدحه ، والثناء في الحقيقة إنما هو لله تعالى ولنبيه ، وما عدا هذين الحضرتين ، فكلهم أخدام ، إلا مابين خادم رفيع وخادم وضيع ، وفي مكاشفة الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه

فإنه قال : وقفت على أبواب الله كلها، فرأيت كلاً منها عليه تزاحم شديد إلا باب الفقر رأيته خالياً.

وقال رضي الله عنه : إن لله نظرات ينظر بها من نفسه إلى نفسه ، ومن كرمه إلى رحمته ، لا مدخل للعباد في ذلك .

ما قال في أقسام الصُّحبة

(2/202)

وقال رضي الله عنه : الصحبة ثلاثة أقسام : صاحب يصحبك لك فقط ، وصاحب يصحبك لك وله ، وصاحب يصحبك له فقط ، والأول فيه من وصف الله تعالى ، وهو أكملهم ، لأنه لمجرد نفعك من غير مايرجو منك شيئاً، والثاني فيه إنصاف إن أقام العدل لأنه يأخذ ما له ويؤدي ماعليه ، والثالث أضعفهم ولا يؤمَن مثل هذا ولا يُصحب ، ومَثَله كالمرأة .

ماقال في الفتن

وقال رضي الله عنه : لا تظن أن الفتن في هذا الزمان تسكن ،لا، بل كلما رأيت فتنة سكنت فهي كالنار تحت الرماد غير ساكنة بل استترت ، لأن الناس غلبت عليهم محبة الدنيا والمال والجاه ، ومن كان محباً للمال والجاه لا يَعُدُّ نفسه إلا في الفتنة ، حتى يبرئ نفسه منها، وقال : من لا يخاف من النار ولا من العار لا تعده إنساناً.

وبلغه رضي الله عنه أن فتنة حصلت في الحرمين بين الحاج الشامي وحرب [أي قبيلة حرب] ومثل ذلك في مصر ومثله في الهند، وفي أماكن أخر متعددة ، فقال : قد ظهر في هذا الوقت أشراط الساعة ، فإنه لا يصل أحد من جهة بعيدة إلا ويخبر بفتنة ، وإن فلاناً وفلاناً من أعيان الناس قد قتلوا، وإن بقيت هذه الفتنة عامنا هذا- أي وهو عام 1124- فليتحقق الإنسان أن هذا هو أشراطها، فلا يجوز للإنسان أن يخرج من بلاده ، بل يتعين عليه الجلوس في أرضه صيانة لدينه وحفظاً لصبيانه ومكالفه ، لأن الإنسان

أحسن مايخرج إلى حرم الله ، وإذا حصل فيه الفتن والقتل فإلى أين يخرج ، وهذه الأشياء وأمثالها هي الأمور الموعود بها، وصدق الله وبلّغ المرسلون .

وقال رضي الله عنه : هذا الزمان زمان نار، وأهله مفتونون وفتنتهم في قلوبهم ، لو جئت بشرارة جاءوا هم بحطب وأوقدوا عليها حتى تشتعل .

وقال رضي الله عنه : الشبهة أشد على المتنسك من الحرام لأن الحرام يَعرف أنه حرام فيجتنبه ، وإن وقع فيه تاب منه ، والشبهة أمرها عسر، فربما اعتقد حراماً أنه حلال أو بالعكس .

قف على دعاء الحبيب بعد الجمعة

(2/203)

وكثيراً ما أسمع سيدنا نفع الله به يقول إذا انصرف من صلاة الجمعة :

إلهي فيك قد أحسنت ظني ... ... فحقك يا إلهي لا تهني

وقال رضي الله عنه : لا يَنْبغي للضَّعيف أن يُدخِل على نفسه أمور أهل الزمان ، لأن مَثَلهم كَمَثَل من رأى شرارة اشْتَبَّت فراح يطلب لها حطباً يزيدها ، فلا ينبغي أن يتكلف زائداً على وُسعه فيَحْصل( ) من ذلك حتى تغيّر المزاج .

وقال رضي الله عنه : لاتحرك المرأة في هذا الزمان في أمر دينها لأنها فيه على شَفَا ، فلو قلت لها: هذه الصلاة غير صحيحة ، قالت : هذا الذي أعرفه ، وتَرَكَتِ الصلاة رأساً. وقد كان في الزمن السابق القلوب منورة وفارغة ، فأخذوا الدين وشربوه شرباً كما يشرب الظمآن الماء، بخلاف هؤلاء .

وقال رضي الله عنه : تشبَّهْ بأهل الخير مااستطعت فإن لم تكن منهم فتكون من محبيهم .

وقال رضي الله عنه : قد يكون التحسر على فوات فعل الخير خيراً من فعله ، لأن الفعل يفتقر إلى نية ، والنية قد تعز ولا تصح ، وأما التحسر فلا يحتاج إلى نية .

وذكر رضي الله عنه : همته في الحركة والسكون ، فقال : قد أقوم وأروح وأجيء، لأجل النشاط ولا ألغب ، والهمة المتعبة للبدن مؤلمة :

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام

ما قال في طريق الشط

(2/204)

وذَكَر رضي الله عنه بعضَ من سافر على طريق الشط مع بعض فقراء آل إسحاق ، فقال : هو طريق مخوف أشد من البحر بأمور كثيرة ، والفقير مسافر دنيا لا متبرعاً، فلو كان متبرعاً لكان معه سيف من القدرة ، وآخرهم على طريقة الفقراء الصادقين الشيخ شيبان ، وكان من حال الزهد والتجرد بمكان عظيم ، وكان غالب حاله مايكون عنده شيء، حتى جاءه رجل مستودع منه مسافراً أراد منه الإلباس ، فلم يجد على رأسه كوفية يلبسه إياها، وجاءه رجل بحمل بر ، وقال له : لك نصف هذا الحمل ، ولكنا محتاجون ، فأسألك تقرضني إياه ونجيء لك بحمل بعد ذلك ، فقال : هو لك هبة ، وكان له مدة أيام ما لَهُ ولعياله عشاء، وحضره ضيف فقال لأهله : ماذا عندكم؟، قالوا : رأس غنم ، قال : إذبحوه ففعلوا، فقالوا مامعنا حطب ، فقال : كسّروا هذا السرير ، لسرير تحته ينام عليه ، وغير ذلك من الأحوال ، وهؤلاء يسافرون بالقوافل متشبهين بأولئك ، وليسوا مثلهم ، وإنما يقولون : أهلنا وآباؤنا، فأين هم منهم ، أو كما قال ، ثم انتقل الكلام إلى ذكر الآباء وشفقتهم على أولادهم ، فقال : كلهم شفيق عليهم ، إلا منهم من فيه مع الشفقة رقة ويُظهر ما في نفسه ، ومنهم من يخفيه .

ما قال في سبب الجذب

ثم ذكر رضي الله عنه الجذب وإن منه جذب سماوي وسفلي ، فإن كان سماوياً يكون عقله تالفاً بالأمور السّماوية ، وإن كان سُفليّاً فذهاب عَقْله بالأمور السفلية . والعلويةُ كخوف من الله أو شوق إليه ونحو ذلك ، والسفلية كعشق العامة .

ما قال في ذكر السيد علي بن عبدالله العيدروس

(2/205)

ودخل عليه رضي الله عنه السيد زين العابدين ضحى يوم الثلاثاء ثامن عشر شوال سنة 1131، وذلك في الغيلة في الحاوي ، وطال به المجلس معه ، فكان مما خاطبه به أن قال بعد ماجرى ذكر السيد علي بن عبدالله ، قال : كنت أظن أني والسيد علي بن عبدالله يكون موتنا في عام واحد، فاتفق أني رأيت كأني وهُو في جمع في غرفته بالسبير، اجتمعنا لأمر يوجب الإجتماع من وليمة عرس أو نحو ذلك ، وكنت جالساً في المجلس إلى قبلة ، وهو في المجلس إلى شرق ، وبعد ماتفرقوا قام وسار مُشَرِّقاً يريد الهند، وكأني أعالجه أن يبقى ولايروح ، فأبى وراح ، فأولتها: رجوع روحه وأنه يتوفى هناك ، وأن لا أكون معه في عام واحد، قال : ورأيت البارحة أي ليلة الثلاثاء المذكور، كأنّ رجلاً أعجمياً وقف فوق هذا الكرسي عندي في الغيلة ، وجعل يصرخ ويقول : الليلة مات القطب ، وأصبح السيد محمد بن سقاف متوفياً تلك الليلة ، قال : ولا أرى الرؤيا تصدق عليه .

(2/206)

أقول : لما حكى سيدنا نفع الله به بالرؤيا هذه للسيد زين العابدين فحفظتها وأرختها وراحت الأيام والليالي ، إلى ثالث أو رابع جماد أول أو الثاني من السنة التي بعدها سنة 1132، وإذا بخطوط( ) وصلت من الهند من السيد أحمد باعمر وغيره إلى سيدنا

يعزونه في السيد علي بن عبدالله وذكروا : إنه توفي ليلة 18 شوال المذكور، وهي ليلة تلك الرؤيا فصَحَّتْ فيه ، وتسميته بالقطب توسعة وتوسع من حيث اللغة كما يقال قطب الراجين وقطب المتوكلين ، وإلا فسيدنا هو القطب الغوث والإمام المطلق . وقوله نفع الله به في تأويله رؤياه الأولى : أن لا أكون معه في عام واحد، إنما خرج عن عام وفاته بعشرين يوماً، والكرسي الذي رأى الرجل الأعجمي يصرخ عليه ، كرسي لسيدنا يجلس عليه ويضع عليه عمامته ، وقوله : أعجمي أي غير عربي فتكون لغته هندية ، وإنه جاء من الهند يخبر بذلك ، وكثيراً ما يذكر سيدنا السيدَ علياً، ويطيل الكلام فيه حياً وميتاً ويطنب في وصفه ، ومن ذلك قال : لم نعلم أحداً من السادة بقي في الهند ستين سنة مع توقعه للخروج إلا هو، حتى إن السيد علي الشاطري قال : ماجلسنا معه مجلساً إلا ذكر تريماً، وتمنى الوصول إليها وقد رأيناه مراراً في الخلاء، ومراراً في البلاد، إنه جاء الى تريم ، وفي كل ذلك وهو يريد الرجوع إلى الهند، وأنا أشير عليه بالجلوس ، وعدم الرجوع ، وهو عازم على الرجوع ، فكان ذلك زيارة روحه ، وحفرتُه هناك ، ولكن الغريب شهيد، لأن موت الغربة كئيب ، وإن كان بين أهله وولده ، وقد توفي بعض الصحابة في غير بلده ، فقال النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : هو شهيد، يقاس له من موضع قبره إلى منتهى أثره . وسأل ابنَ ابنه محمدَ بن عبدالله بن علي هل بلغكم قدر مدة مرضه؟، قال : نعم ، طال مرضه نحو سنة ، ولكنه لم يمنعه ذلك من عاداته ومجالسه وصلواته وجميع عوائده ، إلا قبل وفاته بثلاثة أيام ، انقطع فيها عن الخروج ، وأعتق جملة عبيد نحو عشرة ، وأسكت قبل الوفاة بقليل .

وسمعت إنه قال لسيدنا بعضُ أهل بيته : الله يطيل لنا عمرك ، وإنه قال له : ما أغرمك ، ما أنت داري أن السيد علي بن عبدالله ينتظرني ، قال : وكنا عقدنا بيننا وبينه عقد الإخوة ، عند قبر سيدنا الفقيه المقدم .

أقول : وكانت وفاة السيد علي المذكور 18 شوال سنة 1131 كما تقدم ، وبعد صلاة عصر يوم وفاته قرأ سيدنا {يس} وقرأها الحاضرون معه وأهداها له ، ووقت نشيد يوم الجمعة ، التي تليه أمر بإنشاد المراثي كمرثيته للسيد أحمد الهندوان ، وقصيدته (مرت لنا بالحمى المأنوس أعياد) ، كل ذلك استشعار منه نفع الله به لخطبٍ ورُزء يعناه ، وهو السيد علي ، ولم يتبين أنه هو إلا بعدما جاءت الأوراق بتعزيته ، بعد نحو ثمانية أشهر ، فافهم ، وذكر في جوابه للسيدأحمد باعمر على كتاب تعزيته ، قال( ): ولما فشا خبر وفاته بتريم أخذتنا الوحشة الكبيرة لعلمنا بأنه لاخَلَف منه على مثل ما كان عليه لكونها اجتمعت فيه من الخصال ما يعز اجتماعه في مثل هذا الزمان المبارك ، من العلم والعمل والسماحة التي لايبقى معها الإبقاء على شيء من الدنيا ولا احتفال بها ، وغير ذلك من الفضائل والفواضل ، فالله يرحم ذلك الوجه ، ويخلفه بالخير خلفاً صالحاً في عقبه الميمون السعيد، عبدِالله بن علي وأولاده وعسى الله ، والأمركله لله ، وهو المنفرد بالبقاء والدوام ، ولا نقول إلا ما يرضيه : إنا لله إلخ ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون . وإذا أتتك مصيبة تُشجى بها إلخ( ) . وقول الآخر: فلا تبكِ ميْتاً بعد ميْت أجنة إلخ( ) . وقول الإمام الشافعي : إني أعزيك . البيتين( ) . وقول بعضهم : وما كان قيس هُلْكُه هُلْكُ واحد، ولسنا نذكر بقية هذا البيت ، لأنا نرجو من فضل الله وبركات رسوله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم أن يبقى اجتماع ، ومن يبقى به الإنتفاع والدفاع ، وما ذلك على الله بعزيز، ولأهل هذا البيت النبوي ماليس لغيرهم عند ربهم من الإقامات والخصوصيات ، والظن في الله جميل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وذكر نفع الله به للسيد زين العابدين : إنه كتب إلينا السيد أحمد باعمر يعزينا في السيدعلي فكتبنا له جواباً، وكتبنا له في الجواب صدر هذا البيت ، وما كان قيس هلكه هلك واحد، وتمامه ولكنه بنيان قوم تهدما، فتركناه خوفاً من التفاؤل به ، أو كما قال ،

وكان من عادة سيدنا رضي الله عنه مع السيد علي زيارة التربة معاً بعد العشاء، وسمعت إنهما يقفان بعد الزيارة يتذاكران فيما بينهما في فنهما ويستغرقان في المذاكرة حتى يطلع الفجر. ولسيدنا نفع الله به في أبيات كثيرة من قصائد متعددة إشارات إلى تلك المذاكرات والمسامرات كقوله( ):

وكم حبيب وفيّ العهد مجتمع ... على المودة لا بالعاجز الوكلِ

إلى أن قال :

فهل ترى عائداً في الحي مجتمع ... مع الأحبة بالأبكار والأصل

وبالمسامر من ليل وقد هدأت ... عين الشناة وأهل النقل والعذل

يدور مابيننا كأس الحديث من الـ ... ـقديم نُسقى بها في النهلِ والعَلل

ومما نقل عمر باحميد عن سيدنا نفع الله به ، قال : سمعته يقول : ما فَهِمَ معنى قولنا في القصيدة الرائية :

بقية قوم قد مضوا وخلفتهم ... وهو خَلّفوني في الحمى عندما ساروا

إلا السيد علي بن عبدالله العيدروس .

(2/209)

أقول : أي إنه من كون الإشارة في القصيدة إلى شيخه السيدمحمد بن علوي ، وإن معنى خلفوني : إنه خليفته ، والأمر كذلك ، ويدل عليه : إن خرقته لما أرسلها لسيدنا وصلته في اليوم الذي مات فيه السيدمحمد، وكان سيدنا رضي الله عنه طالعاً إلى البلاد ليلة ، وهي ليلة الثلاثاء أول ليلة من رجب سنة 1132، فلما كان عند مِقطب ساقية ثِبي ، التي إلى الحاوي بين الأسوار، لما انحدرت الفرس من علو إلى

سفل ، قال : إن كان عاد رحنا إلى عند آل عمر يوم يحلون أو ندرنا إلى بيت جبير، بانطلب الفالكي( ) نركب فيه ماعاد منا شيء لركوب الفرس ، لأن السيد علي بن عبدالله هَدَّ قواي جملة كافية ، فقلت له : عسى الله أن يعوضكم عنها( ) عِوضاً مباركاً، فقال : ماعاد أحد مثله ، نرجو أن نكون نحن وإياه ممن يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، رجلان تحابَّا في الله ، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ونحن وهو لم نزل متحابين في الله ، في حال الإجتماع الحسي ، وفي البعد، لم نتناكر أبداً في حال الحضور ومع الغيبة ، ولو كان السيد علي في غير بلاد الهند كما في الشحر أو عدن ، أو بعض بلاد اليمن ، ولم يتفق له المجيء للزيارة سرنا إليه نزوره ، ولكن لايمكن ذلك في الهند سيما لمن هو معتَقَد ومعروف في الناس ، وإلا فعلوا له مثل أهل الذيبي ، حيث مر بهم بعض السادة من أهل الفضل فاعتقدوه كثيراً، ثم أرادوا قتله ليجعلوه مقاماً عندهم يزورونه ويتبركون به ، فلم نزل نرى منهم مثل ذلك كثيراً، انتهى مااتفق لنا ذكره مما يتعلق بالسيدعلي بن عبدالله العيدروس نفع الله به .

قف وانظر ما أخبر به عن نفسه الشريفة

(2/210)

ومما نقله أيضاً عمر باحميد عن سيدنا قال : سمعته مرة يقول : لله تعالى علينا منتان لا يمكننا أن نقوم بشكرهما ، إحداهما منحنا الله سبحانه علماً واسعاً لا نحتاج معه إلى علم كل من على وجه الأرض ، وما بقيت النفس تَتُوقُ إلى لقاء أحد إلاّ علي بن عبدالله العيدروس ، والثانية أعطانا الله عقلاً كاملاً لا نحتاج معه إلى عقل أحد.

وذكر رضي الله عنه : إن السيد أحمد بن الحسين العيدروس خطب ابنة عم له ، وهي رقية بنت عبدالله بن شيخ ابن الشيخ عبدالله العيدروس ، فأبى أبوها من زواجها فنذر لله إن تيسرت له أن يطالع كتاب "الشفا"( ) كله في ليلة واحدة ، وهي ليلة زفافها،

والسراج في يدها، ثم إنها تيسرت له ، فلما زفت إليه طرح السراج في يدها، وجعل يطالعه من أوله حتى أتى عليه كله ، وهي ماسكة له السراج .

وذكر رضي الله عنه الناس فقال : ضاعت الأمور التي لم تدرك حقيقتها، فأشياء قد مضت أوائلها حتى بقي الإنسان فيها كأنه ماسك بالذَّنَب ، وأشياء ما يعرفها إلا بقرائنها، وأشياء لاتعرف له .

(2/211)

واستخلف منه رضي الله عنه رجل يريد الهند، فقال له : ما الشيء إلاّ هِمَّة ، ولا يعين الله العبد في الأمر حتى يَهِمَّ به ، ويشرع فيه ، وقد كان بعضهم إذا أراد أن يرسل أحداً إلى أحد في حاجة فقال : أخاف ما ألحقه ، قال له : اجلس ، وأرسَلَ غيره ، والعمدة على الهمة ، ماهي خفخفه ، وامتثِلْ لفلان فقد وصيناه فيك ، وإذا لم تمتثل فلا تلم أحداً فيك ، فاللوم على قليل الإمتثال ، واعتَقِد البر والصلة إن يسر الله عليك ، حتى يحصل لك ذلك ، فلما أدبر قال سيدنا في ضعف أرزاق أهل الجهة : إنهم لا يحصل( ) نيل مطلوب إلا بفوات فضيلة ، حتى لو أراد يأكل أكلةً فَوَّتَ نحو جماعة أو فضيلة أخرى لأنهم ماهم معوَّدين هذه الأمور ولا مُرَفَّهين ، ولا تعودوا أن يُخدموا، وقد جاء عن ابن عباس : إن أرزاقهم كمِثْل قليلِ حَبٍّ مُرْتَكِمٍ هبت عليه رياح فبددته ، وقد هيأ ربك لك الأمور وأسبابها فاعمل على ذلك ، وإن كانت الأمور مقدرة( ).

وقال رضي الله عنه : خَلَق الله في الإنسان نفسه ليحجبه بها عنه فإذا أراد تعالى وصول عبد إليه ستر عنه حُجُبه .

ولما فرغ القاريء في "شرح الحكم" لابن عباد من قراءته قال سيدنا نفع الله به : هذه أشياء مفهومة ، وواقع الإنسان فيها، وإذا كان مع الإنسان أصل الإيمان ، فما عدا ذلك زائد ، فترى الإنسان إذا عصى رأى نفسه منكسراً، وإذا عمل أدنى طاعة ، إذا به يتحمحم( ) . والإنسان مخلوق على النقص ، وطُلب

منه الكمال ، فهذا أمر عسر، فليعتبر الإنسان بقصة آدم ، كيف عمل الطاعة ثم لم يلبث أن وقع في المعصية ، فوَرَّث ذلك لذريته ، فهذه الأشياء في جبلة الآدمي لا يخلو منها، ثم قال : ضعفت في هذا الزمان النيات والمُرُوَّات والهمم ، وضعفها أكثرمن ضعف الدين .

(2/212)

وكان رضي الله عنه في البلاد، يوم الثلاثاء 14ربيع الآخر سنة 1128، وذُكِر له استئذان بعض الناس ، فقال : دَعْه فإنه مبلى لأنه فتح على نفسه أموراً لا تحسن منه ، وإذا ضعفت قوى الباطن حصل مثل هذه الأشياء، وأهل الزمان ما عاد اكتفوا منا بالمجالس العامة ، ما أرادوا منا إلا مجالس خاصة ، ولا جبنا من مجالستهم بطائل ، وأوقاتنا الخاصة بنا نحن مشغولون بها بما يهمنا ، ثم تمثل بهذا البيت :

تولى زمان لعبنا به ... وهذا زمان بنا يلعب

ودخل عليه رضي الله عنه رجل فسأله عن حاله وقوته ، فأظهر التجلد، ثم قال له مباسطاً كيف عادتك في ذلك الأمر( )، فأخبره ، فقال نفع الله به : كلما أمعن الإنسان في هذا الأمر وأحسنه كان أضعف لقواه الظاهرة والباطنة ، وما ذكر من ذلك عن الأكابر فلا يحتج به ، فإن الله قد أمدهم من القوة من معدنها( ) ماهو الغاية ، فلا يقيس نفسه عليهم ، وإلا فكيف سيدنا علي يحمل باب خيبر، وهو قُوْتُه كما عرف من تقشفه ، فليس معهم مما يضعف القوى مما يعتاد عندنا شيء، فإن أمورهم مقدرة .

وذكر رضي الله عنه أمور الصالحين فقال : الأمور الإلهية ما لها حد، فترى جماعة في وقت واحدكل منهم يقول : أنا أنا، فلمن نسلم له منهم ، أحد باليمن، وأحد في حضرموت ، وأحد في المغرب ، وأحد في العراق ، ولكن أمر الله يسعهم ، كما قيل لبعضهم : إن قبوراً كثيرة تُذكر إن سيدنا علياً مقبور فيها، فأي قبر منها يصح أن يكون مقبوراً فيه ، فقال : إذا حصلت النية والتعظيم فكل منها هو

قبره ، لأن أمور البرزخ لا تتقيد، فإذا لم تتقيد أمور الدنيا( )، فالأولى أن لا تتقيد أمور البرزخ .

(2/213)

أقول : ذكر السيد يوسف الفاسي في رحلته ، إن جَدًّا له يقال له : أبو الوكيل ، مقبور في بعض بلدان المغرب ، في قبيلة من البربر، وكذلك له ثلاثة قبور في ثلاث بلدان في ثلاث قبائل ، فتداعى الأربع القبائل ، كل يقول إنما قبره الذي عندنا ، وتماشعوا( ) السيوف للقتال ، واشتكوا إلى ولده، فقال : كل منكم يحفر القبر الذي عنده ، ففعلوا فوجدوه في الأربعة القبور، فسكن غيظهم .

انظر إلى هذه الحكاية فيمن يتبع رأي النساء

وذم رضي الله عنه أحوال المنقادين لأزواجهم ، فقال : إن سليمان بن داود عليهما السلام ، أمر الهدهد أن يمضي إلى بعض البلدان ، فيَعُدَّ رجالها ونساءها، أيهم أكثر، وكان المعلوم من تلك البلدان رجالها أكثر، فقال له : عددتهم فإذا عدد النساء أكثر، فقال : كيف ذلك؟، فقال : كل من رأيته منقاداً لزوجته عددته امرأة ، فعلى هذا الحساب صرن أكثر منهم ، فتنبه سليمان عليه السلام من ذلك لمحبته لبلقيس .

انظر ما قال في البناء

وسأل رضي الله عنه رجلاً عن دار بناه ، فأخبره ، فقال : كل عمل قد يثاب عليه إلاً البناء، والذي ورد النهي به منه تعلية البنيان دون التوسعة ، وقد جاء : إنه يقال له إذا أطاله : إلى أين يا أفسق الفاسقين ، وهذه الأمور من المباحات إنما هي بالنية( )، والإقتصار على قدر الحاجة منها، وأهل الزمان لم تصح النية لهم في العبادات ، فضلاً عن العادات .

وقال رضي الله عنه : إن الله سبحانه يستحي أن ينزع النعمة عن شاكر، ولذلك قال سبحانه : { إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمِ}( ) .

وقال رضي الله عنه لرجل : هل عادكم ملازمين للحضرة( )؟، قال : نعم ، فقال : الخير لا ينبغي التخاذل عنه ، بل التعاون فيه والمداومة عليه ، وإنما ينبغي ذلك( ) في الشر ، والعالم يستنبط ذلك من قوله تعالى : {يَآ أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ}( ).

(2/214)

انظر ما قال في ذم طول السفر

وصافحه رضي الله عنه رجل مسافر فقال له : قد صارت اليوم الأسفار أعماراً( )، لأنه قد كثرت المطالب وأَ كَدَّتْ ، وتوسعوا فيها، وطول السفر وقصره بقدر ذلك ، وقد كانوا( ) في سفرهم إذا طال فهو ستة أشهر ، لأن الأمور متيسرة والقناعة حاصلة .

قف على ما قال في سيدنا عمر رضي الله عنه

وقد كتب عمربن الخطاب رضي الله عنه إلى كل من غاب ستة أشهر أن يرجع إلى أهله أو يُطلِّق ، ومع طول السفر يتعلق الإنسان برسوم وعوائد لا أصل لها، ولو كان إلا طالب رسوم لو تواضع ارتفع عند الناس ، كيف لو كان مطلبه دينياً ، وهذه أشياء لبَّسها الشيطان عليهم ، وهذه هي مداخل الشيطان التي كان أدخلها على الأمم الخالية قبل الإسلام وبعده ، مثل بني أمية ، حتى أفسدوا وحاربوا أهل الخير والصلاح ، وقد قال : {فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ }( ). وكان في معرض المخاطبة لا على لسان واسطة ، وقد عم بذلك الكافة ، ولكن كان إستثناءه انما هو للقليل من ذلك العام الكثير ، والحاصل : إن هذا الزمان السوء إذا لَحِقْت فيه تمرة واحدة في وِجْب حَشَف ، فَكُلْها، خصوصاً في هذه الجهة الضعيفة ، حتى قال بعضهم : ماتتم لأحدهم شهوة حتى تفوت عليه فضيلة ، والدنيا بَحْر عميق كما قيل :

فما قضى أحد منها لبانته ... ... إلا انتهى غرض منها إلى غرض

ومن تعب فيها وحصَّل منها راحة فحاله أحسن من حال من دأبه الشغل فيها والكد والجمع ولا يستريح فيها، فهذا حاله كحال العامل العادل( ) أيضاً، وعند أهل الحكمة : من أمكنه الإستراحة بأمر الدنيا فليستغنمها، وقد كانت فيهم شهامة عدمت منهم اليوم .

(2/215)

وقال رضي الله عنه : الجنة لا شمس فيها ولا قمر، ولا ليل ولا نهار، ولكن بكرة وعشية ، تنعكس البكرة على العشية وتنعكس العشية على البكرة ، وهي أشبه شيء بوقت الإسفار بعد صلاة الصبح مع اعتدال الوقت ولطف الهوى في ذلك ، ومن طبيعة الشمس الحرارة ، ومن طبيعة القمر البرودة ، فإذا كان يوم القيامة يكورهما الله تعالى ويسلبهما نورهما فيجعله في الجنة زيادة في نعيم أهلها، ويجعل حر الشمس وبرد القمر في النار زيادة لعذاب أهلها، وإنما ذكر الله الشمس في قوله : {لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا}( ) لكون الشمس عنصر الحَرَّ ، كما إن القمر عنصر البرد، فزيادة حر النار من الشمس ، وزيادة بردها من القمر وهو الزمهرير، وبلغنا : إن الله يوم القيامة يسلبهما نورهما فيجعله في الجنة زيادة في ضوئها ونورها، ويلقيهما في النارمع الذين كانوا يعبدونهما زيادة في حر النار وزمهريرها، وليست الجنة درجة واحدة ، بل هي درجات مختلفة لاختلاف أعمال أهلها، كما إن النار دركات ، لاختلاف العصاة ، لأن منهم من عصى الله بالكفر، ومنهم بالنفاق ، ومنهم بالمعاصي ، والدرجات إرتقاء من حين يدخلها يرتقي في درجاتها إلى أعلاها : الفردوس ، والدركات نزول ، من حين يدخلها ينزل في دركاتها إلى أن ينتهي إلى أسفلها : الهاوية .

(2/216)

وقال رضي الله عنه في حديث : يؤذن لهم أي أهل الجنة في مقدار جمعة ، إن كان من جُمَع الآخرة فما هو إلا بعد سبعة آلاف سنة ، لأن اليوم من أيامها ألف سنة ، وإن كان من جُمَع الدنيا فقريب ، وهذا الإذن عام لخاصة المؤمنين وعامتهم ، وإنما يتميز الخاصة عن العامة بقرب المجلس ، وأحوال الكرسي وتجليه تعالى لكل مؤمن على قدره ، كما ورد : إن الله تعالى يتجلى لأبي بكرخاصة ، كما يتجلى لغيره عامة . والقول بعدم إرادة الجنة أو عدم الخوف من النار من شطحات الصوفية التي اعترضوا عليهم فيها، لأنهم إذا أرادوا النظر فلابد لهم من الجنة ، ومَثَل ذلك كقول من يقول : ماأريد إلا أن أدخل على السلطان وأراه ولا أريد غير ذلك ، وهو يأكل ويلبس ، ويركب من ماله ، وإنما ـ ـ ـ (وسقط بعد ذلك كلام) ولعله : إنما المراد من قولهم ذلك : إنما نعبدك مجرد امتثال لأمرك وانقياد لعبوديتك ، لا غير ذلك من طلب ماتهواه النفس أو فراراً مما تنفر منه ، والله أعلم .

ا نظر هذا التأويل العجيب

وتقدم قوله : إن معنى ماقالوا في العبادة : لا رغبة في الجنة ولا خوفاً من النار، إن معناه : إن مطالب الأرواح وما تلتذ به غير مطالب الأجسام وما تلتذ به ، فإن مطلب لذة الجنة من الفواكه والنعيم والحور والقصور، وكراهة النار وعذابها وأنواع بلائها ، إن ذلك من ملاذِّ الأجسام ومكارهها ، وأما التلذذ بالعبادة والذكر امتثالاً وانقياداً من العبودية للربوبية ، فإن ذلك من ملاذِّ الأرواح ومطالبها ، هذا في الأصل ولابد من تلذذ أحدهما أو تعذبه بما يلتذ به الآخرأو يتعذب به تبعاً.

وقال رضي الله عنه في معنى حديث( ): ((يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم من أيام الآخرة)) إلخ أي فقراء كل طبقة يدخلون الجنة قبل أغنيائها بذلك القَدْر .

وذكر رضي الله عنه السادة آل باعلوي ، فأَكْثَر ثم قال : مامدد آل باعلوي إلا من بعضهم بعض ، وكم من مشهور في بركة مستور، وكان السادة في طبقات العامة ، يدخلون الأسواق ، ويخالطون الناس من غاية الخمول ، وإنما ظهر منهم الشيخ عبدالله [العيدروس] فلاموه ، وأهل الجهة من سابق محرومون ، حتى إنه ما انتفع به إلا أولاده وعمر صاحب الحمراء، ويحصل للولي بمخالطة العامة تمكن وزيادة فضل ، والله أراد لهم الخمول ، وأرادوا ذلك لأنفسهم ، لأن مانقص من الدنيا زاد في الآخرة وساعدهم القَدَر على ذلك،وكانوا يُسَمّون الرِّقَة لمن غالطهم أو أخذ عليهم شيئاً( ) .

قف على هذه المقالة

ومنْ نَقْل مَن نَقَل عن سيدنا نفع الله به ، قال : سمعته مرة يقول : الذين أخذوا منا وانتفعوا بنا أكثر ممن انتفع وأخذ عن الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس والشيخ أبي بكر بن سالم ، مع إنا معترفين للشيخين المذكورَين نفع الله بهمابالتقدم في كل شيء، إلا إن لله تعالى في ذلك حِكَماً وأسراراً يطول ذكرها، وتكاد ترجع إلى اختلاف الأزمنة والأمكنة ، والأتباع كالأولاد، فقد يقلون ويكثرون من غير أن يتعلق ذلك بذات الوالدين فرب مفضول أكثَرُ أولاداً من فاضل، فليتأمل في ذلك المتأمل .

انظر ما قال في من يحفظ من كلامه المنظوم شيئاً

وسمعته نفع الله به يقول : إن المنشد إذا مات وقَدِم على أهل التربة ، يستنشدونه ، فقلت له : كل منشد ، فقال : المنشد بقولنا خصوصاً لأنه لا يعرف ماقلناه إلا أهل البرزخ ، لأنا صادفنا زمان جهل وسلفنا صادفوا زمان علم، لكن مع حسد. انتهى ما نقلت من نقل ذلك الناقل .

وقال رضي الله عنه لرجل : كيف أنت؟، قال : كذا، أي يتشكى ، فقال له : قل : بخير، إنما يُذَم التجلد على الله وهو أن يغفل عما عليه من النعم ويقول بلسانه : أنا بخير وقلبه ملآن من الشكوى ، ومن تجلد على الله ابتلاه ، وإنما المحمود إذا كان معه بعض بلاء فذكر ما عليه لله من النعم فقال : بخير شاكراً على تلك النعم . فقد سئل الجنيد وبه بعض مرض ، فذكره فقيل له : أتشكو الله؟، فقال : إنما أذكر قدرة الله علي ، أو كما قال .

وذُكِرَت عنده رضي الله عنه الرحمة في الأودية ، وإن وادي ثبي حصل فيه سَيْلاَن ، الأول كبير، والثاني صغير وحصل منه خير من الأول . فقال نفع الله به : السر في البركة والشكر، السر في البركة والشكر، قاله مرتين ، أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يحتسب .

وسأله رضي الله عنه بعض السادة : أن يلقنه الذكر، وكان ذلك في مجلس القراءة عشية الإثنين 23 ربيع الآخر سنة 1124، فقال : إن هذا لا يكون في المجلس العام ، ولا لعموم الناس ، وإنما هو لطالب مخصوص ، في مجلس مخصوص ، ولا يكون له أيضاً حتى يُسأل ليُعرف صدقه ، وشدة تعطشه ، وأنتم ما دريتم بهذه الأشياء، ظننتم أنها حصلت لنا باردة من غير تعب ، لا ، بل إنما حصلت لنا بعد التعب الشديد ، لو علمتم بذلك ، فقد سافرنا لأجلها إلى مشايخ ، وزرنا لأجلها آخرين ، وصحبنا آخرين ، وما علمتم بذلك ، ولو أن معي تحت السجادة هذه جواهر مع عدم مبالاتي بها ما فتحتها لأهل الزمان ينظرونها، وهؤلاء الحاضرون ، منهم من ساقِيَتُه ملآنة ومنهم من ساقيته مربودة( ).

(2/219)

وقال رضي الله عنه : يجب على الإنسان أولاً أن يصحح مقام التوحيد، فإذا أحكمه صحح الواجبات من الصلاة والصوم ، والزكاة إن كانت عليه ، وغير ذلك ، ولايفعل مندوباً قبل تصحيح الواجب ، أتراك من له

عليك دين لازم ، وأنت تتركه وتعطيه شيئاً متبرعاً به ، هل يقبله إلا بعد إدَّاء( ) اللازم ، وما عاد إلا تمتع بما تراه من الخير، ولا تنكده على أهله ، ولا عاد مع الناس إلا بركة رسول الله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم والسلف الصالح .

ما قال في شرب التنباك

وذكر رضي الله عنه شرب التنباك يوماً، فقال : إن عفو الله عن العبد إلى حد محدود، فإذا بلغه يقول له : رح ما عاد أغفر لك ولا أعفو عنك ، فيقطعه الله من عفوه ورحمته ، لأن من الذنوب ما لا يغفره الله( ) ، ثم قال : إنه إذا تعوده( ) الإنسان صارت طبيعته عليه ، فيتغير طبعه وعقله ، والأصح أنه يَحرُم( ) ، لأنه يزيل العقل ، وذكر أشياء من حكايات من خف عقله بسببه ، ثم قال : ومن لم يُحَرِّمه يقول : لأنه لم يرد فيه نص بالتحريم فإنه حادث ، ومثله الأفيون ، فمن تسبب في إتلاف عقله مختاراً ـ فإنه تجري عليه أحكام التكليف ويخاطب بها ولا يعذر فيها، سواء أزاله بخمر أو غيره ، ومن ادعى ممن يستعمل التنباك أنه لا يزيل عقله وطَلَب الجواز لذلك ، فنقول : إنه من شأنه أنه يزيله ، وما ثبت مع تناوله له إلا بعد أن أزاله مراراً ، فلا يعذر فيه ، أو كما قال .

وسمعته نفع الله به يقول : إن تاريخ ظهوره بغي، يعني سنة 1012.

(2/220)

أقول : وممن أفتى بحرمته أيضاً، سيدنا الحبيب أحمد بن عمر الهندوان ، وكان يُشَنِّع على شاربه . ويكفي فيه هذان الإمامان ، مع ما رأيته منقولاً، قال ناقله من تفسير المُقْنِع الكبير : قال النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : يا أباهريرة ، يأتي أقوام في آخر الزمان يداومون هذا الدخان ، وهم يقولون : نحن من أمة محمد وليسوا من أمتي ، ولا أقول لهم : أمة لكنهم من الشوم ، قال أبو هريرة وسألت رسول الله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : كيف نَبَتَ يارسول الله؟ ، قال صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : إن الله خلق

آدم عليه السلام ، وأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، قال الله تعالى : { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُد إِذْ أَمَرْ تُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْر مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِين}( ) ،{ قَالَ فَاخْرُجْ منها فِإنَّكَ رَجِيم ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّين }( )، فعند ذلك خاف إبليس فبال من الخوف ، فنبت هذا الدخان من بول إبليس ، فهل يستوى الإيمان في قلب من شرب بول الشيطان . ولَعَن مَنْ غرسها ونقلها وباعها، قال عليه السلام يدخلهم الله النار، وإنها شجرة خبيثة انتهى ملخصاً.

ورأيت ما صورته : سؤال في التتن ، سئل عنه الشهاب القليوبي :

ماذا يقول الإمام العالم العَلَم بشرب قوم دخاناً هل همو أثموا

به وهُو حرام أم يباح لهم ما الحكم فيه أفيدونا فترحموا

الجواب :

بالحمد أبدأ وبالتسليم أستلم

اسمع جوابك يا من جاء يسألنا

فيَحرُم الشرب للدخان أجمعه

فيشغل القلب عن تسبيح خالقنا

يا ويح شاربه يوم الحساب إذا

ما قال هذا حلال عالم أبداً

من قال هذا حلال جاهل أبداً

من رد قولي هذا ضل عن طرق

فنسأل الله ربَّ العرش موجدَنا ... ... أرضى لطالبه الفضل والنعم

عن شرب نارٍ غداً في النار يقتحم

أيضاً وفيه خصال كلها نِقم

يسود الدُّمغ والأموال تنصرم

جاءت صحايفه مسودة عُدُم

قط من الإنس لا عرب ولا عجم

(2/221)

أو قال هذا مباح لم يُصِب حِكَم

أيضا عن الحق في آذانه صمم

بلخير يبدي وبالإيمان يختتم

تم ذلك وإنما أطلنا الكلام لكونه انتشر بين الخلق ، لعل إنساناً إذا سمع قول سيدنا، وما في ذلك النقل وما أفتى به الحبر الشهاب القليوبي أن يرعوي قلبه عنه ويتركه.

وذكر رضي الله عنه رجلا قد مرض ، فقال : إذا حلت المقادير، جارت التدابير، وليس لهؤلاء معقول يدبرون به أحوالهم ، والغيار يدخل على الجسم مع عدم التحفظ في الصغر أكثر مما يحصل في الكبر، لأن الصغير جسمه ضعيف ، أدنى شيء يضره ، والكبير وإن كان ضعيفاً وأدنى شيء يضره لكنه فيه شدة في بدنه ، مستصحَباً من حال القوة ، بخلاف الصغير.

وقال رضي الله عنه في قول يحي ابن معاذ في الرسالة : الزاهد يُسْعِطُك الخل والخردل ، والعارف يُشِمُّك المسك والعنبر : أي إن الزاهد يشدد عليك الأمر ويتقصى في الإحتياط ، ولا تكاد تسمع منه ما فيه سهولة ، بل كل أموره شديدة . والعارف بخلافه يسهّل عليك الأمر، وإذا رآك في غفلة أو مُصِرًّا على شهوة تركك ولا ينكد عليك ولكنه يرغبك عنه ويذكر لك الفضيلة في تركه ويستجلبك بلطف ورفق ، فأي

الحالين ترى موجباً لانقيادك وميلك إلى الحق ، فلا يكون الإتباع إلا للثاني .

(2/222)

وقال رضي الله عنه في قول ذي النون المصري فيها أيضاً( ) وقد سئل متى أكون زاهداً في الدنيا، قال : إذا زهدت في نفسك ، قال سيدنا : يعني لأنك إنما تريد الدنيا لنفسك ، فإن كانت راغبة في الدنيا مشتهية لها، فأنت تطلبها لها لتنال منها شهواتها، وتتمتع بلذاتها، وتتنعم بها، وتفعل بها هي ما تريد منها، وإن كانت قانعة بما تيسر منها، مأكلاً وملبساً ومسكناً، وغير ذلك ، فتكتفي بكسرة خبز تسد بها الجوع ، وخرقة تستر بها العورة ، وزاوية مسجد أو في غوضة ، فإنك لا تطلب الدنيا، بل تزهد فيها، فمحبتك للدنيا وزهدك فيها على حسب نفسك ، رغبة وقناعة ، فترى السُوَّال الذين يفرح أحدهم بكسرة الخبز لو حصلت له ، في غاية من الراحة ، وهم أكثر استراحة من الملوك والتجار والذين هم في بيوتهم ولو أنهم اتقوا الله لكانوا مع السابقين .

وتكلم رضي الله عنه في الأعياد وذلك ثاني عشر ربيع الأول سنة 1124 فقال : ضعفت العبادات والطاعات ، وقويت العادات والشهوات ، كانوا( ) إذا أقبلت هذه الأيام ، والأشهر الحرم ، خصوصاً سيما شهر رجب ، يفرحون ويتأهبون بالصدقات وفعل الخيرات ، وأهل هذا الزمان يتأهبون للأعياد ويفرحون لأجل نيل أهوائهم وشهواتهم المعروفة فيها.

وذكر: إن امرأة من السادة لها ولد يعطيها نفقتها لكل شهر من التمر والحب ، فاكتفت بالحب عن التمر، ولم تأكل من التمر شيئاً، وتصدقت به فدخل عليها يوماً، وذلك في آخر جمادى الآخرة فرأى عليها أثر الجوع ، فدخل الدار يتشوف فرأى في زير تمراً، ورآها جاعلته ثلاثين صيما، فقال لها لم تجوعين وهذا التمر أراه عندك ، فقالت إنما ادخرته لصدقة رجب ، وجعلته ثلاثين لكل يوم واحد أتصدَّق به .

وقال رضي الله عنه لرجل يحذِّره من أكل الصدقات إذا كانت على يده كالأثلاث ولا يخرجها لوجهها : الحذر من أكل الصدقات أو خلطها بالمال فإنها تفسد الجسم والمال وتحرقهما كما تحرق النار الحطب وتفسده .

(2/223)

وقال رضي الله عنه : ينسب إلى الإنسان من المقامات ما يغلب عليه ، ولا يتحقق بمقام إلا وقد حصل له شائبة من جميع المقامات ، إذ لا يكون زهد بلا ورع وصبر وخوف ورجا ، ونحو ذلك كذلك ، ولم يبق عليه إلا إحكامها، وتحقيق كل مقام بما يخصه ، وكلما أحكم مقاماً حصل له من القوة ما يقويه على الذي بعده ، وعلى هذا.

ذكر نفع الأموات للأحياء

وقال له رضي الله عنه رجل : هل الأموات ينفعون الأحياء بشيء، فقال : نعم ، إنهم يشفعون لهم ، ويدعون لهم ، فإن أعمال الأحياء تعرض عليهم ، فإن رأوه حسناً دعوا له بالثبات عليه والزيادة منه ، أو سيئاً دعوا له بالتوبة والمغفرة ، كما ورد. والأموات أكثر نفعاً للأحياء منهم لهم ، لأن الأحياء مشغولون عنهم بهَمِّ الرزق ، والأموات قد تجردوا عنه ، ولا لهم هَمٌّ إلا في الذكر، وفي ما قدموه من الأعمال الصالحة لا تعلق لهم إلا بذلك كالملائكة . وما يعملونه من الأعمال الصالحة كالذي رئي في قبره يقرأ في مصحف وغير ذلك مما يحكى عن الأموات فالظاهر أنهم لا يثابون عليها، لانقطاعهم من دار التكليف ، وإنما ذلك ليتلذذوا به كالملائكة ، غذاؤهم الذكر . وما ورد : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلى آخره ، أي عمله لنفسه . قال ذلك الرجل لسيدنا: فهل يتعارف الأموات ويتزاورون ، كما هو حال الأحياء، قال يكونون على حسب ما كانوا قبل الموت .

وقال رضي الله عنه : ذكر بعضهم : إن من عجيب الاتفاق أن وقع ولادته صلَّى الله عليه و آله وسلَّم وموته في 12 ربيع الأول فشاب الفرحَ فيه بولادته

الحزنُ فيه بموته عليه السلام ، ولولا ذلك لكان الفرح فيه شديداً جداً.

ما قال في عاشور

وأما عاشور فإنما هو يوم حزن لا فرح فيه ، من أجل أن قتل الحسين كان فيه ، ولم يَصِحَّ فيه أكثر من أنه يصام ويوسع فيه على العيال ، ولكنه في نفسه يوم فاضل .

(2/224)

وقال رضي الله عنه : اغتنم الساعة التى تصفو لك ، فإنها قل ما تحصل كل حين ، ولا يحصل الصفا كل حين ، ثم ذكر أحوال من تقدم فقال : كم راح ممن قد راح ، وكم خلف المتقدم للخالف ، أو قال السلف للخلف ، ولكن كأن الله لم يرد أن ينفع أهل كل زمان إلا بأهل زمانهم .

ما قال في أموال أهل البادية

وقال رضي الله عنه : أموال أهل البادية كلها بيت مال ، لأنهم لا يدينون بأمور الإسلام ، وإن أقروا بها، لا صلاة ولا زكاة ، ولوسئلتُ عن مثل هؤلاء لم أجزم بأنهم مسلمون أو كافرون ، وهذا هو محل التوقف وقول : لا أدري ، لأنهم لا يقرون بالشهادة تعبداً، وإنما يقولونها بغير قصد عندما يتكلمون أو يتعجبون ، ولا يفعلون أركان الإسلام ، فبهذا يكاد يحكم بكفرهم ، ولكنهم يقرون بها، ويعتقدون من يفعلونها، فبهذا يرجى أن يكونوا مسلمين ، فظاهر أحوالهم يمنع أن يقال بإسلامهم ، وباطنهم يمنع أن يقال بكفرهم ، ففي مثل هذا : التوقف أسلم ، لأن معهم شبهة إسلام ، فلهذا حسن التوقف فيهم ، ولو قد خرج المهدي لكان أول من يجاهد هؤلاء وأمثالَهم أو كما قال .

(2/225)

واستوصاه رضي الله عنه رجل فقال له نفع الله به : إزهد في الدنيا لا تحبها كثيراً، فقيل إنهم يحبونها كثيراً، فقال : ماطلبنا منه أن يزهدكزهد الأولين ، إنما نطلب أن يخفف من حبهاويقرب وكان الأولون كالشيصة الواحدة في الخِيل( )، وكله تمر، والناس اليوم إلا كالريع( ) مايَلقى فيه إن كان فيه صالح إلا واحدة أو ماشي ، ثم ذكر حكاية عن بعض السلف أنه سئل وقيل له : من نعامل من الناس ، ومن نترك معاملته؟، فقال للسائل : عامل من شئت ، ثم بعد مدة قال له : من أعامل؟، قال : عاملهم إلا فلاناً وفلاناً، وسأله بعد مدة أخرى كذلك فقال : لا تعامل إلاّ فلاناً وفلاناً ، قال : وكانوا في الزمن الأول ثمراً بلا شوك ، ثم ثمراً وفيه شوك ، ثم شوكاً بلا ثمر، ثم ذكر ظواهر أحوال الناس فقال : ما مع الإنسان إلا الظواهر . والبواطن إلى الله ، وربما لو ظهر من البواطن شيء، كَدَّر الظواهر، ولا نقول في أحد إنه صالح أو طالح ، فما أنت جالس في جنبه تعلم أحواله ، ومن أخطأ ، الله أعلم أصيبت مقاتله ، ثم إنك لو اطلعت على باطنه ينبغي الستر أولاً، ينبغي أن تقول في ... (ولم أتَعَنَّ)( ) بعد هذه ، ولعل بعدها : أن تقول في الناس إلا خيراً، وذكر آية ، قال الله تعالى : { رَبُّكُم أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ }( ) الآية ، فاذكر الثمرة ولا تعرض للعمل ، ولا يأخذ الله إلا بحجة { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }( ) ومن قال : يأخذ بلا حجة فقد أخطأ ، ولا يأخذ إلا بذنب ، وإن كان له ذلك ، ولا يعامل الإنسان إلا ربه .

ما قال في خلافة الخلفاء الراشدين والرافضة والأباضة

(2/226)

وذكر رضي الله عنه الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم كثيراً، ثم قال : من تأمل أحوال الخلفاء ممن له فراسة ومعرفة تامة ، رأى طريقة أبي بكر وعثمان واحدة ، إذ يغلب عليهما الحياء والشفقة ، وطريقة سيدنا عمر وسيدنا علي واحدة ، وهما على الضد من

ذلك ، القوة والشدة( )، ولما وَليَ سيدنا علي الخلافة سأل عنه أهلُ البصرة الحسنَ البصري وظنوا إنه يتكلم فيه لكونه قتل من أهل البصرة يوم الجمل ، فأثنى عليه خيراً خلاف ماظنوه . وأهل النصيحة من عادتهم إذا تكلموا على إنسان في غيبته ، ثم حضر زاد كلامهم في ذلك ، لايراعون ، بخلاف المخلطين . وينبغي للإنسان أن لا يتعمق في مطالعة الكتب التي فيها ذكر ماوقع لسيدنا علي من الحروب كالجمل وصفّين وغير ذلك ، لأنها توغر الصدور، ولا بد مايمر عليه القليل منها في شيء من الكتب ، وإن بُلِي العالِم بذلك واحتاج إلى النظر فيما ذكر، فليتوسط ولا يمعن، وإنما نظرنا فيه حين وصلت( ) الزيدية إلى هذه الجهة ، وسألونا عن أشياء فأجبناهم عنها، وكان في السائل منهم إنصاف ، حتى إنه مال إلى ماقلناه ، وَوَدَّ الإقامة عندنا، وكان من الزَّيَدَة( ) بمكان ، وكان متجرداً للأمر والنهي ، وقالوا لنا: لأي شيء قَدَّمْتُم عَلَى أبيكم علي بن أبي طالب غيرَه ، فقلنا لهم : هو الذي قدم غيره وفَضَّله على نفسه ، فقدمناه نحن أيضاً وفضلناه لتقديمه له وتفضيله إقتداء به ، فقالوا : إنما ذلك تقية ، فقلنا : إنا لسنا مثله في قوته وشجاعته وصولته ، فإذا فعل ذلك للتقية ، فمن أقوى منه أو مثله في الشجاعة والقوة ، فالتقية التي وسعته هو ، تسعنا نحن أيضاً .

(2/227)

وذكر رضي الله عنه أهل الرفض فقال : إنهم أهل باطل لا يُذكرون ولا يُعول عليهم في شيء ، وإن كان عندهم يسير من الحق فإنهم خلطوه في الباطل ، فلا يبقى له أثر ، كمن يجعل زباداً في عَذِرَة ، وينبغي لصاحب الحق أن يتركهم ، وإن رأى عندهم شيئاً من الحق لا ينكره ، لئلا يتعللون ويحتجون عليه بإنكاره ذلك القليل من الحق ، فيستدلون بذلك على أن كل ما معهم حق ، وأنه أنكره ، وما اعتقدوا إن سيدنا علياً أولى بالخلافة ، فإنه لو ولي بعد النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم لما كان منه إلا مثل ما كان لما ولي في وقته( )، ولكن سيدنا أبوبكر رضي به الناس ومنهم سيدنا علي ، لسابقته وحصوله مع

النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم في الغار ، ولكونه صلى بالناس في حياته صلَّى الله عليه و آله وسلَّم، وهو أوصى بها باجتهادٍ لعمر، وعمر جعلها في أهل الشورى ، الذين يجتمعون عليه من أحد ستة ، وهو أي سيدنا علي منهم ، ويكفيه فضيلة ما له من الفضائل والمزايا، وإن تأخرت خلافته فإن ذلك أيضاً زيادة في فضله( ) ، فقد كان النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم إذا بعثه في سرية يقول : { رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا}( ) . الآية ، وما ذكره الرافضة من ذمه بأنه سكت في بعض الأشياء تقية ، فليس سكوته فيها جبناً، وإنما هو للإبقاء على المسلمين ، وكراهة منه لشق العصا بين المسلمين ، وأكثَرَ( ) نفع الله به في ذمهم والأباضة ، فقال : الأباضة والناصبة أبغض إلينا من الشيعة ، لأنهم يبغضون أهل البيت ، وقال بعض الشيعة من أهل المدينة لبعض السادة من آل أبي علوي : ما تقول في الشيعة والأباضة؟ فقال : بعرة مقسومة نصفين . ورأينا سنة حججنا رجلاً شريفاً رافضياً قائماً عند قبر النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم يصرخ ويقول : يارسول الله ظلمونا وفعلوا بنا، ويتنصف كثيراً، وإذا به على أمور قد سلفت منذ زمان بعيد، كما فُعِلَ بسيدنا علي وابنه الحسين ، فعجبنا منه . ومن طبع الرافضة الجنون ، يدل عليه مثل قصة هذا الرجل ، حتى قال بعض العلماء : لو أن الرافضة كانوا طيوراً لكانوا رُخماً، ولو كانوا دوابَّ لكانوا

(2/228)

حميراً، وتكلم في ذلك كثيراً.

أقول : رأيت في بعض التواريخ ، إن السفاح أول ملوك بني العباس ، أول ماتولى وقف في المشاهدة لزيارة النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم، فسمع شريفاً شيعياًواقفاً تلقاءه ويقول : ظُلِمْنا بعدك ، وبُغِيَ علينا وأُخِذ حقنا، فقال له السفاح : من الذي ظلمكم وبغا عليكم وأخذ مالكم ؟ فقال : أبوبكر أخذ سهمنا من خيبر وفَدَك ، فأدخله بيت المال ، قال : ومن ولي بعده؟، قال : عمر ، قال : فما فعل به؟،

قال : فعل كفعل أبي بكر، وتمادوا على ظلمنا، قال : فمن ولي بعده؟، قال : عثمان ، قال : فما فعل به؟، قال : فعل كفعلهما ، وظلمونا، قال : فمن ولي بعده؟، قال : علي ، قال : فما فعل به؟، فانخفض وعَرَف إنه إنما فعل مثلما فعلوا، وانكسرت عينه وأراد أن يهرب ، فقال له السفاح : فوالله لولا إن هذا أول مقام قمته فيكم ، لأنكلن بك ، تزعم أي عدو الله إن أبابكر وعمر وعثمان ظلموكم ، وإنما فعلوا كما فعل رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم وفَعَل علي ، قال سيدنا : وسبب تسميتهم بالرافضة : إن جماعة من أوائلهم أتوا إلى سيدنا زيد بن علي ، أخي الباقر الذي تَزْعُم الزيدية إنه إمامهم ، وأخذ عنه أبو حنيفة فقالوا : يا زيد نكون عسكراً معك على من عاداك ، ولكن لا نتبعك إلا إن تتبرأ من أبي بكر وعمر، فقال لهم : إنما أتبرأ ممن تبرأ منهما، فقالوا : إذاً نرفضُك ، فقال : اذهبوا فأنتم الرافضة ، فسُمُّوا بذلك من حينئذٍ ، وسموا الزيدية بذلك لأنهم ثبتوا معه ، لا إنهم على مذهبه ، وقد كان من سابقي الرافضة رجل معه حماران ، سمى أحدهما أبابكر والآخر عمر، فاتفق أن رمحه أحدهما رمحة شديدة مات منها ، فلما عَلِم بذلك بعضُ السلف لعله عبدالله بن المبارك ، فقال : انظروا أي الحمارين الذي رمحه ، ما يكون إلا الذي سماه عمر، فنظروا فإذا هو الذي رمحه ، لأن طبع سيدنا عمر رضي الله عنه الشدةَ والقوة ، يعني في أمر الله ، فلذلك قال النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : أرحمُكم أبوبكر، وأشدكم في الله عمر ، وأصدقُكم

(2/229)

حياءً عثمانُ ، وأقضاكم علي رضي الله عنهم ، انتهى ما تكلم به نفع الله به في هذا المجلس .

وقال رضي الله عنه : ما عاد في هذا الزمان إلا الملاطفة والمداراة والأخذ باللطف ، ولا بد أن يدبر الله للناس ما فيه الخير .

وذكر رضي الله عنه الأخطار التي عليها أهل الجهات فقال : كالهند ونحوهم ، يتربى الإنسان بين السهام وفي الحروب ، وما يشبههم في المخاطرة إلا الصوفية فإنهم يخاطرون بأنفسهم في أمور شديدة لا تكاد تدخل في الطاقة ، وذلك لأنهم رموا بأنفسهم ولا حسبوها، فعدوها في الآخرة وإن كانوا في الدنيا، فما يظهر عليهم من أشياء غريبة من رؤية ملائكة أو سماع هاتف أو غير ذلك فكل ذلك من أمور الآخرة .

وسئل رضي الله عنه عن قول الإمام الغزالي في كتاب التوبة : قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسببٍ خفي يقتضي العفو عليه ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد من الله إلخ ، فقال : نعم ، لما إن أعطاه الله التوحيد والطاعة ورَزَقَه ذلك ووفقه له ، كان هذا منه تعالى لعبده من غير سبب ولا وسيلة استحق بها ذلك ، وعند ترتيب المجازاة على الأعمال لا يكون شيء إلا بسبب .

وقال رضي الله عنه في حديث( ): من التقط ما تساقط من الطعام حرم الله جسده على النار، أي للتواضع والصيانة وشكر النعمة ، أي لما في ذلك من ذلك.

وقال رضي الله عنه : لا تشاور إلا ذا عقل وذا سر إلا إن كان في أمر ظاهر.

وقال رضي الله عنه : مَيلة الإنسان من الأمر وهو على حق خير من أن يُدْخِل يده فيه وبدنُه في البعد عنه ، وباعِد الأمور إذا اضطربت ولا قام فيها والي ، يصطلح فيها وجوهُ الأرض إلى أن يقوم والي ، أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : بين الناس شياطين من شياطين الجن خالطوا شياطين الإنس مثل ما ترى بينهم في الأسواق في غلاء الأسعار وظهور ما يُطلب إخفاؤه ، وكله من الشواغل والأمور السائغة بين الناس .

ما قال في مسير الهند

وقال رضي الله عنه : مسير الهند ما هو إلا بلية عظيمة على آل أبي علوي ، ما هو إلا بلية يُصبر عليها وبلية يُشكر عليها، وإلا يَسيرُ إليها صبي صغير، إيش يرجعه إلى وطنه وأهله ، ما يرجع إلا إن كان حصلت عناية إلهية ، وقد كان السيد أحمد باجحدب ما يخلِّي من يسافر إلى الهند يستخلف منه ، ولا سار إليها السيد عبدالله بن شيخ إلا بإشارة ربانية ، لكثرة ما حصل عليه من الدَّين ، وقد تقدم قوله : إن على أهل حضرموت في سفر الهند دعوة ولي بلا شك ، وإلا فإن أحدهم ما يصدق على الله يشوف تريم ، ثم إنه ما ينشب أن رجع إلى الهند.

وقال رضي الله عنه : التعلق بالخير في هذا الزمان كالمباشرة لكثرة الأشغال ، لأن أمور الخير قَصْدٌ وتَعَلُّق ومباشرة ونية( ).

وقال رضي الله عنه : الدنيا ما هي شيء، لا يعدها الإنسان إلا من قفا ظهره { وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً }( ).

ما قال في البركة وقصة صاحب الدينار

وقال نفع الله به لرجل : هل بقي لكم شيء من النخل؟ يعني بعد سيل الحوت المتقدم ذكره ، فقال : بقي قليل بين جماعة ، فقال رضي الله عنه : القليل إذا فيه بركة خير من كثير ما فيه بركة ، كما في قصة صاحب الدينار الذي سأل هل فيه بركة؟، فقيل : نعم ، فأخذه واشترى به سمكة وجد فيها جوهرتين . وأموال أهل الزمان ما عاد فيها بركة لعدم إخراجهم الزكاة فخالطت أموالَهم ومعاملاتِهم الفاسدة وغير ذلك ، ما عاد إلا إقنع منها بالقليل .

وقال رضي الله عنه : النفس قاسية رغيبة ، إذا رأت الشيء لم تقنع به ، لكن إذا رأته كثيراً تبارك وإن كان قليلاً ، وإن رأته قليلاً ذهبت بركته وإن كان كثيراً.

وقال رضي الله عنه : لا تستقل شيئاً طرح الله فيه البركة كائناً ما كان ، ولا تستكثر شيئاً نزع الله منه البركة كائناً ما كان ، كقصة صاحب الدينار وهو : إن رجلاً من الأمم السالفة اشتد به وبأهله الضر والفاقة ، فجعل يدعو مع زوجته ، أو قال : يدعو ، وزوجته تُؤَمِّن ، فرأى ليلة من الليالي كأن قائلاً يقول له : إن في الموضع الفلاني مائة دينار، فخذها أنفقها في حاجتك وعلى أهلك ، فقال : هل فيها بركة أم لا؟، فقال : لا ، ما فيها بركة ، فقال : لا أريدها، فأخبر زوجته بذلك فلامته كثيراً على عدم قبولها، فقالت : كان أخذتها ننتفع بها سواء كان فيها بركة أم لا ، وبقوا يدعون كذلك ، فرأى القائل يقول له : في موضع كذا عشرة دنانير، فقال : هل فيها بركة؟، فقال : لا ، ما فيها بركة ، فقال : لا أريدها، فأخبر زوجته فلامته كالأولى ، فبقوا في دعائهم كذلك ، فرآه فقال له : في مكان كذا وكذا دينار واحد فخذه ، فقال : هل فيه بركة؟، فقال : نعم فيه بركة ، فمضى إليه وأخذه ، فمر إلى الساحل ليشتري به سمكاً، فرأى صياداً يبيع سمكاً فاشترى به سمكتين ، فلما أن شقوهما وجدوا في بطن إحديهما جوهرتين ، كل واحدة تساوي مائة ألف ، فرزقهما الله ذلك بسبب البركة من غير مظنته ، إذ من أين للصيد أن يبتلع الجواهر. وفي بعض ما أوحى الله به إلى من يوحي إليه ، إنه قال سبحانه : (إني أنا الله لا إله إلا أنا إذا باركتُ أدرَكَتْ بركتي السابع من الولد، وإذا مَحَقْتُ أدركَتْ محقتي السابع من الولد) ولم يذكر الله تعالى في القرآن شيئاً من الخير إلا ذكر البركة معه ، وإني تأملت في القرآن ، فرأيت كثيراً ما يصف القرآنَ بالبركة ، كقوله تعالى: { كِتَابٌ أَنْزَلنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ }( ) ، { وَهَذا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ }( )، وعلى هذا.

(2/232)

وأوصى رضي الله عنه رجلاً يريد السفر، فقال له : الله الله في الطاعة والهمة وطلب الدِّين والآخرة

فإن من سعى في طلب الدين والآخرة يسر الله له دنياه ، ومن سعى في طلب الدنيا وترك دينه وآخرته فاتته الدنيا والآخرة ، وقد انقلبت همم الناس اليوم إلى ما لا يُهتَم له ، واستغرقوا فيما لا يُستغرق فيه ، لأن كل أحد إنما يستغرق فيما يهمه خاصة ، وكلٌّ يَهمه ما لا يَهم غيره على مقتضى غرضه ، قَلَّ ذلك أو كَثُر، وقد جعلوا الآن هَمَّهم هَمّاً واحداً، وهو طلب الدنيا حتى استغرقوا في ذلك عن أمر دينهم وآخرتهم ، ولولا أن الله منَّ على الناس بالحزب( )، لذهب بهم إستغراقهم حتى لا يعرفوا يوم الجمعة .

ذكر الهارات

وذكر رضي الله عنه الهارات وهي أوقات الوبا، وكثرةَ الموتى فيها فقال : قد مات على ما أحصوا خمسمائة ، وسمعت من يقول : توفى ما بين العيدين عيد الفطر وعيد الحج نحو أربعة آلاف من أهل البلد ومن غرباء وبدو وذلك سنة 1115 وكانت هارة شديدة ، ثم قال : وكل يحب سلامة نفسه ، ويسعى في منفعتها إلا إنهم مختلفون في القصد، منهم من يقصد التنعم ومنهم من يقصد الطاعة ومنهم من يقصد المعصية ولا بد لكل من الموت ، تأخرت المدة أو تقدمت ، إذا لم تبك عليهم بكوا عليك ، ولكن إذا كان مع الإنسان عبرة ينبغي أن يتسلى ، لئلا يتغير عليه أمور دينه ودنياه ، وما بقا الإنسان إلا كمن قال له واحد: إني أريد أن أقتلك فقتل من قرب منه ولامَسَه فتعجب من ذلك ثم ظهر عليه أثر القتل كمرض ونحوه فاشتد خوفه ، فإذا صح نسي ذلك ، وقال : عسى يتركني .

(2/233)

وقال رضي الله عنه : ينبغي أن يأخذ مع أهل الزمان في تعريفهم الصواب بالتعريف باللطف والبيان ، وأن لا تتعدى من هذا الطرف إلى الطرف الآخر( )، ولا عاد معنا لهم بيان ولا صبر ولا حوصلة ، وهم كمن هو مائل عن الطريق ذراعين( )، فأردته أن يميل الذراعين حتى يقوم على الطريق فقفز أربعة

أذرع( )، حتى يصير مائلاً عنه ذراعين في الجانب الآخر، ما شَبَهُهُم إلا كذلك ، إلا القليل من أهل العناية ، لأن الزمان مدبر، وأهله مدبرون ، ويعسر تعريفهم الصواب ، ولا لهم بصائر، ولا يَستخرج العلمَ إلاَّ هِمَمُ الطالبين ، وما يستخرجه تقرير المعلمين ، ولكن يأخذ الإنسان بالقليل من الخير ويحسنه ، فما ذلك بقليل ، وذكر السيد( ) فقال : إذا كان في بلد أو قبيلة من يُستحيى منه فيرجى فيهم الخير .

وقال رضي الله عنه : كل شيء له أسباب كثيرة فإن أسبابه وإن تعددت تكون فروعاً لأصل واحد، هو أصلها ، وترجع جميعها إليه في الخير والشر، فإن كان شراً وأراد قطعها فليقطعه إن أراد الله به الخير وذلك بتحكيم شيخ محقق أو أخ صالح مشفق ناصح ، وإلا لم يسلم من دسايس نفسه أبداً، ولو فيما هو صحيح في اعتقاده ، فقد قال الإمام الغزالي : إن الإنسان لا يمكنه تعذيب( ) نفسه ، ولو كان ناصيته ورأيه بيد كلب لكان أنفع له من كون ذلك إلى نفسه .

وقال رضي الله عنه : إن الأكابر لم يأمروا أحداً ولا ينهونه إبتداء منهم أبداً، حتى ما يُطلب منهم أن يروا له ما هو الأصلح والأنفع له ، فقلت فإن طلب منهم أن يكون تحت نظرهم ، فقال : يعطونه كلمة واحدة تكفيه ، قلت : فإن سَلَّم نفسه إليهم وطلب منهم أن يتصرفوا فيه بما أرادوا، فقال : ذلك له حكم .

وقال رضي الله عنه : ما يستقيم للأولياء أحوالهم إلا بترك الحظوظ في بداياتهم ونهاياتهم .

وقال رضي الله عنه : إذا لم تقدر تمشي على الطريق مع من يمشي فكن منهم قريباً ولا تبعد عنهم ، فتميل عنه وتضيع .

وقال رضي الله عنه : الإيمان إذا باشر القلب يكون هو اليقين .

وقال رضي الله عنه : وكل من الأكابر غير أهل البيت لا بد لأحدهم علاقة وبركة من أحد من أهل البيت .

وقال رضي الله عنه : ما كل أحد يستيقظ ولا كل أحد يسير [أي إلى الله]، ولا كل أحد يصل ، وكل الناس يسيرون ، إلا منهم سائر إلى الجنة ، ومنهم سائر إلى النار، حتى إنه ما يموت أحدهم إلا وهو على باب النار .

وقال رضي الله عنه : القطبانية في خصوص وعموم ، قد يكون قطب أهله ، أو قطب بلده ، فقد قال الشيخ عبدالرحمن [أي السقاف] في ابنه الشيخ عمر : وجدنا عند عمر أسراراً ما كنا نظنها عنده ، فقال الشيخ عمر: أوَ قد أحاط بجميع أسرار الله ، وكان صاحب مجاهدة .

وقال رضي الله عنه : لابد في الإمام المقتدَى به من السيرة والسريرة والصورة ، فالسيرة : الطريقة ، والسريرة هي حسن الخلق ، أن لا يكون فظاً ولا غليظاً ولا وحشاً.

وقال رضي الله عنه : الجهال صغار العقول لا تجالسهم فإنهم كالنار، ولا تَج في طريقهم ، وتنحَ منهم مثل ما تنحى النبي صلّى الله عليه و آله وسلَّم من أبي جهل وأمثاله ، إلا إن أولئك كفار، والجاهل ما يرجع من شيء .

وقال رضي الله عنه : ينبغي أن يترك السوءَ وأعمال السوء من أول مرة لئلا تتحكم فيعسر إذ ذاك تركها، وقد جعل الله لك على نفسك بصيرة ، وجعل لغيرك من أولي البصائر عليك بصيرة ، حتى ينتهي ذلك إلى العلماء، ثم إلى الأنبياء، ثم إلى الملائكة ، ثم إلى الله تعالى ، ثم تكلم بعد ذلك في التنباك فقال : الأصح أنه يَحْرُم ، إلى آخر ما قدمناه .

وقال رضي الله عنه: الإحسان إلى الجار: بالإحسان إليه وكف الأذى عنه والصبر على أذاه.

قف على هذه المقالة

وقال رضي الله عنه : ربما يصل إلى الجهة أجنبي ، فيرى أموراً فيتعجب أن يكون هنا من يؤبه له مع وجودها، فنقول كما قال سيدنا علي لما اختلف عليه أهل العراق فقيل له : إنه يقال ليس لك رأي ، فقال : لا رأي لمن لا يطاع .

(2/235)

وقال رضي الله عنه : لا أنفع في هذا الزمان من البكاء والإستغفار، ومن معه خوف من الله في الدنيا آمنه في الآخرة ، وبالعكس ، ولا بد من خروج العرق والدموع ، فإن لم يخرج ذلك في الدنيا( ) خرج في الآخرة ، قال الله تعالى : ((وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين ، إن هو أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة ، وإن خافني في الدنيا أَمَّنْتُه في الآخرة)) ، كما أخبر بذلك عنه نبيه عليه السلام ، وقيل في قوله تعالى : { أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون }( ) : أي لأنهم خافوا وحزنوا في الدنيا، فلا يعاد عليهم ذلك ثانياً، فينبغي للإنسان أن يتوب ويتقي ويخاف ، وعسى الله .

وقال رضي الله عنه : إذا خرجت الموعظة بجد وصدق مع معرفة مقاطع الكلام ، وعدم التشكك ، والوقف حيث ينبغي أن يقف عليه ، نفعت ، وإلا شوشت ولم تنفع .

وقال رضي الله عنه : السير على الطريق العام على الإقتداء بالنبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم مليح ، وفيه بركة ، وإذا الإنسان دام عليه وتمسك به يحصل له خير مما يحصل من الخلوة ، ومر في القراءة كلامٌ للشيخ حاتم الأهدل ، فقال سيدنا: العارف إذا وصل إلى هذه المثابة ، يعني التقييد بالحقائق لم يُنتفع به ، وإنما يُنتفع به ما دام متقيداً بأمور المعاملة ، وكذلك الشيخ علي بن عمر( ) من أهل الحقائق ، ولا يخلو هذا الأمر من ظاهرين فيه ومن خاملين ، ثم ذكر القطب ، فقال : قال بعضهم : الأقطاب أربعة : قطب الأحوال كأبي يزيد، وقطب المقامات كالشيخ سهل بن عبدالله التستري ، وقطب العلوم كالإمام

الغزالي ، وقطب الحق كالشيخ أبي الحسن الشاذلي .

وقال رضي الله عنه : ربما حصل إساءة أدب ، فتقل الحظوظ بسبب ذلك ، وإذا أحد أقل الأدب فأحسِنْ أنت الأدب حيث يُحتاج إلى حُسْن منهم .

(2/236)

وقال رضي الله عنه : لا ينبغي للجماعة المجتمعين في أماكن متقاربة أن تضيق صدروهم فتضيق بهم أماكنهم ، وإذا وَسِعَت صدورهم وسعتهم أماكنهم .

وذكر يوماً رضي الله عنه الأمر الخارق للعادة ، وكان ذلك ضحى يوم الجمعة 13 محرم سنة 1127، و6 في نجم النثرة وكان طالعاً إلى البلاد راكباً على حمار لما ماتت فرسه ، فقال للخادم عكيمان : هل أنت واثق على هذا الحميِّر في طعمه وسقيه ، قال : نعم ، فقال له ولمن هو مسايره : لو تكلم الحمار، فقال : لا ما هو واثق علي ، مَن أول من يشرد منكم؟، فقال عكيمان : أنا، فقلت : وهل يفزع الإنسان إذا تكلم نحو الحمار، فقال: نعم ، لأنه خرق عادة ، فقلت : هل الخارق للعادة لا يحصل لأهله إلا مع غَيبة ، فقال : نعم ، في حالة تسمى السبات وهي مرتبة بين الوحي والحس ، لا ترتقي إلى درجة الوحي ولا تنزل إلى مرتبة الحواس. قلت : فما صفة تلك الحالة ، فتبسم وسكت ساعة ، وهذه عادته إذا سئل عما لا يشتهي السؤال عنه ، أو لم يكون السؤال موافقاً ثم قال : ما لم يُكَيفوه لا نُكَيِّفه نحن ، لأن ما كُيِّف نزل ، فلأي شيء تُضرب الأمثال ، ما تُضرب إلا لمثل ذلك ، إذ ما كل كلام له جواب ، وقد سأل بعضُ الجهال بعضَ العلماء : متى يجد الإنسان لذة النوم ، فسكت ، وقال : إن قلت قبل النوم فليس بنائم ، أو بعده فليس معه حس يدرك به اللذة ، ثم تمثل بهذا البيت :

ما كل قول له جواب ... جواب ما تكره السكوت

ثم قال : والأحسن أن يقال : يجد لذة النوم حالة النعاس ، وهي أوله ، والإنسان معه بعض شعور عند

ما يتشكك( )، فانظر كيف أول هذا مزح ، ثم انجر إلى هذا الكلام العجيب .

(2/237)

والتقاه رضي الله عنه خارجاً من البلاد إلى الحاوي رجل بماء لينفث فيه لجملة ناس مرضى في وقت بارد، فقال : لا ينبغي أن يُداوى في وقت البرد إلا بكل حار، وكذا في كل فصل بما يخالف طبعه ، إلا إن كان طبيب حاذق يرى خلاف ذلك ، إذ قد استحبت الأطباء حتى في المأكولات أن يكون في الشتاء( ) مثلاً حيث طبعه بارد رطب ، أن يكون المأكول حاراً يابساً، والربيع( ) حيث طبعه حار رطب ، أن يكون المأكول بارداً يابساً، والصيف( ) حيث طبعه حار يابس ، أن يكون المأكول بارداً رطباً، والخريف( ) حيث كان طبعه بارداً يابساً، أن يكون المأكول حاراً رطباً، وهكذا إذ مداواة كل شيء بضده هو الدواء الكلي ، إلا إن رأى طبيب خلافاً في شيء من جزئيات ذلك .

ما قال في الجنون

وذكر رضي الله عنه الجنون فقال : الجنون له مواد كثيرة ، مواد من فوق ، ومواد من أسفل ، فإذا رأيت المجنون ذا خزعبلات فهو من مادة أسفل ، وإذا رأيتَه كثير الذكر ونحوه ، فمادته من فوق ، وقالوا : الجنون فنون أي أنواعه كثيرة ومواده كثيرة .

وقال رضي الله عنه : الجنون فنون ، وما هو فن واحد إلا العقل ، وكل له منه( ) نصيب ، ممن له منه جزء وجزءان أو أزيد أو أقل ، ولا كَمُلَ فيه إلا رسول الله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم، وترى الإنسان عليه ثياب وعمامة ولا عقل معه ، لأنك إذا تأملت أفعاله لم تكن من أفعال العقلاء .

وقال رضي الله عنه : ربما إن أحداً من المجاذيب المجانين يجتمع ببعض الشياطين ، لأنهم ما يميزون بين الإنس وغيرهم ، فإنا نسمع منهم مايدل على ذلك .

وقال رضي الله عنه : الجنون مرض عقل ، ومنه المطبق ، ومنه الذي يرد أحيانا كمرض الجسم وهو على أنواع شتى كما قيل : الجنون فنون ، وأما الحمق فنوع واحد، ونهايته بداية الجنون ، وهو أشد منه على الناس لأن المجنون كُلٌ يحذر منه ، والأحمق فيه شائبة من عقل .

(2/238)

وصافحه رضي الله عنه رجلان أخوان ، يقال لهما أولاد - أظن- محمدبن شبانة ، فسألهما من أين أصْلُكم ، قالا : أبوهما جاء إلى هنا من نجد، وقبلها كان جدهما من الحساء، من آل شبانة المعروفين من عامر( )، فقال أحدهما : ادع لفلان فإنه عاده( ) برأسه يعني له وفرة ، فقال سيدنا : الشَّعَر مليح ، إلا إن النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم أمر بتعهده ، وكان عليه السلام عليه شعر ما حَلَقَه إلا في حجته( )، والسر في التقوى ، إذا وجدت صلح كل شيء وإذا فقدت التقوى فسد كل شيء .

وقال يوما رضي الله عنه وهو في الضيقة خارجا لصلا ة الظهر: من الذي ُيدخِل المصلَّى يعني السجادة ، بعد ما نقوم من الراتب ، مع علمكم بأن صلاة الصبح تكون خارجاً، إذ لا معنى لإدخاله ثم إخراجه للصَّلاة فليخدم الإنسان بجميع أفعاله المعاني المطلوب الفعل لأجلها، لأن من فعل شيئاً لا معنى له كان فعله سدى بلا فائدة ، فالحاصل أنه يتعين أن يخدم بجميع أفعاله وأقواله معانيَها التي لأجلها يقول ويفعل ، ولا يقول ويفعل ما لا معنى له ، والا صار سعيه ضائعاً وعمله خائباً، فراعوا ذلك في كل ما تقولون وتفعلون ، أو كما قال .

وصافحه رضي الله عنه بعض السادة فتوسم من حاله ، فقال : كان أهل المروات إلا يعينوهم الناس ، عكس ما عليه الناس اليوم ، والخير والتقدير كلاهما مأمور به وإلا فإن مددت يدك كثيراً تعلقوا بك ، فانظر إلى فلان( ) تمره في كل مكان( )، وهم

يقولون بخيل ، وقد قال الله تعالى : { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ }( ).

(2/239)

وقال رضي الله عنه : خلق الله كل شيء، وجعل تحته حِكَماً، وفي مقابلته حِكَماً، فخلق السماوات والأرض وغيرهما حتى انتهى الأمر إلى الشيطنة ، فإن من خصال الشيطان ما لا يقبل الحق مجرداً ، إنما ينفع فيه السيف ، فرسول الله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم لما قاتل أهل بدر، لم َيدْعهم ، إنما قاتلهم بالسيف فقط ، وإنما كان دَعاهم قبل ذلك ، وبعض الحجج الباطلة ما يقطعها إلا السيف ، ولا يُناظَر صاحبها إذ لا تفيد فيه المناظرة ، لأنه ينجر من شيء إلى شيء، والطرائق المسلوكة إلى الله كثيرة ، منها عامة ومنها خاصة ، ومنها ظاهرة ومنها باطنة ، ومنها جلية ومنها خفية ، وكلها مسلوكة إذا سلكها الإنسان وثبت عليها ومال منها قليلاً يمنة أو يسرة ثم رجع إليها، وإن لم ير السائرين ، بأن بعد عنهم وجعل يتبع أثر أقدامهم ، وأما إذا راح يسير على الشخر( ) تضررت رجله وانقطع ولم يصل .

ذكر مرضه الذي في سنة 1130

ودخل عليه رضي الله عنه السيد زين العابدين العيدروس ، وكان معه نفع الله به حمى ، وذلك في مرضه سنة 1130، فقال سيدنا : الحمد لله حصلت العافية ، أو العافية حاصلة ، وإنما هي حمى خفيفة ، قد كنتُ أحسستُها ولكن كنتُ أخفيها، قلتُ : إذا أظهرتُها تبقى لها صورة ، وإذا كان الإنسان يروح ويجيء ويقيم صلاته ولو معه أمراض خفية ما يخالف ، وإنما المرض ما أقعد الإنسان ، وقد لي نحو سنتين ما أصلي إلا وأنا ماسك بالحائط ، من سنة 1127 ومنذ مكثت في الدار لا أخرج( )، أصلي جالساً، واسترحت بذلك ، والعافية من الله سبحانه، والعبد ضعيف ، وفي بعض الاحاديث : إن النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم جعل يصف الحمى لرجل ، ثم قال

له : أتريد أن أزيدك من وصفها، قال : لا، لو لم يكن إلا ما ذكرتَ أو قال : يكفيني ما ذكرتَ .

(2/240)

أقول : ولما كان به الحمى في ذلك الوقت كان معي أيضاً حمى ، وكان مع ما به نفع الله به ، كثير التحنن عليَّ والسؤال عني ، فرأيت مرة وأنا تلك الساعة معي منها شدة عظيمة ، كأني حامل سيدي على ظهري ، وأمشي به فاعترضني في طريقي نوف( ) مرتفع ، وأردت أن أصعد به فلم أقدر، فحاولت الصعود مراراً، حتى في بعض المرات تعلقت بذلك المكان المرتفع ، حتى صعدت به وهو على ظهري ثم سرت أمشي به ، ثم حصلت العافية له وَليَ بحمد الله .

ودخلوا عليه يوماً رضي الله عنه عائدين له في هذا المرض ، فبعد ما اطمأن بهم المجلس ، قال : الحمد لله العافية حاصلة، وعافية الكبير إلا على قدرها( )، ولو هو إلا من حيث الشواغل لو أراد شيئاً أو أراد أحد منه شيئاً ، وشيء من الشواغل من حيث الحقيقة ، وشيء من حيث العادة .

(2/241)

وسأل رجلاً من الحاضرين من الذين يقرءون في الليل في مسجد السقاف ، متى تقوم لقراءة السدس؟، ثم قال : ومع الكِبَر الإنسان لا يستوفي نوم الليل كله ، ولا أَكْلَهُ كله ، وقد يكون ذلك إما لِكِبَر أو لعادة ، والشاب لا يكفيه ذلك ، بل يريد نوم الليل كله ، وينام في النهار ويأكل أكثر من العادة ، وقد قيل : إن خلاك الموت ما خلاك الكبر، والحاصل : إن الدنيا دار عقوبة منذ خلق آدم ، فبقي ذلك في ذريته ، خَلَقه للمثوبة فراح يدور للعقوبة ، وإلا فما أحد يخالف الحبيب ويطيع العدو : { وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ }( ) فدخل بعض السادة أهل( ) الهندوان ، من مشطة( ) بأسوكة

، فوضعها بين يديه ، فقال لي : أتطيق تقسم الأسوكة؟، قلت : نعم ، فأعطانيها، فاشتغلت بتقسيمها عن باقي كلامه ، ثم دخلوا عليه مرة أخرى ، كل ذلك عيادة له في مرضه ذلك ، وكنت أنا معي أيضاً حمى ، وما تعوقت بسببها عن حضور مجالسه ، من فضل الله ، فدخلت عليه معهم ، ولما صافحته قال عساك أشكل( ) فقلت : بخير، فقال نفع الله به : مسكين الحاج وكلنا ذلك المسكين ، ثم قرأ هذه الآية : { سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ }( ) الآية . ثم ذكر هارة شديدة حصلت سنة 1030، قال ما أحصي من مات فيها لكثرتهم ، وفيها مات الشيخ أحمد بن الحسين العيدروس ، ثم قال لي : أتطيق تنشد، هات ما تيسر، ولو سبعة أبيات ، فأنشدت بقصيدته : (لجيران لنا بالأبطحية) إلخ... وبعدها قرأ الفاتحة وخرجوا.

(2/242)

ودعاهم مرة رضي الله عنه للدخول عشية يوم التروية ، وهو ثامن ذي الحجة الحرام ، فدخلوا عليه ، فلما اطمأن بهم المجلس ، جعل يتكلم فكان كلامه كأنه تَنَفُّس كالفاقد لمجالسه المعتادة ، والمتعطش لجريان المذاكرة بعد انقطاعها، فمما تكلم به ، وما نسيته أكثر، وهذا أيضاً على مقتضى ما فهمته ، مع ضعف حفظي وركاكة فهمي، بعد ما صافحه صبي فسأله من هو، فأخبره ، فقال له : بارك الله فيك ، ثم ذكر إن بعضهم قال : ينبغي إذا أراد أن يقول لأحد بارك الله فيك أن يقول : بورك فيك لئلا يكثر ذكر اسمه تعالى في كل لفظ ، وفي كل محل غير لائق ، فيكون شبه الإخلال بالحرمة ، وكذلك الإتيان به في الألفاظ المذمومة كأخزاك الله ، ونحو ذلك إذ كثرة تكرر الإسم الشريف فيها، يخل بالتعظيم الإلهي، ويعرف ذلك من حيث العلم الذوقي ، أو العلم الكشفي ، ولكن لا يفهمون بكثرة التعليم .

وقال رضي الله عنه : ينبغي أن يُحْسِن الإنسان جانب الربوبية أولاً، ثم جانب النبوة ثم جانب العلماء العاملين ، ثم جانب أولياء الله لأنهم خاصته ، ولا

يعترض على أحد ويخصصه ، والإمام الغزالي مع كثرة ما اعترض على علماء السوء لم يخصص أحداً بذكر.

وقال رضي الله عنه : وقد تُعَوَّج الألفاظ في ألسنة العامة فيقلبونها ولا أحد ينكرها عليهم ، فيحتاجون إلى تعليم ، ((وقد جاء رجل إلى عند النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم، فقال : عليك السلام يارسول الله ، فقال صلّى الله عليه و آله وسلّم : عليك وعلى أمك)) الحديث( )، وألفاظ كثيرة لكثرة الاعتياد ما يحس الإنسان إلا وقد وضعها في غير محلها بحكم الاعتياد كألفاظ الطهور والخلاء وقد يقع لي أنا هذا كثيراً .

أقول : يعني من كثرة مواظبته على الأذكار المختلفة باختلاف الأحوال ، قد يأتي نفع الله به بذكر موضع في موضع آخر غير موضعه ، فكثيراً ما أسمعه إذا دخل البيت يأتي بأذكار دخول المسجد، ومثل ذلك كثيراً .

(2/243)

ثم ذكر رضي الله عنه صبر أهل العلم على العامة ، فقال : وأهل العلم والدين يصبرون وذلك شرط ، وقد يكون إما ابتلاء أو طلب فائدة ، فالإبتلاء كمن يُبتلى بأحد سيء الخلق في جامع أو مجلس تعلم ، أو صحبة سفر، كما في قصة الرجل الذي صحبه في سفر رجل سيء الخلق ، فجعل يصبر عليه مدة ما هو معه ، حتى إذا فارقه جعل يبكي ، فقيل له : ما يبكيك؟، قال: أبكي على صبري عليه مدة ، ثم فارقني ، وبقي خلقه معه ، ثم أمر رضي الله عنه بإدارة دخون( )، ثم قال لمنشد: أنشد حتى يُفرغ من الدخون ، وبعد النشيد قال للمنشد يمازحه : هل يمكنك لو قال لك أحد : هيا نروح نحج ، ولكن بشرط أن لا تخبر أحداً أيمكنك تسكت ، فسكت( )، فقال نفع الله به : لا لا ، أستغفر الله ، ولو حتى رؤيا إلا إن قال لك : إن أخبرت أحداً تموت فلعل أن لا تخبر أحداً، ثم قال : ما ندري أين جاء خبر بيت الشريف( ) في اختلافهم ، ما هو إلا لكونهم قرابة وإخوان ،

فالإختلاف غير لائق بل ينبغي أن يقول : الذي يقع لي يقع لأخي ، ثم قال : وقد رأيت قبل أن تحصل لي الحمى : كأني قائم تحت الكعبة عند الحَجَر ، وكأني أمس محله أملس ليس فيه كسر، ولكن نفس الحَجَر ليس موجوداً، فقال له السيد عقيل باعقيل( ) : ماذا أولتوها، قال : ما أولناها بشيء لأن التأويل سمح يقع ذاك إلا في الزمن الأول إذا أولت تأخرت مدة وإنما نؤولها بأمر حادث ثم قرأ الفاتحة ودعا ، فلما ختم الدعاء قاموا يصافحونه ، وفي جملتهم جماعة كانوا مرضى ، فسأل كل واحد منهم كيف أنت ، فقال : بخير، ثم قال رضى الله عنه : لُون( ) عَرفة إلا بايصحُّون لها الناس ، سبحان الله ، على بالك أن الناس هنا يقولون عرفة حتى الضواون( ) ما تأكل فيها اللحم .

(2/244)

أقول : وهذا من كلامه في المزاح رضي الله عنه ونفع به ، وهذا آخرُ دخول عليه بنية العيادة من مرضه الحاصل عليه في سنة 1130 وأفسحُ مجلس في المجالس المذكورة ، ثم مَنَّ الله ببروز طلعته البهية ، وظهور غرته السنية ، خرج إلينا ليلة العيد إلى المصلى ، فتَيَمَّنَّا بنفحة ريًّا مرأى رؤية وجهه البهيج ، وحصل لنا برؤيته خيرات كثيرة وفوائد منيرة ، وانطفت عنا حرقات الغرام المهيج .

بغرته قد أودع الله أربعاً

تَسَلٍّ لمهموم وأمنٌ لخائفٍ ... ... نشاهدها كالشمس عند التأمل

ورشدٌ لذي غي ويسرٌ لمقلل

(2/245)

خرج بعد ما أتموا ربع القرآن ، دخل وهم يكبرون عند تمام حزب آخر الأنعام ، إذ هو مرتِّب لهم في إحياء

ليلتي العيدين التكبير عند تمام كل حزب تقييداً للتكبير حيث هو مطلق ، فقيده بذلك خوفاً أن يترك بمرة ، وابتُديء من (الأعراف) بحضرته ، وبقي جالساً في حلقة القراءة إلى أن وصلوا مقرأ وما تكون في شأن (من سورة يونس) ، ثم قام ، ودخلوا عليه ضحوة يوم العيد للمعاودة كما هي العادة في مثل هذا اليوم ، ثم استأذن جماعة أخرى ليهنوه بالعيد، فأذن لهم وأمر لهم بقهوة ، وما كان أمر بها في تلك المجالس المتقدمة للعيادة ، ثم مكثوا قليلاً بعد القهوة ثم قرأ الفاتحة ودعا، ثم خرج من أتى بعد، وبقي من كان حاضراً قبلهم ، فقال رضي الله عنه : أبداً ما تخلفت عن شهود صلاة عرفة إلا هذه المرة ، لقلة الإختلاف فيها، وعدم اتفاق مرض في هذا الوقت ، وأما صلاة عيد الفطر فتخلفنا عنها ثلاث مرات( ) ، غالبها بسبب الإختلاف وخطاهم في رؤية الشهر، فمرة أفطروا ولم نفطر ولا حضرنا الصلاة ولكن أمرنا النساء والصغار من أهل بيتنا بأن من أراد منهم أن يصوم أو يفطر هو بالخيار، ومرة أفطرنا، ولكن لم نحضر العيد لحصول الشبهة ، ولكنها في هذه المرة (سنة 1118 هـ) ضعيفة ، وفي الأولى قوية (سنة 1116هـ) ومرة تخلفنا فيها لبقية مرض كان حصل معنا وهو (سنة 1070 هـ). وهذا أخف أمراضنا (أي سنة 1130 هـ) وإلا فقد مرضنا سنة 1070هـ مرضة شديدة جداً، ونحن إلا في لطف كبير، وإلا فكم ناس من الأكابر يمكث الواحد الشهرين وأكثر وهو غائب لا حس معه ، وأنا أود أن أخرج أكثر من هذا والمشي أيضاً يسهل علي ، وإنما يشق الركوب ، ولكون الناس يناتفون الإنسان مثل سارق عينات في نوف وعلى الفرس ، فيَشغُلون وإذا عُلِّم واحد ما تعلم غيره ، وأهل الأرض هنا عامة وجلفان ، فقيل له : إنه كان يكفيهم الرؤية بلا مصافحة ، قال : ويا الله إن وقع لهم منا هذا، ولكن ما عاد معنا إلا الصبر عليهم ، والأمور

إن شاء الله إلا جميلة .

وبينما هو نفع الله به في آخر هذا المجلس ، إذ قيل له : هنا جماعة يستأذنون ، فقال : قولوا لهم : إنه أبطأ به المجلس وهو جالس فَوَعْدُكم العصر إن اتفق ذلك منا ومنكم ، فلما كان العصر حشدوا وتجمعوا ، فلما أخبِر بهم أمر لهم بقهوة ، وأذن لهم بالدخول ، فلما اطمأنوا جالسين قال : المعاودة هذه ما لها أصل في السنة ، وإنما هي بدعة حادثة ، ولا يعرف لها ذكر إلا إن كان في الآداب ، وإنما السنة عيادة المريض ، وقال : ما قطع الناس عن الناس بالمواصلة في هذا الزمان إلا التكلف ، وقال : ثلاثة أوقات ، الناس يتواصلون فيها طوعاً أو كرهاً، الخريف ورمضان وعرفة ، والعوائد شيء منها للنسوان ، وشيء للرجال ، وساداتنا آل أبي علوي أمورهم إنما هي مرتبة على السنة والعوائد الحسنة ، ومن خرج منها فهو قليل خير، ثم أمر منشداً فأنشد بقصيدة فيه مُدِحَ بها، وفيها تهنئة له بالعيد، وهي للشيخ عبدالرحمن باكثير( )، ساكن الشحر أولها :

الحمد لله الذي عم الورى ... ... بالجود والإفضال والنعماء

إلى أن قال فيها :

إنا نهنيكم بعيد أكبر ... مع جملة الأهلين والأبناء

فلما فرغ منها سأله لمن هي ، فأخبره ، فقال : نحن ما نستثقل أو قال : نكتئب من هذه الأشياء لأن ما وقع لنا طرحناه في بحر النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم، فقيل له : الحمد الله حيث خرجتم البارحة فقال : نعم ، نقول عسى ساعة قبول ، أو ساعة رحمة ، والدنيا سموها ساعة فهي ساعة ، لا ينبغي أن تُجعل إلا في طاعة ، وما بعد هذه الساعة إلا ساعتان ، إما ساعة نعيم دائم ، أو ساعة عذاب دائم ، ثم قرأ الفاتحة ثم دعا ثم خرجوا، وكل من أتى زائراً أو معاوداً أو لغير ذلك ، لا يرجع بل يأذن( ) في الدخول ، ويعطيه من المجلس والجبر كما يريده ويأنس به.

(2/247)

ثم خرج نفع الله به لصلاة العشاء ليلة الجمعة ثاني عشر من الشهر وحضر من الذكر ما كان يعتاد يحضره غالباً قبل ذلك ، وهو نحو ثلثيه ، تَعَوَّدَ ذلك في هذه السنة أو قريباً منها قبل مرضه هذا ، فإنه هذه الأيام قد يحصل له عذر، وقد يحضر كل المجلس ولا يقوم إلا بعد انقضائه بعد أن يقرأ الفاتحة ، ومنذ حصل عليه هذا المرض ، ما تقدم لصلاة إماماً بل يقدم أحد العيال( ) ، ولا صلى إلا قاعداً سوى الركعة الأولى حيث تقام الصلاة إذا دخل .

(2/248)

ودخل عليه رضي الله عنه ضحوة يوم هذه الجمعة جماعة معاودين ، فانبسط لهم وتأنسوا عنده ، وعشيته دخلوا حاشدين معاودين ، على عادتهم في الكثرة إذا دخلوا عليه في هذا الوقت ، وأمرني بالإنشاد فأنشدت بقصيدته (خلها تجري بعين الله) ...إلخ ، و (بمرحباً بالشاذن الغزل) إلخ ، ثم قرأ الفاتحة . وليلة السبت خرج لصلاة العشاء، وبعد الفراغ من قراءة يس ، قام وأمر بشد الفرس ، فركبها إلى البلاد إلى بيت آل فقيه للمبيت على عادته ، فلما صعد الدرج وبلغ السطح ، كأنه تعب في الدرج ، فقال : الكِبَر قده مرض ، فما حصل معه من مرض فهو محاوش( ) له ، ثم بات نفع الله به عندهم ، وظل ذلك اليوم إلى العصر، كما هي عادته أن يبقى عندهم آخر أيام التشريق ، وبعد أن صلى العصر خرج إلى الحاوي ، ودخلوا عليه عشية الأحد، وفيهم كثرة فتكلم كثيراً في أحوال الناس خصوصاً وعموماً، ثم قال : لا عاد تدعو إلا بالصلاح ، فإنما العزيز اليوم إلا الصلاح ، وأما الدنيا فلا عبرة بها، فقد تكون عند أقوام ، ثم تنتقل عنهم إلى آخرين ، فلا ينبغي أن يحرص الإنسان إلا فيما يرضي الله ورسوله ، فكلما كان لله ورسوله فما منه بدل ، وكلما أخلصتَ في ذلك فهو العمدة { أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِص }( ) { وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين }( ) وكل شيء فهو في القرآن ، إلا إن الناس ما علموا معناه ، وقد قال الفضيل بن عياض : لو علمتُ من القرآن أولاً ما علمته منه اليوم ، لما كتبت

الحديث ، يعني إنه انكشف له من معاني القرآن آخر وقته ما لم ينكشف له أولاً ، ثم قرأ الفاتحة بلا نشيد، ثم دعا وصافحوا وخرجوا ، ثم دخلوا عليه رضي الله عنه عشية الاثنين في 15 ، وفيهم كثرة كالتي قبلها، فشكا إليه رجل ضيق الحال ، فقال : ما عاد معك اليوم إلا الرضى والتسليم ، لكن بشرط موافقة الأمر، فإذا وافق الرضا بالقضاء والقدر( )، ثم أمرني بقسمة أسوكة ، فبقي يتكلم ولا

(2/249)

عقلت منه شيئاً، ثم أمر منشداً فأنشد بقصيدة تنسب للشيخ أبي بكر العيدروس (أغالب دهري حينا وحيناً يغالب)( ) ثم قرأ الفاتحة وخرجوا.

ودخلوا عليه نفع الله به ، عشية الجمعة في 19 فكان غالب كلامه في الناس الذين أدركهم وكان يعرفهم ، وفي الأماكن التي كان يتردد إليها ويألفها أيام طلبه ووقت شبابه ، حتى ذكر محلاً كان فيه حَسارة( )، قال هل هي باقية فقيل لا ولكن محلها معروف ينسب إليها يقال له محل الحسارة ، ثم ذكر جماعة ممن كان يعرفهم ويألفهم ، فممن ذكر رجلاً من السادة اسمه أحمد عيديد( )، كان عالماً فاضلاً وله اطلاع على العلوم ، وذكر من أحواله أشياء، وذكر له في "المشرع الروي" ترجمة مطولة ، وذكر غيره أيضاً قال : كل هؤلاء كانوا بين الستين إلى السبعين ، وكانوا كلهم متواقرين ومتناصرين ومتعاونين ، وما أحد يشح على صاحبه في مثل أمور الدنيا، فإذا مال أحدٌ منهم قام عليه صاحبه بالأمر بالمعروف ، ثم قال : وكم أشياء كنا نعرفها ما عاد يعرفها أهل الزمان ، فإنه كم وجوه راحت. ثم ذكر خربطة هؤلاء المفتونين وسوء أحوالهم فقال : لا هم لهم نسبة إلى الدين ولا إلى أهل مروءة ، فلا ينسبون إلى أهل صلاح ولا إلى أهل دنيا. ثم قال : كل أمر بين أمرين فأمره مشكل جداً، الذي يكون لا هو إلى هذا الأمر فيلحق به ، ولا إلى هذا الأمر فيلحق به ، فعند الأطباء أن الشيء الذي لا تعرف طبيعته ، هل هي باردة مثلا أو حارة ، أو هي رطبة أو

يابسة ، فمعرفته مشقة عندهم ، لا يعملون به في إحدى الدرجتين ، حتى يتبين قربه من أحدهما فيلحقونه بها، وكذلك الخنثى الذي لا هو رجل ولا امرأة ، فقد أخذ نصف العلم ، ولا أحد حكم فيه بأمر قاطع ، فكم أتعب الفقهاءَ أمرُه وأكثروا فيه الكلام ، ونحو ذلك ، فقس هذا في الأمور الدينيات ، والأمور الدنيويات ، واعتبره فيهما.

(2/250)

ثم ذكر قراءته في النحو، فقال : حفظت "الملحة" ثم ذكر أخذه في الفقه إلى آخر ما تقدم ذكره في ابتداء قراءته ، ثم قال للذي يدير الدخون : تم الدخون؟، قال : عاده ، ثم قال : تم ، فقال : الطيب إلا مبارك ، وهو أقرب إلى السنة من القهوة ، إلا إن القهوة لما كان أصلها وظهورها من عند الصالحين اتخذوها لأجل السهر والنشاط على الطاعة فهي خير، وما كان أصله إنما نشأ من خير فهو خير مما أصله من الأشرار واتُّخِذَ لأجل الهوى ، يشير إلى التنباك ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا .

ودخلوا عليه رضي الله عنه عشية الاثنين 22 فكان غالب كلامه في قبائل الأرض ، من أهل الخلا وأهل البلد، فذكر أن آل باشيخ ، وباسالم يرجعون في النسب إلى أصل واحد، وأن آل أحمد وآل حيد إلى أصل واحد، وآل باجذيع وآل باغوث كذلك.

ثم ذكر باغوث الذي كان خادم الدولة ، فقال : ماهو قليل ما فعل ، فإذا جاءنا الناس يشكون ، قلنا : لا بد ما ينصف الله المظلوم من الظالم ، فقال عليوان بن دامس : مرادنا نشوف ما يفعل الله بهم ، قلنا : هذه شماتة ، والشماتة مذمومة والظالم مأخوذ، إلا إما أبطأ وإلا أسرع : { وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ }( ) ، وقد عاقب الله هذا الظالم ، وأخذه أشد أخذة ، ورجع جماعته يطلبون على الأبواب بعد ما كان من صولته واستضعافه المسلمَ ، وهكذا جرت سنة الله في عباده ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا.

(2/251)

وجاءه السيد زين العابدين يوم الثلاثاء 23 ذي الحجة المذكور من السنة المذكورة( )، فقال له : عساكم إذا طلعتم الرقاد، ما تحسون تعباً، فقال : قليل جداً، وهو من بقايا شيء، ولكن نحسّه كالذي هو ذاهب وبانغلبه بالقوة ، وقوة الكبير إلا ضعيفة ، ومرضه زيادة فيما معه من الضعف ، يعرف ذلك من نفسه ، والعاقل ما يحتاج إلى التعلم ، لأن التجربة قد علّمته ، ومن حنكته التجارب يعرف من نفسه ما لا يعرفه غيره ، هذا إذا كان الإنسان عاقلاً ، فإن كان لا عقل له ، أو هو ضعيف العقل ، فلا يفيد التعلم أيضاً، وقد قيل : بعد العشرين لا يزيد العقل ، يعني الغريزي ، وما بعد ذلك إلا لزيادة( ) بالتجربة والمعرفة وهو من العقل الكسبي.

ثم امتد الكلام إلى أن قال : ينبغي أن يؤخذ كل شيء من عند أهله ، وإن أداه إليه العلم فلا يستغني عن أن يسمعه منهم ، فقال له السيد زين : عسى أموركم المعتادة ، مثل القوت والنوم قد تراجعت ، قال : نعم ، هي كالعادة ، وما أحس شيئاً إلا إن كان بعض شيء في الدماغ ، حتى إنه يشغلني الكلام ، إلا إن كان عندي أحد فلا عذر من الكلام . وقد أوصي الأهل والعيال إذا دخلوا عندي ، وبقوا ساكتين أقول لهم تكلموا بعضكم مع بعض كما ترون من عادتي ، وهم يرون هذه الأشياء أدبًا، وشيء منها من الأدب لكن ما هو بهذه الصورة ، ولكن من لك بمن يعرف .

(2/252)

وطلبه السيد زين العابدين يجيه إلى بيته ، وذلك رابع عاشوراء سنة 1132 فوعده بذلك ، وبقي ينتظره مدة ، وما اتفق إلا بعد نحو ستة أشهر من الوعد، وذلك يوم عشرين من جماد الآخر، فظل ذلك اليوم عنده ، وبعد ما طال به المجلس ، قال له السيد زين : تنامون قليلاً ، قال : نعم ، وأنا قليل ما يجيئني النوم ، وإنما هو السكون ، سكون الاعضاء، فيحصل لي

بذلك سكونان ، سكون الأعضاء وسكون اللسان ، وقدني أقول لهم : افصلوا بيني وبين الداخلين علي ، إن أرادوا يتكلمون وحدهم أو يسكتون ، وإلا فلا يطلعوا وأما أنهم يحيلون الكلام علي فلا ، والكلام فضول يجر بعضه بعضاً فبينا أنت تتكلم بكذا انجر إلى كذا كالخواطر في الصدر، إلى غير حد .

وقال يوماً: إن كان رحنا للحج بانطلب الفالكي نركب فيه ، لوجود الضعف وينبغي أن يفرق بين أمور الأعذار، وأمور الرياسة.

وقال رضي الله عنه فيما يخاطب به السيد زين المذكور( ) : الإنسان إذا طعن في السن ضاعت عليه الأمور ونسي حتى كان( ) في سن التسعين ، وقال أنس بن مالك في آخر عمره : ما عاد أعرف شيئاً مما كان في عهد النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم إلا الصلاة ، وأهل الزمان حَيِيَتْ نفوسهم وماتت قلوبهم ، لأنهم لا همة لهم في الدين ، كيف يصلون أو يزكون ، إنما همة أحدهم ما يأكل أو يلبس ، وكان الأولون نفوسهم ميتة ، وقلوبهم حية ، لأنهم لا يهمهم ما يهم هؤلاء، إنما يهمهم الحياء والدين ، ثم ذكر قصة اللصوص ، الذين نهبوا قافلة فيها مال كثير، وتأولوا أنهم فقراء من أهل الزكاة ، ولا حرفة لهم غير التعسكر، وإن المأخوذين تجار استغرقت أموالهم الزكاة ، فحلت لنا لأنهم ما زكوها، وكان مقدمهم( ) عالماً فقيهاً، وسألهم عن مسائل في الزكاة فما عرفوها بَيَّنَ بها ما ادعوه( ) .

(2/253)

ثم قال سيدنا: فانظر كيف هؤلاء مع غفلتهم ، تأولوا علم ما يُجَوِّزُ لهم ، وفي هذا الزمان ترى أناساً أخيار أولاد أخيار، لا يتفرغون لقراءة المختصر( )، بل استغرقتهم أمور دنياهم ، تَعْلَم فرق ما بين ذاك الزمان وهذا الزمان ، وهذا هو الذي كان موعوداً به ، إذ لولا ذلك لما خَلِقَ الدين( )، وظهرت علامات الساعة .

ثم إن سيدنا ذكر : إنه سيخرج لصلاة الجمعة يوم 26 ذي الحجة المذكور ، فطلب منه ابن أخيه السيد عمر بن علي الحداد قبل الجمعة بيومين أن يعبر عليه يومها، واستأذنه أن يفعل عزيمة للغدا بحضرته ، فأذن له جبراً لخاطره ، ففعل وأخذ عنده مجلساً طويلاً ، فمما تكلم به في ذلك المجلس أن قال : اليوم حُسْن السفر من الشحر إلى اليمن ، وذلك لعشر في البطين ، ثم قال : لو إن أحداً فيه طاقة لسافر إلى الحرمين في هذه الأيام ، مادام وقت الحج متراخياً، ومكث في الشحر إلى أن تتفق ساعية مناسبة يطمئن بها الخاطر، ونلقيها( ) إلى المدينة ونحضر زيارة الرجبية ، وإن اتفق موت فلا فرق أن يكون بتريم أو بمكة ، أو في غير ذلك . وقد سافر جماعة من أهل التصوف في آخر أعمارهم كالشيخ عبدالقادر الجيلاني( ) رضي الله عنه حج وهو ابن نيف وتسعين سنة حتى إن ابنه كان يقود به الناقة ، وذلك تواضعاً منه ، وإن كان يقدر على إمساكها، وحج السهروردي( )، وكان قريب المائة فحمل على أعناق الرجال من بغداد إلى مكة ، فهذه أسفارهم بأبدانهم ، والأمور السماويات على حالها كما هى لا تعلق لها بذلك .

وقد قيل لواحد من آل باسهل ، كان من أهل الخطوة : يقال إنك تحج متى أردت ، فكيف ذلك؟، فقال : يخطر ببالي الحج ، فما أحس إلا وأنا بمكة ، وهذه الأمور ما هي إلا هكذا. ومولى الشبيكة( ) قال لعياله وأصحابه : إذا أردتم تطوى لكم الأرض ، أو أردتم شيئاً فاذكروا اسمي ، وكذلك البقال وهو إلا عامي يبيع البقل ، لما رأى ابنَ الفارض ، قال له : ما يفتح عليك إلا في مكة ، قال : وأين أنا من مكة ، فقال له : هذه مكة فالتفت فرآها، ولكن تقدمت هذه رياضات ومجاهدات ، ثم قال : والعجب من أناس يذكرون في التواريخ ، إن الواحد منهم عُمِّرَ مائة سنة ومائة وعشر ومائة وعشرين وأكثر من ذلك من هذه الأمة ، من بعد النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم وجائي ، كيف يستقل أحدهم بالحركة والتصرف في

حوائجه ، ثم قال لي : أنشد ، فأنشدت بالقصيدتين الأخيرتين ، الحائية والتي على اللام ألف( ) ، ثم مكث قليلاً ، ثم بعد ذلك قال : أنشد (بسوح المقام) وأت من أثنائها ، فأتيت من قوله نفع الله به :

ودع العجز والتعلل واسلل ... صارم العزم يا له من حسام

(2/255)

إلى آخرها. وخصها لما فيها من ذكر الحج والزيارة والحرمين ، وترحيل منازل السفر إلى ذلك ، وكيفية فعله لذلك لما سافر له ، وكل ذلك بل كل كلامه من أول مجلسه ذلك تشوفاً وتشوقاً إلى تلك المناسك والأماكن المعظمة ، ثم قرأ الفاتحة ودعا فخرجنا وبقي هو قليلاً يسلم عليه النساء والأطفال من أهل بيته ، ثم جاء إلى داره التي في البلد وجلس في الدرع( ) المغلول ، وذكر أيام كان يجلس فيه لمقابلة "الإحياء" في الليل ، قال : لا بد ما مر علينا جميعه (أي الإحياء) 15 مرة ، إلا ما أحد يِتْقَن( )، وذكر أناساً كانوا يقرأون عليه ، ومن قرأ هو عليهم . ثم قال : من العجائب أن الفقيه باجبير قبل يروح الهند كنا نقرأ عليه في الفقه ، فلما جاء قرأ علينا "الإحياء" ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وطلع إلى الغيلة. وجلس فيها مجلسا آخر، وجرى بينه وبين السيد أحمد بن زين الحبشي كلام ، وهو أن قال السيد أحمد له : الحمد لله أنتم بخير، أقوى مما كنت أظن ، فقال : الحمد لله على نعمه وعافيته ، وكنت أردت أن أطلع الجمعة التي قبلها، وبيني وبين عمر فيها وعد ولكن جربت نفسي بالحركة والقيام والقعود، أني ما أطيق لشاغل الناس ومناتفتهم( ) فقيل له : إنها شاغل كبير، فقال : شاغل من لا يدري ، وبلونا بكثرة المصافحة ، وقد هممت أن أقول لواحد يقول لهم : بالقلوب ، لا أحد يصافح ، أو إني أصلي العصر في الجامع ، لكن قلت : لأي شيء لا أنا قاعد لهم ، ولا هم قاعدين لي ، وأهل البلد في طبعهم جفاوة وبداوة ، ثم قرأ الفاتحة وتفرقوا.

(2/256)

وقد ذكر يوماً كثرة من يصافحه على الفرس ، حتى أشغلوه ، فقال : كنا حال القوة نمسك البغلة عن المسير رفقاً بهم ، ونأمرهم في طريق هود إما يتقدمون أو يتأخرون ، فلما رأينا من تقدم منهم يحتاج إلى الخبب ، وكذا من تأخر تأنَّيْنا لهم في المسير، حتى إذا كان اليوم لو تحرك مسير الفرس قليلاً أشغلنا بسبب ضعف الأعضاء والقوى ، وهم يصافحون وينترونا( ) ولا يبالون ، وإذا صافحنا الشريف ، إذا مددت له يدي بمجرد المد لا بد ما يقع في خاطره ، فالحاصل مع الناس لابد من المقاساة لمن عرفهم أو لم يعرفهم ، لكن مقاساة من لم يعرفهم أسهل وأقرب إلى التقوى .

وقد كان رضي الله عنه ذات يوم خارجاً من البلاد إلى الحاوي ماشياً فقال : ما أشغلنا إلا الناس بمصافحتهم ومناترتهم وبغوا منا مراعاة ، وبغوا منا كلام ، وما عاد إلا كما في قصة أبي الأسود الدؤلي ، وكُلٌّ من يطالب بحظه لا ترج فيه إلا خيراً ، أي لا ترج فيه خيراً فإنه نفع الله به قال مرة : لا تقل : ما في الناس خير، فإذا أردت أن تقول ذلك فقل : ما في الناس إلا خير ، فإن ذلك يُفهِم المعنى .

(2/257)

وطلب منه السيد أحمد المذكور الدخول عليه بعد العصر، أي من يوم تلك الجمعة ، فدخل ومعه ابنه جعفر، وأذن بحضوره لمن حضر بالحضور عنده ، فلما استقر المجلس سأل السيد أحمد عن سن ابنه جعفر، فقال : أظنه 12 سنة ، فقال : أنتم ما تعتادون تؤرخون المولود، قال : بلى ، قال : لا تُخَلَّوا ذلك إلى آخر ما تقدم ذكره عند ذكر تاريخ ولادته نفع الله به ، ثم أمر السيد أحمد أن يقرأ على قراءته في "الموطأ" فقرأ من أثناء كتاب الصيام وبقي كل عشية يدعوه بعد العصر إلى عنده في الغيلة ، فيأمره بالقراءة فيه ، ويدعو معه من حضر للقراءة في

وقتها هذا، فيجتمعوا عنده ، ودعاه مرة فدخل ودخلوا، فلما اطمأنوا جالسين جاء عبود بن إسحاق فصافحه فقال له : أنت من؟، قال : ابن اسحاق ، فالتفت إلى السيد أحمد وقال يخاطبه : لله حكمة في ذكر إسحاق ، وهو إن الله تعالى إذا ذكره وذكر إسماعيل ، قدم إسماعيل ثم ذكر إسحاق بعده ، لأن إسماعيل هو الأكبر وإن ذكر إسحاق أولاً أفرده ، (ولم يذكر معه إسماعيل)، هل على بالكم هذا؟، قال : لا، ثم قال : وقد استبعد أهل العلم كون الذبيح إسحاق ، لأنه منقول عن أهل الكتاب أرادوا ذلك لكون إسحاق جدهم ، ومآثر الذبح إنما هي في الحرمين ، والحاضر هناك إذ ذاك إسماعيل ، وإسحاق كان في الشام ، وكان إبراهيم عليه السلام يجيئهم زائراً في خفية عن سارة ، فإن لم يتفق بإسماعيل أوصى زوجته له بالسلام ، ويوصيها بكلام تبلغه إليه ، ثم أمر السيد أحمد بالقراءة ، وبعد ما تم أمرني بالنشيد، فأنشدت بقصيدة البرعي : (أتأمرني بالصبر والطبع أغلب)( ) ، وهي نحو 90 بيتاً وكان نفع الله به يستحسنها وتعجبه ، وبعد تمام الإنشاد بها، قال : هذه قصيدة غريبة ، وهي لعبدالرحيم ، هل سمعتموها ، قال : نعم ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا.

(2/258)

وقال رضي الله عنه يوماً: من جاء من القراء خلوه يدخل ، فجاءوا ودخلوا عليه ، وأمرهم بالقراءة فقرأوا، وهي أول قراءة وقعت بعد انقطاعها، وهي قراءة الإثنين والخميس ، وبعد تمامها قال للسيد أحمد: قد تفعلون الذكر في خلع راشد، قال : نعم ، قال عندكم من يشل مليح ، فذكر ناساً يلحنون ، فقال : إنَّ شل الذي يلحن يفرق الباطن ويشوشه ، ولا يقيم الباطن إلا المستقيم ، والأمور في هذا الزمان يحتاج فيها إلى المجاوزة ، لكن لا في كل الأمور، بل في الأمور التي يقع فيها الخلل( ) ، كالذين يقرأون القرآن ويلحنون فيه ، فتركُهم للقراءة أولى منها، ثم سكت قليلاً ثم قال : الفاتحة ، ودعا وخرجوا.

وبعد الظهر من هذا اليوم وهو يوم الاثنين 29 ذي الحجة من السنة المذكورة أعني سنة 1130 بين الوقتين ، أشرف عليَّ ابنه سيدي الحبيب الحسن ، بأمر سيدنا والده ، وقال لي : طالع لوحك ، باتقع قراءة وقل لفلان وفلان : يطالعون ألواحهم ، فدخلنا عليه نفع الله به في الغيلة بعد صلاة العصر وقرأنا قراءتنا المعتادة بعد انقطاعها تلك المدة فاتفق القراءتان ، قراءة ضحوة يوم الإثنين والخميس ، وقراءة عشية كل يوم ، في يوم واحد.

ومما تكلم به في هذا المجلس أن قال : قال أهل التجربة من أهل الحكمة : ستة أو قال سبعة لا ينبغي أن يُسكن إليها، من جملتها الطبيب والنهر، وما رأيت باقيها مكتوباً إما إنه لم يذكرها، أو إني نسيتها، ثم انجر به الكلام حتى قال : حكمة المرتبة( ) للأمور بعضها على بعض ، حتى إن الإنسان إذا تفكر في توارد الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة في هذا الباب يظنها متضادة ومتناقضة ، حيث لم يعلم وجهها، فإذا تأمل في معاني مجاريها واطلع عليها، عرف أنه لا تناقض هناك ، أو كما قال بمعناه على مقتضى فهمي .

(2/259)

وطلبهم رضي الله عنه للدخول عليه عشية الثلاثاء سلخ ذي الحجة ، فاجتمعوا عنده في الغيلة ، فأمر بالقراءة في الكتب( ) المعتاد قراءتها يوم الثلاثاء وهو أول ثلاثاء اتفق فيه ذلك بعد ما ذكر، ودعاهم للدخول بعد عصر يوم الأربعاء غرة المحرم فاتحة سنة 1131 للقراءة ، فدخلوا وحشدوا وقرأوا ، والقراءة لأهل البلاد، فما انقضى المجلس إلا مع غروب الشمس .

ومما تكلم به في هذا المجلس أن قال : إذا نقل أحد كلام أحد فليذكر الكلام كله من أوله إلى آخره ، فإن الكلام يُذكر بالكلام ، ويُعرف معنى بعضه من بعض ، إلى آخر ما تقدم ذكره في المقدمة ، توطئة للكلام

الذي نقصد نقله ، قدمناه هناك لذلك ، وإلا فهذا موضعه .

ما قال في ذم محبة الجاه والترفع

(2/260)

وذكر رضي الله عنه في هذا المجلس قبل هذا أن رَغَّب في ترك محبة الجاه والترفع في الدنيا، وذم ذلك ، فقال : ما مقصود أهل المعرفة إلا فراغ القلب لذكر الله ، ولا يحبون من يشغله( ) بأي شيء كان ، أو بمدح أو ذم ، ومن طبعي أنه يشغلني المدح مثل ما يشغلني الذم ، لا إني ما أفرق بينهما، ولو جلس عندي أحد وقال : ما أقوم إلا إن قمتَ ، ولا أنام إلا إن نمتَ ، ولا أفعل شيئاً إلا إن فعلتَ ، شغلني كثيراً، ونحن إذا جلسنا بين الأولاد والبنات والأهل ، وبقوا منتظرين لنا وساكتين بين أيدينا فرحنا بأن رَفَعنا الله عندهم ، وسَلَّمَنا من شرهم ، وما ينفع الإنسان إذا ارتفع في الدنيا وهو عند الله بخلاف ذلك ، ولا يميل إلى هذا إلا من ضعف عقله ، ويعدونه شيئاً، وإذا كان الإنسان عند الله رفيعاً لا يضره أن يكون وضيعاً عند الناس ، وإذا ارتفع عندهم ولا هو عند الله كذلك كان أشرَّ له ، ولو سجد له جميع أهل الدنيا إلى شرق ما هو إلى قِبْلة ، ما نفعه ذلك ، فلو كان هذا ينفع لنفع النمروذ وفرعون ، لعنهما الله ، فإن الله أهلكهما، هذا( ) في أربعة أبواع( ) من ماء والآخر ببعوضة دخلت دماغه ، أحب الناس إليه( ) من يضربه في رأسه .

وقد كان يوم كنا في الهجيرة يجلس عندنا وقت القراءة جملة ناس ، وفيهم أهل رياسة ، فاستأذننا رجل أن يقرأ بعد( ) ما ينصرفون( ) هذه الآية : { تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَة}( ) إلخ ، فأذنَّا له ، وقلنا: القرآن بركة ، ولا بأس بها، فبقي مدة يقرؤها كذلك ثم بعدُ نهاه رجل منهم عن قراءتها لئلا يُتوهم أنه يقصدهم بها.

(2/261)

ودخلوا عليه نفع الله به بكرة الخميس ثاني المحرم المذكور للقراءة ، فصافحه بعض الأشراف ، فقال : فلان صار إماماً في السقاف ولا هناك كبير مؤنة ، والمعونة تحصل من الله ، ولكن يجتهد الإنسان في التقوى والورع ، ومرة قال : ما يعين الله العبد على الشيء حتى يشرع فيه ، وقال حينئذ: المِنْسَاة المراد بها العصى ، ولا ذلك على بال أكثر الناس وربما ظنوها غير ذلك ، يوم ما يطلبون العلم ، ولو أنهم طلبوه لحصلوا منه ما تيسر أو المهم ، وأشياء بعض الناس قائم فيها على الترك بالكلية ، وأحد منهم على التوسط ، وآخرون على المُهِمّ ، وأحد يمعن فيها جداً حتى يشتغل فيها بما لا يُشتغل به ، أو كما قال.

وقد طال عليه رضي الله عنه هذا المجلس جداً واشتغل من طول الجلوس ، ثم ردفه مجلس القراءة عشية هذا اليوم ، فكانا مجلسين طويلين في يوم واحد، مع ما انضم إلى ذلك من تعب مجلس عشية الأربعاء قبله إلى الغروب ، فعوّدت الحمى وهي خفيفة فلم تمنعه من الخروج لصلاة عشاء ليلة الجمعة ، ولم يطلع لصلاة الجمعة ، ثم دعاهم نفع الله به بعد صلاة عصر يوم الجمعة للدخول عليه في الحاوي ، فدخلوا عليه وفيهم كثرة ، فأمر السيد أحمد أن يقرأ على قراءته ، وأن تُقرأ الكتب المعتاد قراءتها في البلاد بعد عصر كل جمعة ، واستخلف منه حينئذ السيد عقيل باعقيل ، مسافر إلى دوعن وطلب منه الفاتحة ، فقرأها ودعا، فلما صافحه قال له يوصيه : الله الله في الدعاء إلى الخير، والوصية بما يحسن منك أن توصي فيه لمن يليق به ذلك ، كُلٌّ على قَدْر حاله ، ثم انفضوا قبيل الغروب .

وقال رضي الله عنه لرجل جاء من الحج : كم حججت؟، قال كذا وكذا، فقال : المترددون إلى البيت كالمتردد على الباب ، يطلب ، إذا لم يعط في المرة الأولى أعطي في المرة الثانية ، وإنما العَسِر الإنقطاع ، أو قال الإدبار .

قف على هذه الفائدة الجليلة

(2/262)

واستأذنه رضي الله عنه رجل في الحج ، فقال : مليح حِجوا هذا العام ففي الخبر: من حج حجةً أدى فرضه ، ومن حج الثانية دايَنَ ربه ، ومن حج الثالثة حرمه الله على النار، حتى ذُكر إن رجلاً حج ثلاثاً ثم أسر، فأرادوا إحراقه ، فلم يحترق ولم تضره النار فتعجبوا من ذلك ، فسألوا عن ذلك بعض العلماء، فقال : اسألوه كم حج من حجة ، فسألوه ، فقال : ثلاثاً، فقال لهذا، لأن الله حرم من حج ثلاثاً على النار .

وسأل سيدُنا عن مريض ، فقيل : به ضعف ، فقال هذا أثر المرض ، فإن الأثر يتأخر عن المرض ، ونحن الآن ما عاد ننكر شيئاً من بعد ذلك العارض ، يعني الذي حصل عليه سنة 1130، وإنما الباقي الآن ضعف الكِبَر،وهو المرض الذي لا يزول ، وهو لا يزول عن الكبير،وإن زال مرضه .

وسأل أيضاً رضي الله عنه عن رجل مُسِنٍّ ، فقيل : إن أكثر ما يعوِّقه رُكَبُه ، فقال نفع الله به: هذا من الكِبَر، ونحن كذلك من حيث ضعف الرُّكَب ، فإن سببه الكِبَر وقد قيل :

لو خلانيَ الموتُ ... ما خلاني الكِبَر

ويصلح هذا أن يكون بيتاً، وقد كتبناه إلى السيد علي بن عبدالله يعني العيدروس.

وما طلع سيدنا رضي الله عنه البلاد، يوم جمعة ثامن يوم من صفر سنة 1131. فقال عشية هذا اليوم ، طاقني( ) البرد والماء، حيث اجتمع مع ضعف الكبر ضعفُ المرض ، فخطر لي أنه ربما يتكلف الإنسان الطلوع ، فيحصل ضعف عن صلاة الجمعة ، ومع الغسل قد يحصل نافض( ) فيبقى ولا ينقطع فلا يمكن حضور الجمعة ، فمع الضعف والكبر قد تحصل مثل هذه الخواطر، ويتوقع مثل هذه العوارض ، ولكن الله لطيف ، والعبد ضعيف .

ويوم الأحد سلخ ربيع الأول من هذه السنة ، كسفت الشمس ، وأمَرَنا بصلاة الكسوف في المصلى ، فصليناها، وطلبه رضي الله عنه السيد علي عيديد أن يمر على مسجد بناه عند غرفته بوادي ثبي ، ويركع فيه ما تيسر ليتبرك به ، فمر عليه راجعاً من عند آل عمر حداد حين وصلهم لما حلوا، وصلى في المسجد ركعتين قرأ فيهما بعد الفاتحة :{ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى}( ) الآية ، وبعد السلام دعا، ثم قال : آمال الخير هي النية الحسنة ، وقد وُعِد : إن آخر الزمان تكثر المساجد ويقل الساجدون ولكن الله يصلح النيات . وذكر قلة الخريف تلك السنة أي المذكورة آنفاً، فقال : في الحديث : إن العبد ليُحْرَم الرزقَ بالذنب يصيبه . وما بهم إلا ذنوبهم ، ذنوب بلا توبة ولا ندم ولا استغفار، ثم مكث قليلاً ثم قرأ الفاتحة وقوله تعالى : { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ } ( ) إلى { العَظِيم }، ولإيلاف قريش ثم دعا وقام وسار إلى الحاوي وله الآن رضي الله عنه جمعتان يسير من الدار إلى الجمعة ماشياً بعد ذلك المرض ، وهو 23 رجب من السنة المذكورة ، وليلة الخميس 17 رمضان منها بعد ما تقبَّض الناس ، أمر بشد الفرس ، ولم يعلم أحد أين يريد، فركب وناداني وسرت معه ثالث ثلاثة ، فقال لقائد الفرس عكيمان : خذ طريق الساقية ثم قال له : أتظن أين نريد، قال : المسجد، يعني مسجده المسمى (الأوابين) وقال لي : وأنت ما تظن ، قلت : كنت أظن التربة ، فلما كان طريقكم هذا يكون المسجد، قال : نعم ، والتربة ما هذا وقتها، فقصد مسجده المذكور، وصلى فيه في الحمَّام ، ثم في المحاريب وسمعته يقرأ في أحد الركعات ، { لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّة}( ) إلى آخر سورة الحشر ، وحَضَر الوترية ، وأديرت قهوة ، وأمر بدخون يدار، ثم قام وخرج إلى الحاوي وقال في الطريق : قد أوقفنا نخلاً على المسجد قبل نبنيه ، وكنا أردناه إلا عند سدة باشريف ، ولكن أشار

علينا الصنو علي أن يكون في ناحية النويدرة ، وأن يكون في ذبر له اشتراه ، فاشتريناه منه ، وفعلنا فيه المسجد، وفي مثل هذا الوقت من ليلة الثلاثاء 22 رمضان المذكور خرج رضي الله عنه إلى السبير ، وقال : مرادنا المسجد نركع فيه( ) وأصابنا في الطريق مطر، فدخلنا غرفته بالسبير، الذي( ) ذكرنا إنه ولد فيها، وكان ابنه السيد علوى حالاًّ فيها إذ ذاك ، وأقمنا فيها ساعة طويلة ، حتى جاء ابنه السيد علوي من المسجد، بعد ما تفرقوا من الوترية ، وقدَّم سحوراً ثم خرج سيدنا إلى المسجد وتوضأ في الجابية وصلى في المسجد ما بدا له ، ثم جلس وجلسنا ننتظر طلوع الفجر ساعة ، ثم سأل عن الوقت فما منا من جزم فيه بشيء من قوة السحاب والقمر. فلما رأى تحيرنا قال لنا: اركعوا فإنه فجر، أمرنا أن نصلي السنة ، وكان رضي الله عنه أعرف بالأوقات من البُصَراء الناظرين بعيونهم ، فإنه نفع الله به مدة ما أنا عنده ، وقبل ذلك إلى أن توفي ، ما يخرج لصلاة الفجر إلا بعد أن يركع السنة داخل الدار عندما يدخل الوقت ، من غير أن يعلمه أحد قط، فإذا ركع السنة خرج إلى الضيقة وجلس فيها، ولا يخرج إلى الصلاة حتى يبعث له الجماعة أنهم فرغوا من السنة وما معها من الأذكار، كل هذا من شدة اتباعه لجده المصطفى صلَّى الله عليه و آله وسلَّم كما كان عليه الصلاة والسلام يصليها في البيت ، ولا يخرج حتى يأتيه بلال يؤذنه للصلاة ، وبعد ما فرغ نفع الله به من الأذكار التي بعد الصلاة ، وفرغ القاري يس من قراءتها، أمر بشد الفرس ، ثم طلع إلى الحاوي وسمعته رضي الله عنه غير مرة يقول : إنما بنينا هذا المسجد في هذا الموضع ، لأنا سمعنا الوالد يقول : رأيت كأن في هذا الموضع عند بير العسلة مسجداً، فلما توفي الوالد تممنا نيته ، وصَدَّقْنا رؤياه .

قف على تسمية مساجده الشريفة

(2/265)

ومسجده هذا رضي الله عنه سماه مسجد الأبرار ومسجد العابدين ، ومسجدُ الحاوي مسجدَ الفتح

ومسجدَ التوابين ، ومسجدُ النويدرة مسجدَ الأوابين ، ومسجدُه الذي في بلد سيؤن مسجدَ باعلوي ، والذي في نقر شبام مسجدَ الأبدال ، والذي في مدوده مسجدَ الأسرار، وله نفع الله به في سيحوت مسجد بُني باسمه ، وكذلك في أرض ابن عبدالواحد، وفي بلاد العوالق وفي أماكن أخر، انتهى .

أنظر بركة آبار مساجده وجوابيها

قال عبدالله باشراحيل : وبئر مسجده والجابية يعني الذي في الحاوي ، من أخذ منها جرعة على نية صالحة ، حصل له المطلوب ، وقد جربت ذلك وجربه الغير، وكذلك جميع آبار مساجده وجوابيها نافعة شافية ، شرباً وغسلاً مجربة ، واكتحالاً أيضاً للعين .

وقال رضي الله عنه : إنا نحب من يجيء مسجد النقر( ) لأن الحق يتجلى عليه ، وهو مسجد الأبدال ، المؤسس على التقوى ، لن يبيد حتى يبيد الله الأرض ومن عليها، قال ذلك لما بلغه أن بعض الناس قال : هذا مسجد بني في خلاء ما يدوم ، انتهى ما ذكر باشراحيل . والذي سمعت أنا من سيدنا يقول : قد قلنا: إن من بدت له حاجة فنزح من بئر الحاوي إلى الجابية سبعة أَدْلاَء بنية قضاء حاجته ، قضيت بفضل الله ، إن شاء الله ، وذكر في محل آخر، أنه قال أحد عشر دلواً، أو إثنا عشر دلواً.

وقيل له نفع الله به : فلان من آل بافضل يسلم عليكم وهو نعم الرجل ، فقال : من طاب أو قال صلح من آل بافضل فهو فضة خالصة ، ومن طاب من السادة فهو ذهب خالص.

(2/266)

واستأذنه رضي الله عنه بعض الجماعة في السفر، وسأله الدعاء بالتيسير، فقال له : إن شاء الله أمورك ميسرة ، والله الله في السيرة المحمودة ، فإن لم تقدر عليها كما ينبغي فكن مقارباً لها، وللسيرة علامات وأمارات ، فلتكن منك السيرة باطناً، وعلاماتها ظاهراً، وخذ في أمورك بما تعرف أنا لا

نكرهه منك ، لأن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، إحذر أن يُؤثِرَ عنك أحدٌ شيئاً من العلامات المذكورة ، ثم يَنقل عنك آخر خلاف ذلك فلا يُعرف منك استقامة على حال ، مثل من ذُكِرَ أنه مُغَرِّبٌ فرؤي مشرِّقاً، بل ليتواتر عنك ذلك على هيئة واحدة ، أو كما قال بمعناه .

ما قال في الخروج للمحلة في الخلاء أيام الخريف

وقال رضي الله عنه لرجل : حِلُّوا ، أدخلوا على أروحكم الرَّوح لئلا تضيق النفس ، والذي يروِّح الروح كالنسيم والخروج إلى الأماكن المتسعة والأشجار، وتتقوى النفس والجسم بالأكل والنوم والأشياء الكثيفة ، وليست هذه أغذية للروح .

وقال له رضي الله عنه بعض السادة : ما حَلِّيتوا هذا العام ، فقال : إنهم [أي الأهل] ما نشطوا للحلول ، وقالوا : إن الخريف قليل ، ثم قال : إن المؤمن يأكل بشهوة أهله ، والمنافق يأكل أهلُه بشهوته .

(2/267)

وقال أيضاً نفع الله به لرجل آخر: لأي شيء ما حليتوا؟ والمحلة عادتكم ، فقال : نحن في الهمة ، والمشيئة بيد الله ، فقال : ما عليك ، مشيئة الله شيء، ومشيئتك شيء آخر، مشيئة الله قوية قاهرة ، وإذا لم يرد شيئاً لم يقع ، وإنما هي همتك وعزمك ، ثم إن الرجل شكا إليه من الظلم ، وما هو وغيره عليه من الأحوال ، فقال له : إذا اشتد الأمر فالفرج قريب ، وإذا قد حَمَلَتْ بالرأس وَلَدَتْ ، وشكا إليه أيضا من ولد له غير بار، وليس هو في رأيه ، فقال له : ما عاد معك إلا الصبر والمسامحة ، والصبوة في الصغر لا تستنكر، وفي الحديث( ): ((عَجِب ربك من شاب لا صبوة له)) . والصبا شعبة من الجنون ، وإذا غلبتك الأمور فاغلبها بالصبر، ولا تَدَعْها تغلبك .

ما قال في خمول السادة

وقال رضي الله عنه : السادة من أهل حضرموت ، مناقبهم شائعة وفيها خمول ، لأنهم لا يتكلفون ظهورها، وفي الجهة ناس يحسدونهم ، وهم مع ذلك يحبون الخمول والستر، حتى إن الشيخ عبدالله باعلوي ، إذا قيل له : يا شيخ ، قال : الشيخ أبوك ، ألا ترى إلى كتب تَرجمت لآل باعباد وغيرهم ، ولم يذكروا فيها.

وقال رضي الله عنه : الصالحون خاملون في حياتهم وموتهم ، وإنما أشهَرَهم ملوكُ الناس ، إذا أشهروا أحداً اشتهر عند الناس ، مثل ابن عربي ، فما شهره إلا آل عثمان ، لأنهم بلغهم عنه الإخبار: بأن بعض أجدادهم سيملك فبنوا عليه قبة ، وأشهروه . وكانوا( ) إذا ظهرت منهم الكرامات يوصون مَنْ عَلِم بها أن يكتمها، ولكن عدمت في هذا الزمان الكرامات ، وإنما منعوا الأسرار لعدم كَتْمهم الأسرار، لو رأى أحدهم رؤيا راح يُحَوِّل( ) بها، فلما لم تكن لهم أسرار كذبوا بادعاء الأسرار، أو كما قال .

ما قال في إخبار الولي بالمغيَّبات

وقال رضي الله عنه : الأمور الغيبية ما هي إلا إلهام أو أوهام ، ولا يكون فيها قطع ، ولا يمكن أحد أن يقطع بها، حتى إن الأولياء إنما يخبرون عنها بالوهم ، حتى ربما يخطيء في ذلك ، ولا يمكن القطع المتيقَن إلا في اللوح المحفوظ .

وقال رضي الله عنه : أهل الباطن لا يبالون بالظواهر ولا بأهل الظاهر، والصادق لا يُمَكِّنُ أحداً أن يعترض عليه( ) .

وأمر رضي الله عنه في بعض الأيام منشداً ينشد، وكان ذلك في مسجده الأوابين ، فأنشد بخمرية ابن الفارض ، وكان السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي حاضراً، فقال له سيدنا : أثبِتْ لنا ما فهمت من معنى هذه القصيدة وما في معناها لنرى كنه فهمك ، فتناول الورقة من يدي والقلم وكتب هذا . وهذا

المنقول هنا من خطه : الحمد لله ، مما فهمناه من كلام سيدنا مدار المعنى المقصود في كلام أمثال ابن الفارض لأهل المعنى على سر قوله تعالى : { رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ }( ) إلخ الآية ، وفي نحو قوله في الخمرية : شربنا على ذكر الحبيب مدامة يرجع إلى ظاهرِ التوحيد وباطنِه وذوقِهم فيه واتصافِهم به ، فإذا أُخِذَ ذلك دستوراً ظهرت ، وظهر غالب المعاني انتهى.قال سيدنا نفع الله به : كلام الشاذلية متداخل يختلف فيه اللفظ ويتفق فيه المعنى ، وينقل بعضهم عن بعض .

وقال رضي الله عنه : لا ينبغي للإنسان أن يجلس في مجالس الخير ، مجالس الصالحين إلا وقلبه مطمئن وسليم القلب ، وإلا عاد إذا سمع من كلامهم شيئاً أدخل فيه الشيطان كلاماً مناسباً لما هو حاضر في قلبه ، فيسيء الظن بهم فيخسر، أو يسمعها مَن في قلبه ضغائن ، أو محسن الظن لكنه جاهل ، فينكر ، وقد قرأ النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم في حضرة قريش سورة النجم ، وفي خاطره حالتَهم ، فأدخل الشيطان في قراءته الكلمات : (تلك الغرانيق العلى ، إنَّ شفاعتها لترتجى) حتى سجد معه كل الفريقين ، أو كما قال .

ما قال في معاملة النفس

(2/269)

وقال رضي الله عنه : إن النفس كسلانة عن الخير، فليقهرها الإنسان على فعل الخير وما ينفعها، وإلا جرته إلى الشر لأنها مجبولة عليه ، وفعل الخير يعسر عليها لأنه خلاف طبعها، فليُكْرِهْها عليه ولا يَدَعْها.

وجاء بعض السادة إلى تريم للزيارة في مدة قريبة مرتين خلاف عادته ، فقال سيدنا له : ما كنت تعتاد المجيء على القرب ، هل أحسست في نفسك رغبة في الخير، فإذا رأيت من نفسك أو من غيرك زيادة خير في الظاهر كسعي في فعل خير لم تكن تفعله فهو علامة زيادة خير في الباطن ، وفي الشر كذلك

إذا رأيت له أثراً على الظاهر فهو علامة على وجوده في الباطن ، وهكذا زن نفسَك وغيرَك ، وإلا فما علامة الزيادة والنقصان ، والأصل في الشيء الهمة ، وقد قال رجل للحسن البصري عظني ، قال : مات أبوك؟، قال : نعم ، قال : ماتت أمك؟، قال : نعم ، قال : رح فما تنفعك الموعظة ، أي لأنه لم يعتبر بموت أبويه ، وهما أحب الناس إليه ، فالله الله في الهمة في طلب الخير، فالسادة أصل تحصل لهم همة الخير، وحصل لهم المطلوب ، كما قال الشيخ عبدالرحمن السقاف : إن أولادنا كالذي يحفر في أرض طيبة قريبة الماء ، يخرج لهم الماء عن قرب ، وغيرُهم كالذي يحفر في جبل أو أرض صلبة لا يكاد يخرج ، وإن خرج ماء فعلى بُعْدٍ ومشقة ، ولا يدري يكون طيباً أو مالحاً.

ما قال في جُرْأَة أهل الزمان على المعاصي

(2/270)

وقال رضي الله عنه : ليس مع الإنسان في هذا الزمان عن المعاصي مانع من الحق من نحو خوف ، ولا من الخلق من سلطان عادل آمر بالمعروف ناه عن المنكر، وإلا لملئت منهم المساجد( ) أو السجون( )، لكن عُدِم ذلك ، فاجترأوا على تضييع حقوق الله ، لما اجترأوا الأكابر ووجوه الناس اجترأ بسببهم أداني الناس ، لما رأوا الأمور مفلتة ، ولا زاجر يزجرهم ، فأكب كلٌّ على ما يدعوه إليه هواه ، طالب الدنيا في دنياه ، والظالم في ظلمه ، ثم هم في تفريطهم يحتجون لأنفسهم على ربهم ، ويقولون مع ذلك : مقدَّر علينا، فَهَمُّ واحدهم في أمر الدنيا يكدح( ) بغاية ما يمكنه خوفاً من جوعة، أو فوت عشاء ، وإذا جئنا عند حقوق الله قال : مقدر علي ، أفلا ترك أحدهم حرفته أو صنعته ويقول : الرزق مقدر، مع إنه كذلك ، أو فَخُذْ ثوبه وقل له : مقدر عليك ، وانظر كيف يطالبك إلى القاضي .

وقال رضي الله عنه : إنما وصف الله الجنة وذكر حورها وقصورها وغيرَ ذلك ، ليُرَغِّب الناس فيها

فيطلبوها ويزهدوا في الدنيا، لأنهم إذا كان مرادهم مثل هذه الأشياء فهي لهم في الجنة ، وإلا فإن الحق تعالى يتعالى عن ذكر الحور والقصور وسائر الأشياء.

وقال رضي الله عنه هذان البيتان لأبي الأسود الدؤلي :

وما طلب المعيشة بالتمني ... ولكن إلق دلوك في الدلاء

تجيك بملئها طَوراً وطوراً ... تجيك بحمأة وقليل ماء

انظر ولايته في الأيتام والمساجد

(2/271)

وكان سيدنا نفع الله به ذات يوم خارجاً من البلاد إلى الحاوي فالتقاه في الطريق بعض السادة فصافحه وحياه ، فحياه وبَشَّ له وألان له الكلام ، ثم قال له : إن جدك تزوج عندنا، وجاءه من العيال كذا وكذا، وبقي يكلمه حتى فارقه الشريف ، وما بقي معه إلا الفقير وقائد الفرس جعل يحدثني ويقول : ولما مات جده بقي عياله عندنا نربيهم ونكفلهم ، لأنهم عيال كريمتنا، وقَلَّ ما تخلو كفالتنا بحمد الله من يتيم أو أرملة ، لأن من عادتنا من كان من هذا القبيل مَحْرَماً لنا، ولا له من هو ألزم به منا في الشرع ، جعلناه عندنا، معيشته وما يحتاج إليه، فيحصل لنا الثواب الموعود به كافل اليتيم والأرملة بالفعل فيما يمكننا، وبالنية فيما لم نقدر عليه من كفالة الأرملة واليتيم من جميع آل باعلوي بالخصوص ، ومن غيرهم بالعموم ، المطلوب ذلك من ذوي الثروات ، فلما رأيته رضي الله عنه تكلم بهذا، وما هناك من يعي كلامه ويفهمه غيري ، سألته : كيف تفعلون باليتيم الذي يكون عندكم ، وفي المساجد الذي( ) بنظركم وكذلك كلما لكم فيه نظر، فقال نفع الله به : أما اليتيم فإن كان ما معه ما يكفيه ، فجميع مؤنه من عندنا، وإن كان معه بعض كفاية ، بحيث يحتاج إلى أكثر من ذلك كغَلة لا تكفيه سنتَه جعلناه في مصروف الدار، ولا عليه حساب فيما زاد عليه ، وإن كان له

زائد على كفايته جعلنا كفايته من ماله ، لأنه ورد نهي عن اليتامى ، يتكففون الناس ، كمن جعل فطرة على مسجد، فأردت أن تجعل عليه فطرة ، فلا حاجة بجعلها وهو مكفي ، فاجعل ذلك في غيرها، وربما راح مالُهم لوارث ، فنجعل من مالهم إن كفى مؤنتهم كلها أو بعضها، وما زاد فمن عندنا كما فعلنا في مال فلان (زوج إحدى بناته) وقد أوصى لنا بجميع أمتعته ، من أمتعته من تمر ونحوه فأعطيناها( ) منه مهرها وثمينها والباقي للولد وبقي ثمينها معه( )، وما حصل من غلة وهي لا تكفي مؤنة الولد سنة ، طرحناه في الدار في جملة المصروف ، ونحن

(2/272)

بحمد الله ما أخذنا قط شيئاً من مال يتيم ، ولا من مال سدس مسجد، إلا ما كفى المسجد من وقفه ، فذاك، وإلا جعلنا له من عندنا، وإذا كان معه( ) من هو أقرب إليه منا، خليناه إليه ، ونظرنا من وراه كأولاد فلان (هو ابن أخيه)، وقد أوصى بهم إلينا لكن إلى أبيه ، ونظرنا من وراه . قلت : فلو لم يكن ، كانوا إليكم ، قال : لا، إما إلى أمهم ، أو إلى وصي ونَظَرُنا عليهم ، ثم قال : الآن نحن غرباء في وقتنا ، وأمورنا قد ماتت قبلنا، وتموت بعدنا، فقلت : أنا عارف بذلك ، ولهذا أتبحث في هذه الأمور عنكم.

وأراد رضي الله عنه عشية جمعة وهو في البلاد أن يصلي المغرب في البلاد، وأراد أولاده الخروج إلى الحاوي ، فقال : من يبقى يصلي معي المغرب؟ قالوا فلان لبعض الأخدام ، فلما سمعت منه ذلك ، استأذنته في الجلوس للصلاة معه ، فأبى عليَّ ذلك وقال : عليك هناك درك ، يعني في الحاوي ، ودركي فيه الأذان ، فقلت : إن كل صلاة تفوتني معكم يبقى علي منها حسرة ، فقال : وهذا أحسن ، لأن أمور الخير إذا فاتت على إنسان وتحسر عليها، فتحسره ذلك خير من فعله لذلك لو فعله ، أما سمعت بقصة ذاك الذي رأى إنساناً تحسر على أن فاته الحج ، فقال له : يا فلان إني قد حججت سبعين حجة ، أتريد أن أهب جميعها منك ، وتهب لي تحسرك هذا؟.

وقال رضي الله عنه : لا تنكر على الأكابر أموراً وليست محرمة شرعاً، فلعل لهم فيها نية صالحة ، ولا تقتد بهم فيها حتى تقتدي بهم أيضاً في أمور أخرى ، ولا تجعلهم لك عذراً، وقد لبس السواد الشيخ أحمد بن أبي بكر( ).

وقال رضي الله عنه : الرجل ، من كان رحمة وسلامة لنفسه ولغيره فلا يكلمهم فيما لا يبلغه فَهْمُهُم من أمور التوحيد والدين سيما العامة ونحوهم.

وقال رضي الله عنه : البخيت( ) بغيره في الفضول لا في الخير، إلا في خير يتفرغ بسبب ذلك لخير خير منه .

(2/273)

وقال رضي الله عنه : الإنسان ضعيف ، عينه قوية وقلبه ضعيف ، وما نريد من الإنسان إلا الربط على الدين ، وأما الدنيا فمن حصلها فهو لا شيء، ومن لم يحصلها( ) فهو لا شيء مرتين.

وقال رضي الله عنه : رأينا في النوم كأن في محل سقاية زنبر، سقاية، فحكينا له بالرؤيا فبادر وفعلها وقال : خشيت أن تسبقوني ببنائها ولكن من نوى عملاً صالحاً وسبقه إليه غيره ، فهو نائب عنه .

قف على سرِّ ثِقَلِ الطاعات

وذكر رضي الله عنه أمور الخير وثِقَلَها على النفس وقال : ينبغي أن يستجلب إليها باللطف ولو إلى القليل منها. فإذا كانت الغايات لا تدرك ، فالقليل منها لا يترك ، وثِقَلُ الأمور الإلهية على الإنسان ، فيه سر آخر، فلو كان يتلذذ بها كأمور النفس ما حصل عليها الثواب .

وذكر رضي الله عنه أقواماً يقاتل أحدُهم ابنه وأخاه وقريبه بسبب الملك ، فقال : البغي ما له عاقبة ، فإذا طلبت أمراً فاطلبه بالتقوى ، فإذا ذهبت الدنيا بقيت الآخرة .

وقال رضي الله عنه : فعل الكافر إذا صدر من المؤمن فهو النفاق وفاعله منافق، لأن المؤمن بَيِّنٌ ، والكافر بَيِّنٌ ، كلٌّ مقر بما هو عليه ظاهراً وباطناً، وأما المنافق فمتلبس بالحالين ، الإسلام على ظاهره ، والكفر في باطنه .

وذكر رضي الله عنه الأولاد (ورأيت موضعه بياض لا خط فيه ، ولعل معناه : ما يتعلق بك من مؤنتهم ، والقيام عليهم في دينهم ودنياهم)، ثم قال : لأنهم أخرجهم الله إلى الوجود بواسطتك وجعلهم ضعفاء عاجزين وجعلك قائماً عليهم ، ولكن هذا يحتاج إلى نية ، والنية تفسرها الأغراض( ) فكم واحد عنده مثل هؤلاء ويقول : ما نحن إلا بُلينا بهم .

وذكر رضي الله عنه الخوف والتخويف ، فقال : إن كنت تخاف فلا تفعل ما يكون منه الخوف ، وهذا ميزان ، والله لا يُضِيعُ أجر من أحسن عملاً ، وقال لي حينئذ: أنت جئت عام جاء عمر بن جعفر فسبحان الله العظيم ، استَعْمَلَ أقواماً في الرضا واستعمل آخرين في الغضب.

(2/274)

وقيل له رضي الله عنه : كم فرق بين الأولين وأهل الزمان في همة الطاعة ، فقال : هؤلاء إلا غثاء مثل غثاء السيل ، فقيل له فلو أراد الواحد منهم أن يحصل له ذوق في الطاعة لم يمكنه ذلك ، فقال : عليهم حُجُب حائلة ، إنما يحك أحدهم جبهته في الأرض حكاً، فسَلْهُم هل يجدون في الطاعة ما يجدون في الأكل والشرب عند الجوع والعطش ، لا ، ولكن يوم يُخَبِّر( ) أحدهم التمر أو يقطعه فانظر الحلاوة .

وذكر رضي الله عنه ذات يوم كتاب "نشر المحاسن" لليافعي ، فقال : أصله جواب على أسئلة من كرامات الأولياء، وهذا أمر لا يحسن السؤال عنه ولا الجواب عليه ، لأن أصل الولاية سر، فلا يجوز إفشاؤه وإذاعته . ومالغرض الداعي لذلك؟.

وقال رضي الله عنه : النفس مطية فيها الخير والشر، كالنخلة فيها الرطب والشوك ، والشيطان غدار مخادع ، ولهذا إذا جاءك من وجه فخالفتَه جاءك من وجه آخر، وعلى هذا حتى يُخرِج الإنسان من الباب الكبير، وهو التوحيد، ودسائس النفوس كثيرة ، فإذا وَجَدْتَ واحدة فابحث تجد أختها كالحية ، والشيطان قد يقبل منك ويروح لغيرك ، وأما النفس فمكانها معك لا تفارقك قال الشاعر:

تَوَقَّ نفسك لا تأمن غوائلها ... ... فالنفس أخبث من سبعين شيطانا

والبكاء نور للقلب ، قال عليه السلام : ((لو بكى باكٍ في أمة لرحمهم الله)) لكن من خوف الخالق ، وأما البكاء للتصنع للخلق ولو لم يرد منهم شيئاً من جاه أو مال ، لكن ليُرى أنه خاشع أو استحياء منهم ، بأن يظنوه يبكي وقد رأوه بكى مرة فتباكى للحياء، والبكاء من الخشوع إنما هو قد يَعرُض ، فإن كثر وتعدد صار عادة ، وينبغي كتمان البكاء في القلب ، ومنع الدموع أن تخرج فإن ذلك يزيد في تنوير القلب ويؤثر فيه أكثر مما لو ظَهَرَتْ لأن في ظهورها تنفيساً، ففي الخبر أو الأثر: إن لله عباداً يضحكون من سعة رحمة الله جهراً، ويبكون من خشية الله سراً.

(2/275)

وقال رضي الله عنه : الناس في مقام الشكر، وهم يحسبون أنهم في مقام الصبر، لأنهم ليسوا في بلاء، وإن كان بهم شيء من ذلك فما هم فيه من النعم يغلب عليه ، لأنك إذا تفكرت فيما أنت فيه من نعمة الإسلام والتوحيد، رأيت أنك في أتم ما يكون ، لأنه لا عيش مع كفر ، إلا إن الإنسان خلق ضعيفاً، وقد رأى بعضهم في النوم قائلاً يقول له : أتحب أن تكون أعمى ولك كذا وكذا؟، قال : لا، قال : أتحب أن تقطع يدك ولك كذا وكذا؟، قال : لا.

وقال رضي الله عنه لرجل مستخلف منه يريد الشحر: المراد مرور الحال ، إذا مر وأنت دائم على

طاعتك ، غير مضيع لديانتك . والشحر بلد مبارك ، كان السادة يتعودونها، وحوط الشيخ عمر( ) فيها أماكن كثيرة ، ومات الشيخ عبدالله( ) في طريقها، وقال الشيخ عبدالله : إذا جئت من الشحر، ولا معك شيء فاحمل شيئاً من ترابها فإنها مباركة ، فعمل بذلك بعض الناس للتبرك بكلام الشيخ ، فحمل من ترابها، فلما جاء إلى تريم ، لحق فيه أحمر( )، قال : وكانوا يسألون عن حال الإنسان للمواصلة والمراحمة .

(2/276)

وذكر رضي الله عنه التفكر فقال : إن أهل الزمان ما تَخَلَّوا للتفكر، بل تناتفهم الخواطر من شيء إلى شيء آخر، ولو أراد يصلي ركعتين مثلا نتفه الشيطان إلى غير ذلك ، وهذا من الغرور بواسطة الشيطان ، فلو أنه أحسن ما هو فيه لكان أحسن له من أن يتركه أو يستعجل فيه ليفعل غيره ، ثم قد يفوت عليه هذا وهذا، وأما أولئك فقد أعطاهم الله قلوباً قوية ، وأجساماً قوية ، وأحوالاً قوية ، نفعنا الله ببركاتهم ، وكان داؤد الطائي ما بينه وبين الميت إلا إنه حي ، وإذا سمع الإنسان بسِيَر الأولياء اليوم يقول : ما هذه إلا أضغاث أحلام ، فأين هي اليوم ، وإنما المتعنتون هم الذين يطلبون معرفة أيهم أفضل ، وبيقين : إن الأنبياء والأولياء بعضهم أفضل ولكن من الذي يعرف ذلك؟، وإذا وُزِنَ بعضُ الفضائل ببعض ، عُرِفَ الأفضل ، ولكن في ذلك فضول ولا حاجة ، وإن دعت حاجة إلى ذلك ينظر بقدرها، كما قد دعت العلماء الحاجة في أمور العقائد بسبب المعتزلة إلى تأويل وتفصيل ، فلولا ذلك لكان بعد ما يحرز معتقده ودينه ، ما عليه إلا العمل ، ولا يوسوس ، إلا إن كان حصلت وسوسة في العمل ، كما تكون في الصلاة . وخذه من هنا معنى حديث قول الله تعالى لآدم عليه السلام : أخرج بعث النار إلخ.

وذكر رضي الله عنه الساعة فقال : أمر الله عظيم ، وما هي إلا بغتات ، ما تأتي والإنسان مستعد لها، إنما

هي بغتة لا يُعلم بها كما يجيء المطر بغتة وينخسف القمر بغتة من غير علم للناس بذلك .

قف على هذا الدعاء

وقال رضي الله عنه لبعض السادة : أكثر من الدعاء بهذه الكلمات ، اللهم ارزقني طيباً، واستعملني صالحاً، وتوفني مسلماً، وألحقني بالصالحين.

وقال رضي الله عنه : ينبغي للإنسان أن يفتش عن نفسه ولا يُخدع بغرورها ، فكم من يُبَري نفسه من شيء وهو ملابس له أو نحو ذلك .

(2/277)

وقال رضي الله عنه : ذُكر إن بعض عمال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال له : إني رأيت الشمس والقمر اختصما، مع كل واحد منهما جيش وعسكر يحارب الآخر، وإني قاتلت مع القمر، فعزله عن عمله ، وقال له : قاتلت مع الآية الممحوة ، فاتفق أنه قاتل مع معاوية ، وكان في عسكره على سيدنا علي كرم الله وجهه ، ويعني بالآية الممحوة القمر، لقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَآيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَآيَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَآيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً }( ).

وقال رضي الله عنه : كلما جاء في حق الفقير من المدح فالمراد به الفقير من الدنيا، الغني من عمل الآخرة ، لا الفقير منهما جميعاً، فإن ذلك شيطان .

وقال رضي الله عنه : من أنفق عمره في غير طاعة أو وسيلة إلى الطاعة فقد أنفق أعز الأشياء في أخس الأشياء .

ودخل رضي الله عنه الضيقة يوم الجمعة تاسع ربيع أول سنة 1129 فرأى صبياً يتيماً فقيراً، وكان تلك السنة في البلد قحط شديد، والجهة مُسنِتَة جداً، فقال له : غَدَّوك ، قال : نعم لكنه قليل ، فقال : اقنع اليوم بالقليل والشيء عند ربك ، ثم قال : اليوم من معه شيء يقسمه بينه وبين مسكين ، ومن

ما معه شيء وحصل له قليل يقنع به ، وأما أن يتسخط الإنسان القليل إذا أُعْطِيَه نُزِعَت منه البركة ، ومع القلة والضيق لا ينبغي أن يحاذر الإنسان ، بل يفعل كل شيء بقدر، ومن خبأ التمر لا لأجل صدقته ، ولا لأجل مؤنته ، فهو محتكر ملعون ، وفي الحديث : ((إنه يحشر مع قتلة النفوس)).

(2/278)

وقال رضي الله عنه لبعض بني بعض بنيه ، بعدما سأله عن أحوال بيتهم : قل لأمك قال حبيبي( ) : استقنعوا ما عاد في الأوقات الضيقة إلا البركة ، وهو سبحانه ما يسيب خلقه ، ولكن إعرف حقه ، واعمل ما أمرك به ، ثم ذكر قصة رؤيا الذي رأى الدنانير، وسأل هل فيها بركة ، ثم قال : الأمور خرجت عن أوضاعها، وقد كان الأولون : إن الاثنين ، إذا وقع بينهما نزاع ذهبوا إلى رجل من أهل الدين والصلاح يصلح بينهم .

وقال رضي الله عنه : لا يستقيم أمر كما ينبغي إلاّ مع العقل والتدبير ، ومن لم يكن كذلك فليستعن بمن هذه صفته .

وقال رضي الله عنه : الكِبْرُ ونحوه كالذري تطرحه وهو حبة ، ولم تشعر به إلا وإذا به نخلة أو شجرة كبيرة ، فليبادر إلى قطعه ما زال صغيراً، لئلا يكبر عليه فيعسر قطعه حينئذ.

وقال رضي الله عنه : كلما قل عقل الإنسان كثر تكبره ، ولهذا ترى أكثر الصغار والنساء يتكبرون .

وقال رضي الله عنه : إنما فائدة بلوغ الإنسان حد التكليف ، الترقي ، فإن لم يترق فموته قبل ذلك أحسن ، لأنه لم يبلغ الحنث ، ويكون حينئذ على الفطرة.

(2/279)

وقال رضي الله عنه : اسمعوا منا كلمتين، الأولى من حج( ) ليحج للناس ، فحجته معلولة ، أو قال مدخولة ، ويكون حجة إسلامه وحجج الناس في ذمته ، والثانية إذا أراد الإنسان أن يعرف نفسه ، فليعرضها على كتاب الله، فإنه خليفةُ رسول الله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم في أمته وأهلُ بيته ، قال صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : ((تركت فيكم كتابَ الله ، وعترتي)) فإن لم يعرف نفسه من كتاب الله ، فليسأل الأئمة من أهل البيت ، فإنهم نوَّاب جدهم وورثته يفسرون للناس ما أشكل عليهم من معاني الكتاب العزيز، فإن لم يجد منهم أحداً فليسأل عنهم ويبذل جهده في طلبهم ، فإن لم يجدفليسأل نوابهم من الأئمة من غيرهم وهم العلماء العاملون ، فقال له بعض الناس( ) في بعض الأيام : أخبِرْني( )، قال : ألم تكن عاملاً بالقرآن؟ ، قال : الله أعلم ، قال : ألم تؤمن إنه من عند الله وإنه معجزة لا يُقْدَر أن يُؤتى بمثله ، وإنه منزل من عند الله؟، فقال : آمنت بجميع ذلك ، وأشهدكم على ذلك، قال : كان .

وقال رضي الله عنه : المال مذمومٌ من أكثر الوجوه ، محمودٌ من بعضها .

قف على كلامه في حضرموت

وقال رضي الله عنه : حضرموت لم تصلح إلا لمن اجتمعت فيه خصلتان : الطلب والتزهد، لأنه إذا كان كذلك ، لم يُبَلْ لو جلس على الجمر .

وقال رضي الله عنه : الأولاد في هذا الزمان بغوا منك صبراً، وإلا حرمتهم وأشغلتهم.

وقال رضي الله عنه : لم يحصل للعباد حسن المعاد إلا بالجد والاجتهاد، إلا إن ذلك على حسب الزمان والحال بحيث يُعَدُّ الإنسان من مجتهدي الزمان ، لا من المبطلين المقصرين.

وقال رضي الله عنه ما معناه : ما عاد أهل الزمان لهم هَمٌّ ، إلا نظرهم إلى حالتهم الراهنة والأمر العاجل ، وغفلتهم عن مآلهم وأمرِ ما هم صائرون إليه ، ولو نظروا إليه لكفاهم .

وقال رضي الله عنه : بعدما أكثر من ذكر الزمان وأهله ووصفهم : يشيب الرجل في ذا الزمان ولم تصدق له رؤيا مرة واحدة ، وقد كان الناس يرون في المنام ما يوجب لهم اليقظة والإنتباه من سِنَة الغفلة ، ويحثهم على ملازمة الجد والتشمير .

وقال رضي الله عنه : لولا الحرص على طلب فضيلة الجماعة وطلب الاقتداء به صلى الله عليه وآله وسلم حيث لم يترك صلاة الجماعة ، لاخترت الصلاة مع الإنفراد ، لأن أهل هذا الزمان لم تزل قلوبهم في الوساوس حالة الصلاة ، فتُشغِلنا خواطرهم وما يختلج في صدورهم .

وقد سمعت مرة سيدنا يقول : إن أكثر ما تُرْتَج القراءة على الإمام من سوء خواطر المأمومين ، وورد في ذلك حديث .

أقول : قال لي مرة عمر باحميد: قلت للسيد أحمد الهندوان وقت انتظار بعض الصلوات : يا سيدنا إني لا أتمكن من قراءة الفاتحة معكم ، فقال نتريض( ) لأجلك ، فتقدم يصلي بالجماعة ، وصليت معه ركعة أو قال ركعتين ، ولم يخطر لي خاطر، وهو متريض أكثر مما يعتاد، ثم ما أدري إلا خطر لي خاطر فطار من العجلة حتى ما أتممت الفاتحة إلا بعد ما فرغ من السجود الثاني .

انظر قدر صلاته نفع الله به

وذكر سيدنا نفع الله به صلاته يوماً فقال ما معناه : صلاتنا هي الصلاة المعتدلة لا تطويل فيها ولا إخلال ، وقال لي مرة بعد ما أقيمت صلاة الظهر: إجلس إحزر صلاتنا، فحين ما أكبِّر إبتدِيءْ في قراءة سورة يس ، قراءة متوسطة بلا عجلة ولا تأن ، فحين ما كَبَّر شرعتُ فيها على ما وصف فأتممتها قبل أن يسلِّم ، ثم قراءة( ) الفاتحة وسورة الإخلاص ، فأتممتها مع سلامه ، ثم أمرني كذلك لصلاة العصر فأتممت سورة يس وقل هو الله أحد مع سلامه .

وقال رضي الله عنه : إذا لم تراقب الله فراقب الناس ، لأنك بذلك تسلم من الإثم .

(2/281)

أقول : معناه إذا لم تترك ما نُهيتَ عنه إمتثالاً لأمر الله أو خوفاً منه فتثاب على ذلك ، فاتركه حياء من الناس ، تسلمْ من الإثم حيث لم يحصل لك ثواب ، فتحوز أقل الغنيمتين ، فالسلامة إحدى الغنيمتين .

وقال رضي الله عنه : لم يكف فعل الأمر في الباطن ، ولم تسقط عنه المطالبة به في الظاهر ، وإن كان في الحقيقة سواء .

أقول : لعل مراد سيدنا ما مثاله كما يقع لأحد من أهل الله ، إنهم يحجون وتتحقق رؤيتهم في الحج ، وهم في أماكنهم ما فارقوها، وإنما لم يحجوا غير ذلك في الحس ، لأن الشريعة لها حق مطلوب لله ، لا يكفي عنه غيره ، والحقيقة كذلك فلا بد منهما، كصور الأعمال مع الإخلاص ، فلا يكفي أحدهما دون الآخر.

وقال رضي الله عنه : الملَلُ من ذكر الله ، وكثرةُ النوم ، وكثرةُ الأكل ، وكثرةُ الكلام ، كل هذه الأشياء أمراض في القلب تنبغي معالجتها والتداوي منها.

وقال رضي الله عنه : المشغول في باطنه ، إذا اشتغل في ظاهره غفل عن الشغل الباطن ، وكذلك مشغول الظاهر إذا اشتغل في الباطن غفل عن شاغله الظاهر.

وقال رضي الله عنه : يقال : لا يخلو الطبيب من مرض في الغالب كما قيل :

يموت راعي الضأن في ضانه ... كموت جالينوس في طبه

وقال رضي الله عنه : كلام الصالحين إما وارد، وإما قد أداره المتكلم على قلبه ، وكل ذلك صواب ولا سبيل إلى مخالفته .

وقال رضي الله عنه : إن الله يُذَكِّرُ عباده في الدنيا بذكر الوعد والوعيد، فإذا كان يوم القيامة جمع الله جميع الخير كله في الجنة لأهلها، وجمع الشر كله في النار لأهلها.

وقال رضي الله عنه : من كره ما تحمد عاقبته في المآل ، ولو كرهته النفس في الحال ، فهو مريض القلب ، يحتاج أن يصحب أحداً من أطباء القلوب يداويه منه ، لأن كلما يُقَرِّب إلى الله مرادٌ للقلب ، غير مراد للنفس ، والعكس مرادٌ لها لا لَهُ .

وقال رضي الله عنه : ومن دخل عليه شخص فوجده على طعام فاستحيا منه فهو متكبر.

(2/282)

وقال رضي الله عنه : في قول الشيخ سهل بن عبدالله التستري رحمه الله (للعقل مائة اسم لكل اسم ألف اسم) فقال : قد تحصل لهم غلبات ، ويقع مثل هذا الكلام فيها، ولو سئل عن ذلك بعد حين لأنكره وقال : ما قلت ذلك ، كما قال الشيخ عمر المحضار: سمي الفؤاد بذلك لأن فيه ألف وادي ، ولما مر في القراءة قول صاحب العوارف ، لما ذكر في أولها جملة من علوم القوم كالفَناء والبقاء، والمحو والصحو، والخاطر، ونحو ذلك إلى آخر ما ذكر، فقال نفع الله به : هذه هي العلوم التي يقول الشعراوي : نعلم مائة ألف علم ، وفلان يعرف كذا كذا من العلوم فهي من هذا القبيل .

وقال رضي الله عنه : في قول بعضهم في الرسالة : (الخُلُق : أن تكون من الناس قريباً، وفيما بينهم غريباً) قال : غربَتُه : أن لا يحب أن يكون له عندهم جاه ، وأن يكره إحسانهم وثناءهم عليه ، وقربُه منهم أن يعينهم على الخير ويحسن إليهم.

وقال رضي الله عنه : ليس مع الله ومع أوليائه غربة ، إنما الغربة مع النفس والهوى ، ثم قال : إحفظوا هذه الكلمة .

وقال رضي الله عنه : العز : ما يحصل لأحد من الخلق من العز بسبب دينه مع الإخلاص ، وأما ما يكون لأبناء الدنيا من القيام لهم ، واحترام الناس لهم ، فليس هذا عزاً بل ناموساً ينبغي لمن حصل له ذلك أن يستعيذ بالله منه ، لأن هذا عبد مبتلى بنفسه ، غالبة عليه.

وقال رضي الله عنه : لا يظنن أحد ممن يطلب الرياسة أن تستقيم له ، إلا بسرّ أو عبادة ، وإن ظن الإنسان أنه يفعل .

وقال رضي الله عنه : الذي يجمع المال للمال( ) أحمق ، وإذا لم يعظ الإنسانُ ربه من نفسه( ) يأخذ الله منه بيده ، ومن فيه حيا وهمة لم يطق الضولة( ) بل لو أراد أحد يأخذ حقه تركه له .

(2/283)

وقال رضي الله عنه : من جالس أهل السر بالتجسس والتطلع حُرِم بركتهم ، ولا نرى نحن إلا ما كان على الكتاب والسنة ، ومن قال شيئاً بنفس وهوى فالله حسبه ، ومن أراد أن ينقل عنا فليفهمه أولاً، وإلا فلا نأذن في ذلك .

وقال رضي الله عنه ما معناه : اسمعوا منا كلاماً واحفظوه ، وانقلوه عنا، إن جاء بعدنا أحد وقال لكم : إن فلاناً( ) أطلعني على كذا أي من المغيبات ، أو فَعَل لي كذا أي من الخوارق ، أو قال لي كذا أي مما ينكره ظاهر الشرع ، فكذبوه ، ولا تتوقفوا عن تكذيبه أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : الفقراء( ) كالماء ، تَرِدُهُ الدابة وهي ظمآنة ثم تعود تبول فيه.

أقول : أي يأتيهم الزائر وهو في غاية التعطش إلى رؤيتهم ، ثم إذا طال مقامه معهم ، ربما يعود إلى الملل والسآمة ، وحينئذ عليه خطر من قلة الاحترام والتأدب وربما أدى إلى الإعتراض عليهم فيخسر في دينه ودنياه .

وسمعته رضي الله عنه يقول : إن الناس لم يحبوا الصالحين لمجرد الصلاح فقط، وإنما حبوهم لأنهم انخلعوا عن الدنيا بالكلية وتجردوا عنها وتركوها لهم ، فلم ينازعوهم فيها ولم يضايقوهم عندها، فلذلك أحبوهم ، لأن الإنسان مجبول على بغض كل من يطلب أمراً وهو طالبه ، وحب من يترك ما هو طالبه .

وسمعته نفع الله به مراراً في أيام متعددة يردد هاتين الكلمتين : يامن لاتخفى عليه خافية ، أسألك اللطف والعافية .

وقال رضي الله عنه : أخطر الأعضاء على الإنسان لسانه ، لخفته ، وبقية الأعضاء قد تتعسر عليه المعصية به إما لخوف مخلوق أو خسارة ونحو ذلك بخلافه هو .

(2/284)

وقال رضي الله عنه في قول أبي عمرو اسماعيل بن نجيد المذكور في "رسالة القشيري"( ) : من ضيع في وقت من أوقاته فريضة افترض الله عليه ، حُرِم لذة تلك الفريضة ولو بعد حين : إن كلام الصالحين يؤخذ للإعتبار فقط ، ولا يكون هذا لكل الناس ، بل ربما يكون لبعضهم، بل ربما اختُص به القائل ، لأنه جرب هذا من نفسه ، ولا يكون لغيره ، ولا يعم إلا إن كان كلام الله وكلام رسوله إذا ورد في العموم .

وقال رضي الله عنه : يعسر طلب مجرد الفضيلة لمجرد كونها فضيلة إلا على أهل الفضل .

وقال رضي الله عنه : إذا قوي الروح احتاج إلى مراعاة البدن وقُوَّتِه لأنه مطيته وإلا خيف عليه تغير المزاج .

وقال رضي الله عنه : إنما تم النعيم لأهل الجنة لتمكن الأرواح منهم ، كما تمكنت الأجسام في الدنيا، لأن النعيمَ والراحةَ مع تمكن الأرواح ، والتعبَ والشدةَ مع تمكن الأجسام ، ولهذا كانت الدنيا سجن المؤمن .

وقال رضي الله عنه : من فيه خيرية وكان ذا دين لم يزل يستفيد من خيِّر وشرير لأنه يرى فائدته فيأخذها، ولا ينظر إلى من سمعه( ) منه.

ما قال في شرب الماء البارد في الشتاء، والحجامة

وقال رضي الله عنه : كنا نسمع من الأولين : إن شرب الماء البارد في الشتاء حيث يشتد البرد، إنه يستحيل في الباطن دماً فاسداً، وكان يُنهى عنه كثيراً.

وقال رضي الله عنه : الحجامة على ثلاث درجات : للضرورة فمتى دعته إلى ذلك ، وللحاجة فينبغي أن يترقب بها الأوقات المذكورة في الحديث( )، وحقِّ البلوة فلا ينبغي للإنسان أن يَهريق دمه بلا فائدة ، لأن الدم حياة البدن .

وقال رضي الله عنه : من يحب الناس ويحبونه فهو مفتون ، ومن أحبهم ولم يحبوه فهو مفتونان( )، ومن لم يحبهم وهم يحبونه أو لا يحبونه فهو أسلم وأقرب إلى السلامة .

وقال رضي الله عنه : لا أحسن للإنسان من أن يلزم وصفه من العبودية والفقر المحض، ولا يخرج من ذلك( ) أبداً.

وقال رضي الله عنه : إن لإبليس في أهل الشمال تمكيناً إلهياً، وإنه سأل الله التمكن من الفريقين أهل اليمين وأهل الشمال ، فلم يمكّنه من أهل اليمين ، فقال تعالى : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَان }( ) ومكنه في أهل الشمال فقال تعالى : { إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوين }( ) ، { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجلِكَ }( ) الآية .

أقول : ذكر الشيخ ابن عِرَاق : إن بعض الصالحين رأى إبليس في صورة رجل فقال له : لِمَ تضل عباد الله؟ فقال له : الزم الأدب ، وقف عند حدك من العبودية ، فإني مأمور فيما أنا فيه ، كما أنت مأمور في ما أنت فيه ، أما سمعت قوله تعالى : { وَأَجْلِبْ عَلَيْهم }إلخ ، وفي كلام آخر عن هذا الصالح أو غيره من الصالحين ، لمَّا قال له : لِمَ تضل إلخ ، قال له : تأدب لا تعترض علي ، فإن كنتُ أضللتُ عباد الله ، فأنا من أضلني؟، كنت أنا جالساً على سجادتي في عبادتي عند العرش ، فنوديت هناك أخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين. نعوذ بالله من مكره وغضبه .

وقال رضي الله عنه : كلٌّ فيه هوى وليس الشأن أن يذهب الهوى بالكلية ، وإنما الشأن أن يعمل على خلاف مايقتضيه مع وجوده ، والعمل على خلافه يضعفه ، وكلما ازداد من العمل على ذلك ازداد ضعفاً، حتى إنه ربما يتوهم عدمه ، وليس بمعدوم ، بل يكون ضعيفاً جداً.

مناقب سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وقال رضي الله عنه : مِن أعظم المناقب لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، أن أسلم أبواه وأدرك أبوه خلافته ، وحج إلى مكة واجتمع بأبيه ، ولكنه ماجلس إذ ذاك في مكة إلا نصف يوم، ولما ذكر لأبيه إن ابنه صار خليفة بعد رسول الله صلَّى الله عليه و آله وسلَّم قال : أَوَ رضي قريش به ، قالوا : نعم ، قال : سبحان من أعز ذليلاً، وأذل عزيزاً، قال ذلك

لأنه كان من تيم بن مرة ، وكانت قريش تعده من أقل بيوتهم ، قال سيدنا في حديث( ) : ((الأئمة من قريش)) أي الأئمة في الدين والعلم ، ومن كان منهم ضعيف الدين جاهلاً، بأي وجه يستحق التقديم ، بل يتعين عليه يجتهد أن يصير عالماً تقياً ليصير أهلاً للتقدم ، وقد قال الشيخ علي بن أبي بكر لابنه الشيخ عبدالرحمن بن علي : تفخسس تسلم ، لا تكن عقرباً تقتل ، وكن ذَنَباً في الخير ولا تكن رأساً في الشر، فإن الرأس أول مايقطع .

وقال رضي الله عنه : الجنة ممالك ودرجات ، والنار مَبَارِك ومَعَارِك ودركات ، وقال : أمور الدنيا تابعة لأمور الدين كالظل من الشاخص.

وقال رضي الله عنه : من لا يخاف من الله خَوِّفْه بغير الله ، لأن المراد الإنكفاف .

وقال رضي الله عنه : الأشياء لاتظهر عند أوائلها إلا لأرباب البصائر، وإنما تظهر عند أواخرها .

وقال رضي الله عنه : كلما ذُكِر عن الأكابر من الكلام الذي ظاهره التبجح ، كقول الشيخ أبي الحسن الشاذلي : منذ أربعين سنة ما حُجبتُ عن الله ، وقول أبي العباس : لو حُجبَتْ عني جنة عدن لحظة ما عددت نفسي من المؤمنين ، كل هذا مؤول وليس على ظاهره.

وذكر رضي الله عنه بعض السادة فأثنى عليه ، وقال : لابأس به هو رجل مذاكر، ولا في جماعته مثله ، إلا إن الزمان منقوص ، إنْ ما انتقص من كلا طرفيه ، انتقص من طرف واحد، وقد ذكرنا لرجل من السادة فقلنا له : لو اجتمع السادة على رجل يقدمونه ويرجع رأيهم إليه ، إن كُتِبَتْ ورقة أو حصلت مشاورة أو مقابلة في أمر، فقال : إن كان أنتم فنعم ، فقلنا: لا، نحن لايمكننا لأننا لا نحبه أولاً، ولأني مدبّر( )، وسلوا عني أهل بيتي ، ودعونا نحن للعلم والدعاء، إن طلب أحد يقرأ علينا في علم

نحسنه ، ونقرر عليه على مقتضى حاله وحالنا، وأنتم أعرف بأمركم ، والتوسط بين الناس أمر عسر، أشد من الحكام ، لأن هذا يحتاج إلى إقامة الشرع والعادة ، وذكرنا له ذلك الرجل ، فقال : لا نريده ، وهو فيه كفاية إلا إن الزمان محسود .

وذكر رضي الله عنه التجرد فقال : ما هو بعسر ، لو أراد كل أحد أن يتجرد سهل عليه ، وإنما يعسر على أهل العلائق ، ومنهم مَن عوائقه في نفسه ، ومنهم من عوائقه في غيره ، وإلا فالإكتساب موجود لكل أحد لكن هذا فيمن قنع بالقوام ، إما بقوت أو بقوة ، وصاحب( ) "التنوير" نَبَّه كما ذكره المتقدمون ، ولكن المغرور يظنه إنما يحسن أن يكون هكذا ويترك العمل ويتكل .

وأنشد رضي الله عنه يوماً هذا البيت :

ياصاحباً كله مليح ... عملت بالفضل( ) وبالجزاء

وقال رضي الله عنه : كل ما مع الخلق من التدبير إنما هو من عند الله ، بواسطة وحي أو إلهام ، ولهذا طُلِبَ إقامة الإمامة والولاية لينتظم الأمر ويؤدي حقوق الله وحقوق العباد. وما وقع من خلاف ذلك ، فإن الله لا يزال يعفو عن صغار الأمور حتى يحصل شيء من كبارها، فيعاقب عليه في الدنيا قبل الآخرة بخسف أو غيره ، فإن لم يكن خسفاً ظاهراً كان خسفاً باطناً، يخسف القلوب فلا تتأثر بموعظة ، ولا تخشع في عبادة ونحو ذلك ، وكلما لا يحتمل أهلُ الله الصبر عليه والسكوت عنه ، هو الذي يعاقب اللهُ عليه .

أقول : وهذا الذي كان رضي الله عنه ينهى عنه الناس من مداينات الربا، وأمور أخر من المناكر الكبار، التي لا يحتمل أهل الله الصبرعليه حتى أصابه نفع الله به ما جرى عليه من ذلك العارض سنة 1115 وسنة 1116 كما ذكره تلميذه عبدون بن قطنه( ) ، مما جمعه في رسالته ، ولهذا عاقب الله أهل الجهة

حيث لم يمتثلوا أمره بهذه العقوبة الشنيعة ، التي أخرجتهم من أموالهم وأوطانهم ، ودامت من أول يوم من سنة 1117 إلى حين كتابة هذا النقل سنة 1170( )، وبعد ذلك إلى أن يشاء الله ، فأعجِب لإشارات سيدنا وما يومي إليه كلامه مما قَرُبَ أو بَعُدَ في حياته وبعد مماته .

وذكر رضي الله عنه ذات يوم ماوقع على الجهة في أموالهم وأحوالهم ، فقال : ماعاد إلا يدعو الإنسان : اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، وقاعدة : الظالم مخذول ، وهؤلاء( ) مَثَلُهم مثل سيل عِدِم( )، إذا جاء يقول الناس : المتطرف يميل لا يشله ، ولكن السيل يخفش( )، وما فات يخلف الله ، ومظلوم ولا ظالم ، ولا عاد نَفَع فيهم الدعاء، مع إن المظلوم دعاؤه لابد ما يُسمع ولو بعد مدة، ولكن المظلوم إذا كان ظالماً لا يُسمع دعاؤه وقيل :

المرء يغلط في تصرف حاله ... ... ولربما اختار العناء على الدعة

هل لا يحاول حيلة يرجو بها ... ... دفعَ المضرة واجتلابَ المنفعة

وهذه أشياء بذنوب ، منها شيء نسيه الإنسان ، وشيء ما استغفر منه ، وشيء فعله وهو يستلذه ، فلا عاد تحرك أحداً فيتجرأ، كقصة ذاك الذي جر أباه من فوق السطح إلى الضيقة ، فدخل عليه غريم له وطالبه ، وقال له : جريت أباك إلى هنا، فأنا أجرك إلى خارج وجره ، وهذه أمور خَوِّفْ فيها بالله وبالرسول وبالسادة ، ولا عاد معهم تقوى ولا عقول ولا صيانة ، فإذا ذَكَّرت عيالك فهكذا علمهم ولا تُجَرِّيهم ، وتقول( ) كان فلان فيه أمانة ، وصفته كذا وكذا.

(2/289)

وقال له رضي الله عنه رجل : ادع لي ، خاطركم بالطاعة والعبادة ، فقال له : مكانك فيها لا تخرج

منها فإنها ما عليها باب ، وما دعاك اليها، ويريد أن يمنعك( ) منها، لكن ما المانع لك منها إلا ربك( ).

وقال رضي الله عنه : إذا أتاك الأمر المستقيم في نفسه فخذ به ، وإن لم يصح عمن نقل عنه لأنه صحيح في نفسه ، وإن أتاك الأمر الفاسد فلا تأخذ به وإن صح عنه ، لأنه فاسد ولعله إنما فسد في طريق وصوله اليك .

وقال رضي الله عنه ضحوة يوم الثلاثاء 29 رجب سنة 1122 في الغيلة بمحضر جماعة أتوه زائرين : مَن طلب الفضل لنفسه وحاول أن لا يكون لأحد غيره ، فما له فضل ، فإن موارد فضل الله معه تَسَعُه وتسع غيره ، فَلِمَ يضيق من تعديها إلى غيره ، فليشربه كله إن قدر على ذلك( ).

وقال رضي الله عنه : إذا أفرط إنسان في محبة أمر أو بغضه ، انعكس إلى ضده لأنه لا ضابط حينئذ فينعكس الأمر.

ما قال في البحر

(2/290)

وذكر رضي الله عنه البحر فقال : إن الله قال : { سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ }( ) في غير موضع ، ولم يقل وسخر لكم الأرض في موضع ، والتسخير إنما يكون فيما يعظم ويهول وقد قيل : البَّرُ بكُم أَبَرُّ. وحُسْنُ حالِ البحرِ نادرٌ ، والأغلب فيه الإضطراب ، ثم إن اضطرب أشغل ، أو السكون الكلي ويشغل أيضاً، وحكى بعض الصالحين من أهل المغرب ، إنه أراد الحج فتحير هل يسافر براً أو بحراً، فعزم على أن يشاور أول من يلقاه ، فاتفق أنَّ أول من لقيه يهودي على بغلة ، فتوقف أولاً عن مشاورته ، ثم استشاره فقال له مارأينا فيما سمعنا من كتابكم أن الله ذكر البر والبحر في موضع إلا بدأ بالبر قبل البحر، فَسِرْ فيه خير لك ، فسار في البر وهو أسْلَمَ( ) ، وقيل لسيدنا: ما يحصل من البحر هذا الوقت قليل ، فقال : سبحان الله هذا لأمر وإلا

فسكان البحر لا تقصير منه( ) ، وإنما ذاك من سكان البر، إلا إن كان لما كان ذلك نصيباً لأهل البر، ومن رحمته سبحانه وتعالى ولطفه أن قال تعالى :
{ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ }( ) إلى أن قال :
{ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون } ولم يقل لعلهم يهلكون أو يذهبون ، إنما ذلك استجرار منه لعباده إلى طاعته .

وقال رضي الله عنه : أحسن ما في هذا الزمان قطع العلائق ، لأن الزمان مظلم وخرجت فيه ظلمات الساعة .

وقال رضي الله عنه : من بنى أمره على الفتوح( )، فهو كالبحر ما له في السارحة بارحة.

وقال رضي الله عنه : الحب والبغض موروث ، وإن لم يعلم الوارث .

ما قال في بلدة قَسَم

(2/291)

وذكر رضي الله عنه قرية قَسَم ذات يوم فقال : سميت بذلك لأنها مُقْتَسَمة بين السادة ، وهي حوطة وإنما تكون الحوطة حوطة بالنسبة لعقيدة المعتقِد، لا المعتقَد، لأنه لا يعتقد( ) في نفسه ولو كان ولياً، لأنه محجوب بنفسه عن قلبه ، فإن النفس حجاب القلب ، فإذا قوي القلب انخرق منه باب إلى النفس (وبعد هذا بياض لعله سقط كلام متعلق به) وهذا لا يَعرِف معناه إلا هو، ومن هو من أهل مقام الولاية .

وقال رضي الله عنه : ذَكَر بعضهم : ينبغي أن يفرح الإنسان بحصول الشدة ، لأن الرخاء يعقبها، ويكرهَ الرخاء لأن الشدة تعقبه ، وقدَّم إليه نفع الله به بعضُ أخدامه حذاءه ليلبسها، فقال له افتحها لتزول بذلك كراهة لبس الحذاء قائماً، لأن السبب فيه خوف السقوط ، فتزول بزواله ، وتناول ابنه السيد علوي رحمه الله الورقة التي كنت أنقل فيها كلام أبيه سيدنا نفع الله به ، فكتب فيها كلاماً سمعه منه ، فنقلته هنا من خطه وهو: قال سيدنا: كان بلغنا أن

السلف لما اختلف عليهم ولاة الأمر، وكثر بينهم القتال ، ساروا إلى عند نبي الله هود عليه السلام ، واستغاثوا بأن الله يختار للجهة ويجمعها، ويسلمها لرجل واحد، فأجيبوا وقد رأينا هذا اليوم إجتماعاً في ذلك المحل ، وفيه ناس من السادة من الأحياء والأموات ، وهناك من ينشد بشيء من كلامنا، ورجونا أن يكون ذلك فرجاً للجهة وأهلها مما حل بهم والله أعلم.

أقول : وكان مارأى ضحى يوم الأربعاء حادي عشر ربيع الثاني سنة 1123، ومن الأموات السيد حسين بلفقيه ، والسيد حامد بن علوي ، وغيرهما وهي إما رؤية منام أو تورية عن الكشف، لكونه أطلق الرؤيا.

(2/292)

وحضر عنده رضي الله عنه جماعة ، فبقوا سكوتاً لا يتكلمون ، فقال : السكوت مع الإجتماع ما له معنى ، ولو كانوا يسبحون ، فلأي شيء الإجتماع ، فليسبح كل إنسان وحده ولا نرى مع الجمعية أحسن من قراءة كتاب ليسلم الإنسان خصوصاً في هذا الزمان ، حيث لا يخلو كلامهم من كذب أو غيبة ، وهذه عادتنا من قديم كما قيل :

أعز عزيز ماعلى الأرض سائح( ) ... وخير جليس في الزمان كتاب

وقال رضي الله عنه : طريقة آل باعلوي ، من تأملها عرف أنها هي الطريقة الوسطى المعتدلة التي لا تُنكر، من رأى تواضعهم وزهدهم وفقرهم وخمولهم وسلامة صدورهم ، ومن صحب أحداً لا بد أن يقتدي به( )، ولو في بعض الشيء على حسب الحال والزمان ، وإلا خرج إلى الخلاء. ومرَّ في القراءة حديث( ) : ((إن الله يَبْغَضُ السخي عند موته ، البخيل في حياته)) ، فقيل : أليس هو أحسن ممن لم يفعل أبداً، فقال : وورد: إنك إن تترك ورثتك أغنياء، خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس ، وايش هذا الكرم الذي جاءه عند الموت ، بعد أن لم

يفعل محتسباً لله تعالى في حال صحته بل لا يجوز له إن قصد أن يُحرِم ورثته.

وذكر رضي الله عنه أهل الزمان وإدبارهم ، فقال : لو عاد حذفوهم بالحجارة مانفع لأن الشارد شارد، ماعادها إلا حثالة ، وقد عرَّف الشعراوي أهل زمانه ببعض صفاتهم ، وهم اليوم إلا خضخاض كحثالة الإناء.

وذُكِر له رضي الله عنه جماعةٌ فاتهم الحج فقال : لا بد لله تعالى في ذلك خيرة ، ولكن خيرة الله تعالى لا تظهر سمح( ) ما تظهر إلا ما فيما بعد، وقيل له نفع الله به : عجيب من اختلاف طبقات الناس ونياتهم ، حتى إن الواحد يحب وجود الشيء وآخر يؤثر خلاف ذلك ، فقال : دعهم لربهم حتى يخرجوا من الطاعة ، وإلا فدعه لهم فله فيهم مراد.

(2/293)

وجلس ضحوَة يوم رضي الله عنه ، وهو مُحْتَرٌّ وكان الوقت في شدة الحر، ثامن نجم البلدة 18 جماد آخر سنة 1124 فجعلت أروّح عليه ، وذلك يوم الجمعة في داره التي بالبلاد، فقال : سبحان الله ، لو أن أحداً رَوَّحَ عليك في الشتاء، أشغلك ، فعجب للإنسان كيف يفر من خلاف حظه إلى حظه ، ولو فعل أحد معه خلاف حظه ، صار عدواً له ، ويختلف ذلك باختلاف الأوقات واختلاف الناس ، الفاعل والمفعول به ، فلو ضربك بيده أحد من أداني الناس ، ربما حنقت ، ولو فعل ذلك بك أحد من أحاسن الناس ، ربما لم تحنق ، فقد يجلس الشريف والضعيف( ) والحائك في محل ، فإذا كان بيد الشريف مروحة لا يتركونها في يده بل ينازعونه إياها، فلا أدب لهم ولا حرمة ، ولا فيهم لبيب ونحن قد طُلِبَ منا أن يُرَوَّحَ علينا في أماكن أحسن من هذه ، فامتنعنا إراحة للناس وسلامة من التشبه بأهل الرفاهية ، والناس غير يروحون على المحتشمين وإذا بطلت الرياسة بطلت السياسة( ).

ما قال في الجن

وكان رضي الله عنه ذات يوم في فسحة في غرفة آل فقيه في الصالح( )، وذلك يوم الاربعاء 17 ربيع الأول عام 1128هـ، فجاء رجل من أهل شبام من غير أن يعلم بذلك ، فقال سيدنا له يمازحه : من أعلمك بأنا هنا؟ أجنّي؟ ، قال : علمت ، فقال : إن أهل الطاعة من الجن ينقادون لأهل الطاعة من الإنس وكذلك الشياطين من الجن ينقهرون لأهل الطاعة من الإنس ، وفيهم مماثلة ، ومشابهة منهم كثيراً، حتى إن فيهم شيعة كما في الإنس.

وعن ابن عباس : إن فيهم ابن عباس مثلي( )، ولهم مع الإنس وقائع ، حتى إنه ذكر إن رجلاً من أهل شبام ، كان له قرين من الجن يقرأ معه القرآن ، ولهم وقائع كثيرة ، حتى إن رجلاً رأى جنياً، فقال الجني : أنا شريف ، فقال له الآخر: أوَ فيكم أشراف؟ ( ) ، قال : نعم وفينا مشايخ مثلكم .

وقال رضي الله عنه : الطرق كثيرة والمقصد واحد.

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... ... وكُلٌّ إلى ذاك الجمال يشيرُ

(2/294)

وذلك كالصلاة وغيرها، إذا كنت تريد الله فاعبر على النار إلى الجنة ، وترى الله سبحانه فيها، ولكن إفهم المقاصد، وصحح النية . وفساد الطرائق والمقاصد عسر.

وقال رضي الله عنه : إذا لم يكن للنفس نظر بينها وبين صاحبها تغيرت ، وقد حمل عمر بن الخطاب قربة ماء، وهو خليفة ، وكل شيء يُعْرَف بقدَر، ولا أحد أعرف منه من نفسه ، وإذا رأيت إنساناً لا تنكر، فرب شيء غير مذموم فلا تنهه إلا إذا علمته عن كِبر ونحوه ، ولو مَرِضَ اجتهد في إزالته( )، واهتمامه بأمر قلبه أهم عليه من أمر جسمه.

ودخل عليه رضي الله عنه بعض السادة في آخر يوم من نجم الغَفْر، فقال سيدنا: في الوقت برد، على

خلاف العادة ولا بد لله في ذلك حكمة أقل ما يكون في ذلك العبرة ، لأن الإنسان إذا رأى ما يخالف عادته يتعجب فيعتبر، فيشل رأسه أظن قال : يحركه( ) بخلاف ما يعتاده.

وذكر رضي الله عنه جماعة من السادة فيهم صفاء( ) ، ثم قال : ذاك كان زمن صفا بلا كدر، واليوم اختلط منه الصفا والكدر، أما سمعت قول القائل : يا الله بجنون واضح ولاّ( ) عقل ناصح .

كلامه في ذكر زيارة النبي هود عليه السلام

وقال رضي الله عنه ليلة النصف من شعبان وذكر زيارة النبي هود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام : أرى منصبين في حضرموت ، إما يدمران بالكلية ، أو ينقلب خيرهما شراً، أرى ذلك واقعاً وظاهراً فيهما، لأنا نرى أهلهما يسعون في خرابهما، وقال : قواعد الزيارة من جانب الشيخ أبي بكر قد تغيرت عن قواعدها المعتادة وأصل الدعاء فيهم إلا من الشيخ شهاب الدين ، هو ترك الشيخ أبابكر يدعو فبقيت عادة لهم .

(2/295)

وقال له رضي الله عنه رجل : إن الناس يروحون لزيارة النبي هود عليه السلام يخبُّون لأجل أن يدركوا العيد هنا، فقال سيدنا له : اسكت لا تطرح الملح على الجرح ، وقد تقدم قوله : مَنْ رَوَّح ما له زيارة ، لأنه خالف ترتيب السادة وما درجوا عليه ، فكأنه مراغم لهم ، وما جعل الشيخ أبوبكر بن سالم الحضرة إلا ليجتمع الناس ساعة ، ويذكرون الله ويدعونه ، ويقرأون مولداً لحصول البركة بالإجتماع ، ومن سرح بعدما حضر الحضرة له نصف زيارة ، ومن نفر فله زيارة تامة ، فرب شيء من الأمور الإلهية ، مرتب على ما رتبه السادة.

وقال رضي الله عنه : هذه جهة ضعيفة ما تستقيم فيها إلا إن أردت أن تحمل كل ما ترى فيها على الضعف ، وإلا أظن قال : الرعاع لا يستقيمون على

حال ، قال : لأنهم أشرار ، ولا فيهم صيانة (ثم استمر به الكلام) ثم قال : كما قيل : يافصيح لا تصيح ، فسمعه واحد ، فقال : بل صح لعل أحد ينقذك .

وقال رضي الله عنه : كانت الأشياء هنا يعني في الجهة من عوائدهم مع القل ، والأمور كلها كل أحد على قدر حاله من حيث الجِدَة( ) والقلة ، وكان لا عذر من دقتين من الطيب في السنة أحدهما من الأبيض والأخرى من الأحمر، وأين الناس اليوم ، مات الدين والدنيا عندهم ، ومن مرت عليه الأيام مثلنا ومثل السيد علي بن عبدالله [أي العيدروس]، قده إلا غريب في كل الأشياء من العوائد وغيرها، حتى إنا إذا أذكرناهم بأمر من أمور الدين ، قالوا : أينك فَين ، فنقول لهم : أنتم أينكم فَين ، وكان من عوائد الأولين : إنه إذا تزوجت المرأة ولا لها ظعون بقيت عند أهلها سنة كاملة ما يطالب الزوج لأجلها بشيء من أمر المعيشة أبداً لا في قليل ولا في كثير، وهذا المدة كلها ما فيها خوض (أي مطالبة) ، وكانوا على أساليب جَرَوْا عليها، وحملوها عن غيرهم ، وهم فيها على مراتبهم كل أحد يعرف طبقته ومَن هم جنسه من الأشراف وغيرهم .

(2/296)

وقال رضي الله عنه لرجل ثقيل على خواطر الناس ، وهو مع ذلك يلومهم في عدم إقبالهم عليه : الذي ترجوه من الناس قَدِّر إنك ترجوه من الله ، ومن تميز بالدين لا يعلق قلبه بالناس ، أو يقول للناس : عظموني واصطنعوا إليَّ . واظب على قراءة القرآن والطاعة ، لكن مع الإخلاص ، ولا عليك من الناس ، إذا رأوه متمسكاً بالدين عظموه ، وعاده إلا يرد الزائد، والرزق مقسوم ، لو بغيت ترده ما ارتد إلا بالذنب ، قال النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم : ((إن العبد قد يصيب الذنب يمنعه الرزق))( ) وأسأل ربك البركة ، فإن القليل مع البركة كثير، والكثير مع عدمها قليل كقصة صاحب الدينار وإذا حصل للإنسان

رزق ، فصَرَفَه في الشهوات ، إيش الفائدة هل شيء غير الحساب؟ .

ومر في القراءة في تفسير البغوي ، عند قوله تعالى : { وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْه}( ) فقال : ينبغي أن يرشد العامي إلى التسمية عند الذبح ، لما في القرآن( ) وللخلاف في ذلك ، لأن أحوالهم الغفلة ، إلا إن كان عنده معرفة بشيء قليل فلا يستعملونه ، وقد رتب الله تعالى لكل أمر يتعاطاه الإنسان أذكاراً تخصه من نوم وانتباه ودخول وخروج ، حتى إلى حد إذا اشترى دابة أو جارية ونحو ذلك ، فمن فعل جميع ذلك كان متنبهاً، وإلا فغافل بقدر ما أغفل ، وقد يتعود الإنسان الذكر في شيء من هذه الأمور فيجري على لسانه من غير تقصد، أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : ما شيء أدل على الزهد من السخا، والذين يحبون الدنيا ما يحبون الصالح إلا لسماحته لهم بالدنيا.

(2/297)

وقال رضي الله عنه لرجل بعد ما ذكر أمر المعاش : اقصد محبة الله ، وهذه الأمور تجيك عَرَض ، أيُعوِز اللهَ أن يعطيك خرقة وكسرة ، لو كان هو مانعاً ذلك أحداً لمنعه الكفار، فإذا أردت أن تعرف الله، فانظر إلى الكفار، كيف يرزقهم وينعمهم ، تعرف إن الدنيا بأسرها هَمٌّ وشاغل ، ولا ترى أَرْوَحَ ممن يأكل كسرة خبز على دكة أو في مكان مثل الطَلَب( ) فإنهم أَرْوَحُ من غيرهم بكثير، وقال لي بعض الجماعة : إن الحبيب قال لي يوماً: ما لك ليس لك تدبير ولا معرفة بالأمور؟، فقلت : يا سيدنا إن الله لم يجعل لي شيئاً من المعقول ، ولا أُحْسِن فيه تدبير الأشياء، فقال رضي الله عنه : أما علمت أنهم قد ينزعون من الإنسان المعقول ، فيقربوه بذلك إليهم ، ويعطونه معقولاً فيُبَعِّدُونه بذلك عنهم .

وذكر رضي الله عنه "منهاج العابدين". فقال رجل : لكنه عسر، فقال سيدنا: ما عليك ، إذا أُخِذَ على

المقدور أحسن من لا شيء، كما قيل لسفيان الثوري : قد سبقنا أناس إلى الله تعالى ، وتبعناهم على حُمُر عرج ، فقال له : أوَ نحن على الطريق على أثرهم؟، فإذا كنا كذلك فلا بأس ، فنحن وإن سبقونا نلحقهم ، وإنما الخوف أن لا نكون على الطريق ، فنميل إلى الهاوية ، ثم قال سيدنا: وأين الناس اليوم ، راحت بهم الشهوات والغفلات ، وضاعت منهم قلوبهم فلم يجدوها، فمنهم من لم يلحق قلبه ، ومنهم من لحقه ولا انتفع به ، فترى تخطر على بال الإنسان إذا كان في الصلاة خواطر لا حاجة إليها ولا نفع ، ويخطر له منها من آن يصبح إلى أن يمسي ما لا يحصى .

وذكر رضي الله عنه أقواماً كان ألفهم وألفوه أيام الصغر، فتكلم كثيراً وكان هذه عادته إذا ذكر ذلك الوقت وصفاه بالنسبة إلى الوقت الحاضر وكدره ، ثم قال : الحديث شجون، يجر بعضه إلى بعض ، ومن طال سِنُّه كثرت شجونه ، إلا أنه يُصَدَّق في بعض دون بعض ، ثم إنه التفت إلى بعض الحاضرين وأنشد هذا البيت :

وحدثتني يا سعد عنهم فزدتني ... شجونا فزدني من حديثك يا سعد

وقال رضي الله عنه : في هذا الزمان إذا حصلت للإنسان الشهادة ، وواجهته الرحمة ، فسكون القبور خير له من سكون الدور، وقد رأيت ليلة في النوم الشيخ عمر العطاس يقول ذلك ويتمثل بقول بامخرمة :

قِدْ حِلال المقابر خير وأكثر فوائد ... من مقامي كذا ما بين واش وحاسد

ما قال في كلام بامخرمة

وذكر يوما رضي الله عنه كلام بامخرمة وما فيه مما يشكل فقال : يُترك على ظاهره فلو كان من كلام

الأئمة المحققين المقتدَى بهم أُوِّلَ له تأويل يليق ، وأما كلامه فيترك على ظاهره ، فإنه يتعاطى أموراً لا تليق بالكمل من الصالحين ، إلا إنه محفوظ بنور العلم ، وكلامه إنما هو وارد وكان من أهل العلم والصلاح ، إلا إنه مخرب في طريقة الصوفية ، والشاعر ما يؤاخَذ بقوله ، فإن كان عالماً لا بد أن يقصد أموراً محمودة.

ومر في الدرس في القراءة في الاربعين الأصل ، وتمثيله للتوحيد، وإن له أربع درجات ، وفي الرابعة وهي اللب ، إلى أن قال : وذلك بأن يعرف سلسلة الأسباب ، وكيفية تسلسلها، وارتباط أولها بمسبب الأسباب ، فقال سيدنا عند ذلك : وهذه الأشياء لا تحصل إلا بجود إلهي ، أو برياضة تامة ، حتى ينقطع تعلقه بالخلق ، ولا يبقى له تعلق إلا بالله ، كهؤلاء المتجردين الذين يسيحون في الأرض ، قال : وهذا في التوحيد الرابع وهو عسر جداً يُتَحدث به ولا يوجد، ولا يقع إلا خطرات ، ولو دام لاضمحل الإنسان ، ويحصل إما بالجذب أو بالرياضة ، وليست ترك الأكل بل العمل( ) والإجتهاد، وإنما يكفي الإنسان التوحيد الثالث أن يصحح العمل ، والتوحيد على طريق العامة( )، ولو كان مع ذلك مكتسَباً فلا يضره .

وسألته رضي الله عنه عن معنى قوله ، في القصيدة العينية :

تلك الأئمة والدعاة إلى الهدى ... ... والحق من أهل المقام الرابع

(2/299)

فقال نفع الله به : هو المقام الرابع من مقامات التوحيد التي ذكرها الإمام الغزالي رحمه الله ومَثَّل لها بأربعة أمثلة .

وقال له رضي الله عنه بعض أولاده يوماً في معرض المدح( ) : إن فلانا ما فيه أدب ، فقال نفع الله به : أكابر العرب ليس فيهم أدب( )، إنما الأدب معروف عند العجم ، مستنكر عند العرب ، والكرم معروف عند

العرب ، مستنكر عند العجم ، وكان ذلك ضحى يوم الخميس لعله غرة رجب من سنة 1124 وسبب هذا الكلام ، إن المذكورين من الأولاد والرجل المذكور مع جماعة آخرين كانوا مع سيدنا في حضرته على الغدا، لأن هذا اليوم أي غرة رجب ، يوم عيد عند أهل حضرموت ، فاتفق أن قام بعض الأولاد فقام فلان المذكور، ثم إن سيدنا نفع الله به أخذ يفرق لقيمات على الحاضرين ، فقال : أين فلان ، فقال ابنه المذكور: فلان ليس فيه أدب أي لأنه قام قبل أن تقوموا، فأجابه بما تقدم ذكره نفعنا الله به وجزاه عنا خيراً.

ما قال في قراء القبور

وضرب رضي الله عنه مثلاً لقراء التربة الذين يقرأون على القبور أي بالأجرة يذمهم ، فقال : قراءة أحدهم مثل الحنذوله ، يوزوز ، وتقدم قوله : قراء القبور بين الآثم والسالم ، فلا هم يُعَدون قارئين ولا ساكتين ، فإنهم يتحملونها بإجارات وشروط( ) والقاريء وحده أسلم عاقبة ، ومَدَح عنده رجل رجلاً آخر، فقال رضي الله عنه : حتى نسأله عنك ، فإن مدحك هو فإن مدحك له معلول غير صحيح ، فإن المدح في هذا الزمان مسالفة .

أنظر إلى مرائيه المباركة الصالحة

(2/300)

وعندما خرج رضي الله عنه لصلاة الظهر يوم الأربعاء تاسع رمضان سنة 1128 قال : رأيت ضحوة هذا اليوم عوض بن صبَّاح ، وكأني أسير في البلاد وهو يسير معي فنمر في أرض سوداء من كثرة الوَضَح( )، فيقول لي : لأي شيء مانهيتموهم عن هذا وهو غضبان من أجل ذلك ، فقلت له أمر هذا سهل ، هو ذا يجيء الآن المطر مرة مرتين فيغسله ، ثم قلت له : إنما نحن ننظر إلى هنا، ورفع نفع الله به سبابته يشير إلى السماء، وأنتم تنظرون إلى هنا ووضعها يشير إلى الأرض ، فبقينا نسير من طريق مديحج ، وكان أكثر ترددنا أيام الصغر فيها، وكأنا نريد إلى

دارنا وإذا بحفرة وطية غير كبيرة يُخشى من سقوط رِجل الماشي فيها، فقلت له : مثل هذه ينبغي أن تدفن ، فدفناها ومضينا، قال سيدنا: ففرحت بهذه الرؤيا لخصلتين ، إحداهما إشارتي بإصبعي إلى فوق جهة السماء، والثانية ذكري للمطر، ثم قال : وكثير من الناس حنقانين علينا لأجل أغراضهم لا غير.

وقال رضي الله عنه : رأيت سابقاً كأني مِتُّ وأتيت إلى باب الجنة وإذا هو مغلق( )، فقلت: إني قد مِتُّ على الإسلام فلا يضرني ذلك ، ومرة قال لي : رأيتك في النوم ، وعليك خاتم فضة وفوقه قطعة زائدة ، وذلك زيادة خير .

وقال رضي الله عنه لرجل من السادة في مجلس القراءة ضحوة يوم الاثنين في 14 ذي القعدة سنة 1124: رأيت البارحة في النوم كأني وجماعة من الأحياء والأموات في الحرم الشريف تحت الكعبة ، فقُسِّم عليهم سُكَّر نبات ، فلما استوفوا كلهم بقيت بقية فقلت : وهذا قسمي ، فإذا بك قد دخلت ، فقلت لك : تعال أقاسمك إياه ، فقسمته بيني وبينك أنصافاً، وذكر من الأموات السيد أحمد الهندوان ، ومن الأحياء السيد عبدالله بن مصطفى( ) .

(2/301)

وتقدم له رضي الله عنه مرائي كثيرة رآها في حضرموت وفي الحرمين ، من جملتها ما رأيته مكتوباً بإملائه على الكاتب ما لفظه : الحمد لله ، رأى الشريف عبدالله بن علوي الحداد ليلة الثلاثاء، خامس ذي القعدة سنة 1120 كأنه دخل عليه الشيخ حسين بافضل صاحب مكة ، وأخذه( ) في الحياة فقال( ) : الحمد لله يوم عادك زرت تريم ، وكأنه يقول : أسألك بالله ورسوله أن تضمن لي بالجنة ، وإن أردت أني أخرج أجي لك بالشيخ ابن عربي خرجت ، وكأنه خرج ليجيء به ، انتهى.

وذكر رضي الله عنه رؤياه المشهورة في مسجد باعلوي وهي : إنه رأى الشيخ علي بن أبي بكر في المسجد، وفيه جماعة من السادة أيضاً من جملتهم

الشيخ عبدالله بن أبي بكر، فقال الشيخ علي لأخيه الشيخ عبدالله المذكور : هناك رجل يريدك يشير إلى الرائي ، قال : فجاء إليَّ ، إلى آخر الرؤيا كما رآه عند قبره في الواقعة التي أشار إليها وقد سبق ذكرها( ).

وقال رضي الله عنه : لا يقضى بين أهل الأعراف إلا آخراً، فعند ذلك إما يعطيه بعض إخوانه حسنة يتمم بها ما يتوقف عليها دخوله الجنة ، أو يتفضل الله عليه فيأمر بإدخاله .

انظر إلى تهليل زبيدة

(2/302)

وقال رضي الله عنه لرجل موسوس : نريد نعلمك تهليل زبيدة بنت جعفر ابن الخليفة المنصور، لأنك رجل موسوس ، وكلما جاءك من التهليل يسقي شجرتك فإن كانت ضعيفة قواها، وإن كانت قوية زادها قوة ، وكان لها مآثر وأعمال خير، رؤيت في المنام ، فقيل لها ما فعل الله بكِ ، قالت : نفعني الله بهذا التهليل ، لا إله إلا الله أرضي بها ربي ، لا إله إلا الله أفني بها عمري ، لا إله إلا الله أدخل بها قبري ، لا إله إلا الله أخلو بها وحدي ، أربع كلمات وبعض الناس يغلطون : يقولون زبيدة بنت مروان ، كيف وهي زوجة هارون الرشيد، ومروان عدوه ، وهي بنت عمه لَحْ( )، ثم قال لذلك الرجل إنا نرى عليك سيما المؤمنين ، فلا عاد توسوس وتسيء الظن بربك ، وسر على الطريق ولا تتخلف فتنقطع وتهلك في المخاوف ، لأن مخاوف الطريق من خَلْفِها أكثر من مخاوفها في أثنائها، ولهذا جاء : إن ناراً تمشي يوم القيامة خلف الناس تسوقهم إلى المحشر، والشيطان حاسد يريد الناس كلهم يدخلون النار فلا تتبعه ، ونحن نطرح على النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم، وهو يطرح على ربه ، والأمر إلى الله فاعملوا ولا تغتروا، وكان هذا الرجل يَخْرُج عليه وقت الصلاة ويعجز عن الإحرام بها، فيكتب كل صلاة تفوته إلى أن يتمكن من قضائها.

وذكر يوما رضي الله عنه تلك النار المذكورة ، فقال تخرج من قعر عدن من بئر في صيرة.

وذكر رضي الله عنه ذات يوم الأوراق الواصلة إليه من الجهات ، فقال : خُصَّ بالبلا من عَرَف الناس أو عرفوه ، الأول مشغول بنفسه والثاني مشغول بربه .

(2/303)

وذُكِر له رضي الله عنه بعضُ الجهات بأن بها مرضاً شديداً، حتى إنه قد يغيب الإنسان عن حسه وشعوره ، فقال : هذه الغَيبة بسبب قوة الخواطر لكثرة ما يرى من الموتى ، فإذا اشتدت في الباطن ظهر أثر ذلك على الظاهر، وكل الناس إلى هناك فإن الأمر على التدريج ، ولو وقعت الأمور على المقاصفة والكثرة لغيرت عقول الناس ، مع إن كل هذه الأشياء يؤُمن بها الإنسان ، ولكن لم يتحقق بها، فتراه يؤمن بالشيء فإذا حَصَل له جَزِع وخاف .

وقال رضي الله عنه لرجل ادعى أنه لا يبالي بما يفوته( ) : إن كلامك هذا في اللسان دون القلب ، والكلام بمجرد اللسان مثل القربة المنفوخة ، فارغة ما فيها شيء، والكلام في اللسان مع موافقة القلب له كالقربة الملآنة .

ما قال في العشق

وذكر يوماً رضي الله عنه العشق فقال : لا يرقى الإنسان إلى الشيء إلا من جنسه في كل شيء من أمور الدين والدنيا فلا يرقى إلى سماء الشيء( ) إلا من أرضه( )، فإن سقط من سماه فلا يسقط إلا إلى أرضه كائناً ذلك الشيء ما كان ، فمن كانت همته في الأكل مثلاً، فلا يرقى منها إلا إلى شهوة الوقاع ، وكذلك من همته الجمع والتمتع ، قال وهذان البيتان للشيخ أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله :

أُحِبُّ الكأسَ من غير المدام ... وأهوى الغانيات بلا حرام

وما حبي لفاحشة ولكن ... رأيت العشق من شيم الكرام

وهذا عشق مِنْ طَالِعْ ، عشق الأرواح ، وهو محمود، لا العشق المذموم فإنه عشق من أسفل ، فرب واحد منهم لم يتزوج مدة عمره ، فإنَّ شَبَقَ الحمير عشق بلا أليف ، حتى عشق الطير ليس هو مثله ، فإنها تذكر أليفها فتشتاق إليه ، وفي الطير خفة تشبه الأرواح والملائكة ، وكلٌّ أمرُه إلى الخفة ، وأما البهائم فكثيفة مثل طبع الأحجار.

سيرة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي

وكان الشيخ أبو إسحاق من الزاهدين ، حتى إنه كان قُوتُه قرصاً يابساً يفته بالماء ويأكله وينشد :

خبز وماء وظل ... ... هذا النعيم الأجل

(2/304)

جحدت نعمة ربي ... ... إن قلت إني مقل

وقد يفته في السوق عند الذي يطبخ الفول ، ومضى إليه يوماً فلم يجده فقال الشيخ تلك إذاً كرةٌ خاسرة ، ثم قال : والعشق ما يتم إلا بشروط لاختلاف الناس فيه ، فإن أحداً يهوى في الرضا، واحد في الجفا، وأحد في العطا، ولولا اختلافهم لما صدروا أشتاتاً.

ومن نقل السيد عمر البار رحمه الله في بعض المجالس ، وكنت حاضراً إلا إنه حفظ ما لم أحفظه ، قال لسيدنا نفع الله به رجل : عسى القبول ، فقال : عسى الله ، عسى الإقبال والقبول ، وأنت على ما أردت من حيث الإقبال ، إن كان من الرب أو من العبد، وأما القبول فلا يكون إلا من الرب .

وسأله السيد عمر إذا من الله علينا بشيء من ملبوسكم كيف نفعل به ، نلبسه أو نخبيه ، فقال : إلبس لباس العافية ، إن الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله ألبس بعض الناس طاقية ، فقال له :

إلبس العافية ، فبقي مدة لم يتألم بألم ، ثم قال له السيد عمر: وإذا تقطعت الثياب كيف نفعل بالدويل من ذلك ، فقال : يكسوه المتبركين( )، الثياب الا تكسى ورأى أبويزيد بعض فقرائه يمشي خلفه ويجعل قدمه محل قدم الشيخ ، فقال له الشيخ : لو إنك سلخت جلدي وجعلته عليك لم ينفعك ما لم تتبع طريقي في السير إلى الله ، ثم قال سيدنا: ونحن ما نعطي الناس إلا على قدر نياتهم ، ولا يخيبهم الله إما يعطيهم على نيتهم أو فوقها أو دونها، وأما نحن فلا نرى أنفسنا أهلاً لشيء، ولكن كما قال الشاعر:

يظن الناس بي خيراً وإني ... لشر الناس إن لم يَعْفُ( ) عني

(2/305)

ولكن الناس لا يسلِّمون لك ، ولا يَتْبَعُونك على نيتك ، وكان عيسى عليه السلام ، لما عظمه الناس ، فَرَّ منهم ، فلما فَرَّ عبدوه ، ولو عملنا على ما نرى لأنفسنا لكان في ذلك قطع التبركات ، والناس أيضاً ما يُسَلِّمون لك ما تدعي من عدم الأهلية انتهى ما نقلته مما حَفِظَ في هذا المجلس المبارك ، وحفظت أنا بعد قوله من عدم الأهلية ، وهو كذلك في بعض الأشخاص ، حتى إنه ليذم نفسه ويقول : أنا ضعيف مسكين مذنب مخطيء، ونحو ذلك مما فيه هضم نفسه ، وفي إظهار التواضع إظهار المنزلة ولو بهتَّه وقلت له يا مخطيء يا كذا مما يصف به نفسه ، لأشتد ذلك عليه وضاق به الحال ، وإنما نقول نحن كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه : إنما أنا رجل من المسلمين ، وذلك لما سأله ابنه الحسن( ) رضي الله عنه : أيما أفضل أنت أو أبوبكر؟، قال : أبوبكر، قال : فعمر، قال : عمر، قال : فقلت : ثم أنت؟، فقال : إنما أنا رجل من المسلمين ، ولم أقل له في عثمان خوفاً أن يقول : هو أفضل مني ، ثم قيل لسيدنا : عسى ببركتكم تحصل الرحمة للمسلمين ، فقال : لن نَعدم خيراً من رب يضحك . كما قال الأعرابي : يا رسول الله أوَ يضحك ربنا قال( ) : نعم ، قال : لن نَعدم خيراً من رب يضحك ، وهو سبحانه كما

أعطى البعض ، فهو يعطي الكل انتهى ما قاله نفع الله به في هذا المجلس المنور، وهو ضحى يوم الجمعة في دار البلاد، ثالث شوال سنة 1128، ثم بعد صلاة المغرب مضى سيدنا من الدار إلى الدار التي يريد المبيت فيها فقال للسيد عمر المذكور وهو ماسك بيده : عاد دوعن فيه حياة بظهور أثر العلم فيه وما مات العلم فيه بالكلية مثل وادي عمد، قال : لكن ذلك صورة بلا حقيقة ، فقال سيدنا: مجرد صورة أو حقيقة خير من عكسه( )، وإن كان أحدهما لا يُنتفع به دون الآخر، وأين الحقائق اليوم فقد طال بالناس العهد من وقت حقائق الأمور، وإذا كانت الصورة ظاهرة ولو بلا حقيقة ، فهو خير من عدم الصورة والحقيقة ،

(2/306)

وقد انقلب الناس اليوم إلى حال آخر، فلو ألقيت إلى أحدهم كلمة أو كلمتين من العلم لم يفرح بهما ولم يتأسف على ما مضى من عمره قبل أن يعرفهما، ولو سألته عنهما بعد يوم أو يومين رأيته قد نسيهما ولا يهمه ذلك ، ولو أعطيته أوقية مصفى لكان كم خواطر تخطر له فيها، وكم أمور فعلها، وكم شهوات أخذها، وتَحَفَّظَ عليها غاية الحفظ لئلا تضيع أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : فلان مُهَوِّن( ) ولا فيه نظر، ولكن إن شاء الله فيه تقوى ، ومع التهوين وعدم النظر تضيع على الإنسان أشياء أكثر مما تضيع مع عدم التقوى ، وأمور الدين والدنيا ما تستقيم إلا بالنظر، وإلا فاتت فكم كرر الله سبحانه من قوله : انظروا انظروا . وتقدم قوله : إن والي الأمر لا بد له من نظر، إن لم يكن نظر دين كان نظر دنيا.

أنظر كلامه في الرفق والتواضع

وقال رضي الله عنه : الوطاء( ) محمود في كل شيء، فإذا عسر عليك أمر فَتَوَطَّ له ، وهو معنى حديث : ((ما كان الرفق في شيء إلا زانه ـ ـ ـ الحديث)) ، لأن الإنسان لا يخلو إما أن يكون حجراً أو

ماء ، وكلاهما ينفع فيه الوطاء، فلا يسيل الماء إلا في الموضع المنخفض ، وأنشد هذا البيت :

العلم حرب للفتى المتعالي ... ... كالسيل حرب للمكان المعالي

وذكر رضي الله عنه الزمان ونَقْصَ من لحق عن حال من سبق فقال : إن النور لم يزل يختفي شيئاً فشيئاً، والظلمة لم تزل تظهر شيئاً فشيئاً حتى تقوم الساعة ولا أحد يقول : الله ، ولو إن الآتي كالذي قبله لم تقم الساعة( ).

(2/307)

____

وقال رضي الله عنه : عَزَّ الصدقُ اليوم جداً، حتى لو ذُكِرَ رجل صاحب صدق بارٍ لم يصدَّق لعدم إلف الناس لذلك ، إذ لا يصدِّق الإنسان إلا بما يألفه ويفعله ، فلو قيل لهم : إن أحداً أُعطي عشرة قروش فردها، أو أخذ حاجته وردَّ الباقي لم يصدقوا، ثم إن الإنسان اليوم ربما تُمنيه نفسه أن لو كان معه مال لفعل به كذا وتصدق ، فإذا تمكن لم يصبح من ذلك شيء، وكذا يكون قبل حصوله قانعاً بثوب وقوت يوم ، وإذا حصل انبعثت دواعي أخرى ، ولكن اللهم ارزقنا ما يكفينا، وامنع عنا ما يطغينا .

قصة الرجل من آل بافضل مع أهله

ثم ذكر : إن رجلاً فقيراً من آل أبي فضل كان مع أهله سالكين ومستريحين بحالهم في بيتهم ، وفي جوارهم بعض الأشراف معه مال ، فبقي الشريف طول ليله مع أهله في كلام من جهة نفعل كذا ونترك كذا، فلما رأوا من حال بافضل وأهله في الراحة غبطوهم براحتهم ، فأعطاه الشريف شيئاً من ماله ، وقال له : اتجر فيه ولك الفائدة انتفع بها، ورأس المال لنا، فبقي بافضل مع زوجته طول ليلهم في كلام ، يقول : نشتري كذا، وهي تقول : بل نشتري كذا وعلى هذا، ثم إنه تفطن وقال للشريف خذ مالك وأرحنا منه.

أنظر ما قال أيام الخريف

وقلَّ القراء يوماً فسأل رضي الله عنه عنهم وقال : من شأن الخريف التشتت ، لأنهم يتقسمون في الوادي وفي البلاد ، وهو موسمهم ، وأهل مكة موسمهم أيام الحج ، فيعطِّلون( ) فيها لاشتغالهم ، إذ يحصلون في هذه المدة كفايتهم في كل السنة ، وكان من شأن السادة الأولين الإرتحال للتخرف والنَّفَس ، كانوا أَوَّلاً يحلون ببيت جبير، إلى وقت الشيخ عبدالله ، ثم حلوا قَسَم حتى اجتمع فيها في نخل يسمى بازياد نحو أربعين سجادة ، وكانوا يعجبهم التمر بالخصوص لأنهم يعتقدون حِلَّه ، فإنهم يَرِثُون النخل عن أجدادهم وأسلافهم ، ومن الكلام المنسوب إلى السقاف : من حَصَّل أيام التعطيل ، عطل في أيام التحصيل .

(2/308)

وقال رضي الله عنه لرجل : حِلُّو على الشجر والمرعى والنَّفَس وإن لم يكن خريف ، فقد كانوا يفعلون ذلك لذلك.

وقال رضي الله عنه : كلٌّ جعل الله فيه نفعاً للآخر، جعل في الرجال نفعاً للنساء، لا يوجد إلا فيهم ، وفي النساء منافع للرجال لا توجد إلا فيهن ، وشيء يوجد في كُلٍّ ، ولو لم يجعل النفع إلا في أحدهما، لتعطل جانب العالَم ، وفي ما رأينا من عجائب البلدان أن بلداً كلها نساء ما فيهم رجل ، ولا يلدن إلا النساء، وسقط عليهم رجل فأرادوا قتله .

وأرسل لسيدنا رضي الله عنه بعضُ أهل السواحل بشملة ، وطلب منه شيئاً من اللباس ، فقال نفع الله به : لا عاد تطالبونا إلا بالجزاء الذي لا ينفد، الفاتحة والدعاء، ولو تعلق بنا عشرة أنفس مثلاً كل واحد يأخذ من ثيابنا شيئاً لبقينا بلا ثياب ، ومن أراد البركة يكفيه أن يجيب ثوب أو كوفية ، نُلْبِسْها له ، وقد ذكر الشيخ عبدالله بن شيخ : إن جميع أهل الجهات إذا أرادوا يتباركون بالصالحين ، جاءوهم بشيء

يعطونهم إياه ، إلا أهل حضرموت ، فإنهم إذا أرادوا البركة طلبوا منهم أن يعطوهم .

ما قال في مسجد آل أبي علوي وليلة ختمه

(2/309)

وسألته عما يعتقده أهل تريم من أفضلية صلاة الصبح في مسجد باعلوي صبح ليلة ختمه بالخصوص ، أي في شهر رمضان دون غيره واجتماعهم له ، هل فيه خاصية أو يؤثَر ذلك عن أحد، فقال رضي الله عنه : لا، وما كنا نعرف ذلك ، وإنما الذي على تِقْنِنَا( ) إنهم من بعد تمام كُتُب الختم يتفرق الناس كلهم ، ولم يبق منهم أحد، إلا من جلس يتهجد، فنمر عليه في مضينا إلى الهجيرة لصلاة الصبح( )، فلا نرى أحداً إلا من جلس للتهجد، ونمر عليه بعد الصلاة فلا نرى أحداً( ) وإن كان فيه بعض الناس ، وكان لم يكن شيء من الذكر بعد الختم ولكن لعموم بركة مسجد آل باعلوي ، يجتمع الناس فيه ، ويرغبون في الإجتماع لذلك ، وهذه أمور حدثت ، خَفيت فيها المقاصد وظهرت فيها العوائد، قلت : فالمقاصد من قوم ، والعوائد من قوم آخرين ، قال : نعم ، حيث لم يعلموا اليوم ما هو المعتاد في وقت السلف ، وحدوث هذا كان في وقت حامد( )، قلت : فصلاة العصر فيه مأثورة ، قال : نعم عن بعض السادة لعله الشيخ أحمد باجحدب ، وإنها حَبَشَة بلا جِفِلَّة( ) وذلك لفضيلة البقعة والوقت ، لكون بقعة المسجد كانت مباحة( ) وبنيت بحلال حتى إن طينه حملوه من أموالهم من بيت جبير، ولاجتماع السادة فيه في هذه الصلاة إجتماعاً لا يكون في غيرها، وفي فضل هذه الصلاة خاصة أيضاً أحاديث واردة صحيحة.

(2/310)

وقال رضي الله عنه لرجل يمازحه( ) : نريدك تروح إلى عند السيد علوي بن عبيد الله ، تأخذ نحو ثلاث إن تيسرت لك أمورك ، وإلا ارجع ، ولكن ربما لو جُعْتَ

طلبت تمراً أَوَّلاً فإذا حصل طلبت خبزاً، فإذا حصل طلبت له خصاراً ثم لم تحس إلا تحرك عليك شيء، فقلت أريد أهلي ، وما هذه حالة المتجرد، كأنكم ما سمعتم بقصة توبة ذي النون ، وخروج السُّكرُّجات له من الأرض ، ورؤيته القُنبرة العمياء وغير ذلك ، إنما حال المتجرد إنه كلما طعن في السن عد نفسه في أصحاب القبور، ثم قال : وكل من وثق بغير الله هلك ، ثم الموثوق به إن سكن إلى ذلك واطمأن إليه هلك الآخر أيضاً، ثم بعد ذلك قال : لا ما لفلان عذر إلا نجزم عليه ، فإن لم تتيسر له أموره واحتاج أذِنَّا له في الرجوع ، وإلا وقع له جاه وحشمة جلس إلا أن تطغى نفسه أو احتاجت رجع.

وقال رضي الله عنه عشية يوم 29 صفر سنة 1124: لا تحب الكافر لأجل المؤمن ، ولا تبغض المؤمن لأجل الكافر، لأن ذلك بعيد المناسبة ، وكذلك في المنافقين.

وقال له رضي الله عنه رجل : ألبسني ، وقد تقدم له منذ أيام إلباس ، فقال له : قد ألبسناك مع جماعة منذ أيام ، فلا ينبغي لمثل هذه الأمور أن تبتذل لأنها عزيزة ، وقد ذُكِر : إنك إذا اعتقدت مثلا إن فلانًا شيخك ، ينبغي لك أن لا تأكل معه ، ولا تجلس بجنبه ، أو على سجادته ، وقال له : الله يتولى الصالحين ، فإذا أردته يتولاك أو قال يصلحك فأصلح ما بينك وبينه .

وقال رضي الله عنه : ما يتم الأمر إلا بثلاثة أشياء، وهي الأثافي( ) التي يقوم عليها : النية والعلم والعمل ، لكن لما كان هذا أمر الدين ، فتكون سريراً فتحتاج إلى رابع ، وهو الاعتماد على الله .

ما قال في الوفاء

(2/311)

وقال رضي الله عنه لرجل يعاتبه : لو دخلت الخلوة ما بارك الله لك فيها لعدم مشاورتك لأهل المعرفة ، فإذا كان أمور الدنيا ولا أخس منها، يستعان عليها

بمن يعرفها، فكيف بأمور الدين. والأفعال مع الهوى ليس تحتها طائل ، والهوى كالجُفاء لا يبقى ، وإنما يبقى الحق ، ثم تلا : { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً }( ) الآية، وقال : إذا أردتم تعرفون الفرق بينهما فاقرأوا الآية هذه ، ثم قال : صادف الهوى أوعية أهل الزمان فارغة فسكن فيها فامتلأت به ، ولو كانت ملآنة بالحق لخليت منه ، والهوى عبارة عن خلو الإناء، فبقدر ما يمتليء يذهب منه وبقدر ما يفرغ يكون فيه ، وقال للرجل المذكور: أتريد أن نراعي فيك حسن الوفاء، ولم تراعه معنا، لا، لا يحمل شجرُ الشوك ثَمَراً، قال ذلك للتعليم والتأديب ، ثم قال : لا يطول الرأس في الدنيا والآخرة إلا بحسن الوفاء وكان ذلك عادة النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم وأصحابه معه ومع أصحابهم وأقاربهم حتى من الكفار، حتى ذلك الرجل( ) في قصته المشهورة مع سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث قال له : لو لا يدٌ لك عندي لم أكافئك بها لأجبتك. ثم طال كلام سيدنا في الوفاء، حتى ذكر العمودي صاحب شيخه الشيخ محمد بن علوي بحسن الوفاء، حيث اعتكف سنة( ) لا يفارقه إلا وقت الصلاة ، قال : ثم وقعت له رؤيا عند قبره ، فسافر إلى المدينة ، فاجتمعنا به ، وطلب منا أن يقرأ علينا في حِكَم أبي مدين ، فلما ابتدأ حصل في حلقه شحام( )، فقال : أخاف إن السيد محمد ثقل عليه أن أقرأ عليكم ، فقلنا له : لا، إنما نحن والسيد محمد شيء( ) وأماثل السادة شيء واحد، ثم ضرب لذلك مثلاً، فقال : ونحن معهم كالجوابي مفترقات من فوق ، وملتقيات من تحت ، أي ولو افترقنا في الظاهر، فنحن مجتمعون في الباطن ، ثم قال : ولو ذكرنا سيرة هذا العمودي ، وسيرة حسين بافضل معنا، لاحتاجت إلى كراريس ، وإنما ذكر ذلك نفع الله به ليعرف الملازمون قلة وفائهم معه ، ومما ذكر

في شأن العمودي معه أنه طلب أن يفرش له السجادة في صلاة الجمعة وأن يغسل ثيابه كل يوم.

وقال رضي الله عنه : كل نفس تخرج من الدنيا ظمآنة إلا نفس الذاكر، وكل يوم للذاكر عيد، والعيد رضا ربك .

ما قال في التجربة

وقال رضي الله عنه : التجربة قسم من العقل ، ولا بعد 22 سنة زيادة في العقل ، إنما هي التجربة فقط ، وإذا أردت تصحب أحداً أو تخالطه لا عليك من ذلك( ) ، خصوصاً في هذا الزمان الذي قلّت فيه الأمانة ، ولو لا أن عاد طرفاً من الحياء، لخرجت في هذا الزمان أمور غريبة ، وقال سيدنا علي رضي الله عنه : الحزم سوء الظن ، أي الحذر والتجربة من غير ما تسيء به ظناً، ولا عاد يسع الإنسان في هذا الزمان إلا الصبر والتحفظ لأنهم ضباع ، إذا طرفت لهم أكلوك ، وأنشد هذا البيت( ):

ومن يفعل المعروف مع غير أهله ... يجازى كما يجزى مجير أم عامر( )

وقال رضي الله عنه : لا بأسٍ أن يُكثر المريد من المشايخ ، إن حصل له من كلٍّ فائدة ، وإن اجتمع قلبه على نحو اثنين أو ثلاثة فليعتمد عليهم ، ويأخذ الفائدة من الباقين ، وإن اجتمع قلبه على واحد ولم يمكنه الانتفاع من غيره ، فليلزمه فهو شيخه .

(2/313)

وقال رضي الله عنه : ليس في الإنفاق في الصدقة إسراف ، فإن أجحف بعياله فلم يُبقِ لهم شيئاً جاء النهي من حيثية أخرى ، ولا تحدث أهل الزمان بالإمساك رأساً، فلعلهم لم يُخرجوا الزكاة ، ومنهم من يأخذ مال محتاج بنصف القيمة ، فهؤلاء هم أعداء الشريعة ، وخل الأعداء الكفار ونحوهم ، والأشياء بغت البصائر لا الأبصار، لأن البصائر هي التي تعرف طريق الدين ، لا الأبصار، لأن الطريق مظلمة لا يسلكها إلا أهل البصيرة ، ومن ليست له بصيرة يقلد صاحب البصيرة ، وقد يحصل النور في أثناء الطريق ، وطريق الإمامة الخاصة مظلمة ، فلا يسلك فيها إلا

من سلَّم يده( )، ولا تُحَسِّن لأهل الزمان ما هم فيه ، إلا إن كان حسناً فحسنه ، والناس درجات ، أحدهم يجيء باللطف والرفق ، أظن قال وأحد يجيء بالقهر والإكراه ، وكنا أردنا أن نجلس للناس على كرسي( )، لكن منعنا منه : أن سلفنا لم يفعلوا ذلك ، بل مشوا على المنهاج العدل الذي سلكه أناس قبلهم ، والجاهل لا يُحصل شيئاً من أمر الدين والدنيا، وإنما يُسلِّك وقته بالإعجاب .

ووصف رضي الله عنه الطريق ، فقال ما معناه : إذا رأى الإنسان الأمر عسيراً استصعبه ، كالذي يريد سفراً إلى مكان بعيد، يتأمل إلى ذلك المكان فيستعسره ، ثم ذكر رجلاً سار إلى نبي الله هود للزيارة ، فلما وصل النصف قال : ماذا بقي من الطريق؟، قيل : النصف ، قال : النصف يوصلني إلى بلادي ، فرجع وترك الزيارة ، وهذا كذلك ، لكنك إذا كنت في باب من هذا الأمر فافهمه ولا عليك أن تتأمل فيما وراء ذلك.

ذكر زيارته التربة وابتداء الحضرة

(2/314)

وزار رضي الله عنه التربة ضحى السبت 26 ذي القعدة من سنة 1124 فقال : كنا مرتبين زيارة التربة الا في ليلة الجمعة ، لأن في الليل يصفو الوقت للزيارة ويسلم الإنسان من تشويش الناس ، كل ساعة يجيئك واحد، وبقينا نزور كذلك حتى فعلنا الذكر في ليلة الجمعة في المحرم أول سنة 1072، فبقينا نزور في أثناء الأسبوع وترتيبنا الزيارة ليلة الثلاثاء بسبب رؤيا رآها بعض الأخيار، وهي : أنه رأى كأن السادة مجتمعين عند الفقيه المقدم ، ويقولون ما يكفينا من فلان في الأسبوع زيارة واحدة ، والآن لما حصل الضعف نزور على الاتفاق حسب الطاقة ، وإن طالت المدة ، وإذا زرت إن أمكنني أتم الزيارة وإلا زرت الفقيه وحده ، وقده تجتمع عنده أرواحهم ، فقلت له : قد كنتم تزورون في الليل ، وملازمين الزيارة لا بد منها في الأسبوع. فقال نفع الله به :

خل كان ، كنا نزور نمشي والمركوب قائم ، وما عاد ينفع كان لأن ما كان قد كان ، وعلى بالك أن ابن خلكان سمي بذلك ، لأنه يقال : إنه من ذرية البرامكة ، وكانوا على ما هم عليه فيذكرون الناس أيامهم ، ويقولون : كان فلان منهم كذا وكذا، ومنهم فلان كان كذا وكذا، ومنهم فلان كان كذا وكذا، وعلى هذا، فقيل له : خل كان ، أي أترك كان ، فقلت : هل الزيارة مندوبة في نفسها، أو لأجل التذكر والإتعاظ؟، فقال : لأجل ذلك وللتبرك بمجالسة الصالحين ، إذ ورد : إن رجلاً سأل النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم عن أفضل الأعمال ، فقال : الجلوس بين يدي ولي لله سواء كان حياً أو ميتاً، وورد: من زار قبري فكأنما زارني في حياتي ، فقلت : أيكون الميت يرى إن عليه حقاً للزائر ينفعه به في الآخرة ، فقال : شيء ضعيف ، دون من زار الحي ، ولهذا تعجب السائل من قوله عليه السلام حياً أو ميتاً، لأن الحي ترجو منه وصية ودعاء صالحاً، ومثال الزائر كالواقع في السيل ، إنما يطلب نجاته بأي ممكن ، فإنه يطلب ما يتخلص به منه كان ذلك ما كان ، ولو بحبل أو عود ولو ضعيفاً، فلو أضله

(2/315)

الشيطان وسَهَّل( ) عليه أمر الزيارة للميت فلا يكون له شيء من الأسباب التي يود أن يتخلص بها، قال : وكان إبراهيم الجعبري إذا مر بموضع قبره يقول : يا قبير، جاءك دبير. وهو مقبور بمصر، وكان من أهل العراق .

وقال لسيدنا بعض الناس إن في سنة 1072، لمزية على بعض السنين ، فيها رتبتم الراتب ، وفيها جعلتم الذكر ، فقال : نعم .

ما قال حيث يحل الشيخ أحمد بن عيسى وأولاده

وقال رضي الله عنه : من نظر إلى مواطن حيث يحلون السادة الشيخ أحمد بن عيسى وبنوه حيث يكونون في الأطراف تحت الجبال يستدل بهذا إنهم لهم مشمة بطلب دولة ورياسة ، ويكون قصدهم

إعلاء الحق والأمر بالمعروف ، فإن الشيخ أحمد بن عيسى ، يُذكر في الكتب إنه حل في الهجرين لارتفاعها وكونها حصينة ، واشترى فيها مالاً كثيراً ، ثم لما رأوا الماء فيها عزيزاً يؤتَى به إليها من هابَط تَرَكَها وأعطى المال بعض أخدامه ، ودخلوا حضرموت في الأطراف منها كما يُرى من قبر الشيخ أحمد بن عيسى في الحسيِّسة وابنه عبيدالله في العرض ببور، وابنه علوي بن عبيدالله في سُمَل ، يَعرف به إنهم لم يحلوا في هذه الأماكن إلا لأجل شيء يطلبونه ، وكانوا أهل علم وتقوى يحبون أن يتمكنوا من إقامة الحق ، وأيضاً خرجوا من البصرة بمال كثير له قدر، وكلما حلوا بمكان لم يطب لهم المقام فيه لكون هذا طبع الجهة هذه ، فبقوا في الأطراف ، إن حصل لهم ما أرادوه بقوا عليه ، وإلا فلا ينالهم في مكانهم أذى ملوك البلاد ، ولم يحل في بيت جبير ويسكن تريم إلا آل أحمد بن عيسى [أي أولاد أولاد أولاده].

(2/316)

وقال رضي الله عنه : تريم بلاد آل باعلوي ومسقط رؤسهم ، وإنما تفرقوا إلى أماكن أخرى ، حلوا فيها عن قريب بعد ذلك ، وكانوا تَدَيَّرُوها وحلوها سنة 521، من وقت خالع قسم ، هو أول من نزلها، وكانت هي بلدتهم لقضاء حوائجهم ، وهم كانوا حالين ببيت جبير، وسمل ، وعرض بور، فبنوا في تريم مسجدهم المعروف بمسجد آل باعلوي ، وقطعوا من محله شجر سَلَم ، وحملوا له الطين من بيت جبير طلباً للحِل ، وذلك قبل أن ينزلوها، وكان لهم فيها أيضاً حافات معروفة ، فحافة آل جديد حوالي مسجد الحبوظي ، وحافة آل بصرى حوالي مسجد بروم ، أو بالعكس وحافة آل باعلوي الحوطة ، وفيها مسجدهم المذكور، وأما الرضيمة فإنها قديمة ، حتى حكي أنهم لحقوا( ) في جبلها صناديق ، وفيها قبور آل قحطان .

وقال رضي الله عنه : استكثر من أعمال الخير ما استطعت ، وخذ منها ما تطيق المداومة عليه ، ولا تحتقر منها شيئاً، فلعل فيها( ) وصولك ، وذلك

كتهليلة وتسبيحة ، واملأ بطن جائع ، ولا تحتقر منها شيئاً، فقد رئي الإمام الغزالي بعد موته فقيل له : ما فعل الله بك؟، فقال : غفر لي ، فقيل : بم ذلك؟، قال : بذباب برح على القلم وأنا أكتب ، فتركته حتى روي ، فإن الخير كله في أمور الخير السهلة ، التي لا تراها النفس ولا تعدها شيئاً، وأما التي تراها وتعتد بها، فإنها يتطرق إليها البطلان ، إما من جهة الفاعل أو المفعول معه ، أو الحاضر بينهما.

وقال رضي الله عنه في حديث( ) : ((لكل نبي دعوة مستجابة قد دعا بها)) ، قال : هي دعوة عامة يدعو بها في ما شاء ، كأنه قيل له : إسأل ما أردت استجب لك .

(2/317)

وقال رضي الله عنه في قول صاحب العوارف (إن النفس بكل ما تلقيه من الخواطر، تأمر بالسوء) ، واستدل لهذا بقوله تعالى : { يَآأَيُّهَا الَّذينَ ءَآمَنُوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ }( ) الآية ، ولو إن الآية تشمل مراد من يريد تزكية النفس ، لكن الغالب اعتبار ذلك في النميمة والغِيبة ، ولا عبرة بقول فقهاء الزمان ، ومثلهم مثل حشرج الدخن ، يُدَق كثيراً ويظهر بلا فائدة فيه ، وما كان لهم فيه هوى أنكروا له ، وإلا سكتوا، فقد حكي : إن فقيهاً قال : إن الشيخ عبدالله [أي العيدروس] جلس رجل يفص له حتى دخل وقت بعض الصلوات ، قال للشيخ : قم للصلاة قال : قد صليت ، فخرج الرجل فرأى الجماعة قد خرجوا من مسجد الشيخ أبي بكر [أي السكران] مصلين ، فقال لهم : من صلى بكم؟، قالوا: صلى بنا الشيخ عبدالله ، وهذه وأمثالها تسلم لأولياء الله ، ولا يعترض عليهم فيها، لأن عقولهم [أي المعترضين] لا تبلغ أحوالهم [أي أولياء الله] ، ولكن قد يصح له قدم الصلاح [أي فيُسَلَّم له] وإلا كان فتنة ينبغي الإنكار عليه .

وقال رضي الله عنه : صاحب الحقيقة مستغرق فيها، وجميع عمله ومشهوده فيها، وأكمل منه

الجامع ، يضع الحقيقة موضعها باعتبار، ويضع الشريعة موضعها باعتبار.

وقال رضي الله عنه : كان الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه يعمل في عين الحقيقة ، وقل من لا تشغله الشريعة عن الحقيقة ولا تشغله الحقيقة عن الشريعة ، ثم ذكر قصة الكيسين الدنانير اللذَين أرسلهما له الخليفة العباسي الذي في وقته ، فعصر أحدهما فصب دماً، ورسول الخليفة ينظر، فقال له : قل له : يسلم عليك ويقول لك : أما تستحي ترسل إليَّ بدماء المسلمين ، فلولا قرابتك من رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم لجعلتهما نهرين يجريان دماً من الزاوية إلى بيتك ثم رُدُّهما عليك .

ما قال في الشيخ عبدالقادر والغزالي

(2/318)

وقال رضي الله عنه : ما رأيت مثل رجلين ، أحدهما من أهل الباطن ، والآخر من أهل الظاهر، يغبطهما أهل الباطن وأهل الظاهر، وهما الشيخ عبدالقادر والإمام الغزالي ، نَسَبوا للشيخ عبدالقادر كتباً فيها أمور منكرة ، واعترضوا على الإمام الغزالي وقالوا: لا تجوز مطالعة كتبه ، حسداً منهم وعدوانا، وكانا في أماكن متسعة ، تحصل فيها المنافسة والمباهاة ، ولكن من مات لا عاد تذكره إلا بخير لأمور، أولها : إن النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم قال : لا تذكروا مساويء موتاكم ، واذكروا محاسنهم ، والثاني : إنه رجع إلى الله ، ومجازاته إنما هي عليه سبحانه ، وهو كافيه ، والثالث : إنك إذا خصصت أحداً بالإعتراض ربما تَجَرَّأ أحد على الإنكار على أحد من أهل العلم لإنكارك على الأول ، بل ينبغي إذا بلغك عن أحد ما تنكر، أن تقول كما قال النبي صلّى الله عليه و آله وسلّم : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا. وتقدم قوله : اثنان يغار منهما أهل الباطن ، ويحسدهما أهل الظاهر، لأنهم إذا طعنوهما بمسلة طَعَنَاهم برمح : الشيخ عبدالقادر والإمام الغزالي .

ما قال في الزائر الخاص

(2/319)

وأتاه يوماً رضي الله عنه بعض الفقراء زائراً، فقال له : قد أمرنا لك عند الخادم بحاجة فاقبضها منه ، فقال : أتيتكم زائراً لا لطلب شيء، فقال له : ذاك كذلك فإذا أتيت للزيارة حصل لك النفع الدنيوي ، مع ما حصل لك من الزيارة من النفع الأخروي ، فقد جاء: إن آدم عليه السلام لما هبط من الجنة إلى الأرض نزل معه بأوراق من شجر الطيب ، ولها من الرائحة الطيبة شيء كثير، فأتته الظبية زائرة ، فأعطاها من ذلك الورق فظهر عليها ريحه ، فلما شم ذلك منها سائر الدواب ، جاءوا لآدم فلم يعطهم ، لأنها أتته زائرة ، وهن أتوه لطلب ذلك ، ويشبه هذه الحكاية ، ما سمعنا: يذكر إن رجلين أتيا إلى سيدنا الشيخ القطب عبدالله بن أبي بكر العيدروس علوي رضي الله عنه ، وأحدهما نيته الزيارة والتبرك بالشيخ ، والآخر نيته حصول شيء يأكله ، فلما وقفا تحت الباب وكل منها مضمر ما قصده ، أمر الشيخ الخادم أن ينزل بما أراده ذلك الرجل ، فيعطيه إياه ويصرفه من تحت الباب ، وأمر بالآخر فطلع إلى عند الشيخ فأكرمه وحصل له بحسن قصده من الشيخ الإقبال والقبول وأضعاف ما حصل لذلك من مراده ، مع ما حصل له من الخير الديني ، والمنزلة عند الله بحصولها له عند أولياء الله ، فسبحان المتفضل المنان بما يشاء على من يشاء، والحارم لذلك من أراد ممن لم يسبق له ما سبق للآخر، وكل ذلك متوقف على حركة المُضْغة [أي القلب] من حيث صلاحها أو فسادها، وهذا معنى الحكاية ، ومثلها ما يحكى عن الشيخ عبدالقادر قدس الله سره والرجلين معه ، لما وصلوا إلى الرجل الذي يسمى الغوث ، ويحتجب عن الناس ويظهر لهم متى أرادوا، والحكاية مشهورة ، وهذا سرُّ حديثِ : الأعمال بالنيات ، أو كما قال .

(2/320)

وذكر رضي الله عنه الطلسمات والعزائم والتنجيم وأمثالها فقال : هذه الأشياء كلها أمور باطلة ، ولو صدقت في بعض الأوقات في بعض الأشياء، لأن الباطل قد يشتبه بالحق ، فإذا أخلفَتْ في وقت ، قال : هذا من الله ، إذاً فاتركها إلى الله أولاً وآخراً( )، ولهذا، إذا أتيت المنجم مستعجلاً قال دعني أحسب ، وقال بعضهم : إن المنجم ونحوه متجسر على غيب الله ، لأنه ينزله من حاله حتى يركبه في الحس ، وقد يتعلم الأكابر أشياء من هذا القبيل ، فيظن بهم ظان أنهم متدينون بذلك ، وليس كذلك ، وربما تستروا بشيء من هذه عن إظهار كرامة ، والكرامة إنما تكون عند الحاجة ، وربما توهم بعضهم عند ظهورها أنه كان قادراً عليها قبل ذلك ، وإنما أظهرها حينئذ، وما راح بالناس إلا أهل الإشارات وأهل البدع وأولئك( ) معذورون ، وأولئك( ) غير معذورين ولا مأجورين ، والناس في طرف البحر، نشغوا( ) بهم في الغبة ، وهل قال لك أحد: إنه يمكن أحداً أن يدخل البحر بلا مركب؟ لا يمكن ذلك ، حتى لمن يسير على الماء ، الغاية إنها حصلت له كرامة في لحظة ، وما يدريه لعله يغرق أو كما قال .

ما قال في التعزية

وقال رضي الله عنه لرجل يعزيه في ابن له مات غريباً: إن الله يَمُدُّ له من قبره إلى موضع ولادته ، والحمد لله على الوفاة على الإسلام ، إن الإنسان أصله التي هي النطفة تمزج بتراب أرض قبره ، والأعمار مكتوبة ، كل له حد معلوم ، ولا يخلو في كل سنة أو شهر من مصيبة ، لأنه معرض لها ، ومن عمره خمسون من أين لك أن ترده عشرين ، ولكن تَذَكّر الأمور التي تنفس عليك ، ودع تذكر الأمور المنكدة ، وأكثر ما يتعب الإنسان قوله : لَو، لَو، لأن لَو تفتح عمل الشيطان ولا يحصل منها إلا التعب : { لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا }( ) .

ما قال في الإجتهاد في رمضان

وقال له رضي الله عنه رجل في شهر رمضان : أريد كتاب كذا نطالع فيه ، فقال له : إن رمضان شهر عمل ، فاترك فيه العلم ، يكون( ) في غيره ، فإن رمضان لمجرد العبادة ، ألا ترى كيف يترك الناس فيه التدريس إلا إن كان بعد العصر تذكيراً للأصحاب إذا جلست معهم ، فاجتهد فيه في العمل وتنظيف الباطن ، وجعل الله في نهاره الصيام ، وفي ليله القيام ، فيستعمل فيه ما حصله( ) قبله من العمل ، فمن جمع في وقت شيئاً من الأمتعة استعمله وقت الموسم ، وكان رجل في وقت السهروردي قال له : أدخُل الأربعينية لعل الله أن يفتح عليك بشيء ، فدخلها فنام ذات ليلة فرأى تحت رأسه ورقة فيها 21 دائرة فخرج فقال : فُتِح عليَّ بهذه ، فبعد ساعة دخل عليه رجل بواحد وعشرين ديناراً ، وأهل الزمان إنما هم على التشبه والرسوم ، ومن تشبه ولا معه شيء من الدعاوي الكاذبة فهو على خير ، وإلا الأشياء التي تذكر عن الأولين قد طويت ، إلا إن كان في الزمان خبايا، ولله تعالى أخلاف ما زال الدين قائماً والبيت قائماً ، لا بد منهم ولو أنهم حتى في القفار ، أما ترى هنا القرآن يُرفع( )، والدين يُرفع ، فهذه من البقايا وإن اختفوا، وما المؤمنون إلا سابق ومسبوق ، والمؤمنون على خير ، من لقي اللهَ مؤمنا دخل الجنة ، أو عليه شيء من الذنوب أدخله الله النار بقدر ذنوبه ليطهره ، والناس بالنسبة إلى الله تعالى أهل تقصير كثير ، وإن فعلوا ما فعلوا( )، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعترف ، فكيف بغيره ، وأنت أعبد الله على قدر ما عندك من العلم والنور ، واترك الإغترار والتعلق بصالحين قد مضوا( ) كما يفعله كثيرون ، فالذي( ) اعتمدوا عليهم ، لأي شيء لم يتركوا العمل ، والإنسان يَنهى ولا يَنأى ، بل إذا نهيتَ وهناك خير إلزمه ، إلا من يرد الدين أو يعترض على الدين ، فلا تخض فيه بل اتركه ، فإنه كالذي يريد أن يرمح ، ومن الناس من لا يمكنك أن تجذبه إلى الخير ، أو عن الشر ، إلا بترغيب

في الرئاسة بأن تقول له : أنت فلان ، ومن رآك تفعل هذا سقطت من عينه ، وإن لم تفعل كذا استحقرك الناس .

وقال له نفع الله به ذلك الرجل المذكور آنفا: لا ترون علينا فإن السكوت عن هذا أقرب إلى الأدب ، فقال : لا بأس بذلك فإنك تحيي المذاكرة ، وأنت كالصائد، ونحن ما نحابي ، إذا كان المجلس وقت فسحة ، ويحسن ذلك تكلمنا ، وإلا قلنا له : أترك الكلام إلى وقت آخر.

وقال رضي الله عنه في قولهم : لا يقيم على معلوم : وأين هذا ، لا يستقيم إلا المجرِّد( ) لا يعول على أهل ولا مال ولا على أحد.

وذكر رضي الله عنه الصمت فقال : هو محمود إلا إنه لا ينبغي أن يبقى الصامت بلا ذكر وفكر .

ما قال في عيد الأضحى

وقال رضي الله عنه ضحى يوم الإثنين سادس ذي الحجة سنة 1124 : مع الناس شغل العيد( ) ، لأن هذه العيد مشهورة في الجهة حتى سموها : الدُّهمة ، لا تبقي ولا تذر، ويتكلفون فيها كثيراً ، حتى قالت العامة : راحت العيد بزينها وبقي همها ودَينها وهي أشهر من عيد الفطر بكثير، مع إنها في مكة لا تعرف ، لأنهم في هذه الأيام يكونون مشغولين بأمر الحج والبيع والشراء، فقال بعض الحاضرين : قد ينفق الرجل منهم إذا حج ثلاثمائة قرش ، فقال سيدنا: لأنهم يتكلفون إذا حجوا أشياء، ولأجل ذلك قد يشيب الرجل منهم ولا يحج ، لاستثقاله من تلك العوائد التي يعتادونها في حجهم ، فقال الرجل : يشبه هذا عندنا أيام المحلة حيث يتكلفون فيها، فقال رضي الله عنه : وكل هذه أوزار يحملونها على ظهورهم ، ما في الكُلَف إلا كَلَف .

ما قال في عقيدة أهل الجهة

وقال رضي الله عنه : أهل الزمان حُسْنُ ظنهم في الأموات أحسن منه في الأحياء لعظم حجاب البشرية فيهم .

(2/323)

وقال له رضي الله عنه رجل : متع الله بحياتكم ، فقال : ما عاد نرغب في الحياة في هذا الزمان ، لأنه زمن إدبار، وإذا بقي في حضرموت واحدٌ أو اثنان يعلمون الناس ظاهرين ، فيهم كفاية ، ولو إن رجلا( ) خُيِّرَ بين المغفرة وبين مائة قرش ، لاختار الدراهم على المغفرة لفرط غفلتهم عن الدين ورغبتهم في الدنيا ، ولو قيل : كل من طلب العلم فهو جبري( )، لرأيتهم يتبادرون اليه( )، ولو كان في الدول نظر وأدنى رغبة في الدين لحصلوا( ) أمور الدين ، لأن معهم منهم بعض رهبة ، فلو قالوا( ) : من صلَّى أو من فعل كذا من أمور الدين خُفِّف عليه مما يؤخذ منه لفعلوا ، ولكنهم ما يهمهم إلا ظلمهم من غير حق ، ووضعه في غير مستحق كما قال فلان : إنهم طلبوا الزكاة وبالغوا كأخذ عمر بن الخطاب ، وفرقوها كتفريق الحَجاج .

وسأل رضي الله عنه رجلاً عن سِنِّهِ فقال الرجل : كذا وكذا ، فقال رضي الله عنه : بعض الرجال الخُرَّق إذا قيل له : كم سنك؟، ربما يذكر دون ذلك ، ويحب أن يكون ما مضى من عمره قليلا ، ويظن أنه إذا كان كذلك أنه بقي له عمر طويل ، وإن مضى كثير من عمره ، فهو الى الموت أقرب ، وإن كان يعلم أن الموت يأخذ الصغار والكبار ، يتسلى بذلك ، وهذا من الشك النافع ، الذى هو رحمة للإنسان ، فقد يكون الشك خيرا من العلم في أشياء مثل هذا ، والعلم خيرا من الشك في أشياء ، وفي الشك في مثل هذا تسلية وراحة.

ما قال في اعتياد النفس

(2/324)

وذكر رضي الله عنه اعتياد النفس للأعمال فقال : هذا عام في الخير والشر ، فينبغي أن يعَوِّدها الخير مع المشقة حتى تعتاد فيسهل بعد ذلك ، وربما يكون

بحيث لا يصبر عنه ، ويعَوِّدها ترك الشر مع المشقة حتى تعتاد تركه حتى تشمئز عنه ، مثاله : رجل يكره أن يجلس في مجلس قوم يكره مجالستهم ، فإذا جلس أول مرة مع الاستثقال ، فلا يزال يسهل عليه حتى لا يصبر عنه ، وكذا في الرجل ينقر الصلاة نقراً ، فإذا تكلف الطمأنينة مرة فمرة ، بحيث لا عاد يصلي إلا بطمأنينة ، وبالعكس لو كان يطمئن فنقرها مرة ، ثم لم يزل كذلك حتى لا يبالي بأن يصلي صلاة باطلة، وعلى هذا، وليس ذلك لكل أحد فإنما هو بالنصيب.

ما قال في البَرْد وما يليق له

وذكر رضي الله عنه البرد فقال : في البرد تعريف ومنافع أخرى ما لم يَجُر ، فإن جار فهو كالخراب ، وله ثورات( ) حتى يضرب به المثل ، فيقال : فلان كالبرد إن لم يثر في أوله ثار في آخره ، وشدته في ستة نجوم الثريا وما بعدها ، ثم ذكر الطبائع وما يليق بكل وقت من الأكل وقال : إن العسل في الربيع أحسن منه في غيره( ) ، فإذا عرف الإنسان العلوم وقواعدها ومظانها أمكنه الاستنباط ، وإذا تفكَّرْتَ في كل علم رأيت إنما أصله من ثلاثة أقسام ونحوها ، كقوله عليه السلام : ((بني الإسلام على خمس)) وإنما تفرع الباقي من ذلك ، حتى ذكر علم الحَرْف وطبائعها فقال : هو علم جليل ، ولا يتمكن منه إلا من هو من أهل الولاية .

وذكر رضي الله عنه أناسا إنهم يتعنتون في شيء من الألفاظ ، فذم التعنت كثيرا ثم قال : ولا يخلو كل أحد من أجر على قدر نيته ، إن كان له في ذلك نية ، وإنما الآثم الخاسر من كل وجه من لا له مقصد إلا الكِبْر والعُجُب .

وقال رضي الله عنه في قولهم : (بأن لا يعتقد أن الصالحين معصومون ، بل قد يقع منهم الزلة والهفوة)، قال : أي على سبيل القلة والندور ، وإلا صاروا كالعامة والفساق .

ما قال في حديث سيدتنا فاطمة رضي الله عنها

حين أتته عليه السلام بالكسرة من الخبز

وقال رضي الله عنه : ما جاء في الحديث : ((إن فاطمة رضي الله عنها أتته عليه السلام بكسرة خبز وقالت : خَبَزْتُ خبزاً فما طابت نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال عليه السلام : أما إنه أول طعام دخل فم أبيكِ منذ ثلاث)) : إنه عليه السلام كان يتنقل في بيوته التسعة كل ليلة في بيت ويخرج أيضاً إلى خارج المدينة ويصوم ويجوع ولا يعلمون به ، وكل موضع يجيئه يظنونه قد أكل في الموضع الآخر ، حتى إنهم طلبوا يوماً معرفة كونه صائماً أم لا ، فأطعموه فأكل فعرفوا أنه مفطر، ثم تكلم سيدنا في الجوع فقال : ينبغي أن يُنقِص كل ليلة لقمة ، حتى يصل إلى حد لا يتغير عليه عقله فيه فيلزمه ، وأقوام يدخلون الخلوة على غير هذه المقاصد بل يقصدون أموراً أخرى ، فلهذا تتغير عقولهم ، لأنهم إذا أشتد عليهم الجوع قد يسمعون أصواتاً وأشياء فيفزعون ويتغيرون منها ، ولو أخذوها بشروطها وحقوقها لما حل بهم ما حل .

وقال رضي الله عنه : إذا بقي العُود فالخير يعود ، وإن راح فكل شيء إنما هو للفناء ، ولكن إنما هي مقدمات ، الأول فالأول .

وتكلم نفع الله به في شدة ما في الناس من الطمع ، ثم قال : راحت عقولهم وقلوبهم أخَذَها الخوف( ) والطمع.

(2/326)

وطلع رضي الله عنه البلاد يوم سابع عشر رجب سنة 1132 مدعوا عند ابن أخيه السيد عمر بن علي الحداد ، لما فعل دعوة لختم ولده أحمد حين ختم القرآن ، وكان هذا مجلسا حافلا وتقدم ما تكلم به في هذا المجلس لما ذكر تشوقه إلى الحج ، وأمر بإنشاد قصيدته (قل لأحبابنا بسوح المقام) لما كان فيها ترحيل منازل سفر الحج ، وبعد الفراغ والبخور

خرجوا ، وبقي سيدنا يسلم عليه أهل البيت ، ثم خرج إلى داره التي في البلد وقال فيها( ) ، ثم خرج لصلاة الظهر في مسجد باعلوي ، وبعدها أنشد المنشدون وأدير البخور والقهوة ، ثم جاء الخاتم ومعلمه والمتعلمون ، وقرأ الخاتم ما يعتاد قراءته ، ثم قرأ المعلم ما يعتاد أيضا ثم دعا سيدنا بالحاضرين فلما ختم الدعاء عادوا للنشيد والبخور والقهوة إلى أن صلوا العصر ، وكان ذلك جمعا عظيما حافلا ، ولم يكن هناك كلام ينقل ، غير إنه قال : لم نحضر لختم فيه قبل هذا ، وبعد صلاة العصر أمر السيد أحمد بن زين الحبشي أن يقرأ على قراءته في شرح السنة للإمام البغوي ، فقرأ إلى نحو وقت قيام سيدنا من مجلس القراءة المعتاد كل يوم بعد العصر، ثم قرأ الفاتحة وصافحوه وتفرقوا.

(ذكر ابتداء مرض وفاته نفع الله به)

(2/327)

ولم يزل سيدنا رضي الله عنه مواظبا على عوائده كلها ، من حضور الصلوات وترتيب الأوراد ومجالس القراءات في البكر والعشيات إلى عشية يوم الخميس 27 من شهر رمضان سنة 1132 ، وقد حصل معه بعض الألم ، وكان ذلك يعاوده ويعتاده وسيأتي ذكره من لفظه هو ، فما خرج لصلاة عصر ذلك الخميس المذكور ، ولا للقراءة بل أمرهم أن يقرأوا على عادتهم في حضوره ، وهو عند الخلفة من الغيلة يسمع قراءتهم وكان قراءتي في "إرشاد" اليافعي ووقفي على قصيدة اليافعي فيه ، التي أولها (قفا حدثاني فالفؤاد عليل)، فقرأتها فقط ولم أزد عليها ، وبعد إنقضا القراءة قال نفع الله به : ما قرأتَ كثيراً ، قلت : اكتفيت بالقصيدة وحدها لعدم حضوركم المعتاد ، ثم خرج لصلاة العشاء ليلة الجمعة وتراويحها ، ودخل بعد أن ابتدأوا في الذكر ، ولا خرج لصلاة الجمعة ، بل لما كان وقت طلوعه إلى البلاد لأجلها قال لي : إطلع ما بايقع لنا طلوع لأنه أشغلنا احتباس راقة ، الظاهر ، ولا أرى لذلك سببا هل هو من يُبس أو غيره ، وقد يحصل لي ذلك لكن في وقت

يسير ويزول وفي هذه المدة( ) طال قليلا( )، ولا أستر للإنسان من العافية ، وقد قال النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم: ((ولكن عافيتك هي أوسع لي)) .
وخشيت من طول الجلوس يحصل بسببه ألم ، ولكن كما قال الشافعي ، ولا ذكره ، فادعوا لنا بالعافية ، ومضى أولاده لصلاة الجمعة وجلسوا بعدها في الدار مجلسه المعتاد مع قراءة القرآن على عادته في رمضان نحو جزءين ، ثم خرجوا وصلوا العصر بالحاوي ، ولا خرج لها وقرأوا بأمره على العادة في الكتب المعتادة في شهر رمضان ، وقرأت القصيدة التي أولها : (مَن بَانَ عن ربع من نهواه والطلل) وهو يستمع كالأمس ، وخرج لصلاة العشاء ثم بعدها وبعد صلاة السنة أشار اليهم لصلاة التراويح بالتنحنح وهذه عادته كل ليلة ، ثم دخل وهذه الليلة أعني ليلة( ) 29 رمضان هي ليلة ختم مصلى الحاوي وما ترك الحضور وهو يمكنه ، وبعد صلاة عصر يوم الأحد سلخ رمضان

دعاني وطلعت عنده في الغيلة ، فصافحته وقبلت يده الشريفة ، وهو مضطجع على سريره ويده حارة كالمحموم ، وسألني : كيف أنت؟، وتحادثت معه ساعة ، وسأل عن قراءتي ووقفي وأي باب انتهيت اليه من "الإرشاد"، وسأل عن الباب الأخير الطويل في "الترغيب والترهيب" وقال : تأخر تمامه ، وظنناه يتم قبل هذه المدة ، ثم قال : امض احضر القراءة وكانوا إذ ذاك في حال القراءة ، وهم يقرأون في المصلى على عادتهم يوم كان يحضر في شهر رمضان وفي ست شوال ، وفرغت من القراءة آخر يوم من الست ، ولسؤاله وكلامه هذا نفع الله به معنى عجيب يفهمه الفطن الحاذق اللبيب ، ولهذا دعاني اليه في مجلس القراءة ، ولا خرج رضي الله عنه لصلاة عشاء ليلة العيد وهي ليلة الإثنين ولا لصلاة العيد وأشار إلى أولاده الكرام بشهودها ، وتخلفت عنها لتخلفه ، وخف عنه ذلك اليوم ما يجد من سبب الراقة ، ثم عرض له وجع آخر في الجنب وسألت سيدي ابنه الحبيب حسن هل به حمى قال : لا إنما يده حارة فقط ، وقد يكون ذلك ، وكنا مجربينه

إذا مشى أو ركب أو نزل من المركوب أحس يده حارة .

(2/329)

وجاء اليه رضي الله عنه ضحى يوم العيد السيد زين العابدين وأخوه السيد شيخ معاودين وعائدين ، فجلس لهما مجلسا فسيحا وكنت حاضرا ذلك المجلس المنور ، فقال لهما : سبب ذلك بعد تقدير الله فيما ظهر لي : التقصير في بعض الأمور كالتأديب( ) ، وذلك إني خرجت إلى السادة آل فقيه( ) ليلة الأربعاء سادس عشرين من شهر رمضان ، وقد كان النبي صلّى الله عليه و آله وسلَّم يترك أمور الدنيا في هذه الأيام ، يعني العشر الأواخر. وكان صلَّى الله عليه و آله وسلَّم يعتكف فيها ، ولا يبيت فيها عند أحد من نسائه كعادته ، لكن فعلنا ذلك استمراراً على إجراء الحقوق والإقامة بالجبر من غير داعية لشيء ولا عاد معي طلب لشيء، ولو كان مع الاقامة بذلك استعمال( ) قال هذه الكلمة مزحاً وتبسطاً معهما ، وقد خرجت ليلة ختم الحاوي وصليت العشاء والركعتين بعدها ، لكن مع الحرقة الحاصلة أحس معي لاكز في الكلوة فما أمكنني المقام وأنا عازم إن تنشطت رجعت ، ولكن ما ينبغي أن يكلف الجسم عمل الهمة ، وقد قالوا : همة العاقل أقوى من جسمه ، وجسم الجاهل أقوى من همته ، وتقدم قوله : القوى ضعفت ، فلا يمكنها تساعد الإنسان على ما يريد ، فربما نهم بالأمر لا تساعدنا عليه القوى ، فالهمة قوية ، والقوى ضعيفة والروح أقوى من الجسم ، وإذا قوي الروح حصل للجسم قوة( ) ، وإذا حصل على الروح ما يوجب الإنقباض انهدم الجسم ، واللاكز قد يحصل ، لكن أداويه بالزباد وغيره ، فيصح ولا يحس به أحد ، وهذا فيه زيادة على ذلك ، ولكن الحمد لله حيث العافية حاصلة ولا شي زيادة ، وقد رأى العيال في بعض كتب الطب عندهم : إنها علة خفيفة وقد كنت حكيت لكم بالرؤيا التي رأيت فيها السيد علي بن عبدالله وهي إني رأيت كأني وردت عليه وهو في مجلس مستطيل ، وهو في طرفه الشرقي وأنا في

القبلي ، وبيني وبينه مسافة ، وكأنا جئنا لسبب يوجب الإجتماع كالعزأ ونحوه ومعنا من الصغار كثير جاءوا في جُرتنا( )، وقد كنت قبل وفاته أظن أني وإياه متقاربين في الوفاة ، فلما رأيت

(2/330)

ما بيني وبينه من المسافة في المجلس ، قلت : هذا يكون مسافة مدة ما بيننا وبينه في الوفاة ، وقد تقدم ذكر هذه الرؤيا بأبسط من هذا عند ذكره للسيد علي المذكور ، وكان مدة ما بين وفاته ووفاة السيد علي سنة ونحو 19 يوما ثم قال : والحمد لله وقد ذكرنا لكم من المعمرين من آل باعلوي كالسيد عمر بن أحمد عاش 95 سنة وعَدَّدَ جماعة آخرين عمروا ، وذكر عمر كل واحد منهم .

أقول : وذكره لهذه الرؤيا والمعمرين من السادة يشير إلى إنه يتوفى من هذا المرض ، وأكثر إشاراته رضي الله عنه إلى وفاته كانت منه سنة 1128 كما قدمنا ذكرها فلا نعيده ، وذلك لغُزْرِ قَعْرِ بحر علمه وكتمه الأسرار وستره للمغيبات وحفظه الشئون الإلهية ، وقد ذكر لي ابنه الحبيب الحسين رحمه الله غير مرة قال : مَرِض الوالد فيما سبق أيام صغري مرضا شديداً أشفقنا عليه ، فكنت يوما والكريمة بهية رحمها الله جالسَين عنده إذ قال : كان السيد عمر بن أحمد مَرِض مرضاً شديداً خيف عليه منه ، وكان ذات يوم عنده ابن وبنت له يحبهما كثيرا ، فجعلا يدعوان له ويقولان : اللهم زد في عمره من أعمارنا ، اللهم زد في عمره من أعمارنا ، ويكرران ذلك كثيراً ، فصح من ذلك المرض ، وعاش عمراً طويلاً ، وكان يرى أن ذلك زيد له من عمريهما ، قال : وأملى عليَّ الوالد قصيدته (يا رحمة الله زوري) حين أنشأها في مرض فقال عند ختمها: (يا رب واختم بخير ، إذ حان حين المسير) فتعبنا من ذلك ، ولكن بَعْدُ مَنَّ الله عليه بالعافية فأصلحها (إن حان حين المسير) وقال له السيد زين العابدين : ما الذي يناسبكم من الزاد ، فذكر سيدنا ما يناسبه حينئذ ، وذلك قبل أن يشتد عليه الألم كثيرا، فقال : يناسبني الرطب كثيرا ،

حتى إني لم أدَع كل ليلة عند العَشاء من أخذ حبتين أو ثلاث ، وكان الوقت ذلك الحين وقت الرطب فقال له السيد زين : أيناسبكم التين ، فقال : لا، لأنه حار ، وأرى الصغار يتولعون به ، فأعطيهم إياه ، وإلا

(2/331)

ففيه عندنا هذه السنة كثرة ، ثم أمر بالقهوة وبعدها البخور ، وبعده قرأ الفاتحة ودعا بدعاء كثير.

أنظر إلى هذا الدعاء الجامع

ومما دعا به : اللهم إنا نسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وحولنا وقوتنا ، اللهم متعنا بالعافية ، ومُنَّ علينا بدوام العافية ، اللهم إنا نستحفظك ونستودعك أدياننا وأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأصحابنا وجميع من معنا وما معنا، اللهم اجعلنا وإياهم أجمعين في حفظك وكنفك وأمانك وجوارك ، اللهم أصلح أمور المسلمين ، اللهم ارحم المسلمين واسقهم الغيث والرحمة برحمتك ياأرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين ، ثم بقي الناس يتحرون أوقات الدخول عليه نفع الله به ، ويطلبون ذلك ، وهو يعتذر سيما والوقت وقت معاودة وعيادة حتى وعدهم عشية الأربعاء ثالث شوال بعد صلاة العصر فاجتمعوا لذلك ثم أُعْلِمَ بهم ، فأذن لهم في الدخول عليه ، وكان غالب كلامه في ذلك المجلس في شبه كلام أهل الحقائق ، فأول من صافحه بعض الشيبان من السادة فقال له : الله الله في الدعاء بالعافية واللطف ، وفعلُ الله كله فضل وعدل ، وما جاء من الله للعبد يكون على قدره تعالى لا على قدر العبد، فينبغي أن يتنبه لذلك من كل الوجوه أو من بعضها، وما نحن إلا من جهة الرحمة بكم والشفقة عليكم ، وهذا ونحوه كلامه إلى أن فرغ منه ، ثم أمر بماء ورد فأدير به عليهم ، ثم قرأ الفاتحة ودعا : اللهم اقسم لنا من خشيتك الدعاء المشهور ، حتى بلغ ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا

مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يخشاك ولا يرحمنا ، اللهم أصلح أمورنا وأمور المسلمين ، واسقنا الغيث والرحمة وول علينا خيارنا ، واصرف عنا شرارنا، ثم ختم الدعاء، وكلما صافحه إنسان مستخلفا بعد المجلس سأله من هو ، فإذا قال : فلان ، دعا له بخشوع ورحمة

وتحنن ، حتى صافحه آخرهم رجل فأوصاه بمال رجل من أقاربه قد مات وبما يتعلق به ، فكأنه أستثقل أن يتعرض فيه ، وقال عسى أن يكون فلان لرجل آخر قريب له ، ولكنه قد قلنا له فاعتذر ، فقال سيدنا : إنما هو قضى حاجة ، ما في ذلك من طمع ، والكلام ما ينفع في ذلك ، ما المطلوب إلا العمل والنصيحة ، وما ذكر الله القول مجردًا ، ولا على مجرد القول عمل عند الأكابر ، ومن كان مراده الا الأكل والإستيلاء ولو على مال يتيم بالظلم فلا تَعُدَّه شيئاً ، وقد أوحى الله إلى بعض الأنبياء ، وأظنه داود عليه السلام : أن حَبِّبْ إلي عبادي ، فقال : كيف أحببهم اليك؟، قال : تُذَكِّرُهم نعمائي ، ثم انقضى هذا المجلس .

ودخل عليه رضي الله عنه السيد زين العابدين وقت الإصفرار يوم الجمعة خامس شوال ، فجلس مستندا إلى الجدار مستقبل القبلة في الطرف النجدي من الغيلة متوشحا بشَمَط وليس من عادته لبسه إلا تلك الساعة ، فكلمه وأنسه وأَثَرُ العافية باد عليه ، فقال نفع الله به : ما أظن بي إلا حرارة وأوصيناهم يدورون لنا كِرْزَام( ) ، لأنه في غاية من البرودة . وقد قطعوا نخلة لأجل ذلك فعله بعض الخلفاء .

أقول : هو هارون الرشيد لما أصابته الحرارة في بعض أسفاره ، وقد مر على نخلتي حلوان اللتين يضرب بهما المثل في طولهما وطول الصحبة وفي إتحادهما ، فقطعت إحداهما وأطعم كِرْزَامها ، فما لبثت الأخرى بعدها أن ماتت ، وللعرب فيهما أبيات كثيرة من الشعر في أمثلة تضرب في طول صحبتهما

، والتعجب من موت الأخرى بعد صاحبتها ، وكانتا من غرس الأكاسرة .

(2/333)

ثم بقي السيد زين إلى أن غربت الشمس ، ثم قرأ سيدنا الفاتحة وبعدها سورة لإيلاف قريش والكوثر والإخلاص ، ثم دعا اللهم اقسم لنا إلخ إلى أن قال : ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك وكررها ثلاثا ، اللهم أصلح لنا أمورنا ، وأصلح لنا قلوبنا وأجسادنا ، اللهم طهِّر منا باطن الروح وظاهر الجسد ، وحِطْنَا من جميع الآفات ونجنا من الأهواء والتبعات ، وجُد علينا بفضلك وقربك ، واجعلنا من خالص أهل المحبة من حزبك ، ثم ختم وقام السيد زين ، ولما صافحته قائما قال : بارك الله فيك ووفقك لطاعته ، وجعلك من عباده الصالحين . وأرجو أن يستجيب الله دعاءه هذا وغيره ، لأن دعاءه نفع الله به مقبول عنده ، والله سبحانه لا يخيب من رجاه ، وكل يوم بعد ذلك يجتمعون بعد صلاة العصر ويطلبون عليه طريقا فوعدهم نفع الله به عشية الاثنين ثامن شوال ، فحشدوا واستثقل من كثرتهم ، وأراد أن يعتذر منهم ، ثم أمر بدخولهم وهو متكلف لهم فدخلوا وصافحوه وكلم كل واحد بكلام يخصه ، ولكنه بقي مضطجعا فوق السرير ، ومكثوا عنده قليلا وأمر أن يُنشَد بقصيدة مختصرة ، ثم بعدها قرأ الفاتحة وقال : قولوا لهم بالقلوب ، أي بلا مصافحة ، فخرجوا من غير مصافحة ودعا للجميع وطلب منهم الدعاء كما هي عادته وصافحته أنا وحدي فقط ، فقال : كيف أنت ، بخير؟ ، وكلما اتفقت به في هذه الأيام في شكواه هذه قال لي هذه الكلمة ، ودخلت عليه رضي الله عنه ضحى يوم الجمعة 12 شوال ، وهو في السطح الشرقي وعنده السيد زين العابدين ، فبقى يتكلم ساعة ويهون مرضه هذا كثيرا بالنسبة إلى مرضه الأول ، فقال : أين مرضنا الذي عام العام ، أي عام 1130 من هذا ، ذاك حمى مطبقة ، وهذا إنما اشتد بسبب الإنحسام ، ونحو هذا الكلام .

(2/334)

ثم قال له الأولاد : عسى نقوم مع السيد زين نتقهوى في الغيلة ، فقال : مليح وعاد شيء غير القهوة ، قالوا : بعدها يعلم الله ما يكون ، فقال نفع الله به : إن كان شيء غيرها هاتوا قسمي إلى هنا ، وإن قل ، فإنا نتبارك بكم أكثر مما تتباركون بنا ، فعندما قال هذه الكلمة ، أخذت السيد زين العبرة فبكى وخشع كل من سمعها ، فرضي الله عنه ما أحسن أخلاقه ، وأطيب معاشرته ومحادثته ، وما أعرفه بربه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا إلى المكان المذكور. ودخل عليه رضي الله عنه هذا اليوم جماعة من السادة فرادى ومجتمعين ، كالسيد سقاف بن عبدالله استأذن وحده فأذن له بالدخول ، ولم أعلم له زيارة لسيدنا قبلها ، وقد أرسل مرة فيما سبق ، هو والسيد محمد بن سقاف العيدروس ، أرسلا يستأذنان سيدنا في زيارته ، فلم يأذن لهما إستنكارا لمجيئهما الآن مع عدم إعتيادهما للزيارة من قبل ، فأذن للسيد سقاف في هذه المرة لكونه مستودعا وداع آخرة ، وأعطاه قميصا وجعل يوصيه : الله الله في التوالي مع إخوانك العيال : { وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى } ( ) ومثل ذلك ثم قرأ الفاتحة واستودع منه وخرج .

(2/335)

وعشية هذا اليوم كنت أجني رطباً من النخلة العشدلية ، التي هي مقابلة الخلفة النجدية من الغيلة ، فلما أحس بي ، ناداني ثلاث مرات ، بحَنانةٍ وشفقة : يا حاج وكانت هذه مناداته لي فلبيته ، فقال : ذا مَن عليك يا حاج ، قلت ما عَلي من أحد ، وبقي يقول في نفسه وأنا أسمع : يا حويِّج مَن ذا عليك ، يا حويِّج مَن ذا عليك يا حويِّج مَن ذا عليك ، ثلاثاً، فعرفت من هذا إنه يترثى لي من أمور ستعرض لي ، والله المستعان ، وما رأيتها إلا بعد فراقه ، من أمور لا تحكى ، في حضرموت وفي الحساء ، لو

أخبرت بها الناس لعجبوا ، وعلموا أن مصادمتي لها من باهر كراماته وخوارق عاداته رضي الله عنه ، حتى إني بحضرموت لم أطق أرى موضعا كنت آلف منه الجلوس فيه ، أو كنت أمر معه به ، وأود الفرار منه بسرعة .

فهذه مقدمة لبعض الشؤون ، وأما في الحساء فأمور كثيرة رأيتها من إشاراته رضي الله عنه ونفع به .

وعشية يوم ثامن عشر شوال كثروا العُوَّاد وتجمعوا واشتد طمعهم في الدخول عليه ، فأرسل اليهم وقال : أما أنا فلست متكلفا لأجلكم الجلوس ، ولا أريدكم تدخلون علي وأنا مضطجع ، فادعوا لي وأنا أدعو لكم ، وأعذَرَهم فانصرفوا، ومرة قبلها قال : قل لهم في مثل هذا الحال : أتركوني أنا وربي ، ولا تكلفوني شططاً( ) وأنتم إلا في الخاطر، وأنا داعي لكم فادعو لي .

(2/336)

ثم عشية الجمعة 19 شوال تجمعوا وأرادوا الدخول عليه ، ورجوا أن يأذن لهم ، ووافق أن جاء السيد زين العابدين وهم مجتمعون ، فأذن له ولهم معه ، فدخلوا وازدحموا، فصافحه من جملتهم رجل كان يُرقي من العين ، فقال له : الله الله في الهمة ، وعمدة العمل على الهمة ، وهمة أهل هذا الزمان في أسباب المعاش ولهذا يغبطون من معه منها شيء ، ويعظمون أمره ، وهذه الأسباب لا تذكر ، فذكر له السيد زين إنه أصابته قبل هذا بيومين عين ، وذلك إنه جلس عنده رجلان معروفان بالعيانة ، فوسوس منهما ، فلما قام إلتَوَتْ رجلاه حتى لم يطق القيام إلا بشدة بعد مدة وبقي متألما من رجليه زمنا طويلا ، فأوصاه سيدنا بالحذر والإحتراز من العين ، وقال له : إن الناس ماعادهم إلا كالخلقان بالنسبة إلى الجديد الصحيح لِمَا هم عليه من الإستكثار والحسد، فلا شيء أخس من العين ، وقد كانوا في وقت الإمام الغزالي لَمَّا أصابه ذلك العارض الذي عرض له حتى بقي لا يقدر على الكلام قالوا: إنما

هذه عين أصابت الأمة ، وسأله السيد زين عن نومه إذ ذاك فقال : هو أكثر من أيام الصحة ، ثم أمر بإدارة ماء ورد، ثم قرأ الفاتحة ودعا كعادته ثم خرجوا من غير مصافحة إلا السيد علي بن حامد ، فقال له : يباسطه يا علي ، يا علي أدع لي ، والقهوة عَلَي ، ثم إنه في الغد أرسل له نصف قرش ، ولكريمته مثل ذلك ، ثم صافحته وقال لي : أحمد، قلت : لبيك ، وما أعلم أنه ناداني كذلك ، إلا هذه المرة( ) فقال : الله الله في الدعاء ، قلت قد دعوت لكم اليوم بالعافية عند الفقيه المقدم ، فقال نعم أدع عنده ، ويوم السبت حصل له رضي الله عنه ورم في البطن وورمة مثل البيضة ، تحت السرة اشتغلوا منه جداً، وبعد صلاة صبح يوم الأربعاء فاتحة أو ثاني يوم من ذي القعدة ، وصل الشيخ عمر بن عبدالقادر العمودي زائرا وعائدا له في نحو عشرة من أصحابه ، وليس له عادة قط يجيء في مثل هذا الوقت ، إنما جاء لهذا السبب ، فلما جاء

(2/337)

مكث يومين لا يؤذن له في الدخول ، ثم بعدهما قال سيدنا : أين الشيخ عمر، مرتين أو ثلاثا وليلة هذا الأربعاء المذكور رأى أحد من أهل البيت كأنها تخاطب أخرى ، فإذا رجل قد صعد السطح ، فقالت صاحبة الرؤيا من هذا قالت الأخرى هذا سرور طلع إلى عند حبيبه ، فأُعلم بالرؤيا فأستَرَّ بها ، ويوم هذا الأربعاء فَشَّ ورم البطن لكن حصل له بُحَّة في الحلق وانقطاع في الصوت فشق عليه لذلك الكلامُ .

وقد حصل مثل ذلك للنبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم في مرض موته ، وفي ذلك إشارة إلى أنه لما كان شديد المتابعة له عليه السلام في حياته ، وأوقات صحته ، في كل حالاته الإختيارية من عباداته وعاداته أجرى الله عليه مثل ما أجرى عليه عند وفاته ، مما ليس له فيه اختيار ، تتميما للمشابهة والإتحاد والإنتساب رضي الله عنه ونفعنا به في الدارين ، وبعد صلاة عصر يوم الخميس دعا سيدُنا الشيخَ عمر المذكور ، فدخل وصافحه وقبَّل يده ، فقال له

سيدنا : مرحبا بالعمودي ، مرحبا بالعمودي ، مرحبا بالعمودي ، ثلاثا، ثم إنه أراد أن يتمسح بسيدنا ، فقال له : تمسح ، خلوه يتمسح ، ففعل ثم قرأ الفاتحة ورفع يديه بالدعاء ، ثم قال خلوا العمودي يتوطأ ، وعاده يعود ، فنزل من عنده .

(2/338)

ومنذ أصابته رضي الله عنه البُحة ، لا قوت له إلا نحو مُجِّين أو ثلاثة رائباً لا غير ، وفي هذين اليومين الأربعاء والخميس بل والجمعة ، ما تناول شيئا قط ، وزاد عليه الأمر ليلة الجمعة ويومها إلى الغاية حتى بقي الناس في غاية من التعب عليه ، فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة خف عنه بعض ما يجد من البحة ، ولكن ما أكل شيئاً إلا ضحى يوم السبت نحو ثلاثة أمجاج رائب ولم يذق بعد ذلك شيئا إلى أن توفي ، بل مدة مرضه ذلك كله ، ما يأخذ شيئاً إلا إن كان قدر العُلْقة من الزاد ، وكذلك الشراب ، وأخبرني سيدي الحبيب إبنه الحسن ، وكان هو الذي لازمه وخدمه في مرضه ذلك ، وحَظي به من بين الأولاد ، إنه أعني سيدنا ليلة هذا السبت خامس ذي القعدة أخذ ساعة يذكر فقيره ومحبه ، ويقول : أين الحساوي ، أجاء الحساوي ، نبهوا الحساوي ، قولوا للحساوي يجلس هو والرجال في الضيقة ، لا بعد يطلع لأنا الساعة ما بعد نحن بمفسوحين ، خلوه يجلس أولا ، ونحو هذا الكلام ، فقلت للحبيب حسن : من الرجل الذي يشير اليه ، هل ظهر لك من هو ، قال : الله أعلم ، وما هناك رجل يشار إليه ، إلا إن كان يعني الخضر أو أحدا آخر.

ودخلت عليه رضي الله عنه يوم الأربعاء ثاني يوم من ذي القعدة ، فرأيته وهو مسجى وكأنَّ بدنه ووجهه لا لحم فيه ، بل مجرد جسم وجلد وعظام فقط ، وكان يتمنى أن يكون كذلك عند موته ، وقد أخبرني ابنه الحبيب حسين إنه سمعه منذ مدة طويلة ، أظن نحو العشرين السنة ، يقول : أشتهي أني يوم أموت ولا في جسمي مُزعة لحم ، وكنا نسمع أهل بلدنا يقولون : رحم الله جثة لم تُخَثْلِم قبرها ، أي تقذره ،

ولكن من لك بمن يصبر عليك إذا طال بك المرض فلو أن أحدا وَضَّاك مرتين أو ثلاثا ، مَلّك وضاق منك .

(2/339)

وقال لي ابنه الحبيب حسين أيضا : إحتجم سيدي الوالد ليلة عشرين من شهر رمضان ، سنة 1112 وعشر في نجم الثريا في الليل وقت العشاء، وكان معه شبه الفرسة ، ولم يخرج إذ ذاك لصلاة العصر ولا المغرب ولا العشاء ، وسمعته وهو يحتجم يقول : الإنسان في هذه الدنيا معرَّض للأمراض والأعراض والأغراض ، وسمعته يقول : إني أجد في نفسي هذه السنة زيادة لحم من غير سبب ، وأنا أحب أن لا أموت وعَلَيَّ كثير لحم ، ولا أحب أن أموت بطول مرض ، وقد أشتهى الشيخ أحمد الرفاعي ذلك ، فتم له ، ولكن مَرَض حصل عليه باطن ، ولكن الشيخ أحمد وافق زمانا أشبه من زماننا ، وزماننا هذا كما ترى ، لو طلبت في الخمسة الفروض واحدا يُوَضِّيك ضجر منك ، ثم قال : وما نسمع ما يقول الناس : رحم الله جثة ، إلخ.

أقول : فتم لسيدنا نفع الله به ما تمناه واشتهاه من ذلك ، ومن أول ما حصل عليه هذا العارض وهو يذكر إنه إنما هو عين ، وصرح بذلك مرارا ، وكذلك أيام صحته ، قال كما تقدم أكثر ما كان خوفي من العين والسم ، وأشار إلى ذلك مرارا أخرى ، كما ذكر في قصة الإمام الغزالي : إنها عين أصابت المسلمين ، وكلما عرضوا عليه نفع الله به شيئا من القوت ، أو ذكروه له ذكر قصة الفقيه المقدم عند موته ، وكان يأمر برش الماء عليه كثيرا ، قل ما يفتر عنه ، بل كل ساعة يشير إليه ، وذلك من نحو نصف شوال ، فلذلك ظنوا أنه( ) حرارة كما تقدم من قوله ، ما أظن إلا أن بي حرارة ، وطلبُهُ للكرزام ، لكنه لم يقبل شرب الماء ، فلما رأوه لم يقبله إنبهم عليهم الأمر ، فإن طلبه الرش يدل على الحرارة ، وعدم الشرب يدل على عدمها ، والسيد الحبيب أحمد بن زين قال : ظهر لي إن ذلك( ) لتقوية الأعضاء ونشاطها . وظهر لي أنا والله أعلم ، إن ذلك لمعنى من معاني مرض

النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم حيث كان يُصَب عليه في مرض موته قِرَبٌ من الماء ، تتمة من الله سبحانه وتعالى بإجرائه على سَنَنِه صلَّى الله عليه و آله وسلَّم حياً وميتاً.

(2/340)

وكان رضي الله عنه في مرضه ذلك كثيراً ما يذكر خاتمة صحيح البخاري فيقول : ((كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)) وكان في أيام صحته متعلقاً به [أي صحيح البخاري] ولا يَدَعُ مَدْرَسَه يخلو من قراءته( )، وكان أيضاً في آخر مرضه يقول : يامحمد ياأحمد.

وسمعته رضي الله عنه غير مرة يقول : إن شيخه السيد محمد بن علوي السقاف آخر كلمة تكلم بها عند الموت أن قال : يا حبيبى يا محمد ، ثم انطفأ بعدها في الحال ، ولم يجر على لسانه بعدها كلام ، وفي هذه الستة الأيام من ثاني ذي القعدة التي ثقل فيها واستغرق ، كثيرا ما يرفع يديه ثم يقبضهما تحت صدره كهيئة المحرم بالصلاة ، ثم يضع كفه على ركبتيه قابضا أصابعه ، ورافعا المسبِّحة كهيئة المتشهد .

ذكر انتقال روحه الزكية قدس الله سره ونفعنا به في الدارين آمين

فلما كان ليلة الثلاثاء سابع أو ثامن من ذي القعدة من سنة 1132 لنحو ربع الليل ، وسَبع في نجم سعد الأخبية انتقلت روحه الزكية إلى أعلا عليين ، ومن هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة الباقية وكان حاضرا عنده ابنه الحبيب حسن ، فرحم الله مثواه ، وبل بوابل الرحمة ضريحه وثراه ، وكان مدة عمره 89 سنة إلا ثلاثة أشهر تنقص ثلاثة أيام ، ومدة مرضه أربعون يوما ، ومدة إقامتي في خدمته والتمتع برؤيته ، تحت ظل ريف رأفته 17 سنة وشهر و17 يوما ولسان الحال يقول :

رعى الله أياما برامة قد خلت ... وأوقاتِ طيب ما عرفت لها قدرا

أويقاتُ وصل لو تباع شريتُها ... بروحي ولكن لا تباع ولا تُشرا

وأنشد أيضا لسان الحال فقال :

أسفي على زمن العقيق وطيبة ... ... مع جيرة كانوا لنا بكثيبه

زمن صفا مشروبه آهٍ على ... ... ما فات قلبي من صفا مشروبه

أترى أرى الوادي ويشرق ناظري ... وأرى بحضرته جمال حبيبه

وأرنح الأعطاف من فرح اللقا ... بُشرى بطيب نسيمه وهبوبه

(2/341)

فيالله ما أقصر تلك السنين في حال صحته ، وما أطول هذه الأيام في مدة مرضه ، وما أنكد عيشنا بعده ، وإن كل مصيبة إذا طالت هانت ، وأرى المصيبة به تتجدد بتجدد الأيام والأعوام ، كما قال أبو تمام :

كانت لنا أعوام وصل بالحِمى ... ... فكأنها من طيبها أيام

ثم اعقبت أيام صد بعدها ... ... فكأنها من طولها أعوام

ثم انقضت تلك السنون وأهلُها ... ... فكأنها وكأنهم أحلام

فالله يجبر ما انصدع من قلوبنا لفقده ، ويجمعنا وإياه في دار كرامته ، فأي عين لم تسح دموعها عليه ، وأي قلب لم ينصدع لفراقه ويشتاق اليه ، بل والله

لو أن أحدا بكى الدمع ثم الدماء لم يكن ذلك كثيراً في رزئه ، إذ لا أحد يقوم مقامه مثله ، ولا ينوء بعبائه ، لقوله نفع الله به : عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي ، وكان أمر الله مفعولا ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا ، وكان انتقاله رضي الله عنه ، في المرواح الشرقي من بيته الذي في الحاوي الميمون ، ثم حُمِل إلى الغيلة القبلية ولم يُعلموا أحداً بموته إلا بعد الفجر، أرسلوا إلى البلاد إلى مساجد السلف ليقرأوا له الفاتحة بعد الصلاة ، وهكذا عادة أهل الجهة ، إذا مات أحد أعلموا أهل المساجد ليقرأوا له الفاتحة ويشتهر موته لمن أراد الصلاة عليه ، ولم يُعلموا أهل البيت من النساء والصغار بذلك ، ولا أحداً من جماعة الحاوي من الفقراء والمجاورين ، إلا بعد أن صلوا الصبح ، وقرأ مرتب الفواتح ، فقال ابنه السيد علوي ، وهو الذي صلى بنا : إقرأ الفاتحة لحبيبك ، فحينئذ انقلبوا في صيحة واحدة ، ولا عاد قدر مرتب الفواتح بعد الأولتين أن يتم الثالثة ، ولا قريء الحزب ذلك اليوم ، فلما سمع النساء من أهل الدار ضجة أهل المسجد ، ضجوا بأجمعهم وصاحوا، ثم خرج الناعي من البلاد إلى الحاوي وانقلبت الدنيا بمرة ، وأظلمت الأرض لهول مصرعه ، وحُقَّ لها أن تظلم فالصابر المستمسك الذي يحمد ويسترجع وهو يبكي ، ولا

أظن أن عينا لم تبك لفراقه ، ولا قلبا لم يحزن عليه ، فكم يومئذ من عين باكية ، وكم من أصوات بالعويل والنشيج عالية ، ومن العجائب كيف لم تنشق المرار، وتؤذن الأجسام بالدمار ، ولكن لما ورد :((إنه ما نزلت مصيبة إلا ومعها من اللطف بقدرها)) ، وامتلأ الحاوي من الخلائق للتبرك والتمسح به ، حتى لم يبق في المصلى ولا الضيقة ولا الحوش الشرقي ولا الغيلة ، ولا السطح ولا الدَرَج وما حوالي المكان ، وفي الطريق من بحر وبين النخيل من نجد ، وقبلي المصلى متسع من الزحام ، وهو رضي الله عنه مسجى على سريره في الغيلة الذي كان ينام عليه ، وابتدأوا في غسله وقت الضحى ، وغسلوه على

سريره المذكور ، في المحل الذي هو فيه من جانب الغيلة النجدي ، والذي غسله ابنه سيدى الحبيب الحسن وهو الذي كان مواظبا عنده أيام مرضه ، وأشرك معه صهره السيد عمر بن حامد ، ومغيربان يصب الماء ، ويتردد إليهما بما يحتاج اليه ، وما هناك أحد غيرهم ، وماؤه يصب من الميزاب ، وتحته ناس كثير يتلقون الماء الذي ينصب من غسله بأقداح وأدنان يشربون منه ويتمسحون به ويتبركون ، ثم بعد غسله درجوه في الأكفان ، ثم وضعوه على السرير مسجى بعد أن جففوه ، ثم لما صلوا العصر حملوه في النعش ، وحمل على الأعناق والرءوس ، والناس يتنافسون الحمل ، أيهم يحمل خطوة أو خطوتين وقل من( ) يتم الثالثة إلا وقبضها عليه آخر ، والزحمة من الناس شيء لا يعلمه إلا الله ، وكم من ضَرْب بالعصي ، ولَكْم بالأكف ، ودَفْع باليد لأجل المنافسة على حمل النعش ، مع الصياح والبكاء والعويل من كل جانب وما بلغوا الجبانة إلا قرب اصفرار الشمس ، وما فرغوا من الدفن إلا بعد الغروب ، والإزدحام في التربة لحضور الدفن مد البصر من كل جانب وما وضعوه على شفير القبر إلا وقد قُطِّعت أذبال الشقة الممدودة على النعش للتبرك ، وألحده السيد عيدروس بن عمر صاحب مشطة ، ومن عادته إلحاد المرموقين والموصوفين بالصلاح . والقوي

(2/343)

الشديد من الناس من تمكن يحثو ثلاث حثوات على القبر، وحزروا بالتخمين من حضر الصلاة والدفن نحو عشرين ألفاً ، أو تزيد( ) من كل بلدان حضرموت .

ومن العجيب أنهم لما فرغوا من دفنه جاء درويش عجمي ، كالذي وصفه في تلك الرؤيا كأنه هندي أو سندي ، وأكب على القبر ، وبرك بصدره عليه ، وجعل يصرخ ويصيح ، ويلثم من تراب القبر ، فصاحوا عليه فتنحى إلى قبلي قبة الشيخ عبدالله العيدروس وجلس إلى أن تفرق الناس ، ثم لم نره بعد ذلك ولا قبله .

فلما سافرت ووصلت إلى بنادر اليمن ، كعدن والمخا والحديدة واللَّحَيَّة وإذا كل أهل بلد يقولون : أول ما سمعنا بموته من درويش جاءنا والله أعلم هو ذاك أو غيره.

ثم نصبوا على قبره الشريف خيمته الكبيرة التي كان ينصبها في زيارته لنبي الله هود عليه السلام أيام كان يزوره وقت نشاطه ، ثم بعد ذلك يأمر أولاده الأجلاء بالزيارة ، ونصبوها لأجل يستظل تحتها الذين يقرأون على قبره رضي الله عنه ، والقراءة عليه طول النهار ، ونحو ربع الليل ، ثم تسابيح ساعة طويلة ، ثم يتفرق الأكثر من الناس ، وأبقى في جماعة من الفقراء نبات عند القبر المنور ، نقرأ نشاطنا ، ثم ننام وذلك من حين دفنه إلى ثالث يوم ، وهو يوم ختمه ، كذلك عادة أهل حضرموت يقرأون على القبر ثلاثة أيام.

(2/344)

وكان ختمه يوم الجمعة 11 ذي القعدة وفي هذه المدة قل ما تمضي ساعة من ليل أو نهار إلا ويفد ناس لم يشهدوا الصلاة عليه ، فيصلون على القبر ، ويدعون لأنفسهم ولمن يحبون عند قبره ويترضون عنه ويترحمون عليه ويحملون من تراب ضريحه ، حتى إنه في يوم الختم انقلبوا عليه ، يأخذون من ترابه حتى قرب أن يستوي مع الأرض ، بعدما كان مسنما مرتفعا ، وحضر عند الختم أكثر ممن حضر عند الدفن ، وفعل أولاده الكرام مأدبة عظيمة ضافية ، أكل منها جميع من حضر الختم إلا الآحاد من الناس ، كرهوا كثرة الزحام ، ودفن في طرف التربة الجديدة ، التي أمر هو السيدَ زين العابدين بفعلها ففعلها ، وبقي يحثه عليها سنين كثيرة ، حتى قال له : أسرع بذلك ، فإنه بايقبر فيها أحدنا إما أنا وإما أنت ، ولم يتفق للسيد زين عمارتها إلا سنة 1131 قبل وفاة سيدنا رضي الله عنه بسنة وكان محلها ساقية ماء، يجري فيها من وادي عيديد، إلى نخل لجماعة من آل باحرمي يسمى باتميم فعوضوهم بساقية بحري المكان المذكور.

وذكر سيدنا نفع الله به جماعة صالحين مرضوا، منهم من مات قبله ومنهم من عاش ، وقال في كل منهم : إن مات فلان ، أمرنا بدفنه في تلك التربة يعني المذكورة آنفا ، فكلما هَمَّ أن يأمر بدفن أحد من أولئك إذا مات فينسى أن يأمر به ، فما دفن أحد منهم حينئذ.

(2/345)

ثم يذكر بعد ذلك فيقول : لو ذكرنا لخليناهم يقبرون فلانا فيها ، وتكرر منه ذلك ، في نحو ثلاثة ماتوا قبله واثنان بقوا بعده فقال لكل منهما: إذا مُتَّ نقبرك فيها ، وأحدهما اشتد به المرض ، حتى أصبح لا يتكلم فأرسلني سيدي الحبيب إلى السيد زين يحضه في إصلاحها وقال : قل له يسلم عليك ، ويقول لك هيا اهتم في إصلاح هذه التربة ، فإن فلانا مرض مرضا شديدا ، حتى أصبح لا يتكلم ، ونخشى أن يموت قبل إصلاحها ، فنريد أن يكون قبره فيها ، وما مراده رضي الله عنه إلا أن يحضه حتى يسرع بذلك ، واتفق إن سيدنا نفع الله به أول من قبر بها، وذلك بعد أن تشاوروا أولاده المباركون ، أين يقبر ، فاتفق رأيهم أن يقبر في موضعه هذا.

وتقدم قوله رضي الله عنه : إن الإنسان أصله قد مزج بتراب قبره ، وذكر لي السيد علي عيديد ، وكان من المترددين على سيدنا كثيرا ، قال : سمعت سيدنا الحبيب في بعض زياراته لما خرج من قبة الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس ، توطأ إلى موضع قبره ، فوقف فيه ، وقال : بسم الله : { رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ }( ) وذلك قبل وفاة سيدنا بسنين فيدل على أن هذا يكون منزله بعد، وموضع قبره ، فأعظم بهذه المكاشفة العظيمة ، وأمور سيدنا وأحواله رضي الله عنه عجيبة جدا ، لمن ألهمه الله تعالى فَهْمَ معانيها ، وقد قدمنا كثيرا منها في هذا النقل ، فلا نعيده وهو نقطة من عجيب أحواله .

(2/346)

ومن تصرفاته العجيبة ، وإشاراته الغريبة ، أنه نفع الله به قال لي ذات يوم : قد أذنا لك أن تزور من أردتَ من شيبان السادة ، فزرت كثيراً منهم إلا واحداً، فكلما مضيت إليه قاصداً لزيارته ، فَتَرَتْ مني الهمة ورجعتُ من أثناء الطريق ، ومراراً أصل إلى بابه ، فإذا أردت أن أقرع الباب ما جزمت على ذلك ، ورجعت وأنا على ذلك إلى نحو أربع سنين ، فقلت : لأذكرنه لسيدنا بالخصوص ، فقلت له : إنكم أمرتوني بزيارة الشيبان من السادة فزرتهم إلا فلاناً ، فقال : هاه الحذر تزوره، فإنا لا نريد لك زيارته فقضيت من ذلك العجب رضي الله عنه ونفعنا به في الدارين.

وسمعته رضي الله عنه مرارا يقول ما معناه : كنا إذا دخلنا على شيخنا السيد عبدالرحمن بن عقيل( ) ، أول أيام مخالطتنا له يتمثل ويقول :

ومن رعته العناية في المجيء والذهاب فلا يبالي ومن خانته الأقدار خاب

وإذا دخل عليه عباد بن اسعد ، وكان فيه بلوة واعتراض يتمثل ويقول :

وإذا كنت في المدارج غِرّاً ... ... ثم أبصرت صادقا لا تمار

وإذا لم تر الهلال فسلم ... ... لأناس رأوه بالأبصار

ويشير إلى سيدنا، وآخر من مشايخه يتمثل إذا رآه ويقول :

وإذا السعادة لاحظتك عيونها ... ... نَم فالمخاوف كلهن أمان

ثم إن بعض الناس بعد وفاته رضي الله عنه ، جعلوا يتلهفون عليه ويتأسفون أن لا يكونوا من الملازمين له ، والمنتسبين به ، وندموا كثيرا حيث لا ينفعهم الندم.

وقال رضي الله عنه قبل انتقاله بنحو ثمان سنين : ما يعرفون قدرنا إلا إذا فارقناهم ، فما دام الرجل بينهم لا يعرفون قدره ، فإذا صار الرجل قبرا ، فحينئذ يعرفون قدره.

(2/347)

وقد صدرت منه رضي الله عنه إشارات كثيرة في مرضه هذا ، إن هذا هو مرض موته ، وما عُرِف بعضها إلا بعد وفاته ، منها قوله لجماعة جاءوا عائدين له : قولوا لهم دعوني وربي ، ولم يأذن لهم ، وليس هذا من عادته ، ومنها ذكره للسيد زين العابدين لما جاءه عائدا رؤياه للسيد علي بن عبدالله وذكر له المعمرين من السادة وقد تقدم ذكر ذلك ، ومنها إنه طلبني ضحى يوم الثلاثاء سادس عشر شوال ، فأتيت اليه وهو بالمرواح الشرقي ، وليس عنده إلا ابنه الحبيب حسن ، ومغيربان يروح عليه ، فلما صافحته حياني بتحية شفقة ورأفة وحنانة ، وأمر ابنه السيد الحبيب حسن أن يأتي بقميص له كان قد لبسه مدة ، ثم طواه وضمه ، وما علموا لمن يريده له ، فقال لابنه المذكور : قد قلت لكم اطووا الدرَّاعة الفلانية التي هناك نريدها للحاج ، لئلا يأخذها غيرُه ، ويفوت الذي عليه العمل ، الإلباس الحسي والمعنوي ، ثم قال له : قم هات ذلك القميص ، فلما أتى به ، أخذه ونشره وضمه إلى صدره ، وأدخل رأسه في جيبه ، كأنه يريد يلبسه ، ثم لفه وتفل فيه ونفث ، وذكر الله وصلى على النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم ، ثم دفعه إليَّ وقال : هاك قد ألبسناك الآن ، وأذِنَّا لك في الإلباس لمن شئت من المتأهلين له ، وقد تقدم منا لك الإلباس مرات ، ونرجو لك الإلباس أيضا بعد ذلك ، ونرجو أن يرزقك الله الإلباس الحقيقي ويؤهلك الله له ، هذا كلامه بلفظه ، وأرجو أن يحقق الله رجاه جزاه الله عنا أفضل الجزاء ، وقد ألبسني قبل هذا نحو ستة عشر إلباساً ، لكن لم يكن معها إذن في ذلك ، ثم قال الحبيب الحسن : صافحْه ، يعني مصافحة الخروج ، فلما صافحته دعا لي وقال : بارك الله فيك وأصلحك ، فكان هذا المجلس مع ما اشتمل عليه من المؤانسة والملاطفة والدعاء آخر مجلس لي

معه من مجالس المؤانسة ، وإلا فقد دخلت عليه بعد ذلك مراراً كثيرة وهو مستغرق بالمرض ، ولم يصف الوقت كما صفا له في هذا المجلس المذكور ، فخلَفه الله علينا وعلى كافة

(2/348)

المسلمين بخلف صالح ، وجمعنا وإياه في دار القرار ، كما جمعنا به في هذه الدار ، وقد رأيت ليلة رابع من شوال ، وذلك حين اشتد بسيدنا المرض ، وكنت قد نمت على وضوء وأتيت بأذكار النوم : كأني جالس في الصف الأول من مصلى الحاوي وهو ملآن من الناس والصفوف متضايقة جداً ، منتظرين لخروج سيدنا الحبيب نفع الله به ، يصلي بهم صلاة عشاء ليلة الجمعة ، فبينما الناس جلوس إذ جاء طائر يشبه الغراب ، يطير فجاء حتى وقع على كتفي الأيسر ، ومكث ساعة وعييت من ثقله ، فلما أحس أني عييت طار ، ووقع على الأرض بين يَدَيَّ لحظة حتى رأى أني استرحت من ثقله ، فطار ووقع على كتفي الأيمن ، وبقي ساعة ، حتى عييت منه ثم طار ووقع في الأرض بين يدي ، وإذا به قد انقلب صقراً وله خرطوم طويل كخرطوم الفيل ، مُعْوَجًّا ، وإذا له صوت يسمع كصوت الذي يتكلم ، فتسمعت له فإذا به يتكلم بكلام عربي فصيح ، فقلت له : أو تعرف أسماء الناس ، فقال : نعم ، فقلت له : ما اسمك أو ما اسم هذا الرجل لرجل كان حاضرا أشك في أيهما كان ، فقال : محمد ابن فلان فسماه باسمه واسم أبيه وجده ، فقلت له : وأنا من؟ فنظر إلي وظننت أن يقول فلان الفلاني ، [أي أحمد الحساوي] أو فلان بن فلان [أي بن عبدالكريم] فقال : أنت أحمد الشجار وما أُعْرَف بحضرموت بهذا اللقب ، وإنما ذلك في الاحساء فقط وفي حضرموت (الحساوي) ، فقلت : أترى أن أحملك إلى أولاد الحبيب يكلمونك ويعجبون منك فسكت قليلاً ، ثم قال : ما أقول لك إلا : ما لي بأحد حاجة ، ثم أردت مفارقته ، فقلت له : ادع الله لي بصلاح القلب والدين والجسم ، فقال : أصلح الله قلبك ودينك وجسمك ، فعند تمام هذه الكلمة انتبهت فظهر لي من تأويلها معنيان ، أحدهما

: أن كلام ما لم يتكلم كالطير أنه هول عظيم ، وأن الغراب غراب البين المشعر بالوفاة ، ولا أهول ولا أشنع من وفاته رضي الله عنه ، على ما سمعت من ذكر وصف بعض الحال وركوبه على كتفي حتى أعياني

(2/349)

مرتين ، مما يحقق ما يخصني من زيادة العنا بوفاته ، المبين لقوله نفع الله به : أكثر ما أنا خائف على فلان ، يعنيني لمحبته وغربته ، يعني من ألم التعب على فراقه وشدة الحزن على المصيبة به ، هذا ما ظهر لي من تعبير هذه الرؤيا .

وذكر أيضا السيد علوي بن شيخ البيتي ، من أهل الخريبة من دوعن ، أنه رأى وهو في طريق صنعاء مقبلا منها إلى حضرموت ، وذلك ليلة 27 سبع وعشرين من رمضان ، وهي ليلة ابتداء المرض بسيدنا كأن الحبيب عبد الله توفي ، وكأنه موضوع في محفة ، ورجال حاملين المحفة طائرين بها إلى السماء ، فكتم الرؤيا ولم يحك بها إلا يوم الثلاثاء ، سابع ذي القعدة وهو يوم وفاة سيدنا: حكى بها لأحد خواصه قبل أن يعلم هو ولا أهل بلده بوفاته ، ولم( ) يبلغهم الخبر بوفاته إلا يوم الجمعة في 11 ذي القعدة ، ومن العجيب أن اتفقت له هذه الرؤيا حين ابتدأ بسيدنا المرض ، وإخباره بها يوم وفاته ، وكل هذه المرائي دالة على وفاته رضي الله عنه .

وسمعت عن بعض السادة ، إنه رأى سيدنا وكأنَّ بيده أوراقاً صغاراً مطوية ، يقسمها على كل من حضر جنازته ، يعطي كل واحد واحدة ، قال : فأعطاني أنا أيضا ورقة ، ففتحتها فإذا هي بيضاء لا خط فيها ، فأولت ذلك محو الذنوب وستر العيوب .

وقد رثى سيدَنا جماعة كثيرة من جملتهم ، أولاده الأجلاء كابنه السيد الحسين رثاه بقصيدة طويلة ، وابنه السيد علوي رثاه بقصيدة ، عدد أبياتها 142 وفق عدد حروف اسم سيدنا عبد الله ، مطلعها :

أتراني أسلو بعد فقد عمادي أو أهن يوما عيشتي ورقادي

وأرسلها إليَّ من حضرموت إلى الاحساء ، فنقلتها ثم أرسلتها إلى صنوه الحبيب زين العابدين بالبصرة ، فجاءني جوابه مع قصيدة جوابا لأخيه ومرثية لأبيه عددها 40 بيتا ومطلعها:

كرر على سمعي حديث الوادي ... فلِنازليه منيزل بفؤادي

ورثاه السيد الشريف علوي بن جعفر مدهر ، ساكن غيل باوزير بقصيدة عددها 29 بيتا أولها :

(2/350)

يا عين سحي بدمع الوابل الرزم ... ... على فراق جليل القدر والشيم

وكذلك رثاه أخوه السيد الفاضل عبد الله بن جعفر مدهر، نزيل مكة المشرفة بقصيدة عددها 61 بيتا أولها :

ما للمكارم آذنت بنفاد ... ... والكون مشتمل بثوب حداد

ورثاة جماعة من أهل حضرموت وأهل الحساء ، وأرخوا وفاته في قصائدهم ، وقد جمعت ما بلغني من مرثياته ، مع ما معي من مدائحه التي أنشئت في حياته ، وقد سَمِعَ أكثرها ، وأُنْشِدَ بها في حضرته ، وتكلم عند سماع بعضها بما يتعلق بالمدح ، كقوله : (من مُدِح بفضيلة فإن مدحه يعود إلى النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم لأن فضيلته إنما جاءت عنه ، وصدرت عن النبي صلَّى الله عليه و آله وسلَّم، فمدحه يعود عليه) في كلام كثير قدمنا ذكره في هذا النقل ، وجعلْنا الجميع مع ترجمته التي من المشرع الروي مع ما زيَّد عليها السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي ، ومع راتبه وجملة أوراده وأذكاره في الصباح والمساء وبعد الصلوات وفي أوقات أخر وفي

أحوال مختلفة ، كل ذلك في مجموع ، وأضفت اليه شيئا من كلام مجالسه ، وشيئا لخصته من مكاتباته ، فصار مجموعا مجلدا ثمرا مجنيا ورطبا جنيا فيه خالصُه وزُبْدُه وعيونُه ، يسهل على المطالع ويستحظ منه السامع . والحمد لله على ما وفق وأعان ، وأمد بالعناية والبيان .

(2/351)

وحيث بلغ بنا النقل إلى ذكر وفاته رضي الله عنه ونفع به فما بعد الوفاة من كلام ، فلنقتصر منه على ما يسره الله ، وكفى به وإلا فلا نقدر على استيعاب جميع ما نقلناه من كلامه ، وهذا نزر يسير من بحر كبير ، يكفي عن كثير ، والغرض الآن أن نختم هذا النقل بفائدة حسنة ، وهي في ذكر ما كان يقرؤه في الصلوات ، من السور والآيات ، مما واظب عليه إلى أن انتقل إلى رحمة الله وقربه ، دون ما تكرر منه في أوقات دون مواظبة ، لأني أرى من نفسي ومن كل محب أن يتأثر بآثاره ، ويستضيء بأنواره ، ويتبعه في إيراده وإصداره ، لأن في اتباعه والاقتداء به ، الإتباعَ لسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، فمما كان رضي الله عنه مواظبا عليه إلى الوفاة المعوذتين في أولتي المغرب ليلة الأربعاء وليلة السبت ، ما سمعته قرأ فيهما بغيرهما قط ، وفي أولتي صلاة العشاء من ليلة الجمعة ، وأولتي عصر يومها (ألم نشرح) و (إذا جاء نصر الله) وصبح يوم الجمعة (بسبح) و (الغاشية) وقال : إن قراءتهما في صبح يوم الجمعة تنوب عن قراءة (السجدة) و(هل أتى) ، وقد كان نفع الله به أيام نشاطه يقرؤهما فيهما، وتنوب في العيد عن (ق) و (اقتربت) وكذلك فيما تعيَّن في شيء من الصلوات من السور المطولات ، فيكفيان عن ذلك ، وأما الآيات المداوم عليها إلى الممات فآية : { رَبَّنَا تَقَبَّل مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ }( ) ، { وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }( ) بعد الفاتحة في ثالثة الظهر والعصر مطلقا، وفي رابعتهما كذلك أي مطلقا : { رَبَّنَا ءَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }( ) وفي الجهرية في السكتة التي بعد

الفاتحة وقبل السورة في الأولى : { رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

(2/352)

وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ }( ) وفي الثانية : { رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }( ) وقد قال يوما : لا سكوت في الصلاة ، ويقرأ في أخيرة المغرب بعد الفاتحة : { فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ }( ) وربما قرأ فيها : { رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ }( ) وفي ثالثة العشاء بعد الفاتحة : { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وِلاِ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ ءَآمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }( ) وفي الأخيرة منها بعد الفاتحة الآية المتقدمة في المغرب : { فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } إلخ ، وفي سُنَّة الفجر (الكافرون) و (الإخلاص) : أو( ) { قُولُوا ءَآمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا }( ) الآية في الأولى و: { قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا }( ) الآية في الثانية ، وفي سنة الوضوء (الكافرون) و(الإخلاص) وكذلك في أولتي المغرب ليلتي الجمعة والإثنين ، وفي صبح يوم الأربعاء (لم يكن) و (الزلزلة) كثيرا ، وما عدا ذلك فقد يتكرر بلا مواظبة فيما نعلم .

(2/353)

ونختم هذه المجالس الشريفة بما كان سيدنا رضي الله عنه يدعو به في خاتمة مجالسه بعد الفاتحة وهو: اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وحولنا وقوتنا أبدا ما أبقيتنا ، واجعلها الوارث منا ، وانصرنا على من عادانا ،

واجعل ثأرنا علي من ظلمنا، وأرنا في العدو ثأرنا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ولا يخافك ولا يخشاك ولا يتقيك يا رب العالمين ، فإذا نهض قائما قال : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب اليك ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ، هكذا حفظته عنه من كثرة ما أسمعه يدعو به إذ ذاك فإن كان زاد أو نقص شيء أو تبدل شيء ، فهو من طول العهد بذلك ، لأني نقلته هنا من حفظي الآن ، وأرجو من فضل الله تعالى وكرمه حسن الختام ، والوفاة على الإسلام والإيمان والإحسان ، إنه الكريم المنان ، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا الحبيب النبي المرتضى ، والرسول المصطفى ، محمد وآله وصحبه أهل الفضل والوفاء ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الفصل والجزاء ، وعلينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين ، والحمد لله رب العالمين .

% % % % %

وبفضل الله سبحانه وتعالى كان هذا نهاية الجزء الثاني من كتاب تثبيت الفؤاد . فله الحمد أولاً وآخراً .

وتتميماً للفائدة ننقل ماوجدناه مكتوباً على ظهر بعض النسخ التي تمت المراجعة عليها:-

1 - الموجود على النسخة الأم ، نسخة الحبيب أحمد بن حسن الحداد :

(2/354)

وكان الفراغ من نساخة تحريره بعد صلاة الظهر من يوم الثلاثاء 19 جمادى الأولى سنة 1170 على يد العبد الفقير إلى الرب القدير، المعترف بالقصور والتقصير، الراجي لعفو الله الكريم الجواد ، الشريف أحمد بن الحسن بن عبد الله بن علوي الحداد عفا الله عنه وعن والديه وأحبابه والمسلمين ، (أي

وعمره - أي الحبيب أحمد بن حسن - إذ ذاك 44 سنة ، حيث كان وجوده في شوال سنة 1127هـ) .
وأفيدك أيها القاريء الكريم : أن الإمام المدقق الحبيب علوي بن أحمد بن حسن الحداد ، قد قرأ هذه النسخة وراجعها وحققها ، فقد وجد بخطه مايلي :- قرأ في هذا الكتاب ، تثبيت الفؤاد بذكر مجالس الحبيب عبدالله الحداد - علوي بن أحمد بن حسن بن عبدالله الحداد باعلوي أول قراءة فيه ، وثانية ، وثالثة ، على جده القطب العارف بالله الحسن بن سيدنا الغوث عبدالله ، جعل الله في ذلك البركة والعاقبة الحسنة آمين . ثم قرأ فيها الحبيب عبدالله بن علي الحداد ، وكتب مايلي :- بلغ مقابلة على الأم المنقول منها التي هي بقلم الحبيب أحمد بن الحسن بن الحبيب عبدالله الحداد حسب الطاقة والإمكان نحن والمحب المنور أحمد بن عبدالرحمن عقبة الشبامي بتاريخ 13 شهر رجب الأصب سنة 1313 هجرية . قال ذلك وكتبه الفقير إلى ربه عبدالله بن علي الحداد عفا الله عنه آمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . ثم طالع في تلك النسخة الحبيب علوي بن محمد الحداد ، وكتب مايلي :- طالع في هذا الكتاب الفقير إلى ربه الجواد ، علوي بن محمد بن طاهر بن عمر الحداد ، رزقه الله الإنتفاع بما فيه ، وغمر بفيوض المعارف واديه ، وجعله وذويه من المتبعين للحبيب الأمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الميامين . وأسأل من الواقف على هذا الكتاب أن يدعو لي بصلاح ظاهري وباطني ، وكمال الإتباع للحبيب وآله ، وكمال اليقين والتمكين ، والإنتظام في سلك الصالحين ، وبحسن الختام ، والوفاة على الإسلام .

(2/355)

فأعظم بها من نسخة ، كتبها وحررها الحبيب أحمد بن حسن الحداد ، ثم راجعها وقرأها مراراً الحبيب علوي بن أحمد بن حسن الحداد على جده الحبيب الحسن بن عبدالله الحداد ، فأكرِمْ بهم من قاريء ومستمع . ثم الحبيب عبدالله بن علي الحداد ، ثم طالع فيها الحبيب علوي بن محمد بن طاهر الحداد .
2 - الموجود على نسخة الحبيب أحمد بن عبدالرحمن الحداد :

وقد تمت المراجعة على الجزء الثاني منها ومكتوب على ظهرها :- كان الفراغ من نساخة تحريره ، ضحوة يوم الخميس 20 من شهر جمادى الآخرة سنة 1252هـ . بقلم الفقير الحقير ، راجي عفو ربه الجواد ، أحمد بن عبدالرحمن بن أحمد بن حسن بن عبدالله بن علوي الحداد . عفا الله عنه ووالديه ، آمين . وأيضاً مكتوب عليها :- بلغ بقراءة الفقير إلى مولاه ، علي بن حسن بن حسين بن أحمد الحداد ، على والده في مصلى الحاوي ، بعد صلاة العصر آخر جمادى الآخرة سنة 1254 هـ . وهي ملك الحبيب حسن بن حسين بن أحمد الحداد .
3 - الموجود على ظهر نسخة الحبيب الإمام ، حجة المتأخرين : عيدروس بن عمر الحبشي :

(2/356)

... ... وكان الفراغ من نساخة تحريره ، ضحوة يوم الثلاثاء 11 خلت من شهر رمضان المعظم من سنة 1293هـ . على يد العبد الفقير الحقير إلى مولاه ، أقل العباد : علي بن حسن بن حسين بن أحمد بن حسن بن القطب الغوث عبدالله الحداد علوي ، عفا الله عنه وعن والديه وأولاده وأجداده وأحبابه ومحبيه ، آمين . وذلك بعناية محبه وخلاصته ، الموفق عمر بن أحمد عبادي بنذياب ، كان الله له عونا ومعينا ، ووفقه لما يرضيه ويرتضيه ربُّ العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . ثم انتقل هذا الكتاب إلى ملك إبراهيم بن عمر بن أحمد بن عبدالله عبادي بنذياب ، خاص له . وابراهيم بن عمر المذكور قد وهب هذا الكتاب بالهبة الصحيحة لسيدنا وبركتنا الحبيب القدوة البركة عيدروس بن عمر بن عيدروس الحبشي ، وصار ملكاً من أملاكه ، تقبل الله ذلك بمنه وكرمه،آمين. وذلك بتاريخ يوم الاثنين 26 خلت من شهر جمادى الأولى سنة 1301هـ . ثم صار إلى ملك الفقير إلى مولاه محمد بن عيدروس بن عمر الحبشي ، عفا الله عنه .
... وعلى النسخة المذكورة أيضاً : تشرف وسعد إن شاء الله تعالى بمطالعة هذا السفر الجليل وسماعه ، العبد الحقير علي بن محمد بن عيدروس الحبشي ،

وأنهى قراءته في شهر ربيع الأول سنة 1365هـ ، رزقه الله كمال محبة قائله ، والانتظام في سلكه ، آمين . ثم انتقل إلى ملك الفقير عبدالله بن عبدالقادر بن أحمد الحداد ، مشترى من الأخ علي بن محمد بن عيدروس الحبشي . اهـ.
....

(2/357)

... ونحمد الله سبحانه وتعالى أن مَنَّ علينا ووفقنا لقراءة هذا السفر المبارك ، وبذل الجهد لمراجعته على النسخ التي ذكرناها ، وانتهى بنا المطاف على أن يكون الضبط والتحقيق على نسخة الحبيب أحمد بن حسن بن عبدالله الحداد (النسخة الأم) ، وهي النسخة التي حققها الحبيب علوي بن أحمد بن حسن الحداد ، حيث وجدناها في قمة الضبط ، ومهمشة بفوائد وتدقيقات من قبل الحبيب أحمد بن حسن نفسه ، وعليها عناوين المقالات . وتلك النسخة هي التي وجدت عند الحبيب البركة أبي بكر العطاس بن عبدالله بن علوي الحبشي ، حيث تكرم بها علينا في آخر أيام حياته ، فجزاه الله خير الجزاء ، وقد كان انتقاله [أي الحبيب أبي بكر العطاس] إلى الدار الآخرة يوم الأربعاء 29 من شهر رجب عام 1416 هـ . فرحمه الله رحمة الأبرار .

... كما قام بتخريج بعض الأحاديث ، وتوضيح معنى بعض الألفاظ الدارجة ، وإسناد بعض الأبيات التي يستشهد بها إلى قائلها - السيد عبداللاه بن علي الحبشي ، فجزاه الله خيراً .

... كما تشرف وقام بنساخة السفر ، ومزيد المراجعة السيد عدنان بن يحيى بن أحمد العيدروس .

... وكان الوقت المخصص للمراجعة والقراءة ، هو مابين صلاة الصبح إلى الإشراق من كل يوم إلا يوم الجمعة . وكانت المراجعة بمساعدة ومجهود كل من الشيخ المحب محمد بن سالم بن عبدالله الخطيب ، والشيخ المحب أبي بكر بن زين بن أبي بكر الراقي بافضل . وقد استغرقت المراجعة قُرابة الخمس سنوات .

... ومن الجدير بالذكر : أن بعض الألفاظ تم إيرادها

كما وجدت بالأم ، لا كما ينبغي من حيث حركات الإعراب . كما أن هناك جُمَلاً تعد بالأصابع لم يتوضح لنا معناها ، فأثبتناها كما هي بالأم . ونلتمس من كل من يجد ملاحظة نحو المراجعة من كل ما ينسب إلينا أن يفيدنا عنها مشكوراً .

(2/358)

... نسأل الباري جلَّتْ عظمته : أن يتقبل منا وأن يعفو عنا بمحض الفضل والجود والكرم ، وأن ينفعنا ويدخلنا في دائرة الإمام الحداد ، وأن يكفر عنا السيئات ، ويرزقنا كمال الاتباع للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يشمل بالمغفرة والدينا وأحبابنا وذريتنا وجميع المسلمين ، وأن يعم نشر هذا الكتاب في أرجاء المعمورة ليعم به النفع إنه سميع مجيب. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . والحمد لله رب العالمين .
المشرف على المراجعة الفقير إلى الله الملك القدوس : يحيى بن أحمد بن عبدالباري العيدروس، عفا الله عنه . حرر في جدة صبح يوم الخميس السابع من ذي القعدة من عام 1418هـ. ومن يُمن الطالع أن هذا اليوم يوافق يوم وفاة الحبيب عبدالله بن علوي الحداد ، حيث كان انتقاله في السابع من ذي القعدة من عام 1132 هـ - أي قبل حوالي 286 سنة - نفعنا الله به في الدارين آمين . والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(2/359)

فهرس الجزء الثاني حسب العناوين

(2/362)

(2/363)
